الحكم والأخلاق في منطق الثورة الحسينية

تأليف: محمد شعاع فاخر

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة على محمد وآله الطاهرين.

المقدمة

وامتدت واقعة كربلاء هذا الزمن الطويل واستغرقت الحقب والآباد وشاخت الدهور ونضبت العصور وما زالت كما وقعت غضة جديدة.

بل زادت رنة اسىً وعبرة عينٍ وعِبْرة عقل على يوم وقوعها اضعافاً مضاعفة فما كانت في العام الواحد والستين تخرق الدنيا مواكبها ويكتض الفضاء على اتساعه بحناجر الهاتفين بحياة شهدائها ودمار أعدائهم.

وما كانت تكسو الدنيا بلون السواد وثياب الحداد إذا بدا هلال محرمها.. وما كانت عواصم العالم ومنها عواصم ما كانت موجودة ابان وقوعها تفتح ذراعيها لكتائب عزائها.

لقد كانت آنذاك عبارة عن أنّه مكلوم ودمعة أسير وآهة يتيم ورنة اسىً هنا وهناك. وصوت نادم على فوات الفرصة تتردد حسراته مابين جنبه والطباق أن لا يكون شارك وفاز فوزاً عظيماً معهم.

وكانت أيضاً قطعة شعر يقولها ثائر مستنهضاً الهمم ومستثيراً العزائم على بني امية.

تبيت النشاوى من امية نوماً وفي الطف قتلى ماينام حميمها

وأمثال ذلك.

فما الذي فجّر العالم بها وشغل البشر عن كل شيء إلاّ عنها وتهافت الناس على أيامها يستعيدون ذكراها بمختلف الأساليب وهنا تستوقف الباحث هذه البؤرة التي تجتمع الحقائق عندها كاجتماع الأشعة في العدسة الزجاجيّة.

يقف متسائلاً وضارباً العلل والاسباب بعضها بالبعض الآخر ليستخرج السبب الحقيقي الذي تطمئن إليه النفس ويرتاح الضمير ويخلد العقل إلى بلوغ الحقيقة ولن يعرف السبب الواقعي إلاّ برد المسئلة إلى المشيئة الربانية.

لأن الأسباب جميعها تعقم وتعلن الافلاس أمام هذا الامتداد الغريب ولا يصمد أمام البحث إلاّ السبب الرباني إن واقعة كربلاء مشيئة ربانيّة اقتضتها حكمة الله أن تكون بأزاء القرآن والشريعة فاعلة في الأُمة فعلهما باعثة الأمة من كبوتها حاملة لها على التنكر لواقعها المفروض عليها من القوى المتعالية ومراكز الانظمة المستبدة.

وما كانت هذه الواقعة حالاً تحول ولا قوة تزول إذ أنّها ارتبطت بديموميّة الكتاب وخلود الشريعة وبقاء الدين ممتداً على الزمن كله.

وما دامت هذه العناصر خالدة ومادام الإنسان بحاجة إليها ومادام النسخ لا يأتي عليها فالواقعة الكربلائية أو الثورة الحسينية باقية أبداً أو تزول العناصر المتقدّمة وفي عثورنا على السبب الواقعي نكون وقفنا على أصل الواقعة وحقيقتها الجوهرية ولم نقنع بالعوارض كبعض الباحثين الذي عرفوا شيئاً وغابت عنهم أشياء.

إنّ حقيقة هذه الثورة ليست الحرب وإن كانت شرسة غير متكافئة ففي طرف سبعون وفي الطرف الآخر سبعون ألفاً.

واحتضنت ساعات الحرب على أديم كربلاء كل خُلق فاضل ارتفع بالانسان إلي مصاف الملائكة ويعزى إلى طرف السبعين ونقيضه كل خلق سافل هبط بالانسان إلى حضيض البهيمية ويعزى إلى السبعين ألفاً.

فكانت بطرفيها المتجادلين جدال المادة والمعنى جدال النورانيّة والظلمانيّة جدال التراب والروح اختصاراً للحياة البشرية ماضيها وحاضرها ومستقبلها أجل كما ينجم عن تنازع الزوجيّة في الكون ولادة حياة جديدة ليستمر بها الوجود نجم عن تنازع التضاد بين الفاضل والسافل لهيب الشهادة الحسينية ليستمر فاعلاً في الثورات ممداً كل نهضة وكل حركة بزخمها الجهادي الفاعل وقوام بقائها وسر انتصارها.

خلا أن الغاية من هذه الواقعة الخالدة ليست في حربها التي جمعت اسرار حروب الارض على قصر مدتها ولا في حوارها التاريخي بين أطرافها ولا في مردودها النفسي من الأسى واللوعة عند الأُمة ولكن حقيقة هذه الثورة شهادة شهدائها فهي المطلوبة على التحقيق.

لقد تركبت العلل وامتزجت الأسباب واطّردت الاحداث وتعلقت حدثاً بعد حدث لتخرج للوجود شهادة الحسين وأهل بيته وأنصاره وإذا اردت عمق النظرة فإنّ

الحسين شأنه شأن المقدسين من اسلافه الأنبياء والأئمة خلق لا ليقاتل بل ليقتل.

مطلوب من الحسين عليه السلام شهادته بالكيفيّة المعهودة والطريقة الممهدة في كربلاء ولو أنّه عمل على اقتطاف النصر وترك ميدان الشهادة كما أُشير عليه من قبل الأهل والغرباء لكان عاملاً بغير ما أعد له.

مهما حاول ومهما فعل فإن أمانة الله عنده هي شهادته ومطلوب منه تأديتها على أديم كربلاء وحيئنذ لا يبقى وجه لقول القائل لم فعل ولم لم يفعل لقد فعل ما أراد الله منه وترك ما أراده الناس اراد منه الناس أن يبايع أن يسالم كأخيه أن يبقى في البلد الحرام أن يذهب إلى اليمن أن يلتحق بالثغور أن.. أن.. أن.. إلى غير ذلك وأراد الله منه أن يستشهد فعمل بإرادة الله وترك إرادة الناس وهذا العمل جزء من برنامج امامته ولولاه لبطلت وكان كغيره من سائر الناس.

وكان قول من قال: خرج ليعيد دولتهم وخلافتهم ويستل حقهم من ايدي الأُمويين كالهبائة في عصف الريح إنّ هذا الرأي تكبيل للثورة الحسينية وتحديد لانطلاقتها الانسانية الكبرى وقصر لها على المفهوم المذهبي ثمّ هو بعد مطمح يتدنّى إلى مستويات العباقرة العاديين والزعماء ذوي الاطماع المحدودة.

على أن هذا الرأي لا يسيء إلى الثورة بقدر ما يحدد عوالمها وربما ذهب إليه الأولياء أيضاً بحكم أن استرداد الحق أمر مرغوب فيه شرعاً وأدباً وخلقاً وعرفاً بل السكوت عنه مع القدرة على التغيير بوجه من الوجوه مخلٌ بالشخصية ناسب إليها الوهن والإهتزاز.

ومهما كانت الحال فإن قصر الثورة الحسينية على هذا الهدف بمنزلة وضع الشمس في لسان شمعة كلا لم يثر أبو الاحرار لأهداف في النفس محدودة وغايات شخصيّة صغيرة.. أنّه ثار من أجل الإنسانيّة لكي يحميها من الظلم والأثرة والاستبداد وانانيات الحكام وتعسفهم واسائتهم إلى الجنس البشري بأحالة وطنه عليه إلى حضائر كالمواشي والدواجن.

الحسين عليه السلام ثار لئلاّ يكون الإنسان داجناً وليظل طليقاً في عالم انسانيّته يستلهم من ملكانة وقابليّاته مقومات حضارته.

وأخيراً ثار الحسين لتغيير نظام الأخلاق الدولية الأخلاق التي صنعتها له

الدولة بسلوكيّات الحكم وطرائق الحكام لا بالقصد لذلك.

الإنسان في الثورة الحسينية بمنزلة القالب الذي تتقولب فيه ظروف حياته فلابدّ من تحسين هذه الظروف لتحسين وضعه النفسي وضميره الأدبي ومن ثم بسري الحسن والكمال إلى ساير أجزاء حياته.

وفي مسير الإسلام منذ والبدء إلى اعلان الثورة الحسينية عايش الإنسان المسلم فترات صعبة احدثت فيه انقلابات داخلية ففي فترة الإسلام بلغ الغاية من سموا الأخلاق حتى ضارع المخلوقات النورانيّة وفي فترة الخلافة تدنّى مستواه الأخلاقي حتّى تجاوز خطوط الجاهليّة الأُولى والمشكلة في الإنسان المسلم أنّه ليس لنفسه فحسب بل هو لغيره أيضاً (خير أمة أخرجت للناس) فإذا تدنّى مستواه الأدبي تدنّى مستوى الدعوة كذلك.

والإنسان المسلم هو التربة المخصّبة الذي ينمو به غراس الإسلام فإذا لم يكن خصباً أو سائت ظروفه أو تغيّرت أحكام المناخ عنده لم يؤتِ غراسه المأمول منه ولم ينتج ثمرته المطلوبة وكان الإنسان المسلم في ظل الحكم غير الصالح مصادراً بكل معنى الكلمة يشعر بالتبعية للحكم حتّى فيما يعود إليه من سلوكيّات يفعلها مختاراً أو الإفعال التي خلّى له الحكم الحريّة في ممارستها وفي حالة استيلاء هذا الشعور عليه ينسى ذاته وما أعد له ويسرح في دوّامة التبعية ويلغي الكلفة عن نفسه ليرمي بها في عاتق الدولة وحجّته أن ما يجوز فعله للدولة وضرره عام كيف يحضر عليه وضرره خاص به وعملية التغيير هذه جرت داخلياً للإنسان المسلم بعد وفاة النبي وعبر القران عنها بالإنقلاب على الأعقاب وأول صدمة تغيير ناء بها الإنسان المسلم هي حروب الردة فقد تجاوزت اعراف الحروف وخرجت على قوانين الأحكام العرفية قاطبة فلم يعط الإنسان المسلم مجال التفكير فيها فقد حدثت بعد وفاة النبي صلى الله عليه وآله وسلم بعشرة أيام وهي مدّة لا يمكن تمييز الارتداد فيها عن الاستقامة وارتكبت فيها مجازر رهيبة إلى حد الأحراق في الأخاديد.

وفي هذه الحرب بدأت عملية الانفصال بين المسلم وبين القيم الإسلامية واستمر التدهور إلاّ أنّه بصورة بطيئة لا تكاد تلحظ إلاّ بشيء من الأمعان والتدقيق حتى آل الأمر بفعل السابقين وتمهيدهم إلى أن يستولي معاوية على الحكم.

وبدأ الإنقلاب الحقيقي وتمت غيبوبة الإسلام في نفس الفرد المسلم تحت ذلك الحكم، حتّى عدّ ضمن المسوخ الذين جرّدوا من خصائص الإنسانيّة، ولم يكن تغيير هذا الوضع المستبد والحالة العامة الراهنة إلاّ بعودة الإسلام ونبيه وعودة أعوانه في رجعة كاملة لا تدع من فصول الملحمة الأُولى فصلاً إلاّ رجع سيرته الأُولى. ثمّ يبدأ الحذر من تسرب الحكم الأناني الجاهل إلى عالم الإسلام وتفويت الفرصة عليه. وهذا مستحيل طبعاً وعادة.

أو الأُخرى وهي تصدي شخصية كبرى من شخصيّات الوحي لأحداث هزّة ضمير عنيفة كالزلزال ليستيقض الإنسان المسلم من غفوته الاصطناعية ثم صنع مشاعر فاضلة له من خلال عملية جهاد مختومة بشهادة فاجعة ذات وجهين الأول: تحمل الشهيد اقسى الآلام التي يستطيع أن يتفاداها بميل بسيط مع السلطان كالبيعة مثلاً.

الثاني عدوانيّة السلطة وجنودها وتناهيهم في خسة الطباع وروح العار والضعة والقسوة والدنانة.

وكان لابدّ من هذا الزلزال كبديل عما أحال الطبع والعادة جريانه.

واختار الحسين ذلك البديل بأمر الله وبطلب وأعداد منه سبحانه فكانت شهادته بالكيفيّة التي رسمتها خارطة كربلاء.

وهذا الكتاب يتناول المعنى المتقدم باسهاب ويجلو كثيراً من الغوامض ويحيط بالثورة الحسينية من أطرافها كافة ويصطحب الاحداث بدءاً من عملية الإنقلاب على الاعقاب ومروراً بالحكم الأموي المتعسف وختاماً بالمنشور الأخلاقي الحسيني لصنع الثورات المستقبلية.

واحسبني وفقت في اختيار منهج الكتاب وسيطلع عليه القارئ خلال مطالعته إن شاء الله.

لولا أني لم اقتصر على موضع الشاهد في الرواية أو الحكاية أو الخبر والحادثة التاريخية والنكتة الادبية وإنما تجاوزت ذلك بسردها كاملة. والسبب يعود أولاً إلى أني اعددت الكتاب لأخواني الخطباء والخطيب بحاجة إلى إثراء موضوعه بكل شهي ممتع تام ثم هو يعد يوفر للقارئ متعة المطالعة ويعطيه فسحة في الوقت حيث

يوفر عليه عناء الرجوع إلى المصادر.

ولا أراني بحاجة إلى تذكير القارئ العزيز بالعفو عما يصادف في الكتاب من أقوال تدعو إلى تركها من قبيل نماذج السياق أو قول أبي حمزة الشاري عن يزيد ومثله قول عبدالملك عنه وما تبع ذلك من أقوال تكشف عن المستوى الأخلاقي الضحل للأمويين أقول: إن ذلك لابدّ منه لأننا بصدد رسم صورة حقيقية لمجتمع ذلك العصر الذي كانت ثورة الحسين عليه السلام عليه.

وبصدد وضع خطوط مائزة بين ما حدث من مجانبة للخلق الإسلامي القويم وبعد عن تعاليمه الكريمة وما ينبغي أن يكون عليه المسلم من التحلي بآداب الإسلام وأخلاقه ولا يتم ذلك إلاّ برفع الستار عن الواقع وهذا ما جرى منا.

بقيت مسئلة أخرى مهمة أشار إليها غير واحد من اخوتنا أهل الولاء وفيها لوم كثير عليّ بأني اعرض عن المصادر الشيعية مع توفرها وتوسعها في ميادين المعرفة بمختلف آفاقها وأكثر الاستدلال بغيرها من مصادر الخصوم. وأقول لهم شاكراً حسن إرشادهم وعظيم توجههم وعنايتهم بالمراجع الخاصة بنا: إني في مقام الإحتجاج للشيعة على غيرهم ولا موضع هنا لذكر مصادرهم إذ الحجّة لا تكون بها على الخصم إنما نذكرها فيما يتعلق بها من المواضيع الخاصة لنكون بمنأىً عن اتهام ابن حزم لقومه بقوله: إننافي مقام الإحتجاج على الشيعة نحتج بكتبنا وهذا مجانب للإنصاف[1].

اجل نحن لا نجانب الانصاف في احتجاجنا عليهم بمراجعنا بل نحتج بمراجعهم وكتبهم الموثقة عندهم فما قولهم بعد ذلك وما تقوّلهم علينا؟! وتبقى لكتبنا ومراجعنا مكانتها الخاصة وقيمتها العلمية وهي باستثناء الإخراج الفني أتم وأفضل من كتب الخصم وما تركناها إلاّ لأتمام الحجة وأخيراً لا آخراً أقول:

إنّ كتابي هذا إمتداد لسابقة الحسين مأتم الإسلام الذي هو بمثابة المقدّمة له ولما يأتي بعده إن شاء الله تعالى. ولكنّه إمتداد مستقلّ وآثرت الإسم: (الحكم والأخلاق في منطق الثورة الحسينية) لأن الإسم تبع للموضوع وهذا الإسم أكثر

---

(١) يقول ابن حزم في الفصل: لا معنى لاحتجاجنا عليهم بروايانا (الفصل ج٤ ص١٥٩).

إنطباقاً على موضوع الكتاب من ذاك وسواء غيرنا الإسم أو لا فاته لا يعدو حبة الرمل على المحيط الحسيني الزاخر بالخير والمعرفة وهو كمؤلفه يمديد الضراعة لله أن يتقبله بأحسن القبول ويبلغه مولانا سيد الشهداء ولي النعم لعلّه يكون سبباً اكيداً لتأصيل العلقة المنبرية بسيّد الشهداء وتقدمة بين يدي المؤلف لحصول الشفاعة لنا منه عليه السلام وأود قبل الختام أن انوه بجهود أخي الناشر أبي زينب صاحب الرحلة الطويلة الموفقة مع التأليف والمؤلفين شاكراً له جزيل الشكر وفقه الله وسدده. والحمد لله أولاً وآخراً.

محمد شعاع فاخر

الامام الحسين عليه السلام وقلب نظام الأخلاق

تميزت واقعة كربلاء بظاهرة فريدة من نوعها ليس لها مثيل في حوادث الزمان الاخرى من قبل ومن بعد.

ذلك أنّها اصبحت بعد حدوثها مضماراً للعقول، تتسابق فيه. مستنبطة لها العلل والاسباب.

فمن سابق بلغ الحق او كاد ومن مصلّ جاء على الأثر ومن كاب في شوطه فاتته الغاية. ومن متكهن آثر الظنون والاوهام على الحقائق الناصعة.

ويبقى الحق في الحادثة حيث هو متلألأً في رائعة العقول تلالأ الشمس في رائعة الضحى والبشرية باجمعها امس واليوم. تحوم حول الواقعة العظمى بحثاً عن الحق المنشود..

وقل من وفق لنيله من ابنائها ...

لأن هناك حجباً كثيفة تحول بين الحق وطالبه. فما لم يتمّ تجاوزها لن تكحل مقلة برؤيته ابداً.

وحديث هذه الحجب شجون.

فمنها حجب تعود إلى الوراثات العقائديّة أو الوراثات الجنسية. أو الأخوى المتلبسة بلباس العلم.

ورب باحث يضطرب في اغلال هذه الوراثات ويتقلب في شراكها. ويحسب نفسه طليقاً يجوس خلال ديار الحق بحريّة موهومة.

ومن هذا المنطلق تباينت آراء العلماء والباحثين في الحادثة تبايناً كبيراً.

ولن يستطيع باحث مهما أُوتي من قوّة العلم التوفيق بين هذه الآراء المتباينة.

... ومن الثابت عند العلماء، أنّ تباين الآراء في البشر أمر طبيعي تمليه الجبلة عليهم. وخلق فطري مركوز في طباعهم.

وما كان بهذا المستوى من طبايع البشر. يستحيل علاجه وان خفّف التحضر من غلوائه.

ما اتّفق اثنان من البشر اتفاقاً كلّياً حقيقياً حذو النعل بالنعل. في يوم من الأيام. وما يشاهد من الاتفاق عند هؤلاء أو اولئك. فليس اتفاقاً على نحو الحقيقة بل لابدّ من حمل أحد طرفيه التسليم والخضوع للطرف الآخر.

ويعود ذلك لأسباب تفرضه فرضاً لا يدع للأختيار مجالاً.

وقد يكون من هذه الأسباب ما يعود للقوة المسيطرة أو العقيدة الموروثة أو غيرهما. ويكون الرأي في مثل هذا المناخ منسوباً إلى طرف والاتباع والتسليم إلى الطرف الآخر. على أنّ الحق في مثل هذه الحالات من نصيب قوم تجرّدوا من القيود الموروثة واستطالوا على الحدود المصطنعة وانعتقوا من الحجب المفتعلة. فبلغوا شطئانه بثقة واطمئنان وفازوا فوزاً عظيماً بالراحة الكبرى والنعيم المقيم. أعنى بلوغ الحق والركون اليه.

وبقي اولئك المحجوبون يتلدّدون في المسالك المظلمة والدروب الضالّة.. يرون اتّفاقهم على رأي ما هو الحق المبين ولو لا انحياز الحق إلى جماعتهم لما تمّ لهم هذا الاتفاق ولما حصل الاجماع بينهم..!!؟ هكذا يُخيّل لهم.

ونحن تحملنا قضيّة تباين الآراء على الارتياب بما نرى من شبه الاتفاق الذي تعلنه بعض الطوائف والجماعات حول بعض القضايا ...

وينبغي على من أراد اكتشاف ما وراء الاتفاق المدّعى أن لا يقنع بالظاهر المعلن حتّى يستجلى الحقيقة بسبر جميع الآراء والأسباب التي أوجدتها وسوف يعثر على آراء مضادّة لهذا الاتّفاق حتماً وإنما بقيت طيّ الكتمان ولم يعلن عنها لوجود قوّة قاهرة ظلّت إلى جانب الاتّفاق المعلن ترعاه وتقيم أوده. ونقول عوداً على بدء إنّ الاتفاق الحقيقي مستحيل بين البشر قاطبة.

فإذا ثبت لنا ذلك، عرفنا السبب في تفرق الآراء عند المؤرخين والرواة والعلماء حول النهضة الحسينية المباركة.

فقد توزّعت الآراء على مساحة كبيرة من الزمن واختلفت من العدو والصديق.

والغريب حقاً أن نعثر على أقوال تافهة من الأولياء باعثها الجهل أو الحكم

المتسرع ممّا يحز في النفس ويبعث على الأسى والدهشة ومن هذه الآراء رأي فج ردّده أمس واليوم كثيرمن الناس وجرت به الأقلام وتلوّثت الطروس. وهو الرأي القائل: ان غرض الحسين من نهضته وباعثه على ثورته. هو استعادة حقّه المغتصب وليس في ذلك غضاضة عليه وان ادّى إلى قتله واستباحة حرمه لأن سكوت المرىء عن حقّه لا تقرّه شريعة من الشرايع. بُلة شريعة الإسلام وإن جرّ ذلك إلى تلف النفس وحرب المال.

والحسين عليه السلام عمل بالمشروع المباح وهذا الرأي وإن كانت له نسبة بالحق إلاّ أنّه صغير جدّاً يضيق مداه عن استيعاب حقيقة النهضة الحسينية وهو سطحي أيضاً يدلّ على جهل ذوبة بالاهداف الحسينية عند معاصريه أو من جاء بعدهم والواقع إن إستعادة الحق السليب امرٌ مرغوب فيه خلا إنّ ثورة الحسين عليه السلام لم تكن من أجله إطلاقاً ونحن بعون الله سوف نحاول في البحوث القادمة الألمام بالهدف الأكبر الذي ثار من أجله الحسين عليه السلام .

الحقيقة ورأي الناس

في أول حركة وضع فيها الأمام قدمه خارج دائرة الوضع العام أخذ الناس يتكهنون بما يضمر الإمام عليه السلام من أهداف ولم تتعدّ نظرتهم ساعئذ نطاق (المطالبة بالحق السليب) واسترجاع الخلافة المغصبة وأنّ هذه الحركة التي بدأت بالهجرة من المدينة ليومين بقيا من رجب[1] إن هي الاثورة معلنة على الملك الأموي لاسترجاع الحق العلوي ومن منطلق هذا التخرص راح الناهوون يحاورونه من أمثال عبدالله بن عمرو عبدالله بن مطيع العدوي والفرزدق الشاعر وغيرهم.

وربما بدى جانب من هذا على لسان عبدالله ابن عباس واخيه محمد أيضاً وهما يحاورانه في وجوب الانصراف عن عزمه على هذا السفر وممّا يؤكّد هذا الجانب فقرات الكتاب الذي ارسله يزيد إلى ابن عباس وفيه اتهام للحسين باعداد العدّة لقلب نظام الملك الأموي (يمنونه الخلافة ويمنيهم الأمره).

---

(١) محمد السماوي، تواريخ المعصومين، ط مطبعة الزمان بغداد ١٣٦٦، ص٤٣.

ولم ينف ابن عباس رضي الله عنه هذا الاتهام ممّا يدلّ على قبوله وتصديقه به وانظر الكتاب وجواب ابن عباس عليه.

كتاب يزيد إلى ابن عباس

(ولما نزل الحسين عليه السلام مكة كتب يزيد إلى ابن عباس:.. أمّا بعد فإن ابن عمّك حسيناً وعدو الله بن الزبير التويا ببيعتي ولحقا بمكّة مرصدين للفتنة معرّضين انفسهما للهلكة فأمّا ابن الزبير فإنّه صريع الفنا وقتيل السيف غداً وأما الحسين فقد أحببت الاعذار إليكم أهل البيت مما كان منه وقد بلغني أنّ رجالاً من شيعته من أهل العراق يكاتبونه ويكاتبهم ويمنونه الخلافة ويمنّيهم الأمرة وقد تعلمون ما بيني وبينكم من الوصلة وعظيم الحرمة ونتايج الأرحام وقد قطع ذلك الحسين وبتّه وأنت زعيم أهل بيتك، وسيد أهل بلادك، فالقه فارددة عن السعي في الفرقة وردّ هذه الأمة الى الفتنة فإن قبل منك، وأناب إليك، فله عندي الأمان والكرامة الواسعة وأجرى عليه ما كان أبي يجريه على أخيه وإن طلب الزيادة اضمن له ما أراد الله انفذ ضمانك، وأقوم له بذلك وله عليّ الايمان المغلظة والمواثيق المؤكّدة بما تطمئن به نفسه ويعتمد في كل الأمور عليه عجّل بجواب كتابي وبكل حاجة لك إلي وقبلي والسلام.

جواب بن عباس له

فكتب ابن عباس له: أما بعد فقد ورد كتابك تذكر فيه لحاق الحسين وابن الزبير بمكّة فأمّا ابن الزبير فرجل منقطع عنا برأيه وهواه يكاتمنا مع ذلك اضغاناً يسرّها في صدره يوري علينا وري الزناد لا فكّ الله اسيرها فرَ في أمره ما أنت راء.

وأمّا الحسين فأنّه لما نزل مكة وترك حرم جدّه ومنازل آبائه سئلته عن مقدمه فأخبرني أن عمالك بالمدينة أسائوا إليه وعجلوا بالكلام الفاحش فأقبل إلى حرم الله مستجيراً به.

وسألقاه فيما أشرت إليه ولن ادع النصيحة فيما يجمع الله به الكلمة ويطفى به

النائرة ويخمد به الفتنة ويحقن به دماء الأمة فاتق الله في السر والعلانية ولا تبيتن ليلة وأنت تريد لمسلم غائلة ولا ترصده بمظلمة ولا تحفر له مهواة فكم من حافر لغيره حفراً وقع فيه وكم من مؤمل أملاً لم يؤت امله وخذ حظك من تلاوة القرآن ونشر السنّة وعليك بالصيام ولا تشغلك عنهما ملاهي الدنيا وأباطيلها فإن كل ما اشتغلت به عن الله يضرّ ويفنى وكلّ ما اشتغلت به من اسباب الآخرة ينفع ويبقى والسلام ...[1]

ولابن عمر موقف لا يختلف جوهراً عما حواه كتاب يزيد لعنه الله وتكرر ذلك منه فقد نهاه عن الخروج إلى مكّة يقول صاحب كتاب تذكرة خواص الأُمة.

.. ولما بلغ عبدالله بن عمر ما عزم عليه الحسين دخل عليه بنفر فلامه ووبّخه ونهاه عن المسير وقال له يا أبا عبدالله سمعت جدّك رسول الله ﷺ يقول: مالي وللدنيا وما للدنيا ومالي وأنت بضعة منه وذكر له نحواً مما ذكر بن عباس فلمّا رآه مصرّاً على المسير قبّل مابين عينيه وبكى وقال: ... استودعك الله من قتيل..[2]

وكذلك اعترض طريقه وهو يؤم العراق خارجاً من مكّة وذلك حين بلغه وهو بماء له أن الحسين بن علي توجّه إلى العراق فلحقه على مسيرة يومين أو ثلاثة فقال له: إلى أين فقال له:

هذه كتب أهل العراق وبيعتهم فقال له: لا تفعل فأبى فقال له ابن عمر أنّ جبرئيل أتى النبي فخيّره بين الدنيا والآخرة فاختار الآخرة ولم يختر الدنيا وإنّكم بضعة من رسول الله ﷺ كذلك يريد منكم. فأبى فاعتنقه، وقال: استودعك الله والسلام[3].

ما كان يدور بخلد ابن عمر سوى الدنيا.

إنّه يعتقد بخروج الحسين عليه السلام من أجل الدنيا وحدها وكأنّه لا يرى بام عينيه ما ينزل بنو اميّة بالأمة من الويل والدمار.

---

(١) راجع حول الكتابين، تذكرة خواص الامة، ص١٣٧.

(٢) تذكرة خواص الأمة، ص١٣٧.

(٣) تذكرة خواص الأمة، ص١٥٠، وأنساب الأشراف، ج٣ ص٣٧٥.

والمعروف عن المؤرخين تصنيفه في صفوف المعارضين لحكم يزيد ولكن الواقع يحكي لنا خلاف ذلك، فقد استطاع معاوية تذليل صعبه وأخذ بيعته برضيخة من المال قليلة لا تعدل ثمن جارية من مغنيات يزيد.

يقول صاحب الكامل: فلما مات زياد عزم معاوية على البيعة لابنه يزيد فأرسل إلى عبدالله بن عمر مائة الف درهم فقبلها فلما ذكر البيعة ليزيد قال ابن عمر: هذا ما أراد إنّ ديني عندي أُذن لرخيص، وامتنع.

أبهم المؤرخ فلم يُشر إلى وجه امتناعه هل امتنع من البيعة أو أخذ المال؟!

واحسب أن الإيهام جاء لغرض في نفس المؤرخ أو الراوي إذا نزهنا ابن الأثير من التصرّف بالنص ليحمل القارئ أو السامع على فهم الامتناع عنهما معاً ولا استبعد أن تكون كلمة (امتنع) اضيفت إلى النص بآخرة بخاصة إذا عرفنا أن النصوص الأخرى تخلو منها فهذا ابن سعد لم يذكرها في روايته بل اقتصر على قول ابن عمر: أرى ذاك اراد إن ديني عندي أُذن لرخيص..[1].

والواقع إنّ ابن عمر فعل الاثنين أي أخذ المال وبايع وليس هذا أول مال يأخذه من معاويه بل تتابعت الرضائخ الماليّة والبدر السمينة من معاوية له ولغيره.

وذكر ابن الأثير أن ابن عمر بايع ليزيد سراً ولكنّه نسبه إلى القيل. قال: وقيل: إن ابن عمر قال لمعاوية: ابايعك على أني ادخل فيما يجتمع عليه الأمة فوالله لو اجتمعت على عبد حبشيّ لدخلت معها ثمّ عاد إلى منزله فاغلق بابه ولم يأذن لأحد[2].

وهذا الموقف يقتضينا مسائلة ابن عمر عن مدلول الأمة عنده فهل هم أهل الشام وحدهم؟ أو أنّها تنطبق على الجميع من دون استثناء فإن كان الثاني، فما باله وقف في الطرف المضاد لأهل المدينة حين خلعوا يزيد في وقعة الحرة.. قال ابن سعد: إن ابن عمر لما ابتز أهل المدينة يزيد ابن معاوية وخلعوه دعا عبدالله بن عمر

---

(١) ابن سعد، الطبقات، ج٤ ص١٨٢.

(٢) ابن الأثير، الكامل، ج٣ ص١٥٢.

بنيه وجمعهم فقال:

.. إنا بايعنا هذا الرجل على بيع الله ورسوله وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول:

إن الغادر ينصب له لواء يوم القيامة فيقول: هذه غدرة فلان وإن من أعظم الغدر ألا أن يكون الشرك بالله أن يبايع رجل رجلاً على بيع الله ورسوله ﷺ ثمّ ينكث بيعته، فلا يخلعنّ أحد منكم يزيد ولا يُسرعنّ أحد منكم في هذا الأمر فتكون الصيلم بيني وبينه..[1].

لم يخذل ابن عمر الثائرين على يزيد فحسب بل نسبهم إلى الغدر وحمّلهم بعض ألويته يوم القيامة والأنكى من ذلك حقاً أنّه اعتبر الثورة على يزيد من اعظم الغدر وهو ثاني الشرك بالله سبحانه عنده وهذا الموقف يعتبر اعظم مساندة حظى بها يزيد من رجل كابن عمر.

وممّا يدعوا الباحث إلى الحيرة ان ابن عمر كان يعد نفسه رجلاً من أهل المدينة يورد إذا أوردوا ويصدر إذا أصدروا فما باله انفرد اليوم عنهم بهذا الموقف الغريب؟!

بعث الإمام اميرالمؤمنين عليه السلام كميلاً النخعي إلى عبدالله بن عمر فجاء به فقال انهض معي فقال: انا مع أهل المدينة إنما أنا رجل منهم وقد دخلوا في هذا الأمر فدخلت معهم لا افارقهم فإن يخرجوا اخرج وان يقعدوا أقعد ..... [2]

هذا أمس حين كان الداعي علياً اما اليوم فقد تغيّرت الحال حين انصبّت عليه البدر والرضائخ فلم يعد من أهل المدينة وراح يهدد من يخرج على يزيد بالصيلم وهي الداهية أو السيف.

وإذا كان ابن عمر بهذه المثابة أزاء حكم يزيد فكيف يحمل على المعارضة له ويعتبر احد رجالها والصحيح أن الرجل معارض للثائرين على يزيد وهو من الراضين بحكمه على كل حال أليس هو صاحب الشعار المعروف:

---

(١) ابن سعد، الطبقات، ج٤ ص١٨٣، ابن كثير، البداية والنهاية، ج٨ ص٢١٨.

(٢) محمد رضا، الإمام علي بن أبي طالب، ص٨٧.

إن كان خيراً رضينا وإن كان بلاء صبرنا[1].

وعلى هذا الأساس جاءت معارضته للحسين عليه السلام وتكررت في مواقف كثيرة ومنها الموقف الحاسم الذي ذكره الخوارزمي فقال:

اقبل ابن عمر على الحسين وقال له: مهلاً ابا عبدالله عما ازمعت عليه وارجع معنا إلى المدينة وادخل في صلح القوم ولا تغب عن وطنك وحرم جدك ولا تجعل لهؤلاء القوم الذين لا خلاق لهم على نفسك حجة وسبيلا وإن احببت أن لا تبايع فإنك متروك حتى ترى رأيك فإن يزيد بن معاوية عسى أن لا يعيش إلاّ قليلاً فيكفيك الله أمره.

فقال الحسين: أُف لهذا الكلام ابداً ما دامت السموات والارض أسألك بالله يا أبا عبدالرحمن اعندك أني على خطأ من أمري هذا فإن كنت على خطأ فردّني عنه فإنّي ارجع واسمع وأطيع فقال ابن عمر: اللهم لا ولم يكن الله تبارك وتعالى ليجعل ابن بنت رسوله على خطأ وليس مثلك في طهارته وموضعه من الرسول أن يسلّم على يزيد بن معاوية باسم الخلافة ولكن اخشى أن يضرب وجهك هذا الحسن الجميل بالسيوف وترى من هذه الأُمّة ما لا تحب فارجع معنا إلى المدينة وإن شئت أن لا تبايع فلا تبايع أبداً واقعد في منزلك فقال له الحسين:

هيهات يابن عمران القوم لا يتركوني إن أصابوني وإن لم يصيبوني فانّهم يطلبوني أبداً حتّى ابايع وانا كاره أو يقتلوني[2].

وكل من اظهر النصح للإمام عليه السلام بالعدول عن عزمه على الهجرة كان يضمر في نفسه ما اضمره ابن عمر.

فهذا عبدالله بن مطيع العدوي يقول للحسين: جعلت فداك يابن رسول الله لا تخرج إلى العراق فإن حرمتك من الله حرمة وقرابتك من رسول الله قرابة وقد قتل ابن عمك بالكوفة وإن بني امية إن قتلوك لم يرتدعوا عن حرمة الله أن ينتهكوها ولم يهابوا أحداً بعدك أن يقتلوه فالله الله أن تفجعنا بنفسك فلم يلتفت الحسين عليه السلام إلى

---

(١) ابن سعد، الطبقات، ج٤ ص١٨٢.

(٢) مقتل الخوارزمي، ص١٩٢.

كلامه[1]. حتى أقرب الناس إليه ما كان يبتعد بظنه عن هاجس بن عمرو ابن مطيع.

فقد ساوى سيدنا محمد بن الحنفية ابن عمر وصاحبه في ظنه بنهضة الحسين وإنها لتغيير الحكم دلّ على ذلك كلامه الذي خاطب به الإمام أبان رحيله من المدينة فقد قال له:

يا أخي أنت أحبّ الناس إلي وأعزُّهم علي ولست ادخر النصيحة لأحد من الخلق إلاّ لك أنت أحق بها تنح ببيعتك عن يزيد بن معاوية وعن الأمصار ما استطعت، ثمّ ابعث رسلك إلى الناس فادعهم إلى نفسك فإن تابعك الناس وبايعوا لك حمدت الله على ذلك وإن اجتمع الناس على غيرك لم ينقص الله بذلك دينك ولا عقلك ولا يذهب به مروّتك ولا فضلك إني أخاف عليك أن تدخل مصراً من هذه الأمصارفيختلف الناس بينهم فطائفة منهم معك وأُخرى عليك فيقتتلون فتكون لأول الأسنة غرضاً فإذا خير هذه الأُمة كلها نفساً وأباً وأُماً اضيعها دماً وأذلها أهلاً فقال له الحسين عليه السلام:

فأين أذهب يا أخي؟ قال: أنزل مكة فإن اطمأنّت بك الدار بها فسبيل ذلك وفي رواية أخرى وإن تكن الأُخرى خرجت إلى بلد اليمن فإنّهم أنصار أبيك وجدّك وهم أرأف الناس وارقهم قلوباً وأوسع بلاداً وإن نبت بك لحقت بالرمال وشعف الجبال وخرجت من بلد إلى بلد حتى تنظر إلى ما يصير أمر الناس إليه وتعرف عند ذلك الرأي فإنّك أصوب ما تكون رأياً حين تستقبل الأمر استقبالاً ولا تكون الأُمور عليك أبداً اشكل منها حين تستدبرها استدباراً.

فقال يا أخي: قد نصحت وأشفقت وأرجوا أن يكون رايك سديداً[2].

ولا أرى لوصيّة محمد كبير فائدة تعود على الحسين عليه السلام لو أنّه عمل بها.

فما أشار عليه إلاّ بالضياع في الأقاليم النائية هنا وهناك وما باعثه على ذلك إلاّ صيانة النفس من العطب وعليه أن ينأى عن الواقع المرهق الذي تعيشه الأُمّة من بطش بني أُميّة وجورهم لئلاّ تطاله يد يزيد أو يقع تحت جبروت سلطانه أن هذا

---

(١) السيد عبدالرزاق المقرّم، مقتل المقرّم، ص٢١٧.

(٢) قمقام زخار، ص٢٦٥.

الرأي الفائل يُجلّ سمع الحسين عنه كما أجل أبا القاسم أن يتفوه به في حضرةالإمام مع علمه بالمسئوليّة الكبرى التي تحمّلها الحسين بصفته الإمام بعد أبيه وأخيه.

وكيف يشير محمد على الحسين بهذا الرأي وهو الذي وعى ما قاله أبوه على منبر الكوفة راسماً لأولى الأمر ما يجب عليهم اتّخاذه مع وجود الناصر: أما والذي فلق الحبة وبرأ النسمة لو لا حضور الحاضر وقيام الحجة بوجود الناصر وما أخذه الله على العلماء أن لا يقارو على كظة ظالم ولا سغب مظلوم لألقيت حبلها على غاربها ولسقيت آخرها من كأس أولها ولا لفيتم دينا كم هذه أزهد عندي من عفطة عنز ...

أيبقى بعد هذا الكلام عذر لمعتذر إذا آثر الدعة والسكينة على حياة الجهاد؟! خشية أن يُساء إليه أو يتعرّض لطائلة السلطان الجائر.

وهل كان محمد ﷺ جادّاً وهو يصور للحسين عليه السلام أنّ اجتماع الأُمّة على يزيد أو غيره لا ينقص بذلك دينه ولا يذهب به مروئته ولا فضله.

صحيح أنّ ذلك لا يضير الحسين عليه السلام فى شيء ولكنّ الصحيح أيضاً أنّه يضير الأُمّة وينقص بذلك دينها ومروئتها والإمام عليه السلام مسئول عنها.

فلابدّ من القيام بتضحية تصحو على صداها الأُمّة فتبصر واقعها السيّئ فتهب بثورة عارمة للتغيير وتحسين هذا الواقع.

ولقد اطلق الإمام على هذه التضحية اسم الفتح وكتب إلى محمد وسائر بني هاشم وهو يعيش حياة الجهاد الدامية.

بسم الله الرحمن الرحيم، من الحسين بن علي بن أبي طالب إلى بني هاشم أما بعد فإنّه من لحق بي منكم استشهد ومن تخلّف لم يبلغ الفتح والسلام[1].

وما كان موقف عمر بن الإمام أميرالمؤمنين يختلف عن المواقف السابقة. فقد دخل على الحسين عليه السلام ذات يوم حين عزم على الخروج من المدينة فوجده وحده فقال له:

---

(١) قمقام زخار، ص٢٦٧.

يا أبا عبدالله فداءك روحي روى المجتبى عن أبينا المرتضى حديثاً ثمّ اختنق عمر بعبرته فضمه الحسين عليه السلام إلى صدره وقال: حدثك على أني مقتول! قلت: نعم حماك الله من القتل قال،: بحق رسول الله هل أخبرك أني استشهد قلت نعم واسئلك بالله أن تبايع يزيد بن معاوية فقال عليه السلام :

اعلم يا أخي إنّ أبي حدثني عن جدي وإننا نقتل ويكون قبري قريباً من قبره أثطن إني أجهل ما تعلم؟ قسماً بالله إني لا أمد يداً بالبيعة ولا أرضى بالذل.[1].

وكان للفرزدق موقف مشابه لمواقف القوم من ثورة الحسين عليه السلام ففد ذكر المؤرخون إنّ الحسين عليه السلام لما وصل إلى بستان بني عامر لقي الفرزدق الشاعر وكان يوم التروية فقال له: يابن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ما أعجلك عن الموسم قال له: لو لم أعجل لأخذت أخذاً فأخبرني يا فرزدق عما وراءك فقال:

تركت الناس بالعراق قلوبهم معك وسيوفهم مع بني اميّة، فاتّق الله في نفسك وارجع فقال له:

يا فرزدق إنّ هؤلاء قوم لزموا طاعة الشيطان وتركوا طاعة الرحمن واظهروا الفساد في الأرض وابطلوا الحدود وشربوا الخمور واستأثروا في أموال الفقراء والمساكين وأنا أولى من قام بنصرة دين لله واعزاز شرعه والجهاد في سبيله لتكون كلمة الله هي العليا فاعرض عنه الفرزدق وسار[2].

اختلف جوابه للفرزدق عن جوابه لابن عمرو اضرابه لأنه يتأول الحرام فيحله أو الحلال فيحرمه وهذا شأن المتعالم الذي يريد الحياة على كل حال وإن افضت به إلى الذل والعبودية.

ولابدّ من الأشارة إلى أنّ من الناهين للحسين عن الهجرة من كان باعثه الأشفاق لا الأعتراض كأُم سلمة رضوان الله عليها وغيرها من عقائل بني هاشم وقالت ام سلمة: لا تحزني بخروجك إلى العراق فإني سمعت جدك رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: يقتل ولدي الحسين بأرض العراق في أرض يقال لها كربلا وعندي تربتك في

---

(١) قمقام زخار، ص٢٦٨.

(٢) تذكرة خواص الأمة، ص١٣٨.

قارورة دفعها إليّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

فقال الحسين عليه السلام: يا اماه وأنا أعلم إني مقتول مذبوح ظلماً وعدواناً وقد شاء الله عزوجل أن يرى حرمي ورهطي مشرّدين واطفالي مذبوحين مأسورين مقيّدين وهم يستغيثون فلا يجدون ناصراً.

قالت ام سلمة: واعجباً فأنّى تذهب وأنت مقتول؟

قال عليه السلام: يا اماه إن لم أذهب اليوم ذهبت غداً وإن لم أذهب في غد ذهبت بعد غد وما من الموت والله بد وإني لأعرف اليوم الذي اقتل فيه والساعة التي اقتل فيها والحفرة التي ادفن فيها كما اعرفك وانظر إليها كما أنظر إليك وإن أحببت يا اماه أن أريك مضجعي ومكان أصحابي فطلبت منه ذلك فأراها تربته وتربة أصحابه وأمرها أن تحتفظ بها في قارورة فإذا رأتها تفور دماً تيقّنت قتله ....[1] وكبر خروجه على نساء بني عبدالمطلب فاجتمعن للنياحة فمشى فيهن الحسين وسكّتهن وقال: انشدكن الله أن تبدين هذا الأمر معصية لله ولرسوله فقلن: ولمن نستبقي النياحة والبكاء فهو عندنا كيوم مات فيه رسول الله وعلي وفاطمة والحسن وزينب وأُم كلثوم فننشدك الله جعلنا الله فداءك من الموت يا حبيب الأبرار من أهل القبور واخبرته بعض عماته أنها سمعت هاتفاً يقول:

وإن قتيل الطف من آل هاشم اذل رقاباً من قريش فذلّت

فصبّرها الحسين وعرفها أنّه أمر جار وقضاء محتوم[2].

هؤلاء المعترضون والمشفقون ومثلهم معهم خفي عليهم الهدف الأساس من ثورة الحسين. فمن ثم راحوا يحاورونه في جدوى هذه النهضة عليه وعلى الأُمّة كما أنّهم بصّروه طبقاً لرؤيتهم للأحداث مقدمات ونتائج بما سوف يلاقيه من طغيان الجبابرة وعنتهم وأخذهم كل أحد بالقهر والشدّة وإن كان من أهل البيت للاحتفاظ بمقاليد الحكم بأيديهم.

وكان الحسين عليه السلام عالماً بخفاء الحقيقة على جلّهم ولم يفصح عن هدفه

---

(١) المقرم، مقتل المقرم، ص١٥١.

(٢) نفسه، ص١٥٤.

إلاّ لفئة قليلة من الناس عرف بهم صدق النيّة ومضاء العزيمة كما أنّه كشف لبعضهم جانباً مما يلحق به من الاذى في سبيل الله واخبرهم عن علمه بذلك كقوله السالف لأخيه عمرو لسيدتنا ام سلمة عليها السلام . وما زال المعترضون موقنين بأنّ خروج الحسين منحصر في المطالبة بحقه والهدف الاكبر منه قلب نظام الحكم الأموي.

ولم يخرج الحسين لذلك على الأطلاق لأنه هدف غاية في التفاهة والصغر ولو كان الحسين أراده لتوخّى أسبابه، ولسلك السبل المؤدية إليه.

خلا أننا بإمكاننا أجمال هدفه الأكبر بجملة واحدة هي بمثابة الكوّة التي تفتح على عالم فسيح وهي: (قلب نظام الأخلاق).

ذلك أنّ الأمة اكتسبت جراء سلوك حكامها معها والرعية على دين ملوكها والناس بملوكهم أشبه منهم بآبائهم صفات مسترذلة واخلاقاً حقيرة وعادات سيئة تنافي ما بناه الاسلام لها من اخلاق وما شاده من مثل عليا وطلب من المسلم التحلي بها لتتم صياغة شخصيّته مطابقة لمضمونها.

وانساقت الأمة بدون وعي منها وراء هؤلاء الحكام حتّى أوشك أن يحل بها الذي حلّ بالأمم قبلها فاستحالت إلى كائنات ظاهرها الإسلام وباطنها أخلاق الحكام ...

والفرق بين الهدفين يمكن أن نصوّره بما يلي:

قلب نظام الحكم

لو أراد الإمام هذا الهدف لسعى سعيه إليه وحينئذ تنحصر الفائدة من هذا في تأسيس دولة إسلامية مشابهة لدولة أبيه هذا مع فرض النجاح وليس من المستبعد بل قريب جدّاً أن يواجه ما واجه أبوه من الناكثين والقاسطين والمارقين فما نفدت جنود إبليس بعد.

وحينئذ تثار في وجهه المتاعب ويكتض طريقه بالمصاعب وبملأ هؤلاء واولئك قلبه قيحاً ويُجرّع نغب التهمام انفاساً من أشباه الرجال، وتكون الخاتمة معلومة شهادة في محراب أو موتاً على الفراش.

ويأتي خلفه فتجري الأحداث معه كجريها مع سلفه في حلقة مفرغة إلى ما شاء الله.

وتخرج الأُمّة من هذه التجارب بيد فارغة لم تكتسب إلاّ فوائد ليست بذات أثر في مقابل التضحيات وهي منوطة بالزمن وتنتهي بانتهائه.

قلب نظام الأخلاق

ويحتاج الإمام من أجل تحقيق هذا الهدف المنشود إلى إحداث زلزال في ضمير الأُمّة الباطن وعقلها الكامن يؤدي إلى تحريك ضميرها بنبض الحياة فيفجرها بالندم والحزن ويخرجها من واقعها الادبي المتداعي إلى واقع خلقي رفيع دعامته الجهاد وركائزه المواقف المدبّجة باللوامع الخلقية الشريفة من قبيل التضحية والفداء ونكران الذات وهكذا وحينئذ تكون هذه الهزّة التي حدثت على حين انسياق وغفلة من الأُمّة بمثابة قوّة الدفع لها ولن تقتصر على الجيل المعاصر أو التالي له بل تكون صالحة لكل الأجيال التي تأتي بعده تمدّها بالحركة النازعة صوب الكمال المطلوب على أن يكون هذا الزلزال من القوّة والتنوع بحيث يرادف الحياة فيجري في الأجيال خلفاً عن سلف وصاغراً عن كابر وهكذا دواليك وحينئذ يكون بيد الأجيال جذوة متقدة تضيء حوالك الزمن وأداة استنهاض واثارة إذا طرأت على الأُمّة ظروف ماثلت تلك الظروف التي عاصرت الزلزال الأوّل.

ويكون بالإمكان فيما إذا ايقضت الظروف الحرجة وعي الأُمّة صياغة دستور ثوري منه يكرر الثورات بتكرر الظروف الحالكة. شريطة أن تتعهد هذا التفاعل فئة من الناس كالمجاهدين مثلاً أو الخطباء فتسايره راعية وموجهة وشارحةً كما يفعل الزارع بزرعه.

ويتم شحن الأُمّة بطاقئة الخارقة عن طريق الشرح والتمثيل والصياغة الحيّة. ولا مانع من تمثيل بعض مشاهده بأدوار مسرحية تجسّد للأذهان جانباً مما حدث على الصعيد الواقعي.

وكان هدف الحسين إحداث هذا الزلزال في ضمير الأمة لفاعليّته وأثره الكبير وحيويته الخالدة فليس بالإمكان نسخ النهضة الحسينيّة بمواقف بشرية وإن كانت

في قمة المأساويّة في مستقبل الزمان كما استحال ذلك في ماضيه.

والهدف الأول يفتقر إلى هذا الأثر وإن احتوى على أثر محدود ربما امتد إلى قرن أو قرنين بل أكثر ولكنه يضعف عن مواكبة الزمن الأسلامي من هنا عافه الحسين مع قدرته عليه ولو أراده لتحقّق على يديه وبلغه كما فعل الكثير من الثوار الذين قلبوا نظاماً وإقاموا آخر غيره.

اتضح لنا الفرق بينهما ونحن من أجل إيضاح الهدف الثاني وإقامة الدليل عليه لا مناص لنا من القاء نظرة شاملة على وضع الجزيرة العربية الخلقي قبل الإسلام كما يقتضينا ذلك أن نعرف الصيغة الخلقية التي جاء بها الإسلام ودعى الأُمّة إلى التحلي أو العمل بها ومن ثم نلم بالتغيير الشامل الذي أحدثته إنظمة الحكم في أخلاق الأُمّة بخاصة الحكم الأموي وبعد هذه الجولة المضنية سوف نتعرف على النهضة الحسينية ونتصل بأهدافها اتصالاً مباشراً إن شاء الله.

نظرة على الوضع الخلقي العام

جاء الإسلام والوضع الخلقي في الجزيرة بين الأفراط والتفريط فهو يتذبذب بين حاتم الطائي وقيس بن عاصم وأمثالهما وبين رجل مثل مادر الذي يضرب به المثل في البخل فيقال: ابخل من مادر.

وقس عليهما عنترة العبسي في الشجاعة وأبا حية النميري[1] في الجبن وهلم جراً.

ويبدو للباحث في السلوك العام لسكان الجزيرة قبل الإسلام هذان الطرفان ماثلين بوضوح ولا يخلو جانب من جوانب الحياة فيها من وجودهما على نحو من

---

(١) أبو حية النميري: كان له سيف ليس بينه وبين الخشبة فرق وكان يسميه لعاب المنية فقال جار له: اشرفت عليه ليلة وقد انتضاه وثمّر وهو يقول: أيها المغتر بنا والمجترئ علينا بئس والله ما اخترت لنفسك خير قليل وسيف صقيل لعاب المنية الذي سمعت به مشهور ضربته لا تخاف نبوته اخرج بالعفو عنك وإلاّ دخلت بالعقوبة عليك إني والله أن ادعُ قيساً نملاً الأرض خيلاً ورجلاً يا سبحان الله ما أكثرها وأطيبها! ثمّ فتح الباب فإذا كلب قد خرج فقال: الحمد لله الذي مسخك كلباً وكفاني حرباً. ابن قتيبة، عيون الأخبار، ج١ ص١٦٨.

الأنحاء. فبينما تجد الناس فيها يتسابقون في أُمور تافهة مخزية وضيعة ويعامل الفائز فيها معاملة البطل فيرفع على الأكتاف ويهتف بحياته الناس.

تجد إلى جانب ذلك سباقاً تهتز مشاعر الانسان بالأريحية من تصوره وإليك هذين النموذجين للمتسابقين:

النموذج الأول:

أبو عثمان حدثنا الأصمعي قال: تجاعر حيان من العرب أي خرئوا فاختار كل حي منهم رجلاً وكان سبقهم من ذلك جزوراً قال: فاطعما من الليل طعاماً كثيراً حتّى اندحّت بطونهما قال: ثم اصبحوا فاجتمع الناس قال: فجاء أحدهما فوضع أمراً عظيماً فهال ذلك أصحاب الآخر وجبنوا وخشوا أن يغلبوا فقال صاحبهم:

لا تعجلوا ابشروا قال: فجاء صاحبهم إلى ما وضع صاحبه ثمّ جلله ثمّ تنحّى ناحية فوضع مثله قال: فغلب فاخذه أصحابه فحملوه على أعناقهم فقال: بأبي أنتم أما إذا كان الظفر لنا فأشبعوني من أطايبها يعني من أطايب الجزور[1].

النموذج الثاني:

قالت الخنساء وقد قيل لها: ما مدحت أخاك حتّى هجّنت أباك فقالت:

جـــارى أبـــاه فـــاقبلا وهمـــا ... يتعـــاوران مُـــلاءة الحضـــر

حـــتى إذا نـــزت القلـــوب وقـــد ... لـــزّت هنـــاك العـــذر بالعـــذر

وعـــلا هتـــاف النـــاس أيهمـــا ... قـــال المجيـــب هنـــاك لا أدري

بـــرزت صـــفيحة وجـــه والـــده ... ومضـــى علـــى غلوائُـــه بجـــري

أولى فـــأولى أن يســـاويه ... لـــو لا جـــلال الســـن والكـــبر

وهمـــا كأنهمـــا وقـــد بـــرزا ... صـــقران قـــد حطّـــا علـــى وكـــر[2]

والناظر إلى جلال هذا السباق حيث يأبى الولد أن يساوي والده لجلال السن والكبر وحمق ذلك السباق يخيّل له أنّهما من أُمّتين وليسا لأمة واحدة وكذلك تجد طرفي الإفراط والتفريط ماثلين في نظرتهم الخاصة إلى الأُنثى من الأولاد فبينما تجد

---

(١) أبو عبيدة التيمي، النقائض، ج١ ص١١.

(٢) أمالي المرتضى، ج١ ص٩٨.

صعصعة جدّ الفرزدق يحيي الوئيدات وأحيا قبل مبعث رسول الله ﷺ مائة وأربع جوار وكان من حديث صعصعة أنّه كلما ولدت أمرأة جارية يكفل ابنتها لئلا توئد[١].

ونجد حطان بن المعلّى يقول:

انـــزلني الـــدهر علـــى حكمـــه ... مـــن شـــامخ عـــال إلى خفـــض
وغـــالني الـــدهر بـــوفر الغنـــا ... فلـــيس لي مـــال ســـوى عرضـــي
لـــولا بنيّـــات كزغـــب القطـــا ... ردن مـــن بعـــض إلى بعـــض
لكـــان لي مضـــطرب واســـع ... في الارض ذات الطـــول والعـــرض
وإنمـــا أولادنـــا بيننـــا ... أكبادنـــا تمشـــي علـــى الأرض
لـــو هبّـــت الـــريح علـــى واحـــد ... لامتنعـــت عيـــني مـــن الغمـــض

نجد بأزاء هذين المثلين قيساً بن عاصم نزع الله الرحمة من قلبه فما ولدت له بنت إلاّ وأدها...[٢]. وإليك نماذج لهذين الطرفين لتقف على واقع الحال.

صعصعة بن ناجية

كان يشتري البنت ممن يريد وأدّها خشية الإملاق فاحيا ستاً وتسعين موءوده إلى زمن النبي ﷺ وفي ذلك يقول الفرزدق مفتخراً:

ومنـــا الـــذي اختـــير الرجـــال سماحـــة ... وخـــيراً إذا هـــبّ الريـــاح الزعـــازع
ومنـــا الـــذي قـــاد الجيـــاد علـــى الـــوجى ... لنجـــران حـــتّى صـــبّحتها النجـــائع
ومنـــا الـــذي اعطـــى الرســـول عطيّـــة ... أســـارى تمـــيم والعيـــون دوامـــع
ومنـــا الخطيـــب لا يعـــاب وحامـــل ... اغـــرّ إذا التفـــت عليـــه المجـــامع
ومنـــا الـــذي أحيـــا الوئيـــد وغالـــب ... وعمـــرو ومنـــا حاجـــب والأقـــارع
اولئـــك آبـــائي فجئنـــي بـــمثلهم ... إذا جمعتنـــا يـــا جريـــر المجـــامع

...[٣]

روى أبو عبيده عن عقال بن شبّه قال: قال صعصعة: خرجت باغياً ناقتين لي

---

(١) أبو عبيدة، النقائض، ج١ ص٢٦٤.

(٢) الأغاني، ج١٤ ص٦٩.

(٣) الآلوسي، بلوغ الارب، ج٣ ص٤٥.

فرفعت لي نار فسرت نحوها وهممت بالنزول فجعلت النار تضيء مرة وتخبو أُخرى فلم تزل تفعل ذلك حتّى قلت: اللهم لك علي إن بلغتني هذه النار أن لا أجد أهلها يوقدونها لكربة إلاّ فرجتها عنهم، قال: فلم أسر إلاّ قليلاً حتى أتيتها، فإذا حي من بني أنمار وإذا بشيخ يوقدها في مقدم بيته والنساء قد اجتمعن إلى إمرأة ما خض قد حبستهن ثلاث ليال، فسلمت فقال الشيخ: من أنت؟ فقلت: أنا صعصعة بن ناجية فقال: مرحباً بسيدنا، فيم أنت يا ابن أخي؟ قلت: في بغاء ناقتين لي، قال: قد وجدتهما، بعد أن أحيا الله بهما أهل بيت من قومك وقد تجنّاهما وعطفت أحداهما على الأُخرى وهما شأنك في أدنى الإبل، قال: فيم توقد نارك منذو الليلة قال: أوقدتها لأمرأة ماخض قد حبستنا منذ وثلاث ليال قال: فقال النساء: قد جاء الولد فقال الشيخ: إن كان غلاماً فوالله ما أدرى ما أصنع به، وإن كانت جارية فلا اسمعن صوتها إلاّ قتلتها فقلت يا هذا ذرها فإنّها بنتك ورزقها على الله، فقال: اقتلها فقلت: انشدك الله، فقال: إني أراك بها حفيّاً فاشترها مني، قلت إني اشتريتها منك فقال: ما تعطيني؟ قلت: اعطيك احدى ناقتي قال: لا قلت: ازيدك الأُخرى فنظر إلى جملي الذي تحتي فقال: لا إلاّ أن تزيدني جملك هذا فإني أراه حسن اللون شاب السن، فقلت: هو لك على أن تبلغني أهلي، قال: قد فعلت فابتعتها منه واخذت عليه عهدالله وميثاقه ليحسنن برها وصلتها ما عاشت حتى تبين عنه أو يدركها الموت فلما برزت من عنده قلت: اللهم هذه مكرمة ما سبقني إليها أحد من العرب، ثمّ قلت: اللهم إنّ لك على أن لا أسمع برجل من العرب يريدان يئد بنتاً له إلاّ اشتريتها بلقوحه وجمل فبعث الله عزوجل محمد صلى الله عليه وآله وسلم وقد احييت مائة موءودة إلاّ أربعاً لم يشاركني في ذلك أحد حتّى أنزل الله عزوجل تحريمه في القرآن وفي رواية أخرى: إنّه جاء الإسلام وقد أحيا ثلاثمائة وستين مؤودة ...[1].

وأخرج الطبراني عن صعصعة بن ناجية المجاشعي قال: قلت يا رسول الله إني عملت أعمالاً في الجاهليّة فهل فيها من أجر؟! احييت ثلاثمائة وستين من الموئودة اشتري كل واحدة منهن بناقتين عشراوين وجمل فهل لي من ذلك من أجر؟

---

(١) ابن الجوزي، المنتظم، ج٥ ص٢٦٤.

فقال النبي ﷺ: لك أجره إذ منّ الله تعالى عليك بالإسلام ...

وقد ذكر الفرزدق إحياء جده الموءودة في كثير من شعره. كما قال:

ومنـــا الـــذي منـــع الوائـــدات وأحيـــا الوأيـــد فلـــم يـــوأد ....[1]

وما أشد الفرق والإختلاف بين صعصعة وقيس بن عاصم هذا في إحيائه ثلاثمائة وستين موءودة وهدا في وأده لبناته ...

قيس بن عاصم

ذكر أخباره أبوالفرج في الأغاني وقال: هو شاعر فارس شجاع حليم، كثير الغارات، مظفر في غزواته، أدرك الجاهليّة والإسلام فساد فيهما وهو أحد من وأد بناته في الجاهليّة.

وفد قيس بن عاصم على رسول الله ﷺ فسأله بعض الأنصار عما يتحدّث به عنه من الموءودات التي وأدهن من بناته فأخبر أنّه ما ولدت له بنت قط الاوأدها ثمّ أقبل على رسول الله ﷺ يحدثه فقال له:

كنت أخاف سوء الأحدوثة والفضيحة في البنات فما ولدت لي بنت قط الاوأدتها وما رحمت منهن موءودة قط الابنية لي ولدتها أمها وأنا في سفر فدفعتها أمها إلى أخوالها فكانت فيهم وقدمت فسألت عن الحمل، فأخبرتني المرأة أنّها ولدت ولداً ميّتاً، ومضت على ذلك سنون حتى كبرت الصبيّة ونفعت فزارت أمها ذات يوم، فدخلت فرأيتها وقد ضفرت شعرها وجعلت في قرونها شيئاً من خلوق ونظمت عليها ودعاً وألبستها قلادة جزع وجعلت في عنقها مخنقة بلح، فقلت من هذه الصبية فقد أعجبني جمالها وكيسها فبكت ثم قالت:

هذه ابنتك كنت خبّرتك أني ولدت ولداً ميتاً وجعلتها عند أخوالها حتى بلغت هذا المبلغ فأمسكت عنها حتى اشتغلت عنها، ثمّ أخرجتها يوماً فحفرت لها حفيرة فجعلتها فيها وهي تقول: يا أبت ما تصنع بي؟! وجعلت اقذف عليها التراب

---

(١) الآلوسي، بلوغ الارب، ج٣ ص٤٦.

وهي تقول:

يا أبت امفطي أنت بالتراب؟! أتاركي أنت وحدي ومنصرف عني؟ وجعلت اقذف عليها التراب ذلك حتى واريتها وانقطع صوتها فما رحمت أحداً ممن واريته غيرها.

فدمعت عينا النبي ﷺ ثمّ قال: إن هذه لقسوة وأن من لا يرحم لا يرحم أو كما قال ﷺ[1].

ومن عجيب أمرهم وتناقض حالهم أن يجبر أحدهم الجراد لأنه نزل بساحته ويقري الضبع ويحميها لأنها لجئت إلى خيمته على حين يقتل بعضهم الآخر الطفل الصغير بوحشيه متناهية تؤذي القلب والضمير.

رهن الأسلع بن عبدالله العبسي بني ذبيان ثلاثة من بنيه وأربعة من بني أخيه حين مشى في الصلح حتى يصطلحوا وجعلهم على يدي سبيع بن عمرو من بني ثعلبة بن سعد بن ذبيان فمات سبيع وهم عنده: فلما حضرته الوفاة قال لابنه مالك بن سبيع إن عندك مكرمة لا تبيد إن احتفظت بهؤلاء الأغيلمه وكأني بك لو قد متُّ قد اتاك خالك حذيفة فعصر عينيه وقال: هلك سيدنا ثمّ خدعك عنهم حتى تدفعهم إليه فيقتلهم فلا شرف بعدها فإن خفت ذلك فاذهب بهم إلى قومهم فلما ثقل جعل حذيفة يبكي ويقول: هلك سيدنا فوقع ذلك له في قلب مالك فلما هلك سبيع أطاف بابنه مالك واعظمه فقال له: يا مالك إني خالك وأنا أسنّ منك فادفع إلي هؤلاء الصبيان ليكونوا عندي إلى أن ننظر في أمرنا ولم يزل به حتى دفعهم إلى حذيفة باليعمرية (واليعمرية ماء بواد من بطن نخل من الشربة لبني ثعلبة).

فلما دفع مالك إلى حذيفة الرهن جعل يبرز كل يوم غلاماً فينصبه غرضاً ثم يرمي ويقول: ناد أباك فينادي أباه حتى يخرقه النبل وقال لواقد بن جنيدب ناد أباك فجعل ينادي يا عماه خلافاً عليهم أن يأبس أباه والأبس القهر والتحمل على المكروه وقال لابن جنيدب بن عمر بن الأسلع ناد حُبينه فجعل ينادي يا عمراه باسم أبيه

---

(١) ابوالفرج الاصفهاني، الأغاني، ج١٤ ص٦٩.

حتى قتل وقتل عتبة بن قيس بن زهير[١].

وهذه القسوة إن حققت لا تجامع ذلك الرفق بالجراد والضبع.

ولا يعدم الباحث في مجتمع الجزيرة قبل الإسلام عشرات النماذج المتذبذبة بين طرفي الإفراط والتفريط مما طبع الجزيرة بطابع خاص حمل الأمم على ازدراء سكانها وتجريدهم من محاسنهم لغلبة القسوة البالغة على حياتهم وربما الصقوا بهم إحياناً مساوئ غيرهم.

فهذا الجيهاني[٢] يقول عنهم: يأكلون اليرابيع ويتعاورون ويتساورون ويتهاجون ويتفاحشون وكأنهم قد سلخوا من فضائل البشر لبسوا أهب الخنازير قال: ولهذا كان كسرى يسمّي ملك العرب: سگان شاه أي ملك الكلاب قال: وهذا لشدّة شبههم بالكلاب وإجرائها والذئاب وإطلائها.

ولقد ابدع ابو حيّان التوحيدي وأتى بالقول الفصل والحق الذي لا غبار عليه في ردّه المفحم على الجيهاني فقال: أتراه لا يعلم لو نزل ذلك القفر وتلك الجزيرة وذلك المكان الخاوي وتلك الفيافي والموامي كل كسرى كان في الفرس وكل قيصر كان في الروم وكل يَلهُور كان في الهند[٣].

وكل يقفور كان بخراسان وكل خاقان كان بالترك وكل اخشاد[٤] كان بفرغانه وكل صبهبذ من اسكندر واردوان ما كانوا يعدون هذه الأحوال لأن من جاع أكل ما وجد وطعم ما لحق وشرب ما قدر عليه حباً وطلباً للبقاء وجزعاً من الموت وهرباً من الفناء، أترى أنوشروان إذا وقع إلى فيافي بني أسد وبرّ وبار[٥].

---

(١) أبو عبيدة، النقائض، ج١ ص٩٣ بتصرف.

(٢) محمد بن أحمد وزير السامانيين قال عنه ابن النديم: أنه من رؤساء المتكلمين الذين يظهرون الإسلام ويبطنون الزندقة ويصنّفون في نصرة الاثنينية.

(٣) لقب لكل عظيم من ملوك الهند.

(٤) اخشاد واخشيد لقب كان لملوك فرغانه.

(٥) وبار أرض واسعة ببلاد اليمن.

وسفوح طيبة[١] ورمل يبرين وساحة هبير[٢] وجاع وعطش وعري اما كان يأكل اليربوع والجرذان! وما كان يشرب بول الجمل وماء البئر وما أسن في تلك الوهدات؟ أو ما كان يلبس البرجد[٣] والخميصة والسمل من الثياب وما هو دونه واخش بلى والله ويأكل حشرات الأرض وبنات الجبال وكل ما حمض ومر وخبث وضر[٤].

وهذا كلام متين منتزع من واقع الحال إذ كل من قطن تلك الديار وعاش في تلك الربوع فلا مناص له من التكيف وفقاً لما تمليه الحياة المادية فيها فما تلك الطباع براجعة إلى حقيقة الجنس بل إلى الوضع الاقتصادي والحياة المادية لتلك البلاد.

وبمثل ما نبزهم به الجيهاني من خشونة المطعم وبؤس العيش نبزهم استاذه كسرى انوشروان فقد قال للنعمان: (.... قد خرجوا من مطاعم الدنيا وملابسها ومشاربها ولهوها ولذّاتها فافضل طعام ظفريه ناعمهم لحوم الأبل التي يعافها كثير من السباع لثقلها وسوء طعمها وخوف دائها ....[٥]

نظـرت بعـين الحقـد قومـاً فعبـتهم ... بـاكلهم إذ لم تجـد فـيهم وصـما
أجـل نحـن قـوم نحسـن الطعـن في الـوغى ... وأنـتم فريـق يحسـن القضـم والهضـما
ومـن عـاد لا يهـتم إلاّ ببطنـه ... فقـد قلـد الانعـام واتبـع البهمـا
وهـل تـورث العليـاء يومـاً مآكـل ... أجـاد بهـا الطـاهي وروّقهـا طعمـا
فهـل أنـت في فـالوذج تحكـم الـورى ... وهـل أنـت في لـوزينج تقهـر الخصـما
أتجعـل كـاس الأكـل طاسـك في الـوغى ... وتشـحذ مـن لـوزينج للعـدى سـهما[٦]

---

(١) بلد عند زرود.

(٢) رمل قرب زرود بطريق مكة.

(٣) البرجد كساء غليظ صوف أحمر والخميصة كساء أسود مربع له علمان والسمل من الثياب الخلق البالي.

(٤) أبو حيان التوحيدي، الأمتاع والموانسة، ص٧٩.

(٥) أحمد الهاشمي، جواهر الأدب، ج١ ص٢٢٤.

(٦) أحمد الصافي النجفي، الديوان الامواج، ص٩٥.

لقد عمّت هؤلاء رحمة الله وشملتهم عنايته حين بعث فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين. يقول الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام:

.. تأملوا في حال نشتتهم وتفرقهم ليالي كانت الأكاسرة والقيا صره أرباباً لهم يحتازونهم عن ريف الآفاق وبحر العراق وخضرة الدنيا إلى منابت الشيح ومهافي الريح ونكد المعاش فتركوهم عالة مساكين أخوان دبر ودبر أذل الامم داراً واجد بهم قراراً لا يأوون إلى جناح دعوة.

يعتصمون بها ولا إلى ظل ألفة يعتمدون على عزّها فالأحوال مضطربة والأيدي مختلفة والكثرة متفرقة في بلاء أزل وإطباق جهل! من بنات مؤودة وأصنام معبودة وأرحام مقطوعة وغارات مشنونة فانظروا إلى مواقع نعم الله عليهم حيث بعث إليهم رسولاً فعقد بملته طاعتهم وجمع على دعوته الفتهم كيف نشرت النعمة عليهم جناح كرامتها وأسالت لهم جداول نعيمها والتفتّ الملة بهم في عوائد بركتها فاصبحوا في نعمتها غرقين، وعن خضرة عيشها فكهين ...[1].

أشار الإمام عليه السلام إلى حقيقة ما كانوا عليه قبل الإسلام وما صاروا اليه بعده فقد اشرق في جزيرتهم وهم عاكفون على أخلاقهم عكوفهم على أصنامهم لا يلقون بالاً لنصيحة ناصح ولا يصيخون السمع لصوت مصلح.

وكان فيهم قوم حكماء من قبيل ذي الأصبع العدواني وقس بن ساعدة وأمثالهما عملوا على إصلاح أوضاعهم فما تسنّى لهم ذلك حتى جاء الإسلام وانطلقت دعوة النبي صلى الله عليه وآله وسلم تسري في محيطهم سريان الجذوة المتقدة في الحطب الجزل أو البرق اللامع في معتكر الظلام.

وقطعت الدعوة أشواطها في خطين متوازيين أحدهما بمنزلة الأساس للآخر. عقيدة التوحيد وما يتفرع عنها من الأُصول وما يتبعها من الشرايع والأحوال.

والمناهج الأخلاقية المرتكزة عليها والتي تستمد مادتها الأُولى من ذلك الوهج الساطع المتمثل في نور الوحدانيّة.

---

(١) الشيخ محمد جواد مغنية، في ظلال نهج البلاغة، ج٣ ص١٤٠.

واضحت جزيرة العرب من أقصاها إلى أقصاها مغمورة به يضيء لها ما أدلهم من حياتها.

فكانت بمنزلة المريض وكانت الرسالة المحمدية هي الطبيب الذي أقام العلاج لوضع الجزيرة على دعامتين الأولى الوقاية من الأخلاق القديمة وطرحها من حياة الناس والعمل على محوها من عرصة الوجود لأنها السبب الاكبر في مئآسي الجزيرة وسقوط شأنها وتفاهة قدرها عند سكانها وعند الناس.

والثانية كيفية العلاج وذلك بوضع صيغة معتدلة للأخلاق الواجب اتخاذها والصفات التي يجب على الأمة الالتزام بها.

وإنما الأمم الأخلاق مابقيت فإن هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا

ورب خلق كريم يعدل عند الناس فتحاً من الفتوح بخاصة إذا كان من قائد مقتدر كما جرى لسيف الدولة بن حمدان فقد:

خرج الأمير سيف الدولة في طلب بني كلاب ومن انضاف إليها فلحق حلة من بني نمير رئيسها مماغث فاحتوى عليها فخرجت إليه ابنة مماغث مسفرة حافية كالشمس الطالعة وابو فراس يسايره فصفح لها عن الحلة وأمر برد ما أخذ منها فكتب إليه أبو فراس يداعبه:

وما انس لا انس يوم المغار محجبة لفظتها الحجب

دعاك ذووها بسوء الفعال لما لا تشاء وما لا تحب

فوافتك تعثر في مرطها وقد رأت الموت من عن كثب

وقد خلط الخوف لما طلعت دلّ الجمال بذل الرعب

تسارع في الخطو لا خفة وتهتز في المشي لامن طرب

فلما بدت لك دون البيوت بدالك منهن جيش لحب

فكنت أخاهن إذ لا أخ وكنت أباهن إذ ليس أب

ومازلت مذ كنت تأتي الجميل وتحمي الحريم وترعى النسب

فولين عنك يفدينها ويرفض من ذيلها ما أنسحب

ينادين بين خلال البيوت لا يقطع الله نسل العرب

أمرت وأنت المطاع الكريم ببذل الأمان ورد السلب

وقــد رحــن مــن مهجــات القلــوب بـــــأوفرغنم واغلـــــى نشـــــب

فــإن هــن يــا ابــن الســراة الكــرام رددن القلـــوب رددنـــا النهـــب[١]

هكذا يكون ظفر القائد الشريف إذا شاهد النساء وقد خلاهن الأهل والحماة أمّا ظفر النذن الذليل المهان فهو كظفر ابن سعد وجنوده بخيام الحسين عليه السلام.

وعلــى العــيس مــن بنــات علــى نـــوح كـــل لفظهـــا تعديـــد

ســلبتها ايــدي الجفــات حلاهــا فخـــلا معصـــم وعطـــل جيـــد

وعليهـــا الســـياط لمـــا تلـــوّت اخلفتهـــا اســـاور وعقـــود[٢]

قال أميرالمؤمنين عليه السلام:

بعثه والناس ضلال في حيرة وخابطون في فتنة قد استهوتهم الأهواء واستزلّتهم الكبرياء واستخفتهم الجاهلية الجهلاء حيارى في زلزال من الأمر وبلاء من الجهل فبالغ صلى الله عليه وآله وسلم في النصيحة ومضى على الطريقة ودعا إلى الحكمة والموعظة الحسنة[٣].

بعثه صلى الله عليه وآله وسلم حال كون الناس ضالين عن طريق الحق في جهرة من أمر الدين وكانت حركاتهم على غير نظام وكانوا في فتنة وضلال جذبتهم الأهواء الباطلة والآراء العاطلة إلى مهاوي الهلاك وقادهم التكبر والتجبر إلى الخطأ والخطل والهفوة والزلل وجعلتهم الجاهلية الجهلاء أخفّاء العقول سفهاء الحلوم حالكونهم حائرين تائهين مغمورين لا يهتدون إلى وجوه مصالحهم وبلاء من الجهل أي ابتلاء بالقتل والعادات ناشئاً عن جهالتهم لعواقب الأُمورات فبالغ صلّى الله عليه في النصيحة للأمة ومضى على الطريقة المستقيمة ودعا إلى الحكمة والموعظة الحسنة التي دعا إلى سبيل الله بهما امتثالاً لأمر الله وهو قوله تعالى: ادعوا إلى سبيل ربّك بالحكمة والموعظة الحسنة الآية[٤].

رسم الإمام أميرالمؤمنين الملامح الظاهرة للوضع الأخلاقي العام في الجزيرة

---

(١) أبو فراس الحمداني، الديوان، ص٢٠.

(٢) شعر السيد جعفر الحلي، الديوان، ص١٤٥.

(٣) مغنية، في ظلال نهج البلاغة، ج٢ ص٦٦.

(٤) السيد الخوئي رحمه الله، منهاج البراعة، ج٢ ص١٥٣ بتصرف.

العربية وما كانوا عليه من الاقتتال وتنازع البقاء لا يأوون إلى أدب ولا يستضيئون بنور حكمه حتى بعث الله سبحانه ذلك النور المتوهج منهم وتفجر في جزيرتهم فعلمهم بعد جهل واعزهم بعد ذل ورفعهم بعد ضعة وارشدهم بعد ضلال وجمعهم بعد فرقة واقتتال.

(وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللّه عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً) الآية.

الاسلام وخطّته في تهذيب الأخلاق

عمد الإسلام في خطته الإصلاحية لتهذيب الأخلاق في الجزيرة العربية مهد انطلاقه وفي العالم إلى انتهاج الطريق الوسط فشنّ حملة شعواء لا هوادة فيها على أخلاق الجاهلية الأُولى من قبيل الوأد والقتل والعصبيّة العمياء والتفاخر بالأعراق وهتك الاعراض وسبي النساء واتخاذهن سلعة للمزايدة وقضاء الوطر وعضلهن وغير ذلك ثم شرع في سن القوانين الأخلاقية وإقامة القواعد السلوكيّة لابنائه وأمر بالسير عليها واعتمادها في الحياة العامة والخاصه.

على أنّه لم يهمل من السلوك السائد في الجزيرة ما كان حسناً سليماً بل وضع له خطة حكيمة تردّه إلى الوسطية القائمة بين طرفي الأفراط والتفريط علماً منه بأنّ الفضائل ليست تحصل لأصحابها إلاّ بعد أن تطهر النفوس من الرذائل التي هي أضدادها أعنى شهواتها الرديئة الجسمانيّة ونزواتها الفاحشة البهيمية فإن الإسلام إذا علم أنّ هذه الأشياء ليست فضائل بل هي رذائل تجنبها وكره أن يوصف بها وإذا ظن أنها فضائل لزمها وصارت له عادة وبحسب التباسة وتدنسه بها يكون بعده من قبول الفضائل[1].

والإسلام اختلف مع الفلاسفة فنظر إلى الإنسان نظرة مجردة فلم ينظره ملحوظاً من زاوية الخير ولا زاوية الشر وعلى هذا الأساس شرع في تهذيبه ... ذلك إن العلماء اختلفوا في الطبايع فزعم قوم وهم الرواقيون إن الناس كلهم يخلقون اخياراً

---

(١) مسكويه، تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق، ص٣٣.

بالطبع ثم بعد ذلك يصيرون اشراراً بمجالسة أهل الشر والميل إلى الشهوات الردينة التي لا تقمع بالتأديب.

وقال قوم آخرون:

إنّ الناس خلقوا من الطينة السفلى وهي كدر العالم فهم لأجل ذلك أشرار بالطبع وإنما يصيرون اخياراً بالتأديب والتعليم إلاّ أنّ منهم من هو في غاية الشر لا يصلحه التأديب ومنهم من ليس في غاية الشر فيمكن أن ينتقل من الشر إلى الخير بالتأديب من الصبا ثم بمجالسة الأخيار والإسلام تجاوز هذين القولين واعتبرهما خطأً محضاً لأنه يرى بنور الوحي الذي صاغه أن ليس شيء من الأخلاق طبيعياً للإنسان ولا نقول أنّه غير طبيعي وذلك إنّا مطبوعون على قبول الخلق بل ننقل بالتأديب والمواعظ أما سريعاً وأما بطيئاً[1].

واعتبر الإسلام الإنسان ساعة يولد مجرّداً عن كل نعت وصفة سواءاً كانت إلى الخير أم الشر وعبّر عن ذلك بالفطرة وعلى هديها عالج الإنسان فيما له أو عليه. والحديث الشريف يثبت لنا ذلك واليكَه:

.. كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه.

وهذا الحديث اختلفت سياقاته وهو مستفيض مشهور فمن جملة هذه السياقات مضافاً إلى ما تقدم: كل إنسان تلده امه على الفطرة أبواه يهودانه أو ينصرّانه أو يمجسانه فإن كانا مسلمين فمسلم.

ومنها أيضاً: ما من مولود يولد على الفطرة وابواه يهودانه أو ينصرّانه كما تنتجون الأبل فهل تجدون منها جدعاء حتى تكونوا أنتم تجدعونها قالوا: يا رسول الله أرأيت من يموت صغيراً قال: الله أعلم بما كانوا عاملين[2].

---

(١) راجع مسكوية، تهذيب الأخلاق، ص٥١ و٥٢ بتصرف.

(٢) راجع الكتب التالية: صحيح البخاري، ج٢ ص١٢٥، سنن أبي داود، ٤٧١٤ و٤٧١٧، مجمع الزوائد، ج٧ ص٢١٨، مسند أحمد بن حنبل، ج٢ ص٢٣٣ وص٢٧٥ وص٢٨٢ وج٣ ص٣٥٣، مسند الحميدي، رقم ١١١٣، تجريد التمهيد، ص٢٥٨، مسند أبي حنيفة، ص٦ وغيرها.

وجاء عن طريق أئمة أهل البيت عليهم السلام عن الحسين بن نعيم الصحّاف قال: قلت لأبي عبدالله عليه السلام: أيكون الرجل مؤمناً قد ثبت له الإيمان ثم ينقله الله بعد الإيمان إلى الكفر.

قال: إنّ الله هو العدل وإنما بعث الرسول ليدعو الناس إلى الإيمان بالله ولا يدعو أحداً إلى الكفر.

قلت: فيكون الرجل كافراً قد ثبت له الكفر فينقله الله بعد ذلك من الكفر إلى الإيمان.

قال: إنّ الله عزوجل خلق الناس على الفطرة التي فطرهم الله عليها لا يعرفون ايماناً بشريعة ولا كفراً بجحود ثم بعث الله الرسل إليهم يدعونهم إلى الإيمان بالله حجة لله عليهم فمنهم من هداه الله ومنهم من لم يهده[1].

وعلى أساس من الفطرة النقيّة الواردة في الأحاديث السالفة أقام الإسلام قواعده الخلقية في تهذيب الإنسان فاعتبر الفضيلة وسطاً بين رذيلتين ومن هذه النظرة الواقعية أخذ الفلاسفة فكرتهم عن الفضائل والرذائل.

وينبغي علينا أن نلم بمعنى هذه الوسطية فقد أبان العلماء حقيقتها وأماطوا الستار عنها.

يقول الفيلسوف مسكوية: وينبغي أن تفهم من قولنا أن كل فضيلة فهي وسط بين رذائل ما أنا واصفه. إنّ الأرض لما كانت في غاية البعد من السماء قيل إنها وسط وبالجملة المركز من الدائرة هو على غاية البعد من المحيط وإذا كان الشيء على غاية البعد من الشيء فهو من هذه الجهة على القطر.

فعلى هذا الوجه ينبغي أن يفهم معنى الوسط من الفضيلة إذ كانت بين رذائل بعدها منها أقصى البعد ولهذا إذا انحرفت الفضيلة عن موضعها الخاص بها أدنى انحراف قربت من رذيلة أخرى ولم تسلم من العيب بحسب قربها من تلك الرذيلة التي تميل إليها ولهذا صعب جداً وجود هذا الوسط ثم التمسك به بعد وجوده أصعب[2].

---

(١) هاشم البحراني، البرهان، ج٣ ص٢٦٣.

(٢) مسكويه، تهذيب الأخلاق، ص٤٥.

وهذا الذي يقوله الفيلسوف صحيح وإليه يعزى التغيّر الذي يطرأ على أكثر الناس بعد تغيير ظروفهم ويمكننا على ضوء هذه الفكرة الواقعية أن نفهم العصمة لأنها الثبات على هذا الوسط الصعب الذي قل من ثبت عليه كما قلّ من وفق إليه. ثمّ شرع الفيلسوف في بيان امهات الأخلاق وكيفية توسطها بين أضدادها فقال: أما الحكمة فهي وسط بين السفه والبله وأعني بالسفه هاهنا استعمال القوة الفكرية فيما لا ينبغي وكما لا ينبغي وسماه القوم الجربزة. واعني بالبله تعطيل هذه القوة واطراحها وليس ينبغي أن يفهم أن البله ههنا نقصان الحلقة بل ما ذكرته من تعطيل القوة الفكرية بالإرادة.

وأما الذكاء فهو وسط بين الخبث والبلاده فإن أحد طرفي كل وسط افراط والآخر تفريط أعني الزيادة عليه والنقصان منه فالخبث والدهاء والحيل الردئبة هي كلها إلى جانب الزيادة في ما ينبغي أن يكون الذكاء فيه وأما البلادة والبله والعجز عن إدراك المعارف فهي كلها إلى جانب النقصان من الذكاء إلى أن يقول:

وأما العفّة فهي وسط بين رذيلتين وهما الشره وخمود الشهوة وأعني بالشرة الأنهماك في اللذات والخروج فيها عما لا ينبغي وأعني بخمود الشهوة السكون عن الحركة التي تسلك نحو اللذة الجميلة التي يحتاج إليها البدن في ضروراته وهي ما رخص فيه صاحب الشريعة والعقل.

وأما الفضائل التي تحت العفة فإن الحياء وسط بين رذيلتين أحداهما الوقاحة والأُخرى الخرق وأنت تقدر على أن تلحظ أطراف الفضائل الأُخرى التي هي رذائل .....

وأما الشجاعة فهي وسط بين رذيلتين أحداهما الجبن والأُخرى التهور، وأما الجبن فهو الخوف في ما لا ينبغي أن يقدم عليه وأما السخاء فهو وسط بين رذيلتين أحداهما السرف والتبذير والأُخرى البخل والتقتير، أما التبذير فهو بذل ما لا ينبغي لمن لا يستحق وأما التقتير فهو منع ما ينبغي عن من يستحق.

أما العدالة فهي وسط بين الظلم والانظلام أما الظلم فهو التوصل إلى كثرة المقتنيات من حيث لا ينبغي وكما لا ينبغي ولذلك يكون للجائر أموال كثيرة لأنه يتوصل إليها من حيث لا يجب ووجوه التوصل إليها كثيرة أما المتظلم فمقتنياته

وأمواله يسيره جداً لأنه يتركها من حيث يجب وأما العدل فهو في الوسط لأنه يقتني الأموال من حيث يجب ويتركها من حيث لا يجب. فالعدالة فضيلة يتصف بها الإنسان من نفسه ومن غيره من غير أن يعطي نفسه من النافع أكثر وغيره أقل. وأما في الضار فبالعكس وهي أن لا يعطي نفسه أقل وغيره أكثر لكن يستعمل المساواة التي هي تناسب مابين الأشياء ومن هذا المعنى اشتق اسمه أعني العدل[١].

تبين لنا مما سبق أن الأصل الذي قامت عليه نظرية (وسطية الأخلاق والفضائل) سبق إليها الإسلام، وجاء الفلاسفة بعده شارحين باسهاب كيفيّة ذلك.

والناظر في تاريخ الإسلام وسيرة النبي الأعظم ﷺ يدرك إدراكاً تاماً أنّ النبي ﷺ اتخذ هذا المنهج مطبقاً إياه على الحياة الإسلامية في كل شأن من شئونها لكي تستقر شخصيّة الإنسان المسلم على الصيغة الادبية المطلوبة ديناً وفقهاً وشريعة.

خذ على سبيل المثال وقعة مؤتة فقد تحمل منها المسلمون خسائر جسيمة واهمها استشهاد قادتهم الثلاثة ورجوعهم القهقري من غير أن يصيبوا من عدوّهم مقتلاً واعتبر بعض المؤرخين هذه العودة هزيمة بل المجاهدون أنفسهم كانوا يعدّون أنفسهم منهزمين لأن الواجب فعله أنئذ الاقتداء بالقادة حتى الشهادة للجيش كله.

ولما رجعوا إلى المدينة صار المسلمون يحثون في وجوههم التراب ويقولون لهم يا فرارون فررتم في سبيل الله فصار رسول الله ﷺ يقول: بل هم الكرارون وفي لفظ أنهم قالوا: يا رسول الله نحن الفارّون فقال لهم رسول الله ﷺ بل أنتم الكارّون أي الكرارون[٢].

كان هؤلاء يرون حالتهم تدور بين أمرين لا ثالث لهما فأما التهور بمهاجمة العدو وإن فاقهم عدداً وعدة وأما الفرار من الزحف كما جرى لهم ولكن النبي ردّهم إلى الحق وإلى الوسطية المرغوب فيها خلقاً وديناً وأوضح لهم أنّ ما اعتبروه انهزاماً ما هو به وإنما هو فعل الحكيم الشجاع الذي آثر الرجوع إلى الفئة ورسول الله ﷺ

---

(١) مسكوية، تهذيب الأخلاق، ص٤٥ وما بعدها.

(٢) راجع الكتب التالية، سيرة ابن هشام الحلبية، عيون الأثر، زاد المعاد، و السيرة النبوية لابن كثير وغيرها.

تلكم الفئة ولم يعرض الجيش كله للتلف لأن في ذلك غنماً للعدو واي غنم وغرماً فادحاً على الإسلام وأهله ومن ثم مدحهم صلى الله عليه وآله وسلم على فعلهم وقال لهم: ما صنعتم إلاّ ما ينبغي أن يصنعه أمثالكم وسماهم الكرار أو كما قال.

وهذه هي الوسيطة المطلوب تحققها في حياة المسلمين كافة وقد عبّر عنها القرآن الكريم خير تعبير فقال تعالى: (وَكَذلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النّاسِ وَيَكُونَ الرّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً)[1].

والوسط مأخوذ من التوسط بين المقصر والغالى فالحق معه[2] فالمقصر هو المفرّط والغالي هو المفرط وكلاهما مذموم والحق مع الوسط ولما كان الوسط مجانباً للغلو والتقصير كان محموداً أي هذه الأُمة لم تغل غلو النصارى في أنبيائهم ولا قصّروا تقصير اليهود وفي الحديث خير الأُمور أوسطها وفيه عن علي عليه السلام:

عليكم بالنمط الاوسط فإليه ينزل الغالي وإليه يرتفع النازل[3].

وجاء عن طريق أئمة أهل البيت عليهم السلام عن أبي بصير قال: سمعت أبا جعفر عليه السلام يقول: نحن نمط الحجاز فقلت وما نمط الحجاز؟ قال: أوسط الأنماط إن الله يقول: وكذلك جعلناكم امة وسطاً ثم قال: إلينا يرجع الغالي وبنا يلحق المقصر[4].

والتمثيل بالحجاز في غاية الدقة والمتانة لأنها سمّيت بذلك من الحجز بين الشيئين لأنها حجزت بين نجد وتهامة أو بين الغور والشام والبادية[5].

فهي حينئذ وسط بين طرفين وهذا ما رمى إليه الإمام عليه السلام وفسّره برجوع الغالي ولحوق المقصر بهما وهما الطرفان المحيطان بالوسط.

وهكذا ما يزال الباحث يعثر على آية أو رواية أو خبر يؤكد هذا الإتجاه التهذيبي للإسلام في حمل الأمة على الاتصاف بالصفات الشريفة التي توسطت بين طرفين يضادانها.

---

(١) البقرة: ١٤٣.

(٢) الشيخ الطوسي، التبيان، ج٢ ص٦. والضمير في (معه) يرجع إلى الوسط لأنه ليس بالمقصر ولا ....

(٣) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج٢ ص١٥٤.

(٤) تفسير البرهان، ج١ ص١٦٠.

(٥) تاج العروس، مادة حجز.

وعلى هذا المنوال المفيد والنهج الصحيح قطع الإسلام شوطاً بعيداً في تحرير الإنسان من قيود الجاهلية وأخلاقها المرفوضة.

وتم له في مدة قياسيّه بناء مجتمع ليس له نظير في مجتمعات العالم التي بنتها الاديان السابقة أو المدارس النظرية.

ولعل من المفيد أن نشير إلى نقطة الارتكاز التي استند إليها الإسلام في تحرير الإنسان وساعدته على تحقيق هدفه الاسمى في الإصلاح تلكم هي العناية القصوى بالكرامة البشرية. فقد اهتم الإسلام اهتماماً بالغاً بتكريم الإنسان يقول سبحانه وتعالى: (وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً)[1].

كرّمهم بالعقل والنطق وحسن الصورة وتعديل القامة وامتدادها وسخر لهم سائر الأشياء وفضلهم على الخلق حتى الملائكة وإن كان في تفضيلهم على الملائكة اختلاف بين العلماء.

وفي الحديث عن جابر يرفعه قال: لما خلق الله آدم وذريّته قال الملائكة: يا رب خلقتهم يأكلون ويشربون وينكحون فاجعل لهم الدنيا ولنا الآخرة.

فقال تعالى: لا أجعل من خلقته بيدي ونفخت فيه من روحي كمن قلت له كن فكان.

وفي المسئلة رأي وجيه ذهب إليه البغوي قال: والأولى أن يقال: عوام المؤمنين أفضل من عوام الملائكة وخواص المؤمنين أفضل من خواص الملائكة.

قال الله تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ). وروى عن أبي هريرة أنه قال: المؤمن من أفضل وأكرم على الله من الملائكة الذين عنده[2].

وبهذا التكريم يحمل الإسلام الإنسان على الشعور بالكرامة فينزع إلى معالي الأُمور وعمل الخير وفعل الطيبات ويترفع عن الدنايا وخسائس الأخلاق والصفات.

لأنّ التحلي بالفضائل والتخلي عن الرذائل فرع الأحساس بالذات وهو مفقود

---

(١) الاسراء: ٧٠.

(٢) البغوي، معالم التنزيل، ج٣ ص١٢٥.

عند الإنسان حال كونه يشعر بالضعة والمهانة.

ومـــــن جهلـــــت نفســـــه قـــــدره رأي غـــــيره منـــــه مـــــا لا يـــــرى

وإذا لم يستهن بنفسه وصاحبه شعور بتكريم ذاته ارتفع عن حضيض الهوان إلى مصاف العوالم النورانيّة المكرمة.

ومن هذا المنطق الحر الكريم ساوى الإسلام بين أفراد النوع الإنساني مساواة مطلقة فلا تمييز بين أفراده كافة كما لا عبرة بالفروق الطبيعيّة من اللون والجنس والأصل واللغات.

ومثلها الفروق المصطنعة كالحسب والنسب والمكانة الاجتماعيّة وغير ذلك. وجعل التمايز حاصلاً في التقوى «إنّ أكرمكم عند الله أتقاكم» وهي مجموع ما يكسبه الإنسان من الصفات الفاضلة ويتحلّى به من الأخلاق النبيلة.

وأقام مبادئة الإنسانيّة على هذا الأساس المتين (كلكم لآدم وآدم من تراب) ودستور ذلك كلّه يتقوم بالآية الكريمة:

يقول الدكتور الشكعة: أما وقد سوّى الإسلام بين الناس كافة وقضى على العرفية والمفاضلة بالأحساب والأنساب بين الناس وجعل الفضل لصاحب الفضل أياً كان نسبه أو عرقه أو لونه، فإن فلسفة التوحيد التي جاء بها الإسلام كانت في حد ذاتها ذات أثر خطير في تحرير الإنسان، كل الإنسان من الخوف والجبن والطفاة والظلمة وأصحاب النفوذ وأرباب المال تحرراً كاملاً أنّه تحرّر في القول والعمل والفكر والطعام واللباس والتحرك ولكن في نطاق الالتزام بروح الإسلام.....

وينقل كلمة العالم الأنجليزي الأستاذ يورك القائل: (القانون المحمدي - يقصد الإسلامي - ملزم للجميع، من صاحب التاج إلى أحط فرد في الرعية أنّه قانون يقوم على أساس من أحكم شريعة وجدت في العالم .....[1]

وظل علم المساواة بين الناس كافة خفّاقاً على الرؤوس طيلة العهد النبوي وشطراً من خلافة الأول.

وأول من حرف البناء عن أسّه وأحدث شرخاً في هيكله عو عمر بن الخطاب

---

(١) الدكتور، الشكعة، معالم الحضارة الإسلامية، ص٣١.

وذلك بما اتخذ من سياسة التفريق بين فئأت المسلمين وتفضيل بعضهم على بعض في العطاء.

وهذا الوضع الجديد ارسى دعائم المجتمع الطبقي حيث فضل قريشاً على الناس كافة والعرب على غيرهم والمهاجرين على الانصار والأوس على الخزرج والصريح على المولى وهكذا.

وما ينسب إليه من المواقف الدالّة على المساواة فليست تعبر عن سياسته العامة بل هي مواقف فردية أفرزتها ساعة من ساعات النخوة عنده.

نظير موقفه من عمرو بن العاص وابنه حين شكاه ذلك القبطي في مسئلة السباق الذي جرى بينهما فقد ضرب ابن عمرو القبطي حين سبقه قائلاً أنا إبن الأكرمين فشكاه إلى عمر فما كان من عمر إلاّ إحضار الأطراف جميعاً وأمر القبطي بالقصاص وقال قولته المشهورة متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم امهاتهم احراراً؟!

وهذا موقف ممتاز حقاً ولكنه إلى جانب نظائر له كان فيها عمر عوناً للقوي على الضعيف. والرجل نفسه يعتبر الواجهة التي تختفي ورائه مراكز القوى في ذلك العهد.

وبسلطانه صال معاوية وجال ومثله فعل الاشعث ابن قيس وغيرهما. ومن الأُمور العجيبة التي عزيت إليه ذلك الموقف الغريب فقد قال له أحد مستمعيه بعد خطاب لعمر: والله لو رأينا فيك أعوجاجاً لفوّمناه بسيوفنا[1].

وهذا القول مناقض تماماً لوجوب الطاعة لولاة الأمر عند القوم برهم وفاجرهم وحرمة القيام عليهم بالسيف وعلى هذا الأساس منع عبدالله بن عمر أولاده ومواليه من نقض بيعة يزيد وهددهم بالصيلم[2].

وروى راويهم أبو هريرة: أنّ رسول الله ﷺ قال: سيليكم بعدي ولاة فيليكم البر ببرّه، ويليكم الفاجر بفجوره فاسمعوا لهم وأطيعوا في كل ما وافق الحق فإن أحسنوا فلكم ولهم وإن أساءوا فلكم وعليهم[3].

---

(١) الشكعة، معالم الحضارة الإسلامية، ص٣١.

(٢) البداية والنهاية، ج٨ ص٢١٨، الطبقات، ج٤ ص١٨٣.

(٣) الشكعة، معالم الحضارة الإسلامية، ص٤٦.

وفي رواية المجمع زيادة قوله: وصلوا وراءهم..[1].

وفي رواية أُخرى: أنقاتلهم يا رسول الله ﷺ قال: لا ما أقاموا الصلاة[2].

فكيف يرفع هذا الرجل عقيرته بالسيف في وجه عمر وهو أبو حفص الذي لا يقعقع له بالشنان الرواية لا شك واهية.

وحينئذ لا مناص من نبذ أحد القولين.

أما روايه السيف أو حديث أبي هريرة والواقع أنّ سياقات هذا الحديث كثيرة ولكنها غير ثابتة وللعلماء فيها رأي مشهور وهو وضعها في العهد الأموي لصالحه ولتخدير الأُمة والاستحواذ عليها وللحيولة بينها وبين ممارسة حقها الطبيعي في الإنكار والثورة على الطغاة ولو صحت هذه الأحاديث لبطل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ولأقتصر على فئة خاصة من الناس ولكان حكم الجهاد منسوخاً أو مقصوراً على الكفار وحدهم.

أجل أقام الإسلام مجتمع المساواة التامة بين أفراد النوع الإنساني وساعدت عقيدة التوحيد على تحرير الإنسان من العبودية والذل لغير الله سواء كان خليفة أو ملكاً مهما كانت صفته. لا إله إلاّ الله.

وفي هذا المجتمع المتكافئ أشاع الإسلام مبادئه الأخلاقية المؤلفة من قسمين فضائل ورذائل ودعا إلى التحلي بالاولى والتخلي عن الثانية وإليك قائمة بأسمائها نقلاً عن كتاب: روح الدين الأسلامي للأستاذ عفيف طبّاره.

الفضائل ...

الاول: الاستقامة وإصلاح النفس وتزكيتها.

قال سبحانه وتعالى: (إِنّ الّذِينَ قَالُوا رَبّنَا اللّه ثُمّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلاَئِكَةُ أَلاّ تَخَافُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنّةِ الّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ)[3].

---

(١) الهيثمي، مجمع الزوائد، ج ٥ ص ١٨.

(٢) مجمع الزوائد: ج ٥ ص ٢١٨.

(٣) فصلت: ٣٠.

(إِنّ الّذِينَ قَالُوا رَبّنَا اللّه ثُمّ اسْتَقَامُوا فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ)[1].

وجاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: اوصني يا رسول الله فأجابه الرسول بهذه الجملة الموجزة الرائعة: (قل آمنت بالله ثمّ استقم)[2].

اصلاح النفس

قال الله تعالى: (فَمَن تَابَ مِن بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنّ اللّه يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنّ اللّه غَفُورٌ رَحِيمٌ)[3].

(يَا بَنِي آدَمَ إِمّا يَأْتِيَنّكُمْ رُسُلٌ مِنكُمْ يَقُصّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنِ اتّقَى وَأَصْلَحَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ)[4].

تزكية النفس

قال الله تعالى: (قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكّى)[5].

وقال سبحانه: (قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسّاهَا)[6].

وقال تعالى: (ومن يتزكّى فإنّما يتزكّى لنفسه وإلى الله المصير)[7].

الإحسان

قال الله تعالى: (وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللّه إِلَيْكَ)[8].

---

(١) الاحقاف: ١٣.

(٢) صحيح مسلم، كتاب الايمان رقم ٦٢، مسند أحمد، ج٣ ص٤١٣، وج٤ ص٣٨٥، تفسير البغوي، ج٣ ص٣٥٥، والدر المنثور، ج٢ ص٢٢٠ وغيرهم.

(٣) المائدة: ٣٩.

(٤) الاعراف: ٣٥.

(٥) الاعلى: ١٤.

(٦) الشمس: ٩ و١٠.

(٧) فاطر: ١٨.

(٨) القصص: ٧٧.

وقال سبحانه: (إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا)[1].

وقال عزوجل: (إِنّ اللّه يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ)[2].

وقال تعالى: (وَمَنْ أَحْسَنُ دِيناً مِمّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ للّه وَهُوَ مُحْسِنٌ)[3].

ويقول سبحانه: (وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللّه وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى)[4].

وقال تعالى: (مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا)[5].

وقال جلت عظمته: (مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَهُم مِن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ)[6].

التقوى

قال الله تعالى: (يَاأَيّهَا الّذِينَ آمَنُوا اتّقُوا اللّه حَقّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنّ إِلاّ وَأَنْتُم مُسْلِمُونَ)[7].

وقال سبحانه: (لَيْسَ الْبِرّ أَنْ تُوَلّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلكِنّ الْبِرّ مَنْ آمَنَ بِاللّه وَالْيَومِ الآخِرِ وَالْمَلاَئِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنّبِيّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السّبِيلِ وَالسّائِلِينَ وَفِي الرّقَابِ وَأَقَامَ الصّلاَةَ وَآتَى الزّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضّرّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُو لِكَ الّذِينَ صَدَقُوْا وَأُو لِكَ هُمُ الْمُتّقُونَ)[8].

وقال سبحانه: (أَلاَ إِنّ أَوْلِيَاءَ اللّه لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ * الّذِينَ آمَنُوا

---

(١) الاسراء: ٧.

(٢) النحل: ٩٠.

(٣) النساء: ١٢٥.

(٤) لقمان: ٢٢.

(٥) الانعام: ١٦٠.

(٦) النحل: ٨٩.

(٧) آل عمران: ١٠٢.

(٨) البقرة: ١٧٧.

وَكَانُوا يَتّقُونَ * لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدّنْيَا وَفِي الآخِرَة)[1].

وقال تبارك وتعالى: (وَمَن يَتّقِ اللّه يَجْعَل لّهُ مَخْرَجاً * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَحْتَسِبُ)[2].

وقال تعالى: (يَا أَيّهَا الّذِينَ آمَنُوا إِن تَتّقُوا اللّه يَجْعَل لّكُمْ فُرْقَاناً)[3].

وقال تعالى: (وَتَزَوّدُوا فَإِنّ خَيْرَ الزّادِ التّقْوَى)[4].

الصبر

قال تعالى: (إِنّمَا يُوَفّي الصّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ)[5].

وقال سبحانه أيضاً: (وَلَنَجْزِيَنّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)[6].

وقال سبحانه: (وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ)[7].

وقال تعالى: (وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتّقُوا فَإِنّ ذلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ)[8].

وقال تعالى: (وَلَنَبْلُوَنّكُمْ حَتّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصّابِرِينَ وَنَبْلُوَا أَخْبَارَكُمْ)[9].

وقال سبحانه: (وَلَنَبْلُوَنّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ ا ْوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَا ّ مَرَاتِ وَبَشّرِ الصّابِرِينَ * الّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنّا للّه وإِنّا إِلَيهِ رَاجِعُونَ * أُو ِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِن رّبّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُو ِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ)[10].

---

(١) يونس: ٦٣ - ٦٤.

(٢) الطلاق: ٢ - ٣.

(٣) الانفال: ٢٩.

(٤) البقرة: ١٩٧.

(٥) الزمر: ١٠.

(٦) النحل: ٩٦.

(٧) السجدة: ٢٤.

(٨) آل عمران: ١٨٦.

(٩) محمد: ٣١.

(١٠) البقرة: ١٥٥ - ١٥٧.

العفو

قال تعالى: (وَإِن تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنّ اللّه غَفُورٌ رَحِيمٌ)[١].

وقال سبحانه: (وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السّيّئَةَ)[٢].

وقال عز اسمه: (وَلاَ تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلاَ الْسّيّئَةُ ادْفَعْ بِالّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنّهُ وَلِيّ حَمِيمٌ)[٣].

وقال تعالى: (وَجَزاءُ سَيّئَةٍ سَيّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللّه إِنّهُ لاَ يُحِبّ الظّالِمِينَ * وَلَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُو لِكَ مَا عَلَيْهِم مِن سَبِيلٍ * إِنّمَا السّبِيلُ عَلَى الّذِينَ يَظْلِمُونَ النّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقّ أُو لِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنّ ذلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُور)[٤].

وقال تبارك وتعالى: (وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النّاسِ وَاللّهُ يُحِبّ الْمُحْسِنِينَ).

الصدق

قال تعالى: (يا أيّها الذين آمنوا اتّقوا الله وكونوا مع الصادقين)[٥].

وقال سبحانه: (يَا أَيّهَا الّذِينَ آمَنُوا اتّقُوا اللّه وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً)[٦].

ويقول الرسول صلى الله عليه وآله وسلم: (عليكم بالصدق فإن الصدق يهدي إلى البر وإن البر يهدي إلى الجنة وما يزال الرجل يصدق ويتحرّى الصدق حتّى يكتب عندالله صديقاً واياكم والكذب فإن الكذب يهدي إلى الفجور وإن الفجور يهدي إلى النار وما يزال الرجل يكذب ويتحرّى الكذب حتّى يكتب عندالله كذّاباً).

---

(١) التغابن: ١٤.

(٢) الرعد: ٢٢.

(٣) فصّلت: ٣٤.

(٤) الشورى: ٤٠ - ٤٣.

(٥) التوبة: ١٩٩.

(٦) الاحزاب: ٧٠.

ومن أنواع الصدق الأمانة التي هي من ارفع الصفات في الإنسان.

قال تعالى: (وَالَّذِينَ هُمْ لأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ)[١].

ومن أنواع الصدق أيضاً صدق الوعد الذي هو من الصفات الحميدة التي يتحلّى بها الانسان.

قال تعالى: (وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْماعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولاً نَّبِيّاً)[٢].

الاصلاح بين الناس

قال تعالى: (إِنّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ)[٣].

وقال تعالى: (وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا)[٤].

وقال سبحانه: (وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَماً مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَماً مِنْ أَهْلِهَا إِن يُرِيدَا إِصْلاَحاً يُوَفّقِ اللّه بَيْنَهُمَا)[٥].

وقال عزّ اسمائه: (لاَ خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِن نَجْوَاهُمْ إِلّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاَحٍ بَيْنَ النّاسِ وَمَن يَفْعَلْ ذلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللّه فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً)[٦].

التعاون

قال تعالى: (وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرّ وَالتّقْوَى وَلاَ تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ)[٧].

---

(١) المؤمنون: ٨.

(٢) مريم: ٥٤.

(٣) الحجرات: ١٠.

(٤) الحجرات: ٩.

(٥) النساء: ٣٥.

(٦) النساء: ١١٤.

(٧) المائدة: ٢.

الايثار

قال تعالى: (وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحّ نَفْسِهِ فَأُو لِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)[1].

الكلام الحسن

قال تعالى: (وَقُل لِعِبَادِي يَقُولُوا الّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنّ الشّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ)[2].

وقال تعالى: (وَقُولُوا لِلنّاسِ حُسْناً)[3].

وقال تعالى: (وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنّ أَنكَرَ الأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ)[4].

وقال تعالى: (فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللّه لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لإِنفَضّوا مِنْ حَوْلِكَ)[5].

معاشرة الأخيار

قال الله تعالى: (وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الّذِينَ يَدْعُونَ رَبّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلاَ تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدّنْيَا وَلاَ تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً)[6].

وقال تعالى: (فَأَعْرِضْ عَن مَن تَوَلّى عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلاّ الْحَيَاةَ الدّنْيَا)[7].

وقال سبحانه: (لاَ تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللّه وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادّونَ مَنْ حَادّ اللّه

---

(١) الحشر: ٩.

(٢) الاسراء: ٥٣.

(٣) لقمان: ١٩.

(٤) لقمان: ١٩.

(٥) آل عمران: ١٥٩.

(٦) الكهف: ٢٨.

(٧) النجم: ٢٩.

وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ)[1].

وقال رسول الله ﷺ: (مثل الجليس الصالح وجليس السوء كحامل المسك ونافخ الكير فحامل المسك أما إن يحذيك وأما إن تبتاع منه وأما إن تجد منه ريحاً طيبه، ونافخ الكير إما إن يحرق ثوبك وأما إن تجد منه ريحاً خبيثة).

الاستئذان والتحية

قال تعالى: (يَا أَيّهَا الّذِينَ آمَنُوا لاَ تَدْخُلُوا بُيُوتاً غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذلِكُمْ خَيْرٌ لّكُمْ لَعَلّكُمْ تَذَكّرُونَ * فَإِن لّمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَداً فَلاَ تَدْخُلُوهَا حَتّى يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ وَاللّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ)[2].

وقال تعالى: (وَإِذَا حُيّيتُم بِتَحِيّةٍ فَحَيّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدّوهَا)[3].

وهذه هي الفضائل الخلقية التي أمر الله عباده الصالحين بالتحلي بها وحثهم على التمسك بها بل هي إن حققت روح الدين وجوهر الشريعة لأنها ترفع المسلم العامل بها من حضيض التراب إلى مصاف الملائكة ومدارج منازلها ومحالّ رتبها ....

وقد اسعف المسلمين الحظ في حياة النبي فكان لهذه الفضائل سوق رائجة بينهم ولكن تضائل العمل بها بل أوشكت على الدثور بعد وفاته وسيأتي بيان ذلك إن شاء الله.

---

(١) المجادلة: ٢٢.

(٢) النور: ٢٧ - ٢٨.

(٣) النساء: ٨٦.

وأولها بل اضرّها على الانسان واشدّها فتكاً بحياته الأخلاقية الانقياد لهوى النفس.

الانقياد لهوى النفس

قال الله تعالى: (وَلَوِ اتّبَعَ الْحَقّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السّماوَاتُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنّ)[1].

وقال تعالى لداود: (يَا دَاوُدُ إِنّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النّاسِ بِالْحَقّ وَلاَ تَتّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلّكَ عَن سَبِيلِ اللّه إِنّ الّذِينَ يَضِلّونَ عَن سَبِيلِ اللّه لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ)[2].

وقال تعالى: (فَإِن لّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنّمَا يَتّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلّ مِمّنِ اتّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدىً مِنَ اللّه إِنّ اللّه لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظّالِمِينَ)[3].

وقال سبحانه: (وَإِنّ كَثِيراً لَيُضِلّونَ بِأَهْوَائِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ)[4].

وقال تعالى: (وَأَمّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبّهِ وَنَهَى النّفْسَ عَنِ الْهَوَى * فَإِنّ الْجَنّةَ هِيَ الْمَأْوَى)[5].

الكبرياء

قال تعالى: (سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِي الّذِينَ يَتَكَبّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقّ وَإِن يَرَوْا كُلّ آيَةٍ لاَيُؤْمِنُوا بِهَا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرّشْدِ لاَيَتّخِذُوهُ سَبِيلاً وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيّ

---

(١) المؤمنون: ٧١.

(٢) ص: ٢٦.

(٣) القصص: ٥٠.

(٤) الروم: ٢٩.

(٥) النازعات: ٤١.

يَتّخِذُوهُ سَبِيلاً)[1].

وقال تعالى: (قَالَ الْمَلأ الّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لِلّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنّ صَالِحاً مُرْسَلٌ مِن رَبّهِ قَالُوا إِنّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ * قَالَ الّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنّا بِالّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ)[2].

وقال تعالى: (قَالَ الْمَلأَ الّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنّكَ يَاشُعَيْبُ وَالّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنّ فِي مِلّتِنَا)[3].

وقال تعالى: (أَلَيْسَ فِي جَهَنّمَ مَثْوىً لِلْمُتَكَبّرِينَ)[4].

وقال تعالى: (فَأَمّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدّ مِنّا قُوّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنّ اللّه الّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدّ مِنْهُمْ قُوّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ«١٥» فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً فِي أَيّامٍ نَحِسَاتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ا ْزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَى وَهُمْ لاَ يُنصَرُونَ)[5].

وقال تعالى: (وَلاَ تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحاً إِنّكَ لَن تَخْرِقَ الأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولاً)[6].

وقال تعالى: (وَلاَ تُصَعّرْ خَدّكَ لِلنّاسِ وَلاَ تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحاً إِنّ اللّه لاَ يُحِبّ كُلّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ)[7].

الخمر والقمار

قال الله تعالى في تحريم الخمر والقمار: (يَا أَيّهَا الّذِينَ آمَنُوا إِنّمَا ا ْمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالأَزْلاَمُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلّكُمْ تُفْلِحُونَ * إِنّمَا يُرِيدُ الشّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي ا ْمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدّكُمْ عَن ذِكْرِ

---

(١) الاعراف: ١٤٦.

(٢) الاعراف: ٧٥ - ٧٧.

(٣) الأعراف: ٨٨.

(٤) الزمر: ٦٠.

(٥) فصلت: ١٥ - ١٦.

(٦) الاسراء: ٣٧.

(٧) لقمان: ١٨.

ذِكْرِ اللّه وَعَنِ الصّلاَةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ)[1].

الكذب والخيانة وخلف الوعد

وهذه الأشياء الثلاثة من فصيلة واحدة. قال الله تعالى عن الكذب: (إِنّ اللّه لاَ يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذّابٌ)[2].

ومثله: (إِنّ اللّه لاَ يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفّارٌ)[3].

وقال تعالى: (وَلاَ تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذا حَلاَلٌ وَهَذا حَرَامٌ لّتَفْتَرُوا عَلَى اللّه الْكَذِبَ إِنّ الّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللّه الْكَذِبَ لاَ يُفْلِحُونَ * مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)[4].

الخيانة

قال تعالى: (يَاأَيّهَا الّذِينَ آمَنُوا لاَ تَخُونُوا اللّه وَالرّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ)[5].

وقال تعالى: (إِنّ اللّه لاَ يُحِبّ مَن كَانَ خَوّاناً أَثِيماً)[6].

خلف الوعد

قال رسول الله ﷺ: (آية المنافق ثلاث إذا حدث كذب وإذ وعد أخلف وإذا اؤتمن خان)[7].

---

(١) المائدة: ٨٠ - ٨١.

(٢) غافر: ٢٨.

(٣) الزمر: ٣.

(٤) النحل: ١١٦ - ١١٧.

(٥) الانفال: ٢٧.

(٦) النساء: ١٠٧.

(٧) اخرجت الحديث الكتب التالية: صحيح البخاري ومسلم وسنن البيهقي الكبرى وشرح السنة للبغوي، تاريخ الخطيب البغدادي، مسند أحمد، تفسير ابن كثير وغيرها كثير.

شهادة الزور

وهي من أنواع الكذب أيضاً قال الله تعالى: (فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزّورِ)[1].

وقال تعالى: (وَالّذِينَ لاَ يَشْهَدُونَ الزّورَ)[2].

البهتان

ومن ضروب الكذب التي حرّمها القرآن البهتان قال الله تعالى: (يَا أَيّهَا الّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْماً بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ)[3].

النميمة

والنميمة من ضروب الكذب أيضاً قال الله سبحانه: (وَلاَ تُطِعْ كُلّ حَلاّفٍ مَهِينٍ * هَمّازٍ مَشّاءٍ بِنَمِيمٍ)[4].

الهزء بالآخرين والسخرية منهم

وسماها المؤلف احترام الغير ولكن آثرت العنوان اعلاه لأنّ احترام الغير يدخل في قسم الفضائل.

قال الله تعالى: (يَا أَيّهَا الّذِينَ آمَنُوا لاَ يَسْخَرْ قَوْمٌ مِن قَوْمٍ عَسَى أَن يَكُونُوا خَيْراً مِنْهُمْ وَلاَ نِسَاءٌ مِن نِسَاءٍ عَسَى أَن يَكُنّ خَيْراً مِنْهُنّ وَلاَ تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلاَ تَنَابَزُوا بِالأَلْقَابِ بِئْسَ الأسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الإِيمَانِ وَمَن لَمْ يَتُبْ فَأُو لِكَ هُمُ الظّالِمُونَ)[5].

---

(١) الحج: ٣٠.

(٢) الفرقان: ٧٢.

(٣) الحجرات: ٦.

(٤) القلم: ١٠ - ١١.

(٥) الحجرات: ١١.

الظن السيّئ والتجسس والغيبة

قال الله تعالى: (يَا أَيّهَا الّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِنَ الظّنّ إِنّ بَعْضَ الظّنّ إِثْمٌ وَلاَ تَجَسّسُوا وَلاَ يَغْتَب بَعْضُكُم بَعْضاً أَيُحِبُ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتّقُوا اللّه إِنّ اللّه تَوّابٌ رَحِيمٌ)[1].

الزنا

قال الله تعالى: (وَلاَ تَقْرَبُوا الزّنَى إِنّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً)[2].

الغضب

قال الله تعالى: (وَالضّرّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النّاسِ وَاللّهُ يُحِبّ الْمُحْسِنِينَ)[3].

وقال تعالى: (وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ)[4].

الحسد

قال الله تعالى: (وَلاَ تَتَمَنّوْا مَا فَضّلَ اللّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِلرّجَالِ نَصِيبٌ مِمّا اكْتَسَبُوا وَلِلنّسَاءِ نَصِيبٌ مِمّا اكْتَسَبْنَ وَسْأَلُوا اللّه مِن فَضْلِهِ)[5].

وقال تعالى: (وَمِن شَرّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ)[6].

وقال عزوجل: (وَدّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفّاراً حَسَداً مِنْ عِندِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيّنَ لَهُمُ الْحَقّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتّى يَأْتِيَ اللّه بِأَمْرِهِ)[7].

---

(١) الحجرات: ١٢.

(٢) اسراء: ٣٢.

(٣) آل عمران: ١٣٤.

(٤) الشورى: ٣٧.

(٥) النساء: ٣٢.

(٦) الفلق.

(٧) البقرة: ١٠٩.

اللغو

ويدخل فيه الثرثرة والهزل والباطل من القول والفعل وكل ما توجب المروءة الغاءه وهو ما سماه الله لغواً، قال الله تعالى: (قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ * الّذِينَ هُمْ فِي صَلاَتِهِمْ خَاشِعُونَ * وَالّذِينَ هُمْ عَنِ اللّغْوِ مُعْرِضُونَ)[1].

وقال عزوجل: (وَإِذَا سَمِعُوا اللّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ لاَ نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ)[2].

وقال تعالى: (وَإِذَا مَرّوا بِاللّغْوِ مَرّوا كِرَاماً)[3].

الشراهة

قال سبحانه وتعالى: (وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلاَ تُسْرِفُوا إِنّهُ لاَيُحِبّ الْمُسْرِفِينَ)[4].

وقال تعالى: (وَالّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الأَنْعَامُ وَالنّارُ مَثْوىً لَهُمْ)[5].

هذه هي امهات الأخلاق مابين فضائل يجب التحلي بها أو رذائل يجب التخلي عنها رفع منارها الإسلام وأنزلها الله آيات تتلى على سيد البشر ذي الخلق العظيم والقائل: بعثت لأتمم مكارم الأخلاق. وقد ذكرنا لكل واحدة منها الآيات الدالّة عليها والمرشدة إليها هذا مع العلم بأن حشداً كريماً من الآيات لم نذكرها روماً للإختصار.

أما السنة الشريفة فقد زخرت بذلك وامتلأت الصحاح والمسانيد وكتب الحديث عند الطوائف الإسلامية كافة بفيض غامر منها بلغ عشرات الألوف.

وفي كل ذلك دعوة قويمة لأمة الإسلام إن تجعل منها دستوراً لحياتها

---

(١) المؤمنون: ١ - ٣.

(٢) القصص: ٥٥.

(٣) الفرقان: ٧٢.

(٤) الأعراف: ٣١.

(٥) محمد: ١٢.

ومدرسة تقوّم بها ذاتها وتبني شخصيتها على هداها.

وفعلاً تم لها ذلك على يد النبي ﷺ وصحابته الكرام وعاشت الأمة تحت كنف نبيها وبفضل رعايته وكريم إرشاده أفضل مراحل حياتها وما هي الادورة من دورات الزمن وإذا بذلك الضوء يخبو وتلك الشمس تغيب وذلك الكون المنير من الأدب والخلق الرفيع الذي أقامه النبي يختفي معه تحت الرغام وصحّت كلمة انس ابن مالك: ما كدنا ننفض ايدينا من تراب رسول الله ﷺ حتى أنكرنا قلوبنا وبدأ من هذه القلوب الانقلاب على الاعقاب.

الانقلاب على الأعقاب

فارق النبي المسلمين إلى الرفيق الأعلى وفريق منهم يتربص بالخلاف تلك الساعة المشومة ولقد كانت تبدر بوادر من هؤلاء والنبي ﷺ ما يزال على قيد الحياة لذلك نجده مبادراً إلى درء هذا الخطر والوقوف بوجه المتربصين بالإسلام ساعة الوفاة.

فاستقبل ﷺ خطة الانقلاب المزمع اجرائه من القوم بعد وفاته بإجراء فعال لوانه اطيع ولكن المهاجرين وفي مقدمتهم عمر حالوا بينه وبين التنفيذ. من ذلك تسريح جيش اسامة بن زيد.

عمد النبي ﷺ إلى توجيهه خارج المدينة وضم إليه جل الذين تحدثهم أنفسهم بالانقلاب ومنهم الشيخان أبوبكر وعمر وهما القطبان الذان اتّجهت اليهما الانظار لقربهما من النبي أولاً ولمسئلة الصهر التي ربطت بينهما وبين النبي صلى الله عليه و آله و سلم بعلقة قوية جداً فكانت احداث الانقلاب تدور عليهما.

ولا بديل عن بني هاشم بغيرهما وكان النبي يعلم ذلك تارة بالوحي وأخرى بالنظر الحكيم الفاحص من ثم راح ﷺ يلح على تجهيز جيش اسامة ولعن من تخلف عنه والعبارة النبوية رويت هكذا: جهّزوا جيش اسامة لعن الله من تخلف عن جيش اسامة[1].

---

(١) تحاشى الرواة ذكر هذه الجملة وفيها لعن من تخلف وقد اعياني الفحص عنها حتى وجدتها في هامش محي الدين على مقالات الإسلاميين، ج١ ص٣٥.

والمدافعون عن الشيخين انكروا وجود أبي بكر في الجيش ويزعمون أنّ النبي ﷺ استبقاه. ولكن البلاذري نص على وجودهما في جيش اسامة قال: وكان رسول الله ﷺ قد رأى توجيه اسامة بن زيد في سرية إلى الذين حاربهم أبوه يوم مؤتة، وأمره أن يوطئهم الخيل وعقد له لواءاً وضم إليه أبابكر وعمر فيمن ضم فمرض رسول الله ﷺ قبل أن ينفّذ الجيش فأوصى بانفاذه فقال: انفذوا جيش اسامة[١].

ومن الرواة الذين نصّوا على وجود أبي بكر وصاحبه عروة ابن الزبير ذكر صاحب الكنز عن عروة أنّ النبي ﷺ قد قطع بعثاً قبل مؤتة وأمر عليهم اسامة بن زيد وفي ذلك البعث أبو بكر وعمر فكان اناس من الناس يطعنون في ذلك لتأمير رسول الله اسامة عليهم... الحديث[٢].

واخفق البعث الأُسامي لأن القوم اعلنوا العناد والعصيان لعلمهم بالغاية من هذا البعث ولتبيتهم نبة الانقلاب وتربصهم بذلك وفاة النبي ﷺ واجراء آخر وهو كتاب يوم الخميس فقد أراد النبي ﷺ أن يضع بيد الوصي حجة لا تمكن مناقشتها أو الارتياب بها حيث قال قبل وفاته بساعات واللفظ للبخاري: أُئتوني أكتب لكم كتاباً لن تضلوا بعده أبداً فتنازعوا ....[٣]

رزية يوم الخميس!!

وسماها ابن عباس رزية وبالغ فيها فقال: كل الرزية وبكى حتى بل دمعه الحصى في رواية صحيح مسلم وفي أخرى بسنده أيضاً ثم جعل تسيل دموعه حتى رأيت على خديه كأنها نظام اللؤلؤ[٤].

وحيّرت دموع ابن عباس الحافظ ابن حجر فراح يستخرج الاحتمالات قائلاً:

---

(١) البلاذري، انساب الاشراف، ج١ ص٤٩٣. والقضية مشهورة ذكرها كل من كتب في السيرة وحورها الرواة بالحذف والاضافة.

(٢) المتقى الهندي، كنز العمال، ج١٠ ص٥٧٠ رقم الحديث ٣٠٢٦٤.

(٣) راجع صحيح البخاري، ج٦ ص١١ مطابع الشعب ١٣٧٨.

(٤) صحيح مسلم بشرح النووي، ج١١ ص٨٩ وص٩٤.

يحتمل لكونه تذكر وفاة رسول الله فتجدد له الحزن عليه ويحتمل أن يكون انضاف إلى ذلك ما فات في معتقده من الخير الذي كان يحصل لو كتب ذلك الكتاب ولهذا اطلق في الرواية الثانية أنّ ذلك رزية ثم بالغ فيها فقال: كل الرزية[1].

أجل أنها لرزية عظمى وفاجعة كبرى ومصيبة لا تعدلها مصيبة وهي التي أدت إلى ضلال الأمة بعد نبيّها وانقلابها على أعقابلها فقتلت نفسها وخرّبت ديارها وازهقت نفوسها واحربت أموالها وصيّرتها شيعاً وأحزاباً وقسمتها إلى ثلاث وسبعين فرقة بعد نبيّها كل فرقة تلعن اختها وتتبرء منها وقد حذرهم النبي من ذلك.

وصار المسلم يستبيح دم المسلم ويصون دم الذمي والمعاهد بل يعتبر قتل الخنزير افساداً في الأرض ودم المسلم جائزاً سفكه مباحاً إهراقه.

وهدمت الكعبة ورميت بالعذرة وابيحت المدينة ثلاثة أيام لغربان الشام فجرى ما جرى من القتل والنهب والفساد مما يطول شرحه.

ألا يحق لابن عباس أن يبلّ بدموعه الحصى وقد شاهد بام عينيه شطراً من هذه المآسي وماله لا يعدها رزية ويبالغ فيها وقد اعربت عن التدبير المبيّت للأنقضاض على حق أهل البيت كما افصحت عن النوايا وكشفت عن خطة الإنقلاب التي كان القوم قد بيّنوها.

وكان الكتاب اجراءاً مضاداً لما يضمرون ولكن حيل بينه وبين كتابته وتولّى كبر ذلك عمر.

وليته اكتفى بالمنع ولم ينسب إلى ساحة قدس النبي الهذيان والهجر. فأحدث بذلك صدعاً لا يراب في الصف الإسلامي إلى اليوم.

ويعتبر موقفه هذا ردّاً على رسول الله وجرأة على مقامه الشريف حين جعل من نفسه وصياً على الأُمة ادعاءاً وتبرعاً.

وفتح عمر بهذه الكلمة الباب على مصراعيه لهم فاقتحموا مقام النبوة المنيع فجوزوا على النبي الخطأ والهذيان والهجر والإجتهاد قال الخطابي: ومعلوم

---

(١) فتح الباري، ج٧ ص٧٣٩.

أنه ﷺ وإن كان قد رفع درجته فوق الخلق كلهم فلم ينزّه عن العوارض البشرية[1]، وهذا عين ما قاله عمر ولكن باسلوب اقرب إلى التهذيب ولابد لنا قبل بيان واقع الحال من ذكر أحدى سياقات الرواية مع ذكر الكتب التي وردت فيها واخترنا من بين هذه السياقات أحديها بلفظ مسلم فقد أخرجها مسلم في كتابه بثلاث طرق الثالث منها أكثر تفصيلاً قال: حدثني محمد بن رافع وعبد بن حميد قال عبد أخبرنا وقال ابن رافع حدثنا عبدالرزاق معمر عن الزهري عن عبيدالله بن عبدالله بن عتبة عن ابن عباس قال: لما حضر رسول الله ﷺ وفي البيت رجال فيهم عمر بن الخطاب فقال النبي ﷺ: هلمّ اكتب لكم كتاباً لا تضلّون بعده فقال عمر: إنّ رسول الله ﷺ قد غلب عليه الوجع وعندكم القرآن حسبنا كتاب الله فاختلف أهل البيت فاختصموا فمنهم من يقول قرّبوا يكتب لكم رسول الله ﷺ كتاباً لن تضلوا بعده ومنهم من يقول ما قال عمر فلما أكثروا اللغو والاختلاف عند رسول الله ﷺ.

قال رسول الله ﷺ قوموا قال عبيد فكان ابن عباس يقول: ان الرزية كل الرزية ما حال بين رسول الله ﷺ وبين أن يكتب لهم ذلك الكتاب من اختلافهم ولغطهم.

ولم يذكر في هذه بكاء ابن عباس وفي الأولى: ثم بكى حتى بل دمعه الحصى وفي الثانية: ثم جعل تسيل دموعه حتى رأيت على خديه كأنها نظام اللؤلؤ ... ولم يصرح فيهما باسم عمر بل ابهمه واسند القول إلى جماعة الحاضرين عند النبي ﷺ ولكنه صرح بلفظ: ما شأنه أهجر؟ في الأولى، وبلفظ: فقالوا: إنّ رسول الله ﷺ يهجر.

وفي الثالثة صرّح باسم عمر ولكنه بدل لفظ يهجر بآخر من سنخه وهو غلبه الوجع صيانة لماء وجه عمر ولا أرى فرقاً بين اللفظين إلاّ مابين اللازم والملزوم فقد اكتفى بالاول عن الثاني[2].

أمّا البخاري فقد أخرجها في صحيحه في كتاب العلم بطريق واحد عن الزهري عن عبيدالله عن ابن عباس: وفي كتاب المغازي بطريقين الأول منهما عن

---

(١) بدر الدين العيني، عمدة القارئ، ج٢ ص١٧١.

(٢) صحيح مسلم، بشرح النووي، ج١١ ص٨٩ وص٩٤ وص٩٥.

ابن عينية عن الأحول عن سعيد بن جبير عن ابن عباس، والثاني عن عبدالرزاق عن معمر عن الزهري عن عبيدالله عن ابن عباس وأخرجه في كتاب المرضى بطريق واحد مثله. كما أخرجه في كتاب الاعتصام بنفس السند أيضاً فيكون مجموع رواياته خمس روايات.

أما الأُولى فقد صرح فيها باسم عمر القائل ولكنه حرّف كلمة يهجر إلى غلبه الوجع ولم يذكره في الثانية وصرح بكلمة يهجر ولكن جعلها جملة استفهامية وفي الثالثة لم يصرح باسمه كذلك وسماه بعضهم ونقل نفس العبارة (غلبة الوجع) وصرّح باسم عمر في الرابعة والخامسة إلى جانب الكلمة المحرفة[1].

وظهر من هذا أنّهم متى صرّحوا باسم عمر لم يذكروا لقط يهجر أو أهجر ومتى ابهموا اسمه ذكروا هذا اللفظ صيانة له وحرصاً على مركزيته في الإسلام ومقامه عندهم.

وتحاشى البخاري أن يذكر في رواياته الخمسة بكاء ابن عباس مع أن سنده مع مسلم واحد، وهذا يدلّ على أن البخاري تصرّف بالنص كما يحلو له.

وأخرجها سوى صاحبي الصحيح أحمد بن حنبل في مسنده[2] وسلك ذات الطريق في إبهام اسم عمر وجعل الكلمة الخبيثة استفهاماً وزاد على ذلك قول سفيان بن عينيه بعد قوله: فقالوا: ما شأنه أهجر؟ قال سفيان: يعني هذى استفهموه فذهبوا يعيدون عليه.

إذن هي محاولة لتخفيف أجواء الكلمة القاسية بنسبتها إلى الجميع (قالو) وجعلها استفهاماً وليست خبراً والقاء التبعة في ترك الكتاب على النبي لأنهم ذهبوا يعيدون عليه ليحصل عندهم تمييز حالتيه من الهجر أو الصحة فطردهم بقوله دعوني بعد أن أغراهم بالكتاب وفائدته.

وأخرجها البيهقي في سننه الكبرى ولكنه تجنّى على الحق بعلم حين ابهم اسم عمر واثبت التنازع وحذف كلمة يهجر أو غلبه الوجع من رأس ولم يشر إلى

---

(١) راجع ابن حجر: فتح الباري، ج١ و٧ و١٠ و١٣ ص٢٥١ وص٧٣٨ وص١٣١ وص٣٤٧.

(٢) المسند، ج١ ص٢٢٢.

طبيعة هذا التنازع فقال: فتنازعوا ولا ينبغي عند نبي تنازع[١] على أن الرجل في كتاب دلائل النبوة وافق أصحابه فأخرج الرواية مصرحاً فيها تارة بلفظ هجر بهمزة الاستفهام وأُخرى باسم عمر مع تحريف اللفظ إلى غلبه الوجع ثم شرع في الاعتذار عن عمر بما هو قريب من الهجر والهذيان[٢].

وقد اتّفق القوم على لون الاعتذار عن عمر فأخذ اللاحق عن السابق ببغائيّة غريبة ولم يكلف أحدهم نفسه نقداً لهذه الأفكار البائسة فمن هؤلاء الى جانب البيهقي ولعله السابق إلى هذه الأعذار الباردة لتقدمه عليهم في الحياة الكرماني في شرحه على صحيح البخاري والعيني في عمدة القارئ وابن حجر العسقلاني في فتح الباري والنووي في شرحه على مسلم والسيوطي والسندي في حاشيتيهما على سنن النسائي الذي أخرجها في كتابي العلم والطب من سننه.

ومن الذين أخرجوا الرواية أيضاً الزيلعي في نصب الراية وابهم اسم عمر ونسب القول إلى الحاضرين قائلاً فتنازعوا وقالوا ما شأنه أهجر؟! استفهموه[٣].

وفعل عبدالرزاق الصنعاني فعل إخوانه فابهم اسم القائل وعزى القول إلى جماعة الحاضرين بنفس الجملة الاستفهامية[٤].

الاعتذار عن عمر

لطف الله بنا وبالحق أن الرواية أخرجها الشيخان ولذا تكلف القوم المشاق والأهوال التي أخرجتهم احياناً إلى الهجر والسخافات في توجيهها وتأويلها وتحويرها وتحريف كلمها عن مواضعه وابدالهم كلمة بأخرى مثل كلمة يهجر بغلبه الوجع ولن تضلوا بلا تضلوا مع حذف النون وهكذا.

ولو كانت مروية في كتاب آخر لسارع القوم إلى تكذيبها وإن كانت ثابتة صحيحة بل متواترة كائناً ما كان ذلك الكتاب كما فعلوا مع روايات كثيرة من هذا

---

(١) السنن الكبرى، ج٩ ص١٠٧.

(٢) البيهقي، دلائل النبوة، ج٧ ص١٨١.

(٣) نصب الراية، ج٣ ص٤٥٥.

(٤) مصنف عبدالرزاق، ج٦ ص٥٧ رقم الحديث ٩٩٩٢.

النوع. والذي حملهم على هذا الاهتمام بالعذر عن عمر فلإنّ ذلك يؤدي إلى كفره باعتباره.

أوّلاً: ردّاً على النبي والراد عليه راد على الله.

ثانياً: نسبة الهجر ومعناه الهذيان إليه ﷺ تكذيباً لقول الله: (لا ينطق عن الهوى) وردّاً لتعزيره وتوقيره الذين أمر الله بهما.

ثالثاً: يعتبر موقف عمر هذا ردّاً للسنة الثابتة القطعية وراد السنة كافر بحكم جميع الفرق الإسلامية.

نقل صاحب كتاب (حجية السنة) عن ابن عبدالبر: أنّه قد حكم على من ردّ السنة المتواترة بالارتداد[1] وهل أكثر تواتراً مما يراه المسلم من نبيه بعينيه ويسمعه بأذنيه.

وقال ابن حزم: وقال الله تعالى: (وما اختلفتم فيه من شيء فحكمه إلى الله) فوجدنا الله تعالى يردنا إلى كلام نبيّه ﷺ على ما قررناه آنفاً.

فلم يسع مسلماً يقر بالتوحيد أن يرجع - عند التنازع - إلى غير القرآن والخبر عن رسول الله ﷺ ولا أن يأبى عمّا وجد فيهما.

فإن فعل ذلك بعد قيام الحجة عليه فهو فاسق وأما من فعله مستحلاً للخروج عن أمرهما وموجباً لطاعة أحد دونهما فهو كافر ولا شك عندنا في ذلك.

وقد ذكر محمد بن نصر المروزي أن اسحاق بن راهوية كان يقول: من بلغه عن رسول الله ﷺ خبر يقر بصحته، ثمّ ردّه بغير تقيّة فهو كافر ولم تحتج في هذا باسحق، وإنما أوردناه لئلا يظن جاهل أننا منفردون بهذا القول وإنما احتججنا - في تكفيرنا - من استحل خلاف ما صح عنده عن رسول الله ﷺ بقول الله تعالى مخاطباً لنبيه ﷺ (فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليم).

هذه الآية كافية لمن عقل وحذر وآمن بالله واليوم الآخر وأيقن أن هذا العهد عهد ربه تعالى إليه ووصيّته عزوجل الواردة عليه.

---

(١) العلاّمة الدكتور عبدالغني عبدالخالق، حجية السنة، نقلاً عن كتاب جامع بيان العلم، ج٢ ص٣٢.

فليفتن الإنسان نفسه، فإن وجد في نفسه مما قضاه رسول الله ﷺ في كل خير يصححه مما قد بلغه أو وجد نفسه غير مسلمة لما جاءه عن رسول الله ﷺ ووجد نفسه مائلة عن قول فلان وفلان أو إلى قياسه واستحسانه أو وجد نفسه تحكم فيما نازعت فيه أحداً دون رسول الله ﷺ من صاحب فمن دونه فليعلم أنّ الله قد اقسم وقوله الحق أنّه ليس مؤمناً وصدق الله تعالى وإذا لم يكن مؤمناً فهو كافر ولا سبيل إلى قسم ثالث، إلى أن يقول: ولو أنّ امرأً قال: لا نأخذ إلاّ ما وجدنا في القرآن لكان كافراً بإجماع الأمة ولكان لا يلزمه إلاّ ركعة مابين دلوك الشمس إلى غسق الليل وأخرى عند الفجر لأن ذلك هو أقل ما يقع عليه اسم صلاة، ولاحد للأكثر في ذلك.

وقائل هذا كافر مشرك، حلال الدم والمال وإنما ذهب إلى هذا بعض غالية الرافضة مما قد اجتمعت الأمة على كفرهم، وبالله التوفيق[1] وما قاله ينطبق تماماً على ما نحن فيه فإن عمر ردّ السنة وقال حسبنا كتاب ربنا وقد تواتر الخبر عنه بذلك ولم يُكفَّر بل مدح على هذا القول وهذا الرد ونسب إلى الفقه والورع والعلم والاشفاق على النبي والحرص على الاجتهاد وتفضيل العلماء على غيرهم كما ستطّلع عليه إن شاء الله. وكُفّر غيره بل عصب الكفر في جبين الرافضة ولست اعرف عن هذه الغالية شيئاً.

والذي أعرفه أنّ عمر صاحب هذا القول وموقفه من السنة طيلة خلافته معلوم فقد حضر على الصحابة أن يرووا حديثاً عن رسول الله.

قال قرظة بن كعب خرجنا نريد العراق فمشى معنا عمر إلى صرار ثم قال لنا: اتدرون لم مشيت معكم؟ قلنا أردت أن تشيّعنا وتكرمنا؟ قال: إن مع ذلك لحاجة خرجت لها إنكم لتأتون بلدة لأهلها دوي كدوي النحل فلا تصدوهم بالأحاديث عن رسول الله وأنا شريككم.

وفي رواية أُخرى: إنكم لتأتون أهل قرية لها دوي بالقرآن كدوي النحل فلا تصدّوهم بالأحاديث، لتشغلوهم جوّدوا القرآن واقلوا الرواية عن رسول الله ﷺ

---

(١) العلاّمة الدكتور عبدالغني عبدالخالق حجيّة السنة، ص٢٥٢ وص٢٥٣ وص٢٥٤ نقلاً عن كتاب ابن حزم الأحكام في اصول الأحكام، ج١ ص٩٩.

وأنا شريككم فلما قدم قرظة قالوا: حدثنا قال: نهانا عمر[1].

إنّ هذا فعل من يريد اماتة القرآن حيث أنّ السنة ما هي إلاّ بيان وشرح وتفسير للقرآن فإذا أُميتت فمن الذي يتكفل بتفسيره وبيان معناه وإذا بقي القرآن بلا بيان وتفسير فما الفائدة منه حينئذ.

بل ذهب عمر بعدائه للسنة ابعد من هذا الشوط حين امر بتحريقها.

عبدالله بن العلاء قال: سألت القاسم بن محمد أن يملي عليّ أحاديث فقال: إنّ الأحاديث كثرت على عهد عمر بن الخطاب فأنشد الناس أن يأتوه بها فلما أتوه بها أمر بتحريقها ثم قال: مثناة كمثناة أهل الكتاب قال: فمنعني الناس القاسم بن محمد يومئذ أن اكتب حديثاً[2].

وبناء على ما تقدم فإن الغاية القصوى لهذا الرجل هي محو السنة. وقد دلّ ما تأخّر من عمله على ماتقدم.

وشيء آخر من هذا الرجل يعرب بما لا يدع مجالاً للشك عن عدائه الصريح للسنة النبوية هو تشبيهها بالمشنأة.

والمشنأة هي نص التلمود اليهودي ذلك أن التلمود وهو مجموع الشرايع اليهودية التي نقلت شفوياً مقرونة بتفاسير رجال الدين ينقسم إلى قسمين: المشنة وهي النص والجمارة وهي التفسير من هنا[3] لجأ عاشقوه إلى توجيه فعله وتخفيف شدته ودرء خطر الكفر عنه بخاصة ردّه الكتاب يوم الخميس.

قال النووي: خشي عمر أن يكتب أموراً فيعجزوا عنها فيستحقوا العقوبة عليها لأنها منصوصة لا مجال للإجتهاد فيها.

أقول: لو رزق الله النووي السلامة من هذا العذر لكان خيراً له لأنّه بناءاً عليه يكون عمر أرأف بالأُمة وأحنى عليها وانظر لها من نبيها فقد أراد لها نبيها العقوبة بكتابة ما تعجز عنه ولكنّ عمر تفضل فرفع عن الامة هذا التكليف وهذا ليس عذراً بل هو الكفر بعينه.

---

(١) اضواء على السنة المحمدية، ص٥٥.

(٢) نفسه، ص٤٧.

(٣) العلاّمة الكبير الدكتور الشيخ عبدالهادي الفضلي حفظه الله، اصول الحديث، ص٤١.

ولو ألقى النووي بالاً للرواية لوجد في قول النبي: لن تضلوا بعده قرينة صارفة عما توهم جنابه، فكيف يعِدُهم بعدم الضلال بعد كتابته ثم يكون سبباً في عجزهم وعقوبتهم وهل هذا إلاّ عين الضلال والأضلال وهل قول النووي إلاّ تكذيب لقول النبي ﷺ فلقد أدّى بهم الاعتذار عن صاحبهم بالباطل إلى كفرهم ويالالأسف.

وقال البيهقي: قصد عمر التخفيف على النبي عليه الصلاة والسلام حين غلبه الوجع ولوكان ما يريد النبي ﷺ أن يكتب لهم شيئاً مفروضاً لا يستغنون عنه لم يتركه باختلافهم ولغطهم لقول الله عزوجل بلغ ما أنزل إليك من ربك كما لم يترك تبليغ غيره بمخالفة من خالفه ومعاداة من عاداه[1].

أقول له: هذا عذر مضحك فأين التخفيف عنه من رميه بالهجر والهذيان والحيلولة بينه وبين نفاذ أمره واحداث صدع في صفوف المجتمعين. ظهرت آثاره على حياتهم إلى اليوم.

وآثارة الفتنة والخصومة بينهم بحيث ارتفعت أصواتهم عند من أمروا بان لا يرفعوا أصواتهم فوق صوته وسماه بعضهم لغطاً.

فآلم النبي ذلك وهو في السياق حتى طردهم من حضرته غاضباً عليهم آيساً من صلاحهم.

وأما قوله الثاني فنجيبه عليه: بأن هذا ليس أمراً جديداً ولا حكماً حادثاً ليبلغه على كل حال بل هو تأكيد لحكم وتحقيق لأمر متقدم سبق وأن أعلنه وبيّنه على رؤوس الأشهاد في أكثر من مناسبة وآخرها يوم غدير خم حين قال لهم: من كنت مولاه فهذا علي مولاه اللهم وال من والاه وعاد من عاداه.

ومع هذا فإنّ النبي لم يسكت عن تبليغه آنئذ حين أوصاهم بثلاث ذكروا اثنين وزعموا نسيان الثالثة ولو عقل البيهقي الدين عقل رعاية لا عقل رواية لعرف هذه الثالثة أنها ولاية علي وعرف لماذا طرحت ونسيت من حياة المسلمين.

وفي البخاري: وأوصاهم بثلاث قال: أخرجوا المشركين من جزيرة العرب

---

(١) البيهقي، دلائل النبوة، ج٧ ص١٨١.

واجيزوا الوفد بنحو ما كنت أجيزهم وسكت عن الثالثة أو قال: فنسيتها[1] وفي أكثر الروايات ذكر هذه الثلاث.

اعتذار الخطابي

أما اعتذاره الثاني عن عمر فهو الطامة الكبرى والمصيبة العظمى ولقد أصابه الهوى العمري وهو كالهوى العذري بحيث أخّر عقله وقدّم هواه، فراح يعتذر باعذار مهلهلة لا تستر عورة ولا تصون جسماً والقصد من ذلك توجيه عمل الشيخ وتبرئة ساحته من الكفر والضلال.

تسائل العيني في العمدة قائلاً: فإن قيل: كيف جاز لعمر أن يعترض على ما أمر به النبي عليه الصلاة والسلام قيل له: قال الخطابي[2]: لا يجوز أن يحمل قوله أنه توهم الغلط عليه أو ظن به غير ذلك مما لا يليق به بحاله لكنه رأى ما غلب عليه من الوجع وقرب الوفاة خاف أن يكون ذلك القول مما يقوله المريض مما لا عزيمة له فيه فيجد المنافقون بذلك سبيلاً إلى الكلام في الدين ....

ونقول له: برّئها من العيوب وعقر ولو لا جلال العلم واحترامنا لمن تزيّا بزيّه لقلنا في حقه من الكلام ما هو أهل له واسمع واعلم وافهم يا خطابي وانت يا من لف لفه لا توجد كلمة في العربية أوقع في الهجو وأجمع للذم من كلمة (يهجر) فإن معناها يهذي فكيف يعتقد في عمر أنّه لم يتوهّم الغلط وليته توهمه وأحسن القول لأن الإنسان قد يغلط من غير قصد ثم يتلافاه ولا غضاضة عليه به أما الهذيان ففيه ذهاب العقل وغياب حسّ الإدراك. وكيف يحسن الخطابي الظن في عمر بأنّه لم يظن في النبي ما لا يليق وهل عند الشيخ أن الهجر والهذيان مما يليق به ﷺ ولا يليق في عمر.

واسئل لو انني قلت اليوم في مسجد من مساجد الرياض أو جده أو مكة، أن عمر يهجر فما كنت ألاقي من شيعته؟!

---

(١) محمد بن اسماعيل، كتاب الصحيح، ج٦ ص١١.

(٢) عمدة القاري، ج٢ ص١٧١.

وأمّا قوله عن عمر: لما رأى ما غلب عليه من الوجع الخ فهذا تكرار لما قاله عمر ولكن بصيغة ادنى الى التهذيب. فالخطابي كسيده الصحابي يعتقد بالنبي الهجر فإنّا لله وإنّا إليه راجعون.

وأما قوله عن المنافقين فمتى كانت لهم كلمة مرهوبة بين المسلمين ألم يكن نفاقهم دليلاً على ضعفهم وخذلانهم.

ولئن صحت كلمة الخطابي هذه فإن قول المنافقين بعد رد عمر للكتاب وقوله عن النبي أنّه يهجر أكثر من أي مناسبة اخرى.

بل أعطاهم عمر الذريعة بعد رميه النبي الكريم بالهجر أن يتطاولوا على قدس النبي بمثله وبأكثر منه وهل بإمكان المنافق أن يقول باعظم مما قاله عمر أو فعله وهل وجد المنافق الجرأة في يوم من الأيام ليقول عن النبي أنّه يهذي ولقد تعدّى عمر بقوله هذا نفاق كل منافق.

وقال الخطابي: وقد كان الصحابة رضي الله عنهم يراجعون النبي عليه الصلاة والسلام في بعضى الأمور قبل أن يحزم فيها كما راجعوه يوم الحديبية في الخلاف وفي الصلح بينه وبين قريش فإذا أمر بالشيء أمر عزيمة فلا يراجعه أحد ....[1].

أقول: أما المراجعة التي هي الاستفهام والاستيضاح كما فعل الحباب بن المنذر بن الجموح حين خرج رسول الله يريد بدراً فنزل أدنى ماء من بدر فقال له الحباب: يا رسول الله أرأيت هذا المنزل، أمنزلاً أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخر عنه، أم هو الرأي والحرب والمكيدة؟ قال: بل هو الرأي والحرب والمكيدة فقال: يا رسول الله فإن هذا ليس بمنزل فانهض بالناس حتى نأتي أدنى ماء من القوم فننزله ثمّ نغوّر ما ورائه من القلب ثمّ نبني عليه حوضاً فنملأه ماءاً ثمّ تقاتل القوم فنشرب ولا يشربون فقال رسول الله ﷺ: لقد اشرت بالرأي[2] هذه هي المراجعة المقبولة المرضي عنها وعن صاحبها أما مراجعة الرد والعصيان والبذائة التي أغضبت النبي فطردهم من أجلها فهي مرفوضة من الأمة قاطبة وهي مذمومة

---

(١) العيني، عمدة القارئ، ج٢ ص١٧١.

(٢) الروض الأنف، ج٣ ص٢٦.

ومذموم صاحبهاوإن تأوّل له المتأوّلون ونحتوا له الأعذار كائناً من كان، ونسئل الخطابي عن هذه المراجعة التي قاس عليها مَن مِن صحابة النبي فعلها غير عمر وعصابته؟؟!

أليس هو صاحب صلح الحديبية، حين أنكره على النبي؟

أليس هو الشاك وقد أخبر عن نفسه وما نزل به مما سمّاه أمراً عظيماً؟ ولقد قال صاحبه له حين بدى الشك في نبوة رسول الله منه: الزم غرزه أنه لرسول الله حقاً.

أليس هو المنكر للفتح الوارد في الآية؟ فما كان يسميه فتحاً ردّاً على الله ورسوله؟

أليس هو المكذب للنبي في وعده لهم بدخول مكة حتى قال له النبي: أكنت قلت لك إنّنا ندخلها هذا العام؟

وهذه المراجعة العمرية من قبيل ردّ الكتاب ورمي النبي بالهجر تحكي عن نفس لم يستقر فيها الإيمان وإلاّ لوسعه الصبر والسكوت كما وسع سائر المسلمين في تلك الفترة. ومثله صاحبه سعد بن أبي وقاص في غنائم بدر وطلحة ابن عبيدالله في قضيّة الحجاب فهل كانت هذه مراجعات صحيحة حتى يفيس عليها الخطابي واضرابه؟!!

والعجب قوله: فإذا أمر بالشيء أمر عزيمه فلا يراجعه أحد: فاسئله أما كان صلح الحديبية أمر عزيمه لما اعترض عليه الفاروق واعلن شكه؟! ثمّ إن عدم تنزيه النبي ﷺ عن العوارض البشرية من أجل عمر حاك عن ضحالة الدين وتفضيل عمر على سيد المرسلين واتحاذ سنة عمر مثالاً تقاس عليها النبوة والشريعة والدين.

ومضافاً إلى كون الخطابي الذي اجتمع القوم على نقل اعتذاره كالعيني وابن حجر والكرماني في شروحهم على البخاري والنووي في شرحه لمسلم أقول: مضافاً إلى كونه يرسل القول على عواهنه فقد أساء إلى قدسية المصطفى ﷺ حين أقر عمر على ما تجرأ به على هذه القدسية المصونة وأكدّ قوله للنبي «يهجر» فقال: ومعلوم أنّه ﷺ وإن كان قد رفع درجته فوق الخلق كلهم فلم ينزّه عن العوارض

البشرية.. الخ[1].

وهذا عين ما قاله عمرو لكن بصيغة أخرى ويقول الخطابي: يجوز عليه الخطأ فيما لم ينزل عليه فيه الوحي واجمعوا كلهم أنّه لا يقر عليه.

أقول من أين علم هذا العاشق المتبول أن الوحي لم ينزل على النبي ساعة طلب الكتاب.

وإذا جاز عليه الخطأ فأين العصمة إذن وما الفرق بين النبي وبين من عداه بل يحمل هذا القول ضمناً تفضيل عمر عليه لأنهم اعتبروا النبي مخطئاً حين طلب الكتاب كما دلّ على ذلك فحوى اعتذارهم كما اعتبروا عمر مصيباً وهذا من مصائب الدهر وهو حاك عن رقة الدين عند هؤلاء القوم وإن ما عندهم مما يسمّى ايماناً بالله ورسوله لا يصب في مجرى الإسلام بل هو تعصب للباطل ودفاع عن الضلال وتيهٌ في مهاوي الزيغ. وهاهم يستدلون على صواب إمامهم بقضية مزعومة تصوروها بعقولهم ثم استنطبوا منها قضية أخرى وذلك أنّهم زعموا أن عمر لو لم يكن مصيباً لماترك النبي الإنكار عليه ونقول لهم ببساطة وهل يكون انكار أكبر من الغضب والطرد إنّ طردهم من حضرته دليل على غضبه عليهم وإنكاره.

ونقول للمازري - وهذا طامة اخرى - كما قلنا لصاحبه الخطابي: اخفقت يا شيخ في ترجيك بلعلّ فلو كانت هناك قرينة لما جرى من امامك من سوء الأدب ما جرى ولما انقسم الصحابة بين مؤيد ومفنّد ولو كانت قرينة لا تحد موقفهم أزاءها.

وقال القرطبي: (أئتوني) أمر وكان حق المأمور أن يبادر للأمتثال لكن ظهر لعمر وطائفة أنّه ليس على الوجوب وأنّه من باب الارشاد إلى الاصلح فكرهوا أن يكلفوه من ذلك ما يشق عليه في تلك الحالة مع استحضارهم قوله تعالى (مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ) وقوله تعالى: (تِبْيَاناً لِكُلّ شَيْءٍ) ولهذا قال عمر عنه: حسبنا كتاب ربنا وظهر لطائفة أخرى أنّ الأولى أن يكتب لما فيه من امتثال أمره ....[2].

أقول للقرطبي: لا يبقى محل لهذا الكلام بعد قول عمر: (يهجر) أو قول

---

(١) العيني، عمدة القارئ، ج٢ ص١٧١ وانظر فتح الباري وشرح الكرماني والنووي على مسلم.

(٢) العيني، ج٢ ص١٧١ وص١٧٢.

مرادفها (غلبه الوجع) فكلاهما من سنخ واحد.

والدليل على أنّه للوجوب ولم يكن ذلك ملحوظاً لعمر وعصابته قول النبي ﷺ لن تضلوا بعده ولقد جمع النبي بهذه الكلمة جوهر رسالته وهل ارسله الله إلاّ لنفي الضلال ولهداية الناس وإرشادهم.

ولو نظر عمر في مصلحة الأُمة دون مصلحته الشخصية لعرف الدلالة في قوله لن تضلوا ولكن غلبت عليه شهوة الحكم الذي يعد نفسه للوثوب عليه ولسارع بالإجابة ولم يحل بين النبي وبين الكتابة وتولّى كبر الرد على النبي وناء بثقل العصيان وتحمل كل ضلالة وفتنة ترتبت على ترك الكتابة فهي في عنقه وعنق من أعانه إلى يوم القيامة كما شاركه من اعتذر عنه.

وقفة قصيرة مع الحافظ بن حجر!!

حشد احبار المسلمين كل طاقاتهم العلمية للدفاع عن عمر فما وفقوا والحمد لله وجاء اعتذارهم اقبح من فعل عمر واستبان لنا مما سلف أن اعتذارهم أدّى إلى تخطئة النبي وإثبات العوارض البشرية أي يهجر عليه وتفضيل عمر عليه بالنقاط التالية:

أولاً: اخطأ في طلب الكتاب - وحاشاه من قول الجاهلين - وأصاب عمر.

ثانياً: أراد النبي أن يكلفهم ما يعجزون عن حمله فبادر عمر إلى رده فكان له الفضل على المسلمين حين حماهم من هذا التكليف الباهض.

ثالثاً: صار النبي في طلب الكتاب سبباً لتقول المنافقين على الإسلام ولكن عمر حماه منهم في رد الكتاب.

رابعاً: فضلوا عمر بالفقه على ابن عباس حين اكتفى بالقرآن ولم يكتف به ابن عباس ولازم هذا أن يكون عمر أفقه من رسول الله أيضاً لأنه لم يكتف بالقرآن وطلب منهم الكتاب.

ولا تكون نتيجة الاعتذار بالباطل أحط من هذه النتيجة وجاء دور ابن حجر العسقلاني فصب اهتمامه على قول عمر «يهجر» ولم يكن البادئ بذلك بل سبقه الرواة إليها حين اعيتهم الحيلة ولم يجدوا مخرجاً من هذا المازق وسدّت في

وجوههم المسالك إلاّ مسلكين:

الأول: خسارة الفاروق وهي خسارة جسيمة بخاصة إذا عرفنا أنّه ثالث الدعائم الحاملة لمذاهبهم تاريخاً ومعتقداً وفقهاً.

الثاني: اللعب بالنص روحاً ولفظاً وتحريف الكلم عن مواضعها وتبديل لفظة ثقيلة بأخرى أخف منها وإن كان المؤدى واحداً. وحمل جريرة الواحد على الجميع وهكذا.

وفعلاً فقد اختاروا الثاني كما اتّضح لك مما سلف وأهم ما في الرواية امور ثلاثة النبي وفاروقهم ولفظ يهجر أمّا النبي فقد جوزوا عليه ما لا يجوز بل ما نقاه القرآن عنه من أجل الاحتفاظ بالثاني فاروقاً ومحدّثاً وسراجاً للجنة ويثيب الله على حبه كما يثيب على التوحيد أو أكثر.

وأمّا عمر فنحتوا له الأعذار وقلبوا القضيّة لصالحه فاصبح العجيبة التاسعة في الدنيا وصارت القضية التي يكفّر بها غيره لو قالها أو فعلها تستنبط له منها المقامات السامية فهو الفقيه وهو المشفق على الإسلام وعلى النبي وهو حامي حمى الفضيلة والإجتهاد وهو عون العلماء ونصيرهم لأن النبي لو كتب الكتاب لبطل الاجتهاد وتضاءل دور العلماء أرأيت من هاهنا دهينا[1].

وأمّا لفظ (يهجر) فصيّروه هكذا: ما شأنه؟ أهجر؟ ونسبوا قول ذلك إلى جماعة الأصحاب الموجودين ساعتئذ بحضرة النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

وأنت تعلم أنّه من المستحيل طبعاً أن يقولها الجميع دفعة واحدة دونما سابق تقدم ولاحق اقتفى آثره وهذا واضح لمن تدبره لا مرية فيه فالسابق إليها عمر واديرت دفة الكلمة صوب غيره لتخف الوطأة عليه وهذا الإهتمام بالرواية إلى هذا الحد كان من أجله كما هو واضح. ثمّ شرعوا في ترقيص كلمة يهجر لتكون بمثابة الزئبق لا تستقر على حالة.

قال الحافظ: بهمزة بجميع رواة البخاري، وفي الرواية التي في الجهاد بلفظ (فقالوا هجر) بغير همزة ووقع للكشميهني هناك فقالوا: هجر هجر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم

---

(١) البيهقي، دلائل النبوة، ج٧ ص١٨٤.

أعادوا هجر مرّتين.

قال عيّاض معنى أهجر افحش يقال: هجر الرجل إذا هذى واهجر إذا أفحش الغرض من تغيير الفعل إلى الرباعي المهموز هو تغيير معناه إلى أفحش ونسبته إلى النبي الأكرم ﷺ أخف وطأة على عمر من نسبة الهجر.

ثم قال الحافظ بعد قبوله لتلخيص القرطبي وتقديمه على غيره وتسميته حسناً:

وحاصله أن قول هجر الراجح فيه إثبات همزة الاستفهام وبفتحات على أنّه فعل ماضي.

وبهذا التزويق للكلمة تبرد اللوعة على الحبيب إذا كان بنحو الاستفهام لا بنحو الخبر مع كونه منسوباً إلى الحاضرين جميعاً ومع حصول الشك بأن عمر ليس في القائلين ثمّ شرع الحافظ في تفسير الهجر بعد ضبطه بالضم ثم السكون قال والمراد به هنا: ما يقع من كلام المريض الذي لا يتنظم ولا يعتدّ به لعدم فائدته ووقوع ذلك من النبي ﷺ مستحيل لأنّه معصوم في صحته ومرضه لقوله تعالى: (وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى) ولقوله ﷺ: إني لا أقول في الغضب والرضا إلاّ حقاً وإذا عرف ذلك فانما قاله من قاله منكراً على من توقف في امتثال أمره بإحضار الكتف والدواة فكأنه قال: كيف تتوقف أتظن أنّه كغيره يقول الهذيان في مرضه؟ امتثل أمره وأُحضره ما طلب فإنّه لا يقول إلاّ الحق قال: هذا أحسن الاجوبة[1].

وقال الحافظ أيضاً ملخصاً قول القرطبي: ويحتمل أن بعضهم قال ذلك عن شك عرض له ولكن يبعده أن لا ينكره الباقون عليه مع كونهم من كبار الصحابة ولو أنكروه عليه لنقل.

ويحتمل أن يكون الذي قال ذلك صدر عن دهش وحيرة كما أصاب كثيراً منهم عند موته وقال غيره ويحتمل أن يكون قائل ذلك أراد أنّه اشتدّ وجعه فاطلق اللازم وأراد الملزوم لأن الهذيان الذي يقع للمريض ينشأ عن شدّة وجعه[2].

---

(١) ابن حجر، فتح الباري، ج٧ ص٧٣٩ وص٧٤٠.

(٢) فتح الباري، ج٧ ص٧٤٠.

ونقول له: أولاً تمطيط العبارة إلى هذا الحد وتحميلها هذه الجمل الطويلة يرده قول عمر: غلبة الوجع وهي العبارة الملطفة بل المحرقة عن «يهجر» وقد جعل القرطبي أو غيره ذلك أحد الاحتمالات ولكنه عكس فقد استنبط أن القائل نطق باللازم وهو الهذيان وأراد الملزوم وهو غلبة الوجع.

والعبارة المنسوبة إلى عمر هي الملزوم وأرادة اللازم. وعلى أية حال فالمؤدّى واحد والمحذور حاصل وما فر منه الحافظ وأصحابه وقعوا فيه. ولا يجدي التطويل فتيلاً.

وثانياً: كيف لم ينكره الصحابة وقد اختلفوا إلى درجة الخصومة راجع رواية ٧٣٦٦ من فتح الباري وفيها: واختلف أهل البيت واختصموا[1].

وفيم هذه الخصومة ليت شعري إن لم تكن في الإنكار على القائل. وأما قوله: لو أنكروا لنقل إلينا.

أقول الدواعي آنئذ متوفرة لكتمان كل شيء بخاصة والقائل هو الفاروق وقد أوتي وجماعته العصاة الحكم بعد رسول الله فكيف يبقون على أثر للحادثة وهل يظن عاقل أنهم يتركون ذيولهاعالقة بهم وهي حجة عليهم وواحدة من أسباب ادانتهم.

وأنت تعلم أن عمر حارب السنة واحرقها ونهى عنها وبعد هذا لا يبقى شك بأنّهم قضوا على كل أثر للحادثة. وهناك احتمالات باردة ركيكة اطلقها الحافظ ليس من داع لتحريرها هنا.

والواقع أن عمر هو قائل الكلمة الخبيثة وحده وساندته عصابته وقالوا: القول ما قاله عمر.

وكان هدفه من منع الكتاب أن لا ينص على علي عليه السلام ولو كتبه لردّه وحجّته أنه كتبه وهو يهجر فلا يعقل. وهذا الذي جعل النبي يعرض عن الكتابة لأنّ اختلافهم بعد طلبه أهون من اختلافهم بعد كتابته بل هو اختلاف لا يكاد يذكر بالقياس إلى ما يحدث من الشقاق العظيم والانقسام الشديد. وحينئذ تكفر الأُمة برمتها حال كتابة الكتاب وردّه.

---

(١) فتح الباري، ج١٣ ص٣٤٧.

ماذا أراد النبي أن يكتب!

لا يخالج ذا مسكة ريب أنّ موقف عمر الصلب وتحمسه الشديد لدفع الكتاب ليس عفو الخاطر أو هو وليد الارتجال أو الاندفاع الذي أملاه الدهش في تلك الساعة العصيبة والآونة الرهيبة من توديع نعمه واستقبال مصيبة، بل دلّت قرائن الحال أن الرجل ومعه أصحابه ومراكز القوى القرشية كانوا يعلمون بما ينوي النبي كتابته من النص المكتوب على صاحب الأمر بعده وحينئذ تردم في وجوههم المسالك وتخفق الخطة التي اجمعوا على تنفيذها بعد وفاة النبي، بخاصة وإن الكاتب للكتاب هو أميرالمؤمنين عليه السلام[1]. من هنا قامت قيامتهم وضحّوا بالدين من أجل دنياً يصطادونها وفعلاً عُجّلت لهم هذه اللذة وأجّل عنهم ما سوف يحاسبهم الله عليه.

وقد أشار المأرخون إلى طرف من ذلك، قال الخطابي في الكتاب الذي هم النبي بكتابته يحتمل وجهين:

أحدهما أنّه أراد أن ينص على الإمامة بعده فترتفع تلك الفتن العظيمة كحرب الجمل وصفين وقيل أراد أن يبيّن كتاباً فيه مهمات الأحكام، ليحصل الاتفاق على المنصوص عليه ثم ظهر للنبي صلى الله عليه وآله وسلم إن المصلحة تركه أو أوحي إليه به[2]. ورجح هذا القول ابن حجر[3].

وأنت إن جانبتك العصبيّة وأَصخت السمع لصوت العقل لتعلمن علم اليقين إن الصحيح هو الإحتمال الأول ولذا ثارت ثائرة الثاني وعصابته وإلاّ فما يضيره من كتابة الأحكام ولو ملأ بذلك رسول الله ألف طرس وطرس وهناك قول مضحك ذكره سفيان بن عينية وهو يدلّ على تخبط القوم في تيه بني السقيفة وهو كتيه بني اسرائيل.

وقال سفيان بن عينية: أراد أن ينص على اسامي الخلفاء بعده حتى لا يقع

---

(١) عمدة القارئ، ج٢ ص١٧١.

(٢) عمدة القاري، ج٢ ص١٧١.

(٣) فتح الباري، ج١ ص٢٥٢.

منهم اختلاف ويؤيده أنّه عليه السلام قال في أوائل مرضه وهو عند عائشة أدعي لي أباك وأخاك حتى اكتب كتاباً فإني أخاف أن يتمنّى متمنّ ويقول قائل ويأبى الله والمؤمنون إلاّ أبابكر[1].

وحرّف النووي قول سفيان فلم يذكر النص على الخلفاء بعده بل اقتصر على استخلاف أبي بكر فقال: وقد حكى سفيان بن عينية عن أهل العلم قبله أنّه صلى الله عليه وآله وسلم أراد أن يكتب استخلاف أبي بكر ثمّ ترك ذلك اعتماداً على ما علمه من تقدير الله تعالى ....[2] ونقول لهؤلاء المساكين: لو صحّ هذا أكان عمر يصاب بتلك اللوثة؟ أليس ذلك مراداً له ولجماعته وهل يريد عمر أكثر من النص على صاحبه وعليه من بعده؟ ولو علم ذلك لطار إليه مسرعاً ولم يتلكأ كيف وهو يستدلّ على تقديم أبي بكر بما يقال من تقديمه للصلاة ويبني من هذه الحبة قبة.

أكان يتراجع عن الكتاب لو علم بما فيه من تحقيق حلمه الذهبي بتولية صاحبه وبالنص عليه؟! أجل استندوا إلى هذا القول الخائب بما روته عائشة من أنّ النبي قال لها: ادعي لي أباك وأخاك حتّى أكتب كتاباً فإني أخاف أن يتمنّى متمن ويقول قائل ويأبى الله والمؤمنون إلاّ أبابكر أخرجه مسلم وللبخاري معناه[3].

وهذه الرواية موضوعه في مقابل رواية الكتاب ولولا أنها مروية في كتابي الشيخين لما ألقى أحد إليها بالاً لأنّها تحمل عناصر زيفها ويدلّ سياقها على وضعها.

ولو أنّ النبي أعدّ الصديق والد الصديقة لعروس الخلافة لما أخرجه مع أسامة بن زيد!!

ولو علم أبوبكر أو صاحبه بالكتاب لاحتج على أهل السقيفة به ولو صح الكتاب لما جاز له أن يقدم للبيعة عمر أو أبا عبيدة لأن ذلك يعتبر ردّاً لوصية النبي له ونصّه عليه.

ولو صحّ الكتاب لبطلت نظرية الاختيار والشورى ولكان شيعة علي وشيعة

---

(١) عمدة القارئ، ج١ ص١٧١، فتح الباري، ج١ ص٢٥٢، والقول الأول حذفه ابن حجر لأن فيه تأييداً لما تذهب إليه الشيعة.

(٢) النووي على مسلم، ج١١ ص٩٠.

(٣) راجع! العيني عمدة القارئ، ج٢ ص١٧١.

عتيق متساويين في ادعاء النص وترى القوم وفيهم الصديقة أشد الناس انكاراً للنص.

ولو صحّ الكتاب لما أنكر عبدالله بن أبي أوفى الوصية فقال لمن سأله: هل أوصى رسول الله ﷺ فقال: لا فقلت فلم كتب على المسلمين الوصية أو فلم أمروا بالوصية قال: أوصى بكتاب الله عزوجل[١].

ولما أنكرت عائشة الوصية فقالت: ما ترك رسول الله ﷺ ديناراً ولا درهماً ولا شاة ولا بعيراً ولا أوص بشيء[٢].

خاتمة المطاف

علمت مما تقدم حقيقة هذا الكتاب المبتلى ولماذا ردّه عمر وجماعته وعارضوه.

وكان هذا الكتاب مسرحاً لاستنباطات كثيرة، منها ما قاله النووي عن اتفاق العلماء المتكلمين على أنّه من دلائل فقه عمر وفضائله ودقيق نظره!!![٣]

ومنها ما قاله ابن بطال: وفيه شاهدٌ على بطلان ما يدعيه الشيعة من وصاية رسول الله ﷺ بالإمامة لأنه لو كان عند علي رضي الله عنه عهد من الرسول صلعم أو وصيه لأحال عليها ...[٤]

ونقول لهذا المسكين الواله المتحيّر: إنّ الشيعة لا تدّعي بأن الوصية عبارة عن صك كتبه النبي واعطاه بيد الإمام عليه السلام وإنما هي أحاديث متواترة صرّح بها النبي بوصايته ووراثته وخلافته من بعده بلغت المئات كحديث يوم الدار وحديث الغدير والثقلين وما إلى ذلك.

---

(١) رواه البخاري في الوصايا والمغازي وفضائل القرآن ورواه مسلم في الوصايا والترمذي في الوصايا، والنسائي في الوصايا وابن ماجة في الوصايا. راجع تحفة الاشراف، ج٤ ص٢٨٤.

(٢) أخرجه مسلم في الوصايا وأبو داود في سننه كتاب الوصايا والنسائي في الوصايا الكبرى وابن ماجة في الوصايا راجع تحفة الاشراف، ج١٢ ص٣٠٨.

(٣) النووي على مسلم، ج١١ ص٩٠.

(٤) الكرماني على صحيح البخاري، ج٢ ص١٢٨.

والآن أراد النبي ﷺ أن يقرن القول بالعمل لأن الحديث المسموع عرضة للزيادة والنقصان وهو معرض أيضاً للنسيان.

من ثم طلب الكتاب لينص عليه تحريراً كما نص عليه شفهياً وعلم عمر بذلك فمنعه واحدث فتنة أعانه عليها عصابة الانقلاب على الاعقاب ولو كتبه النبي ﷺ لكانت المصيبة أكبر والرزية أعظم لأن القوم مجمعون على الخلاف ولو كتب ألف كتاب وكتاب وهم قد عارضوه في تأمير أسامة على سرية حتى لعنهم فكيف يرضون بتأمير علي على الأمة واستخلافه.

وحينئذ ما الذي يحول بين عمر وبين أن يقول إنّ الكتاب كتب والنبي مشف على الموت وهو في حالة ..... فلا تقبله. وحينئذ تكفر الامة قاطبة برده والنبي إن ترك تبليغ ما أمره الله به تحريراً فما تركه قولاً حيث أوصاهم بثلاث وهذا تمام الحديث:

أخرجوا المشركين من جزيرة العرب وأجيزوا الوفد بنحو ما كنت أجيزهم وسكت عن الثالثة أو قال فنسيتها.

وهذه الثالثة هي التي أراد النبي أن يكتبها وهي وصية الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام وخلافته ولهذا نسيت فلم تذكر. وأخيراً نقول: إن جميع الفتن والمصائب والحروب والاقتتال وما جرى في خلافة عثمان وبعده من حروب الجمل وصفين والنهروان وحرب كربلاء وما كان بين بني امية وبني العباس وفتن الخلافة ومخالفات الأحكام والدماء التي سفكت والأموال التي نهبت والأعراض التي هتكت في حرب الحرة وغيرها. وكل ضلال اصيبت به الأمة الاسلامية امس واليوم في عنق اولئك الذين منعوا كتابة الكتاب وقد أخبرهم نبيهم ﷺ: لن تضلوا بعده. فقل لعشاق أبي حفص: قولوا ما تشائون واعتذروا عنه بما ترون وأوّلوا وغيّروا وبدّلوا فإن الحق أقوى من كل قوة والباطل زاهق والحمد لله.

وإنما أطلنا في التعليق على هذا الكتاب فلأنه فاتحة الانقلاب على الاعقاب. ومن دقق نظره فيه عرف ما بيّته القوم لأهل البيت عليهم السلام بعد وفات النبي الأعظم. وكانت المواقف من الصحابة بداية تلك المصائب التي حلت بأهل البيت.

وقامت عليهم بعد ما غاب أحمد مصائب غيٍّ اظهرت كامن الحقد[1]

وقد نقضت عهد النبي بآله الهداة وقل الثابتون على العهد

قال أميرالمؤمنين عليه السلام في خطبته المسماة: بالشقشقيّة:

إلى أن قام ثالث القوم نافجاً حضنية بين نثيله ومعتلفه وقام معه بنو أبيه يخضمون مال الله خضمة الإبل نبتة الربيع إلى أن انتكث فتله وأجهز عليه عمله وكتب به بطنته[2].

يعد الاجراء الذي اتخذه النبي صلى الله عليه وآله وسلم قبل وفاته من تسريح جيش اسامة وطلب الكتاب فرصة نادرة لم يمكن اهتبالها حتى سقط الحكم بأيد أقل ما يقال فيها إنها ليست معدة من الله لممارسته بل تم لها الانتزاء على دسته بمعونة ظروف خاصة ذكرها أكثر المؤرخين ليس هنا موضع ذكرها ونرشد بالرجوع إلى كتاب (السقيفة) للعلامة المظفر فقد أشبع الموضوع بحثاً دونما تطويل ممل رحمه الله رحمة واسعة. وبدأت من يومئذ معالم المجتمع الاسلامي بالتغيير وتبدل وجهه الناصع بأشراقة الإسلام وتربية النبي الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم إلى وجه مظلمة سحناته عابسة قسماته كسته حروب ما يسمّى بالرده بلون داكن من البؤس والظلم والارهاق.

وتعتبر هذه الحرب اولى مراحل التغيير بل هي فاتحة العهد الجديد للسياسة التي صودر بها المسلم في دينه ودنياه.

فصار يهدر دمه بعقال البعير وتوضع أسراه بالمئات وفيهم النساء والاطفال والعجزة في الاخاديد وتضرم عليهم النار ويخرق بالنبال ويرمى به من رؤوس الجبال الشاهقات ويوضع رأسه أثفية للقدور ويدخل بنسائه ليلاً قبل أن تجف دماء أزواجهن أو تستبرء أرحامهن وعوملن بما لم يعامل به نساء أهل الشرك من القسوة والوحشيّة.

وراحت هذه البداية المزعجة تتأشب أغصانها على يد أبي حفص وتؤتي

---

(١) شعر الشيخ حسن الدجيلي رحمه الله، انظر: ادب الطف، ج٩ ص٣٢٠.

(٢) مغنية، في ظلال نهج البلاغة، ج١ ص٩٠، ثالث القوم عثمان، نافجاً أي رافعاً نثيله يعني روثه والمعتلف من العلف يخضمون يأكلون وفتل الحبل لواه والبطنة التخمة.

أكلها على يد عثمان إلى أن أضفت عليها سياسة نعثل ووزيريه مروان والوليد وغيرهم من الشجرة الملعونة بشاعة السحنة الأموية.

الحكم الأموي

اعتبر مجيء عثمان إلى الحكم فرصة طيبة لأعداء الإسلام القدامى الذين سعروا الجزيرة العربية حرباً عليه وصيّروها سجالا إلى أن نصره الله عليهم ورد كيدهم في نحورهم على أن عثمان ليس بأفضل ممن جاء بعده لو لا ما كان يحذره من وجود المهاجرين والانصار ممن لا يرضيهم التغيير في سلوك الحكم المفاجئ.

لذلك نراه عمد إلى التغيير الحذر أي أنّه وبني أبيه راحوا يُغيّرون في سياستهم ببطئ فظلوا قرابة ست سنوات يتهادون في أحضان الشهوات والفساد وفي كل خطوة يخطوها حكمهم إلى الوراء يتم نقض جانب من معالم البناء الخلقي للمجتمع الإسلامي.

وأوشك البناء أن ينهار من القاعدة ولكن الثورة الشعبية على عثمان تداركته وخلصت الأُمة من عثمان وحزبه.

خلا أن هذا الخلاص، لم يتمّ بالشكل المطلوب جماهيريّاً لوجود مواقع في بلاد الإسلام لم تنق من بُؤر الفساد الذين أعانوا عثمان ورتعوا معه. مما حُتم على الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام أن يخوض حروب الناكثين والقاسطين والمارقين وكانت من أشد الحروف ضراوة.

بخاصة تلك التي خاضها الإمام ضد الحثالة الأُموية ولم يتسنّ للإمام على إثر هذه الحرب الشاغلة أن يطهر الإسلام مما علق به من أوضار الحكم العثماني الأُموي.

فرحل شهيداً وما تزال القوى المعادية للإسلام تعيث فساداً في بلاد الله وعباده.

وبدأت الحقبة الأموية التي استمدت شرعيتها من خلافة الثلاثة وهي امتداد طبيعي لتلك الفترة بخاصة فترة الحكم العثماني.

اعرب عن ذلك معاوية في كتابه إلى محمد بن أبي بكر رضي الله عنه جواباً على كتابه

إليه فقد كتب إليه محمد عليه الرحمه يؤنبه ويقرعه تقريعاً شديداً ويقول له: بعد ذكره لفضل الإمام وسابقته ووجوب حقه على الأمة أول من أجاب وأناب وآمن وصدق واسلم وسلم أخوه وابن عمه علي بن أبي طالب صدّقه بالغيب المكتوم وآثره على كل حميم ووقاة بنفسه كل هول وحارب حربه وسالم سلمه فلم يبرح مبتذلاً لنفسه في ساعات الليل والنهار والخوف والجوع والخضوع حتى برز سابقاً لا نظير له في فعله وقد رأيتك تساميه وأنت أنت وهو هو. اصدق الناس نية وأفضل الناس ذرية وخير الناس زوجة وافضل الناس ابن عم أخوه الشاري بنفسه يوم مؤته وعمه سيد الشهداء يوم أحد وأبوه الذاب عن رسول الله وعن حوزته وأنت اللعين ابن اللعين لم نزل أنت وأبوك تبغيان لرسول الله ﷺ الغوائل وتجهدان في اطفاء نور الله تجمعان في ذلك الجموع وتبذلان فيه المال وتؤلبان عليه القبائل وعلى ذلك مات أبوك وعليه خلفنه.....[1]

فأجابه معاوية بكتاب طويل وفيه: فقد كنا وأبوك فينا نعرف فضل أبي طالب وحقه لازماً لنا مبروراً علينا فلما اختار الله لنبيّه عليه الصلاة والسلام ما عنده وأتم له ما وعده وأظهر دعوته وابلج حجته وقبضه الله إليه صلوات الله عليه فكان أبوك وفاروقه أول من ابتزه حقه وخالفه على أمره على ذلك اتفقا واتسقا ثمّ إنهما دعواه إلى بيعتهما فابطأ عنهما وتلكأ عليهما فهما به الهموم وأرادا به العظيم[2] ثم إنّه بايع لهما وسلّم لهما وأقاما لا يشركانه في أمرهما ولا يطلعانه على سرّهما حتى قبضهما.. الله إلى أن يقول: فإن يكُ ما نحن فيه صواباً فأبوك استبدّ به ونحن شركائه ولو لا ما فعل أبوك من قبل ما خالفنا ابن أبي طالب ولسلمنا إليه ولكنا رأينا أباك فعل ذلك به من قبلنا فاخذنا بمثله فعب أباك بما بدالك أودع .....[3] أجل كان معاوية فيما قاله عن أبي بكر وفاروقه محقاً فهما اللذان فتحا باب الشر على أهل البيت فاقتدى بهما من اقتدى.

اســـس الســـابقون شـــر اســـاس وبـــنى اللاحقـــون شـــر بنـــاء

---

(١) المسعودي، مروج الذهب، ج٣ ص١١.

(٢) وهذا يدلّ على أنّهما اضمرا لعلي عليه السلام الاغتيال كفعلهما بسعد بن عبادة رحمه الله.

(٣) المسعودي، مروج الذهب، ج٣ ص١٢ وص١٣.

فلا أرى لقول السيد ابن عقيل وجهاً مقبولاً حين قال تعقيباً على كتاب محمد لمعاويه: فما كان جواب معاوية إلاّ أن ادّعى أن الشيخين أبابكر وعمر سبقاه إلى ما اقترف وأنه متاس بهما وحاشاهما ممّا ادّعى فقد كذب عليهما ولعنة الله على الكاذبين[1].

ولا أظن السيد ﵀ ينكر ما جره القوم على علي وأهل بيته يوم السقيفة وليس بالإمكان إنكار ذلك ولا نلوم السيد على حسن ظنه بهما فله رأيه الخاص.

واستطاع معاوية أن يركز على هذا الجانب تركيزاً دعائياً ضخماً إلى أن أوجد له مباءة بين القوم فاضحى وكأنّه امتداد لخلافتهم ومن هذه القاعدة التي بناها لنفسه اندفع بكل ثقلة ووراثه قريش والأموية لتغيير القيم الأخلاقية للجماعة الإسلامية وهي القيم التي نادى بها الإسلام وأقرّها كجزء لا ينفصل من رسالة الإسلام الكبرى وبما أن الرعية على دين ملوكها والناس بأمرائهم اشبه منهم بآبائهم فقد صار المجتمع بمثابة المرآة التي تعكس أخلاق وسلوكيّات الحكم والآن نحن على موعد للتعرف على طبيعة الحكم الأموي من خلال رمزيهِ معاوية ويزيد.

الحكم الاموي معاوية ويزيد وتدهور الأخلاق على أيديهما

طمع معاوية بالحكم بعد مجيء عثمان إليه واعتبره تمهيداً لحكمه القادم مع الأيام وكان يبوح احياناً ببعض ما دار بخلده حول هذا المعنى فقد روى أبوبكر ابن أبي شيبة بسنده إلى معاوية أنّه قال ما زلت أطمع في الخلافة منذ وقال رسول الله ﷺ: إذا ملكت فاحسن[2].

فكان يعد نفسه للخلافة موجهاً بموجات هذا الطمع وأوقد له عمر تحت هذا الطمع بالتدبير الذي اتخذه لتنحية علي وضمان مجئ عثمان إلى الخلافة ألم معاوية بذلك حين نفذ إلى دخيلة عمر فعلم أنّ هواه أموي مع أنّه كان يقول لعبد الرحمن بن

---

(١) محمد بن عقيل، النصائح الكافية، ص٤٢.

(٢) ابن حجر الهيثمي، تطهير الجنان واللسان، ص١٥، المطالب العالية، ج٤ ص١٠٨.

عوف: ألم يكن فيما نقرأ قاتلوا في الله في آخر مرة كما قاتلتم أول مرة قال: متى ذلك قال إذا كانت بنو امية الأمراء وبنو مخزوم الوزراء[1] يروي هذا عنهم ويمدّ لهم في الطغيان إنّ هذا لشيء عجيب ويراهم في الشرف تلو بني هاشم لأنّه ثنّى بهم بعد وضع الديوان فقد بدأ ببني هاشم والمطلب فاعطاهم جميعاً ثمّ اعطى بني عبد شمس[2] واعتقد أن هناك علاقة سرية بينه وبينهم تقدّمت اسلامه.

وقيل إن عمر تعلم القرائة والكتابة على يد أبي سفيان من هنا ما زال عمر يشعر بفضله وتقدمه عليه حتى بعد أن اسلم.

عن يحيى بن عبدالرحمن بن حاطب عن أبيه قال: قدمنا مكة مع عمر فأقبل أهل مكة يسعون يا أميرالمؤمنين أبو سفيان حبس مسيل الماء علينا ليهدم منازلنا فاقبل عمر ومعه الدرة فإذا أبوسفيان نصب أحجاراً فقال له: ارفع هذا فرفعه وهذا فرفعه ثم قال: وهذا وهذا حتى رفع احجاراً خمسة أو ستة ثم استقبل عمر الكعبة فقال: الحمدلله الذي جعل عمر يأمر أباسفيان فيطيعه وهذا يدلّ على تصاغر الرجل في نفسه أمام أبي سفيان ولم يكن أبو سفيان في الجاهلية بالمنزلة التي يهابه الناس أو يعظمونه ولكنّ حالة خاصة في نفس عمر تجاه الأمويين قد يفصح عنها الزمان على يد المحققين.

تعلقت سياسة عمر بالأمويين وأنّه ليعلم أن لاكفاء بغيرهم في عداء علي والهاشميين لذلك والاهم ووالوه ووراء هذا الولاء السياسي قوىً ضاربة من قريش واحلافها.

وكان رصيد معاوية في طمعه بالحكم هذا الولاء وكان بامكانه الركون إليه والاتكال عليه فيما إذا ساعدته الريح وأدار شراع سفينته تجاه الحكم والذي حمل معاوية على الأسراف في هذا الحلم الذهبي هو طول امارته على الشام.

البلد الخصب ذي الحضارة القديمة والرخاء العتيد فقد اعتبر ذلك مقدمة منتجة لنيل الخلافة بخاصة وقد أطمعه عمر فيها من خلال أقوال عزيت إليه وبلغ

---

(١) محمد بن عقيل، النصائح الكافية، ص١٤٠.

(٢) ابن الجوزي، تاريخ عمر بن الخطاب، ص٩٦.

معاوية صداها وكان استشعرها في نفسه وعثمان ما يزال حياً.

وذلك حين قدم المدينة سنة أربع وثلاثين ووقف على مجريات الاحداث فعلم أن عثمان مقتول لا محالة.

ذكر ابن كثير نقلاً عن ابن جرير: أن معاوية استشعر الأمر لنفسه من قدمته هذه إلى المدينة وذلك أنه سمع حادياً يرتجز في أيام الموسم من هذا العام وهو يقول:

قـــد علمـــت ضـــوامر المطـــي وضـــمّرات عـــوج العيـــني

أن الأمـــير بعـــده علـــي وفي الـــزبير خلـــف رضـــي

وطلحة الحافي لها ولي

فلما سمعها معاوية لم يزل ذلك في نفسه حتى كان ما كان[1] وابن كثير هنا ذكر النص غامضاً بحذف شيء من تفصيله وذكره في الجزء الثامن تاماً قال وكيع عن الأعمش عن أبي صالح قال: كان الحادي يحدو بعثمان فيقول:

أن الأمـــير بعـــده علـــي وفي الـــزبير خلـــف رضـــي

فقال كعب: بل هو صاحب البغلة الشهباء يعني معاوية فقال: يا ابا اسحاق تقول هذا وهاهنا علي والزبير وأصحاب محمد ﷺ فقال أنت صاحبها[2]. أترى أن كعباً اعلمه بعلم الغيب ولا يعلم الغيب إلاّ الله أم هي الأسرار العمرية التي رشحت إلى مستشاره كعب فاعلنها كبشارة تزف إلى معاوية.

وأحسب أن ابن كثير في روايته الناقصة يشير إلى أن معاوية ايقن بقتل عثمان فاضمر في نفسه العصيان على من يخلفه في الأمر ولكن الأمر أبعد من ذلك.

فقد عرف معاوية أن هوى الناس في علي عليه السلام وإن الحكم صائر إليه حتماً. من ثمّ راح يعيد حساباته مع الأحداث الماضية والمستجده.

واسترجع الأسرار المحوّلة إليه من ولي نعمه عمر ومنها تفويت الفرصة على علي إذا صار الأمر إليه وشن حرب على حكمه بأي ثمن كان ومن شديد عداء عمر لعلي أنّه كان يرتجف فرقاً إذا تصوّر البيعة تتم لعلي عليه السلام.

---

(١) ابن كثير، البداية والنهاية، ج٧ ص١٧٧.

(٢) البداية والنهاية، ج٨ ص١٢٩ وص١٣٠، والذهبي سير أعلام النبلاء، ج٣ ص١٣٦.

وكان يرضاها لكل أحد سالم مولى حذيفة بن اليمان ومعاوية وعثمان إلاّ لعلي عليه السلام. وإنه ليعد تفويت الفرصة على علي من أولى همومه. ولقد سمع كلمة في خلافته عن البيعة انخلع لها لبه وطاش صوابه.

عن ابن عباس قال: كنت عند عبدالرحمن بن عوف في خلافة عمر بن الخطاب فلما كان في آخر حجة حجّها عمر أتاني عبدالرحمن بن عوف في منزلي عشاءاً فقال: لو شهدت أميرالمؤمنين اليوم وجاءه رجل وقال: يا أميرالمؤمنين إني سمعت فلاناً يقول: لو مات اميرالمؤمنين لبايعت فلاناً، فقال عمر إني لقائم العشيّة في الناس ومحذرهم هؤلاء الرهط الذين يريدون أن يغتصبوا المسلمين أمرهم فقلت: يا أميرالمؤمنين إن الموسم يجمع رعاع الناس وغوغائهم وأنّهم الذين يغلبون على مجلسك وإني أخشى أن تقول اليوم مقالة لا يعونها ولا يضعونها مواضعها وأن يطيروا بها كل مطير ولكن أمهل يا أميرالمؤمنين حتى تقدم المدينة فإنّها دار السنة ودار الهجرة فتخلّص بالمهاجرين والأنصار وتقول ما قلت متمكناً فيعون مقالتك ويصغونها مواضعها قال عمر: أما والله لأقومن به في أول مقام أقومه بالمدينة قال ابن عباس: فلما قدمنا المدينة وجاء يوم الجمعة هجّرت لما حدثني به عبدالرحمن بن عوف فوجدت سعيد بن زيد ابن نفيل قد سبقني بالهجرة جالساً إلى جنب المنبر فجلست إلى جنبه تمس ركبتي ركبته فلما زالت الشمس خرج علينا عمر فقلت وهو مقبل أما والله ليقولنّ اليوم أميرالمؤمنين على هذا المنبر مقالة لم يقل عليه أحد قبله قال: فغضب سعيد بن زيد فقال: واي مقال لم يقل قبله فلما ارتقى عمر المنبر أخذ المؤذن في أذانه فلما فرغ من أذانه قام عمر فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ثم قال: أما بعد! فإني أريد أن أقول مقالة قد قدّر لي أن أقولها لا أدري لعلها بين يدي أجلي فمن عقلها ووعاها فليحدث بها حيث تنتهي به راحلته، ومن خشي أن لا يعيها فإني لا أحل لأحد أن يكذب علي إن الله بعث محمداً صلى الله عليه وآله وسلم بالحق وأنزل عليه الكتاب وكان مما أنزل عليه آية الرجم فقرأناها ووعيناها فرجم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ورجمنا بعده وإني خائف أن يطول بالناس زمان فيقول قائل ما نجد الرجم في كتاب الله فيضلوا بترك فريضة أنزلها الله.

ألا وإنّ الرجم على من أحصن إذا زنى وقامت عليه البينة أو كان الحمل أو

الاعتراف ثم إنا كنا نقرأ ولا ترغبوا عن اباكم ثم إنّ رسول الله ﷺ قال: لا تطروني كما اطرت النصارى عيسى بن مريم فإنما أنا عبد فقولوا عبدالله ورسوله.

ثم إنّه قد بلغني أن فلاناً منكم يقول: لو قد مات أميرالمؤمنين لقد بايعت فلاناً فلا يغتر أن يقول: إنّ بيعة أبي بكر كانت فلتتة فقد كانت كذلك ألا وإن الله وقى شرها ودفع عن الإسلام والمسلمين ضرّها ....[1] والذي يعنينا من هذا الكلام الذي نقلنا أكثره ذكر فلان وفلان فمن هما هذان الفلانان؟! لقد أبهم ابن حبان اسمهما في الرواية التي أخرجها لكي يلبس على نفسه وعلى قومه. أما نحن فلابدّ لنا من البحث لنقع على الحقيقة فمن خلال معرفتها نعرف الكثير من الأُمور ونطل على واقع الحق الضائع ولئن كان ابن حبان كتم الحقيقة فإن البلاذري صرّح بها في الرواية التي أخرجها عن ابن عباس قال: بلغني أنّ عمر بن الخطاب أراد الخطبة يوم الجمعة فعجّلت الرواح حين صارت الشمس صكّة عمي فلما سكت المؤذنون خطب فقال: إني قائل مقالة لا أدري لعلها قدام اجلي فمن وعاها فليتحدث بها حيث انتهت به راحلته ومن خشي أن لا يعقلها شيء فإني لا أحل لأحد أن يكذب علي ثم قال: بلغني أن الزبير قال: لو قد مات عمر، بايعنا علياً وإنما كانت بيعة أبي بكر فلتة ....[2]

عرفنا من رواية البلاذري الاسمين المبهمين فهما علي عليه السلام والزبير أجل علي والزبير. فما بال الشيخ تناولته الوساوس واستبدت به الهواجس وانتابه قلق وخوف شديدان؟ إنّ علياً عدوه اللدود يلوح له بالخلافة التي يريد عمر تقويتها عليه لتفوت بني هاشم أيضاً الذين لا ينبغي جمع النبوة والإمامة في بيتهم وهذه إرادة حتمتها عليهم قريش وعبّر عنها عمر في أقواله وسيرته مرات عديدة.

وفي موطن آخر يشير عمر إشارة شبه صريحه إلى دفع علي عن حقه وترك بيعته وذلك في حادثة الشورى لما طعنه غلام المغيرة بن شعبة فقد قال لأهل الشورى لا تختلفوا فإنّ معاوية وعمراً بالشام[3].

ومعنى قوله لا تختلفوا أي لا تبايعوا علياً لعلمه أن قريشاً لا ترضى ببيعته فلو

---

(١) ابن حبان، كتاب الثقات، ج٢ ص١٥٢.

(٢) انساب الأشراف، ج٢ ص٢٦١ وص٢٦٢.

(٣) نثر الدر، ج٢ ص٣٧.

بويع لاختلفوا عليه حتماً يشهد لما نقول: قوله لابن عباس: يابن عباس أنت ابن عم رسول الله، وأبوك عم رسول الله ﷺ قال: نعم قال بخ بخ فما منع قومكم منكم؟ قال: لا أدري فوالله ما كنا لهم إلاّ بالخير قال اللهم غفراً على كره قومكم أن تجتمع فيكم النبوة والخلافة فتذهبون في السماء شمخاً لعلكم تقولون إنّ أبابكر أول من فعل ذلك والله ما فعله ولكن حضر أمر لم يكن بحضرته أحزم مما فعل ولولا رأي أبي بكر فيّ لجعل لكم من الأمر نصيباً ولو فعل ما هنأكم مع قومكم أنهم ينظرون إليكم كما ينظر الثور إلى جازره[1].

لعلّه لا يقصد بالثور غير بني امية لأنهم الذين جزرهم بنوهاشم في حروب الإسلام والشرك والعجيب في أمره أنّه يسمي الخلافة في رواية ألآبي حقاً لبني هاشم ويسميها في رواية ابن حبان اغتصاباً.

وعلى أية حال فإنّ الاختلاف في نظره ينشأ من بيعتهم علياً وليس من سبب يدعوهم إلى ذلك سوي البيعة لعلي وفي رواية أُخرى يقول: إياكم والفرقة بعدي فإن فعلتم فاعلموا أنّ معاوية بالشام وستعلمون إذا وكلتم إلى رأيكم كيف يستبرها دونكم.

وقال أيضاً لأهل الشورى: إن اختلفتم دخل عليكم معاوية بن أبي سفيان من الشام وبعده عبدالله بن أبي ربيعة من اليمن فلا يريان لكم فضلاً إلاّ سابقتكم[2].

والحق أحق أن يتبع فنحن لا نتّهم الفاروق جزافاً لأنّ ذكره لمعاوية قرينة على طلبه اختيار عثمان فإن معاوية لا يدخل عليهم من الشام إذا ما بايعوه.

وأنّ الزمن اثبت صحة رأيه فقد دخل معاوية من الشام حين تمت لعلي عليه السلام البيعة وحاربه وفوّت عليه الفرصة وهذا ما توخاه عمر.

---

(١) الآلي، نثر الدرر، ج٢ ص٢٨، الهيئة المصرية للكتاب ١٩٨١.

(٢) ابن منظور مختصر تاريخ دمشق، ج٢٥ ص٢٥، دارالفكر ١٤٠٩.

عمر ومعاوية

كان معاوية في نفسه أذل وأقل من أن تحدثه بسلطان أوامره لولافعل عمر معه وتأييده إياه وقد وصفه النبي ﷺ بأنّه صعلوك لا مال له .....[١] وكان احياناً يتحدث عن هذه الصعلكة إذا ما خلا باصحابه.

قال ذات يوم قدم علقمة بن وائل الحضرمي على رسول الله ﷺ فأمرني رسول الله أن انطلق به إلى منزل رجل من الأنصار أنزله عليه وكان منزله في اقصى المدينة فانطلقت معه وهو على ناقة له وأنا أمشي في ساعة حارة وليس عليّ حذاء فقلت احملني يا عم من هذا الحر فإنه ليس عليّ حذاء فقال: لست من أرداف الملوك قلت: إني ابن أبي سفيان قال: سمعت رسول الله يذكر ذلك قال قلت: فألق إليّ نعلك قال: لا تقبلها قدماك ولكن امش في ظل ناقتي فكفاك بذلك شرفاً وإن الظل لك لكثير قال معاوية: فما مرني مثل ذلك اليوم قط .....[٢]

وكان وائل هذا أحد أقيال حضر موت وكان أبوه من ملوكهم ويقال: إنّ رسول الله ﷺ بشر أصحابه قبل قدومه به وقال يأتيكم بقيّة ابناء الملوك فلما دخل رحب به وادناه من نفسه وقرب مجلسه وبسط له ردائه وقال اللهم بارك في وائل وولده وولد ولده واستعمله على الأقيال من حضر موت وكتب معه ثلاث كتب إلى أن قال ابن كثير: واقطعه ارضاً فليس كما يزعم معاوية أرسله لينزل وليس في رواية ابن كثير ذكر لأبي سفيان[٣] وفي التذكرة الحمدونية مثل ذلك وفيها أن وائلاً قال لمعاوية حين طلب نعله: ما بخل يمنعني يابن أبي سفيان ولكن أكره أن يبلغ أقيال اليمن إنك لبست نعلي ولكن امش في ظل ناقتي فحسبك بها شرفاً .....[٤] لم تكن لمعاوية مأثرة في الجاهلية يعتز بها وكان بهذه المثابة من الضعه والمهانة وتكفي في بيان حقيقته

---

(١) الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج٣ ص١٢٢، الآبي نثر الدرر، ج١ ص٢٥١، التوحيدي / البصائر والذخائر، ج٢ ص٧٨.

(٢) ابن قتيبة، عيون الأخبار، ج١ ص٢٧١.

(٣) ابن كثير، البداية والنهاية، ج٥ ص٧١ وص٧٢.

(٤) ابن حمدون، التذكرة الحمدونية، ج٣ ص٩٧، راجع ابن سعد، الطبقات، ج١ ص٣٤٩.

صعلكته التي أخبر عنها الصادق المصدق ﷺ.

إلا أنّ بزّة الحكم التي ارتداها في الإسلام بتدبير عمر صيّرته يتحدث عن عزة وشرف كانت له قبل الإسلام وزادت به ذكر الطبري حواراً دار بينه وبين ابن عامر وكان ابن عامر قد قال: لقد هممت أنّ آتي بقسامة من قريش يحلفون أن أبا سفيان لم يرسميه فبلغت زياداً فأخبر معاوية فاغضبته فلما جائه ابن عامر حجبه وخرج معاوية ورآه مع ابنه يزيد وبيد معاوية قضيب يضرب به الابواب ويتمثل:

لنا سياق ولكم سياق قد علمت ذلكم الرفاق

ثم قعد فقال: يا ابن عامر أنت القائل في زياد ما قلت! أما والله لقد علمت العرب إني كنت أعزها في الجاهلية وإنّ الإسلام لم يزدني إلاّ عزاً وإني لم اتكثر بزياد من قلة ولم اتعزز به من ذلة ولكن عرفت حقاً له فوضعته موضعه .....[1]

وهذه العزّة التي تحدث عنها إلى إبن عامر عرفنا حقيقتها من خطاب وائل الحضرمي له.

وتعدّى معاوية بهذه العزة المدعاة حداً أن فخر بها ذات يوم على أميرالمؤمنين عليه السلام عن أبي عبيدة قال: كتب معاوية إلى علي عليه السلام يا أبا الحسن إنّ لي فضائل كثيرة وكان أبي سيداً في الجاهلية وصرت ملكاً في الإسلام وأنا صهر رسول الله ﷺ وخال المؤمنين وكاتب الوحي فقال علي: أبا لفضائل يفخر على ابن آكلة الأكباد؟ ثم قال: اكتب يا غلام:

محمد النبي أخي وصهري وحمزة سيد الشهداء عمي
وجعفر الذي يمسي ويضحي يطير مع الملائكة ابن امي
وبنت محمد سكني وعرسي منوط لحمها بدمي ولحمي
وسبطا أحمد ولداي منها فايكم له سهم كسهمي
سبقتكم إلى الإسلام طرّاً صغيراً ما بلغت أوان حلمي

فقال معاوية اخفوا هذا الكتاب لا يقرأه أهل الشام[2].

---

(١) ابن جرير الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج٥ ص٢١٥، وابن الاثير، الكامل، ج٣ ص٢٢٠.

(٢) ابن كثير، البداية والنهاية، ج٨ ص٩.

والحق أنّ معاوية لا شأن له سواء في الجاهلية أو الإسلام وإن كانت له عزة في الإسلام فهي كعزّة فرعون التي اغتربها السحرة أي هي عزة الملك والطغيان أجل في العصر العباسي حيث بلغ ظلم العباسيين رقماً قياسياً إلى ما عرف من ظلم الأُمويين.

تغيّرت السحنة الأموية المقيته عند الناس لما ذاقوه من ظلم وحيف على يد العباسيين وصار معاوية قديساً في عهد المعتضد يترحم عليه من العامة حدث العلاء بن صاعد قال: لما حمل رأس صاحب البصرة ركب المعتضد في جيش لم يُر مثله فاشتقّ اسواق بغداد والرأس بين يديه فلما صرنا بباب الطاق صاح قوم من درب من تلك الدروب رحم الله معاوية وزاد حتى علت أصواتهم فتغبّر وجهه وقال: أما تسمع يا أبا عيسى؟ ما أعجب هذا! ما ذكر معاوية في هذا الأمر؟ والله لقد بلغ أبي الموت وما أفلت أنا منه إلاّ بعد مشارفته ولقينا كل جهد وبلاء حتّى أرحناهم من عدوهم وحصّنا حرمهم وأموالهم تركوا أن يترحموا على العباس أو عبدالله بن العباس. أو من ولد من الخلفاء وتركوا الترحم على أميرالمؤمنين علي وحمزة وجعفر والحسن والحسين والله لا برحت أو أؤثّر في تأديب هؤلاء أثراً لا يعاودون بعده مثله.

ثم امر بجمع النفّاطين لتحريق الناحية فقلت أيها الأمير هذا من أشرف أيام الإسلام فلا تفسده بجهل غلمة لا خلاق لهم ولم أزل أداريه وارفق به حتى سار ....[1]

ونقول له والحقيقة معنا على أهلها جنت براقش إنّ ردّ الفعل هذا من أثر السياسة الخرقاء الظالمة التي ارتكبها العباسيون بحق الأمة.

دعـــوت علـــى عمـــر فلمـــا فقدتـــه وجـــاورت أقوامـــاً بكيـــت علـــى عمـــرو

ومهما كان الأمر فإن واقع معاوية لم يتغيّر من صعلوك إلى قدّيس وإن قذف الدهر الأمة بمثله أو بأدهى منه وأمر. بل لم تكسبه أمارته الطويلة العريضة معنىً أعظم مما هو فيه.

عن أبي سليم إنّ معاوية قال لأبي هريرة بن شماس الباهلي لقد هممت أن أحمل جمعاً من باهله في سفينة ثم أغرقهم! فقال أبو هوذة: إذن لا ترضى باهله بعدّتهم من بني امية! قال: اسكت أيها الغراب الابقع! وكان به برص فقال أبو هوذة:

---

(١) الآبي، نثر الدر، ج٣ ص١٣٨.

إن الغراب الابقع ربما درج إلى الرخمة حتى يفقر دماغها ويقلع عينيها فقال يزيد بن معاوية: ألا تقتله يا أميرالمؤمنين؟ فقال مه! ونهض معاوية ثمّ وجهه بعد في سريّة فقتل فقال معاوية ليزيد: هذا اخفى واصوب[١].

نال معاوية الرفعة وهو المهان الوضيع على يد عمر بن الخطاب لغاية في نفس عمر فقد أمّره على الشام بعد هلاك يزيد أخيه[٢] يقول ابن كثير: ولما فتحت الشام ولاه عمر نيابة دمشق بعد أخيه يزيد[٣] وخالف عمر بهذا الفعل ما كان يقوله: هذا الأمر في أهل بدر ما بقي منهم أحد ثمّ في أهل أحد ما بقي منهم أحد وفي كذا وكذا وليس فيها لطليق ولا لولد طليق ولا لمسلمة الفتح شيء[٤].

والذي يظهر من ابن كثير أنّه استنابه على دمشق وحدها وعند غيره أنّه جمعها له يقول ابن الخياط: ثم جمع الشام كلها لمعاوية ابن أبي سفيان[٥] بل ذكر ابن كثير في مكان آخر من بدايته أنّ معاوية ظل نائباً على الشام في الدولة العمرية وهذا يدلّ على أنّها كانت مجموعة له في عهد عمر[٦] وقال عمر بن الوردي: استعمله عمر على الشام أربع سنين من خلافته[٧] ولم يعز له طيلة خلافته بل كان لا يرى عزل معاوية يحل له لأنّه فيما زعم مصلح فقد عزّى أباه لما هلك يزيد وأمّر معاوية مكانه قائلاً له: ابناك مصلحان ولا يحل لنا أن ننزع مصلحاً[٨].

وعلّل ابن حجر الهيثمي ذلك بقوله: لم يشك أحد منه ولا اتّهمه بجور ولا مظلمة[٩] وهذا مدفوع بعبادة بن الصامت فقد كثرت شكايته منه.

---

(١) الجاحظ، كتاب الحيوان، ج٣ ص٤٢٨، تحقيق عبدالسلام هارون، دار الفكر ١٤٠٨

(٢) ابن حجر الهيثمي: تطهير اللسان: ص١٧.

(٣) البداية والنهاية: ج٨ ص٢٢.

(٤) مختصر تاريخ دمشق، ج٢٥ ص٤٢، ابن الأثير، اسد الغابة، ج٤ ص٣٨٧.

(٥) تاريخ خليفة بن خياط، ج١ ص١٢٩، ونقل محقق الكتاب عن تاريخ الإسلام وسير أعلام النبلاء مثله.

(٦) ابن كثير البداية والنهاية، ج٨ ص٢٢.

(٧) تاريخ ابن الوردي، ج١ ص١٦٢.

(٨) ابن منظور، مختصر تاريخ دمشق، ج٢٥ ص١٨.

(٩) تطهير الجنان واللسان، ص١٦.

ذكر ابو زرعة الدمشقي في تاريخه: إنّ عبادة أنكر على معاوية شيئاً فقال: لا أساكنك بارض فرحل إلى المدينة فقال له عمر ما أقدمك؟ فأخبره فقال ارجع إلى مكانك، فقبّح الله أرضاً لست فيها ولا أمثالك ولا إمرة عليك[١].

فما حرك عمر ساكناً لمعاوية ولم يزد على ما قال لعبادة شيئاً ومورد الخلاف بين عبادة بن الصامت الذي سماه ابو زرعة شيئاً هو الربا وكان معاوية يستحله ولا يرى به بأساً ولما كلمه عباده يقول ابن الأثير في اسد الغابة، اغلظه له معاوية[٢] فإذا كانت هذه حال معاوية وعمر على قيد الحياة فكيف يكون إذا مات عمر.

ولكن ما الذي يخشاه من عمر وها هو لا يلقي بالاً لشكاية عبادة بن الصامت مع أنّه أخيره أن معاوية يأكل الربا أضعافاً مضاعفة ويوكله فما زاد على أن أمره بالرجوع إلى الشام ونفي أمرة معاوية عنه وبقي معاوية كما هو يعمل المنكرات علناً.

وشاهد عدل آخر هو أبو الدرداء فقد رأى معاوية باع سقاية من ذهب أو ورق بأكثر من وزنها فقال له أبو الدرداء سمعت رسول الله ﷺ ينهى عن مثل هذا إلاّ مثلاً بمثل فقال معاوية ما أرى بمثل هذا بأساً فقال أبو الدرداء من يعذرني من معاوية أنا أخبره عن رسول الله ﷺ ويخبرني عن رأيه لا اساكنك بأرض أنت بها ثمّ قدم أبو الدرداء على عمر بن الخطاب فذكر له ذلك فكتب عمر بن الخطاب إلى معاوية أن لا يبيع مثل ذلك إلاّ مثلاً بمثل وزناً بوزن[٣] كان من حقه أن لا يعزله فحسب بل يقتله لأنه استحلّ الربا وردّ على رسول الله ﷺ ولست أدري كيف يستباح قتل بعض بعقال البعير ويترك لمعاوية الحبل على الغارب.

يفعل معاوية هذا كله ويلام على ضربه من أجل حلة خضرا، كان قد دخل عليه بها فيقول: ما رأيت وما بلغني إلاّ خيراً ...!!!![٤]

وكأنّ الربا الذي يأكله معاوية ولا يرى به بأساً عناداً لله ورسوله هو من الخير عند عمر وكأن اتفاقاً ألف بينه وبين معاوية والناس تضرب في حديد بارد.

---

(١) ابو زرعة الدمشقي، تاريخ أبي زرعة، ص٦٤.

(٢) اسد الغابة، ج٣ ص١٠٦.

(٣) النصائح الكافية، ص١٢٠.

(٤) سير أعلام النبلاء، ج٣ ص١٣٤ وذكرها أكثر المؤرخين كالطبري وابن الأثير وغيرهما.

والباحث من أي باب دخل إلى هذين الرجلين وجد أمرهما مريباً ووضعهما غريباً.

وإلاّ فما هو سبب الرفق الذي اغدقه عمر على معاوية مع ما يبدو منه من الطامات ومن البدع والمنكرات ومن المحظورات العظيمة التي يرتكبها بمسمع ومشهد من عمر فلا ينكر عليه.

وإذا ما أنكر عليه فكالوالد الرؤوف بولده الوحيد المدلل وأمن معاوية جانب عمر فاطلق لنفسه العنان يفعل ما يشاء كان عمر إذا استناب الرجل على بلد لا يبقيه أكثر من سنة ولم يخرم هذه القاعدة إلاّ مع ابن هند وستأتيك انبائها إن شاء الله.

وكيف يُدّعى بأن أحداً لم يشكه ولا اتّهمه بجور ولا مظلمة وعمر نفسه يقول له:

أنت صاحب الموكب العظيم؟ قال: نعم قال: مع ما بلغني عنك من طول وقوف ذوي الحاجات ببابك ....[1]. واسئل ما كان وقوفهم ببابه؟ أكانوا يتمسحون باعتابه؟! أم الحاجة الجئتهم والضرورة أوفقتهم أجل كل هذا ويقول القائل لم يشكّه أحد!!!

ولم توجه كلمة واحدة تجرح خاطر معاوية من ولي نعمته بل على العكس من ذلك طالما أطراه ومدحة على رؤوس الاشهاد وما فتىء يثني عليه ليشدّ أزره ويقويه. وجعل ابن حجر ثناء عمر عليه منقبة من مناقبه وسرح به الخيال المريض فراح يستنبط له المقامات الرفيعة والدرجات العالية قال: ومنها أنّ عمر مدحه واثنى عليه وولاه دمشق الشام مدة خلافة عمر وكذلك عثمان رضي الله عنه وناهيك بهذه منقبة عظيمة من مناقب معاوية ومن الذي كان عمر يرضى به لهذه الولاية الواسعة المستمرة .... [2] ويقول الذهبي متمدحاً به قلت: حسبك بمن يؤمره عمر ثم عثمان على اقليم - وهو ثغر - فيضبطه ويقوم به اتم قيام ويرضي الناس بسخائه وحلمه وإن كان بعضهم تألم منه مرّة.... [3]

---

(١) سير أعلام النبلاء، ج٣ ص١٣٣.

(٢) تطهير الجنان واللسان، ص١٦.

(٣) سير أعلام النبلاء، ج٣ ص١٣٢.

لقد أضل الله الذهبي وابن حجر على علم وثاها في بيداء الضلال في حب فرع الشجرة الملعونة عداوة لله ورسوله وأهل البيت. لقد سمّى الذهبي عبادة بن الصامت (بعضهم) ليهون الخطب على معاوية ويلبس على الأمة. وقد علم من يكون عبادة الذي قال عنه سفيان بن عيينة: بدري إحدي عقبي شجري وهو نقيب [١] وعبادة نقيب شهد بدراً والمشاهد كلها مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم [٢].

وأمّا الألم الذي ذكره فهو استباحة معاوية الربا ردّاً لحكم القرآن وما بيّنته السنة من حكم الربا وقد مرّ عليك قبلاً.

والبعض الثاني الذي تألم من معاوية هو أبو الدرداء الذي صرّح له معاوية بكفره بما أنزل على محمد وهو لا يقل فضلاً وهدىً عن سابقه.

ومالنا نلوم هذا وذاك على ولاء معاوية والملوم الاكبر هو عمر الذي أمدّ له في الضلال والطغيان وشاركه فيما قال وفعل، فقد روى عمران بن سليم عنه أنّه قال:

من استعمل فاجراً وهو يعلم أنّه فاجر فهو مثله[٣]. واقسم بالله أن عمر كان يعلم بما يجري من معاوية وإذا لم يكن يعلم فقد اعلمه عبادة وأبوالدرداء وهل يريد عمر شاهداً أعدل منهما، ولم يهم من هام من القوم بمعاوية وزبانيّته من أجل معاوية نفسه بل من أجل من ولاه وأمرّه وهيأ له أسباب الطغيان ودواعي الهوى والعصيان لأنهم اعتبروه ستراً له فإذا زال الستر عن مساوي معاوية فقد انكشف عن مساوئ غيره لأن مساوئهما مشتركة هذا بفعله وذاك بتأميره وتأييده.

يقول ابو توبة الربيع بن نافع الحلبي: معاوية ستر لاصحاب محمد صلى الله عليه وآله وسلم فإذا كشف الرجل الستر اجترأ على ما ورائه[٤] وهذا الستر يا أبا توبة خلق مهلهل لا يحتاج إلى من يكشفه بل الله سبحانه كشفه وهتك حجابه وأغرب ابن المبارك حين قال: معاوية عندنا محنة فمن رأيناه ينظر إليه شزراً اتّهمناه على القول يعني الصحابة[٥].

---

(١) المستدرك، ج٥ ص٣٥٤.

(٢) نفسه، ج٥ ص٣٥٥.

(٣) ابن الجوزي، عمر بن الخطاب، ص٧٢.

(٤) البداية والنهاية، ج٨ ص١٤٢.

(٥) البداية والنهاية، ج٨ ص١٤٢.

عفى الله عن هؤلاء إنهم يقولون الكلمة عفواً فتؤخذ عنهم وتصبح ديناً، متى يا ابن المبارك امتحن الله المسلمين بالفاسقين لمعرفة المؤمنين وبالاشرار لمعرفة الأخيار إنّ هذا لقول غريب وهو من محن الإسلام حقاً.

والذي يحملنا على الشك في سلامة العلاقة بين عمر ومعاوية أنّ الأول طالما عوتب على تأمير ابن هند الفاجر فما اصاخ لأحد سمعاً ومضى على غلوائه يجري مع ابن هند.

قال عبدالعزيز ابن الوليد بن سليمان سمعت أبي يقول: إنّ عمر ولّى معاوية فقالوا: ولاّه حديث السن فقال: تلومونني وأنا سمعت رسول الله ﷺ يقول: اللهم اجعله هادياً مهدياً واهد به. قال الذهبي: هذا منقطع(١).

مصيبة كبيرة أن يكذب الوضاعون على رسول الله ﷺ فيضعون الأحاديث لمصلحة معاوية. وأكبر منها أن تكون من وضع الفاروق ليسدّ به عذراً عن نفسه ولكني أُبرّء عمر من جريرة الوضع إن شاء الله.

ولا زلنا نطلع على غريبة أثر غريبة من سلوك عمر مع معاوية لقد ولاه الشام وأقره عليها طيلة خلافته وجمعها له كما تقدم ولو أن عمر استبدل معاوية بمن هو شر منه لهانت المصيبة ولكنه عزل عميراً بن سعد وولاه مكانه مما أثار حنق الناس عليه.

عن أبي إدريس قال: لما عزل عمر عمير بن سعد عن حمص، ولّى معاوية فقال الناس في ذلك، فقال عمر: لا تذكروا معاوية إلاّ بخير فإنّي سمعت رسول الله ﷺ يقول: اللهم اهد به(٢).

يظهر من هذا أنّ في الناس نقمة مكبونة على عمر في توليته معاوية بخاصة وقد عزل به عميراً وكان عمر نفسه يسمي عميراً هذا نسيج وحده .... فما الذي بان له من حكم عمير حتى عزله بالفاجر المنافق المرابي اللاهي المتميّع.

أضف إلى ذلك أنّه اختار أكثر بقاع العالم خصباً ورخاءاً واقتطع له الشام هذا

---

(١) سير أعلام النبلاء، ج٣ ص١٢٦.

(٢) سير أعلام النبلاء، ج٣ ص١٢٦.

الجزء الغالي من جسم البلاد الإسلامية فهل كان ذلك محض صدفة واتّفاق أو أنّها قضيّة منظورة لهم.

كلا فما كان عمر يخطو خطوة إلاّ ويعلم أين يضعها، والشام بلد رخي ومن أغنى بلاد العالم وهو مطلٌ على الروم يتصل براً وبحراً بهم.

وسماه ابن حجر الهيثمي ولاية واسعة مستمرة[١] وسماها العقاد مملكة مستقلة[٢] يضاف إلى رخاء البلد ما يتمتع به أهله من خلق (طاعة القائد). يقول لمعاوية الحجاج بن خزيمة ابن الصمة واصفاً أهل الشام وطاعتهم: وإني اخبرك أنك تقوى بدون ما يقوى به علي لأن معك قوماً لا يقولون إذا سكت ويسكتون إذا نطقت ولا يسألون إذا أُمرت .....[٣].

وفي الشام بلد الرخاء والطاعة، راح ابو حفص يبني لمعاوية دعائم الحكم ويشيد له الملك ويقوّي سلطانه بما يقول وما يفعل.

ويعتبر معاوية لعمر الرصيد المدخر والقوة العسكرية التي يهدد بها المنافسين ويخيف العدو.

وكان عمر في بعض فصول هذه المأساة، يظهر محاسبته احياناً امام الرأي العام ولكنه سرعان ما يؤوب إلى جانبه ويظهر الحياء منه ومن صفات عمر البديهية أنّه لا يعرف ما هو الحياء حتى سماه اميرالمؤمنين عليه السلام حوزة خشناء بخشن مسها ويكثر العثار فيها والاعتذار منها[٤].

ولكنّ تلك التمثيلية جزء من خطة السياسة في ترجيح جانب ابن هند ورفع منزلته ولعل عمر وهو الحاكم المطلق يعد الحياء ضعفاً من هنا كان لا يريده لنفسه.

وبناءاً عليه فما كان يعبأ بأحد مهما كان مقامه .... رجل بحضرة عمر فلما حضرت الصلاة قال عمر: عزمت على من كانت هذه الريح منه إلاّ توضأ فقال جرير بن عبدالله: لو عزمت علينا جميعاً أن نتوضّأ كان استر للرجل وأكرم في الفعل فقال له

---

(١) ابن حجر الهيثمي، تطهير الجنان واللسان، ص١٦.

(٢) عباس محمود القعاد، معاوية، ص٢١٥.

(٣) الدينوري، الأخبار الطوال، ص١٥٥.

(٤) راجع خطبته الشقشقية، نهج البلاغة.

عمر: جزاك الله خيراً فلقد كنت سيداً في الجاهلية سيداً في الإسلام عزمت عليكم إلاّ توضأتم فقاموا جميعاً وسترت على الرجل[١].

أقول هلاّ ستر عليه وما منعه أن يسلك سلوك جرير؟ إنّ عمر لا يبالي بما قال لأنه حوزة حشناء.

يقول أبي قتيبة: بينا عمر بن الخطاب على المنبر إذا حسّ من نفسه بريح قد خرجت منه، فقال: أيّها الناس إني قد ميلت بين أن اخافكم في الله وبين أن أخاف الله فيكم فكان أن أخاف الله فيكم أحب إلي، ألا واني قد فسوت - هكذا لا يكنّي - وها أنا ذا أنزل لأعيد الوضوء[٢].

ومن البلية أن الرجل قالها وفعلها على منبر رسول الله ﷺ وهل حرمة منبره اكبر من حرمته أو هيبة المنبر في صدورهم أعظم من هيبته ﷺ روى البخاري أنّه كان يعظهم في الضرطة وقال: لم يضحك أحدكم مما يفعل[٣].

لا اهتدى إلى السر في رواية هذه الطامات من قوم يدلّون على من سواهم بموالات الصحابة وتعديلهم فكيف تجامع هذه الرواية عقيدتهم في الصحبة والصحابة اللهم إلاّ إذا قصد الراوي التندر والسخرية بهم.

على أنهم رووا في تفسير قوله تعالى عن عائشة: (وتأتون في ناديكم المنكر) عن عائشة قالت: الضراط[٤].

إنّ فعلاً عذّب الله عليه أمة خلت كيف تفعله الأمة المرحومة بلا اكترات منها ومن فاروقها وعلى منبر نبيّها أنّه فعل لا يستساغ على أنّه إن صح فهو حاك عن الطبيعة العمرية التي لا تدري ما الحياء ....

وهذا حاتم الأصم لا يزال يطنب في مدحه رواة سيرته لأنه ستر على امرأة ريحها وسمى الاصم من يومئذ ولم يكن كذلك. فما بال الصحابي لا يعبأ بمثل هذه الآداب؟ قيل إنّ ذلك يعود إلى الشدة والجفاء المنسوبين إلى طباعه ولأول مرّة

---

(١) الأبي نثر الدر، ج٦ ص٥٥١.

(٢) عيون الأخبار، ج١ ص٢٦٧.

(٣) المؤلف، حجة الشيعة الكبرى، ص٣٢٤ وراجع الديلمي، فردوس الأخبار، ج١ ص٤٨٠.

(٤) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج٥ ص٢٩٤.

تحدّث الأخباريون عن حيائه بين يدي ربيبه المدلل معاوية. عن اسلم مولى عمر قال: قدم معاوية وهو أبضّ الناس وأجملهم فخرج مع عمر إلى الحج وكان عمر ينظر إليه ويعجب ويضع اصبعه على متنه ثم يرفعها عن مثل الشراك فيقول: بخ بخ نحن اذن خير الناس إن جمع لنا خير الدنيا والآخرة.

قال: يا أميرالمؤمنين سأحدثك أنا بأرض الحمّا مات والريف. قال عمر: سأحدثك ما بك إلاّ إلطافك نفسك باطيب الطعام وتصبّحك حتّى تضرب الشمس متنيك وذوو الحاجات وراء الباب قال: فلما جئنا ذا طوى أخرج معاوية حلة فلبسها فوجد عمر منها طيباً فقال: يعمد أحدكم يخرج حاجاً ثفلاً حتى إذا جاء أعظم بلد لله حرمة أخرج ثوبيه كأنهما كانا في الطيب فلبسهما، قال: إنما لبستهما لأدخل فيهما على عشيرتي والله لقد بلغني آذاك هنا وبالشام والله يعلم إني قد عرفت الحياء فيه ونزع معاوية الثوبين ولبس ثوبي احرامه[1].

اغلب الظن أنّ هذا الحياء تصنع.. وكان على عمر أن يبالغ في تأديب معاوية، لأنه خالف أبسط الشروط التي كان يشترطها عمر على العامل وهو: أن لا يغلق بابه دون ذوي الحاجات[2] فهل اشترط على معاوية أيضاً؟! أوان معاوية وحده معفو من كل شرط.

ثم قل لي: ما وجه الحياء من رجل عصى الله وتطيب في الأحرام لا يبالي بنهي الله ورسوله عن ذلك[3] وكان على عمر أن يكون حياته من الله ورسوله لا من معاوية الخارج على شرع الله وسنن حبيبه ...

والذي يظهر من حال عمر أنّه قاطع بمصير الأمر إلى معاوية في يوم من الأيام بعد ذلك اليوم لثقته بالمقدمات التي حاكتها يداه فها هو يحث الناس على اتباع معاوية ويأمرهم بالهجرة إليه إذا وقعت فرقة.

يقول ابن حجر الهيثمي: ومنها أن عمر خص الناس على اتباع معاوية والهجرة

---

(١) الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج٣ ص١٣٤، ابن حجر، تطهير الجنان، ص١٧، ابن كثير، البداية والنهاية، ج٨ ص١٢٨.

(٢) البداية والنهاية، ج٧ ص١٣٨.

(٣) النصائح الكافية، ص١٢٨.

إليه[1] واعتبر بعد كلام طويل هذا من عمر كرامة باهرة لتضمنه الأخبار بأن الأمر سيصير إليه وأن مقاليد الأمة لا يعول فيها إلاّ عليه[2].

وهذه الكرامة ليست من كرامات الأولياء بل الأذكياء الذين يثقون بنتائج مقدماتهم المحبوكة. والفرقة التي يتحدث عمر عنها هي خلافة علي عليه السلام فقد اوتي الرجل ذكاءاً خارقاً كان ينظر للغيب من ستر رفيق فعلم بما يشبه اليقين أن عثمان مقتول وإن الأمر منتقل إلى علي وإن الفرقة قادمة مع هذه الفتنة وهنا يبرز الرصيد المعد لهذه الساعة اعنى أبا عبدالرحمن معاوية. وكان عمر يطلق عليه النعوت الناعمة فيسميه كسرى العرب.

ولست أدري ما الحاجة إلى كسرى عربي بعد أن هدمت جيوش الإسلام كسرى العجم، وهل جاء الإسلام إلاّ لتحطيم هؤلاء الكسرات، الذين هم أضر على الأُمة من هبل واللات والعزى ولكن عمر حارب كسرى وجنوده وبنى كسرى آخر أشر من الأول وأشد عتواً وتجبّراً.

يقول ابن الأثير: ولما دخل عمر بن الخطاب الشام ورأى معاوية قال: هذا كسرى العرب[3]. والظاهر أن ذلك تكرر من عمر.

عن محمد بن علي قال: كان عمر إذا نظر إلى معاوية قال: هذا كسرى العرب[4] ومثله قال المديني[5] وتباهى مرة به فقال: تذكرون كسرى وقيصر ودهائهما وعندكم معاوية[6]. وكانّ عمر أغرى معاوية بسلوك كسرى لكثرة ما كان يطريه فها هو يقبل على الخضم والقضم بشره لا مثيل له فيما يأكل البشر حتى استنفذ اللذات جميعاً.

يقول السمعودي: دخل عمروبن العاص يوماً على معاوية بعد ماكبر ودق

---

(١) الهيثمي تطهير الجنان، ص١٩.

(٢) الهيثمي تطهير الجنان، ص١٩.

(٣) اسد الغابة، ج٤ ص٣٨٦، وراجع الاستيعاب، ج٣ ص٤٧١.

(٤) الأصابة، ج٣ ص٤٣٤.

(٥) سير أعلام النبلاء، ج٣ ص١٣٤، والبداية والنهاية، ج٨ ص١٢٨، ومختصر تاريخ دمشق، ج٢٥ ص١٩، نثر الدر، ج٢ ص٦١.

(٦) تاريخ الطبري، ج٥ ص٣٣٠، ابن الأثير، الكامل، ج٣ ص٢٦٢.

ومعه مولاه وردان فأخذا في الحديث وليس عندهما غير وردان فقال عمرو: يا أميرالمؤمنين ما بقي مما تستلذه؟ فقال: أما النساء فلا أرب لي فيهن وأما الثياب فقد لبست من لينها وجيّدها حتى وهى بها جلدي فما أدري أيها الين وأما الطعام فقد اكلت من لينه وطيبه حتى ما أدري أيها الذوا طيب وأما الطيب فقد دخل خياشيمي منه حتى ما أدري أيه أطيب[1].

وبالطبع لابد أن تكون لكسرى حياته الخاصة وهذا ما عناه عمر إذ لم يعرف كسرى ولا عرف قيصر بالدهاء إنما عرف هذان بالنعيم الذي تأطّرابه.

وكان عمر يعرف ذلك منهما فقد دخل على رسول الله وهو في ساريته وبكى فيما يقال حين شاهد متاع بيته الذي هو عبارة عن شن بال وحفنه من الشعير قدّرها عمر بصاع وحصير خلق وهكذا دواليك.

فبكى وقال يا رسول الله إن كسرى وقيصر يجلسان على اسرة الذهب ويلبسان الديباج المزرر بالذهب وأنت سيد البشر وهذا متاع بينك أو كما قال فقال ﷺ اولئك قوم عجّلت لذاتهم لهم وهي وشيكة الانقطاع أو كما قال ...

ومن هذا الحديث ندرك أنّ عمر لم يقصد بتشبيه معاوية بكسرى وقيصر أن وجه الشبه بينهما السياسة الحكيمة أو الدهاء أو ما شاكل ذلك ولو ثبت للأمبراطورين الدهاء فما هو الدهاء الذي خرج به معاوية بين يدي عمر آنذاك إنما عرف معاوية بالغدر ولنسمه ذكاءاً على ذمة الفاروق - بعد احداث عثمان.

أما في عهد عمر فكان دهائه مخالفة الشرع والكفر به ومحاربة الله ورسوله وليس الحرير والأكل بأواني الذهب والفضة وأكل الربا وهلمّ جراً أكان عمر يريد بدهائه ما ذكرناه أجل فإن كسرى عرف بكثرة الأكل والتأنق فيه وهكذا كسرى أبي حفص سأل المهدي معبد بن خالد بن أنس بن مالك وكان منزله بشيراز عن بعض ما كان فيه ملوك فارس قال: كان لكسرى كل يوم عناق - الانثى من أولاد المعز إذا أتت عليها سنة - قيمتها أربعون ألفاً قال: كيف؟ قال كان يلتمس له عناق حمراء زرقاء غذيت بالبان النعاج الفتيّة.

---

(١) المسعودي، مروج الذهب، ج٣ ص٢٢.

فتشترى بما بلغت ثم تذبح بسكين من ذهب ثم تسمط بماء الورد ثم تغسل بالخمر والمسك ثم يسجر التنور بالعود الهندي وتجعل في سفود من ذهب ويضرب في تنورها المسك والعنبر وكان يؤتى كل يوم بدرة قيمتها عشرة آلاف فتسحق وتجعل في لون يتحذ له يقال أنه نافع من السل...[١] وكان معاوية موغلاً في اللذائذ والمتع لا يرى الدنيا شيئاً بدونهما فقد قال يوماً:.. الدنيا بحذافيرها الخفص والدعة[٢].

ولعل هذه السياسة الكسروية القيصرية انعكست على سلوكه فرآها عمر بام عينيه بل ما في ذلك ريب أنّه رآه عليها أو بلغته أخبارها. والعجيب في معمّى عمر أنّه كان يحرم على نفسه القليل المباح من النعيم ويترك لمعاوية الحبل على الغارب.

عن محمد بن سعد يرفعه إلى العلاء بن أبي عائشة: أنّ عمر دعا الحلاق فحلقه بموسى - يعني جسده فاستشرف له الناس فقال إنّ هذا ليس من السنة ولكن النوره من النعيم فكرهتها[٣].

ليته انتور وتنعم لنفسه وحال بين معاوية وبين ما كان يرتكب من الدواهي ومخالفات الشرع الحنيف. وبلغ من تدليل عمر لمعاوية، إنّه كان إذا كتب له رسالة اجملها وأبهمها فقد كتب إليه[٤]:

أمّا بعد فالزم الحق ينزلك الحق منازل أهل الحق يوم لا يقضي إلاّ بالحق والسلام. فما هذا الإيجاز المخل ولو أنّه ملأ بطون الطروس نصماً لمعاوية لكان قليلاً فيما يرتكب من المحرّم.

طعام عمر

هل يكفي أن يأخذ عمر نفسه بالشدة والتقشف في مطعمه ومشربه وملبسه ثم يترك الحبل لمعاوية دون سائر النواب والولاة على الغارب أليس مسؤلاً عنه؟ ولو

---

(١) الزمخشري، ربيع الأبرار، ج٣ ص٢٦٢.

(٢) ابن حمدون، التذكرة الحمدونية، ج١ ص٢٤٩.

(٣) ابن الجوزي، تاريخ عمر بن الخطاب، ص١٣٠.

(٤) نفسه، ص١٢٣.

أراد تأديبه لفعل ولو فعل لارتدع ألم يقل له: إن نهيتني إنتهيت[١].

فما باله لم ينهه بل على العكس من ذلك راح يطري أفعاله ويمده بالدعم المادي ليصنع ما شاء إذا وجد الاسناد من عمر بالقول والفعل.

فقد اغراه عمر بالشهوات حين جعل رزقه من بيت المال عشرة آلاف دينار[٢] ويستكثر على الربيع بن زياد عطاء الألف درهم[٣] وأنت حين تعرف شدّته على العمال وأخذه معاوية بالهويني تدرك السرّ المحجب وراء ذلك استعمل عمر عبدالله بن مسعود على القضاء وبيت المال وعثمان بن حنيف على سقي الفرات وعمار بن ياسر على الصلاة والجند ورزقهم كل يوم شاة فجعل نصفها وسقطها وكارعها لعمار لأنّه كان على الصلاة والجند. وجعل لعبدالله بن مسعود ربعها وجعل لعثمان بن حنيف ربعها ثم قال: إنّ مالاً يؤخذ منه كل يوم شاة إنّ ذلك فيه سريع[٤] أو ما أرى قرية يؤخذ منها كل يوم شاة إلاّ سريعاً في خرابها[٥].

فأين هذا من ذاك ليت شعري. بل إنّ عمر نفسه كان يتقشف في مأكله إلى حد الحرمان والجوع يقول حذيفة: اقبلت فإذا الناس بين أيديهم القصاع فدعاني عمر فاتيته فدعى بخبز غليظ وزيت قال فقلت له: منعتني أن أكل من الخبز واللحم ودعوتني على هذا قال: إنما دعوتك على طعامي فإمّا هذا فطعام المسلمين.

عن أبي أمامة قال: بينا نحن مع عمر بن الخطاب وهو يجول في سكك المدينة ومعنا الاشعث بن قيس فادرك عمر الأعياء فقعد وقعد إلى جنبه الأشعث بن قيس وقد أُتي عمر بمرجل فيه لحم فجعل يأخذ منه العرق فينهشه فينضح على الاشعث بن قيس فقال الاشعث يا أميرالمؤمنين: لو امرت بشيء من سمن فصب على هذا اللحم ثم طبخ حتى يبلغ أبانه كان ألين له فرفع عمر يده فضرب بها صدر الأشعث ثم قال له: أدمان كلا إني لقيت صاحباي - كذا - وصحبتهما فأخاف أن

---

(١) سير أعلام النبلاء، ج٣ ص١٣٣.

(٢) ابن عبدالبر، الاستيعاب، ج٣ ص٤٧٥.

(٣) أبو عبيد القاسم، الأموال، ص٨٧.

(٤) ابن الجوزي، عمر بن الخطاب، ص١٠٥.

(٥) شرح ابن أبي الحديد، ج١ ص١٧٦.

أخالفهما فيخالف بي عنهما فلا أنزل معهما حيث نزلا.

عن ثابت قال: اشتهى عمر بن الخطاب الشراب فأتي بشربة من عسل فجعل يدير الإناء في كفه: اشربها وتذهب حلاوتها وتبقى مرارتها ثم دفعها إلى رجل من القوم فشربها.

عن الأحنف بن قيس قال: خرجنا مع أبي موسى الاشعري وفوداً إلى عمر بن الخطاب وكان لعمر ثلاث خبزات يأدمهنَّ يوماً بلبن وسمن ويوماً بلحم غريض ويوماً بزيت فجعل القوم يأكلون ويقدرون فقال عمر والله إني لأرى تقديركم وإني لأعلمكم بالعيش ولو شئت جعلت كراكر وأسنمه وصلاءاً وصنابق وصلائق ولكني استبقى حسناتي.

إنّ الله عزوجل ذكر قوماً فقال: اذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا واستمتعتم بها ....

عن محمد بن قيس قال: دخل ناس على حفصة بنت عمر فقالوا: إنّ أميرالمؤمنين قد بدى علباء رقبته من الهزال فلو كلمته أن يأكل طعاماً هو الين من طعامه ويلبس ثياباً الين من ثيابه فقد رأينا إزاره مرقعاً برقع غير لون ثيابه ويتخذ فراشاً الين من فراشه فقد أوسع الله على المسلمين فيكون ذلك أقوى لهم على أمرهم فبعثوا إليه حفصة فذكرت ذلك له فقال: اخبريني بالين فراش فرشتيه لرسول الله ﷺ قط قالت عباءة كنت ثنيتها له باثنتين فلما غلظت عليه جعلناها بأربعة قال: فأخبريني باجود ثوب لبسه قالت: نمرة صنعناها له فرآها انسان فقال: اكسنيها يا رسول الله فأعطاها إياه قال اخبريني باطيب طعام اكله قالت: كان عندنا تمر فقال ائتوني بقناع تمر فأمرهم فنزعوا نواه ثم قال: انزعوا تفاريقه ففعلوا فاكله كله فقال عمر: تروني لا اشتهي الطعام، إني لآكل السمن وعندي اللحم وآكل الزيت وعندي السمن وآكل الملح وعندي الزيت وآكل بحتا وعندي ملح ولكنّ صاحبيَّ سلكا طريقاً فأخاف أن اخالفهما فيخالف بي كان سفيان يقول: كان عمر يشتهي الشيء لعله يكون بثمن درهم فيؤخره سنه ....[1] صاحب هذه الشدة مع نفسه والصبر على

---

(١) ابن الجوزي، تاريخ عمر بن الخطاب، ص١٣٣ وص١٣٤.

التقشف كيف يرضى لواحد من عماله أن يعوم بالنعيم عوماً ويفعل كل محرم ويرتكب كل مخطور ولم يوجه إليه كلمة لوم واحدة بل على العكس من ذلك يبالغ في الثناء عليه ولا يرضى بنقده أو توجيه اللوم إليه.

.. ذكر معاوية عند عمر بن الخطاب فقال: دعونا من ذم فتى قريش وابن سيّدها من يضحك في الغضب ولا يسأل عن الرضا ومن لا يأخذ ما فوق رأسه إلاّ تحت قدميه[1].

ولو أنّ عمر قتل نفسه زهداً وتقشفاً وأمات هواه فقهاً وتعففاً لكان ذلك غير نافعه شيئاً ولا نجدية فتيلاً مادام معاوية يشرب الخمر ويلبس الحرير ويأكل الربا ويحرب أموال المسلمين ويعيث في الارض فساداً ويلتقم الموائد الدسمة والأطعمة الفاخرة بسبعة أمعاء وذلك كله في سلطان عمر. وتبلغه أنباء ذلك فلا يغيّر ولا يبدل ولو أراد ردعه عن غيّه لارتدع فهو والحال هذه شريكة في كل ما جنى وسهيمه في جميع ما اجترح.

كيف لا ولو لا عمر لكان معاوية أهون من ذبابة في مستحم قذر أليس هو القائل: عن ابن المسيب عن عمر قال: أيّما عامل لي ظلم أحداً فبلغتني مظلمته فلم أغيّرها فإنّا ظلمته[2].

إن كان عمر جاداً فيما يقول: فهو شريك معاوية في ظلمه ومنكراته.

شرب معاوية الخمر في عهد عمر

قال عبدالله بن بريدة: دخلت أنا وأبي على معاوية فاجلسنا على الفرش ثم أتينا بالطعام فاكلنا ثم آتينا بالشراب. فشرب معاوية ثمّ ناول أبي ثم قال - القائل هو والد الراوي ولكنّ ابن كثير يحاول تغيير العبارة ليشعر أن القائل معاوية -: ما شربته منذ وحرمه رسول الله ﷺ ثمّ قال معاوية: كنت أجمل شباب قريش وأجوده ثغراً

---

(١) ابن منظور، مختصر تاريخ دمشق، ج٢٥ ص١٨، وسيأتيك في مستقبل البحث إن شاء الله، إنّ هذه الأوصاف ذكرها عمر لمن يليق للخلافة.

(٢) ابن الجوزي، تاريخ عمر بن الخطاب، ص١١٠.

وما شيءٌ كنت أجد له لذة كما كنت أجده وأنا شاب غير اللبن أو إنسان حسن الحديث[1].

ولقائل أن يقول لعله فعل ذلك في عهد خلافته بعد ما استتب الأمر إليه وبايعه الناس ولكنّ الرواية التالية تنفي ذلك وتقطعه.

عن محمد بن كعب القرضي قال غزا عبدالرحمن بن سهل الانصاري في زمن عثمان ومعاوية أمير على الشام فمرّت به روايا خمر لمعاوية فقام إليها، عبدالرحمن برمحه فبقر كل راوية فناوشته غلمانه حتى بلغ شأنه معاوية فقال: دعوه فإنّه نقيح قد ذهب عقله .. فقال: كذب والله ما ذهب عقلي لكن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم نهانا أن ندخل بطوننا واسقيتنا وأحلف بالله لئن بقيت أأذى في معاوية ما سمعت من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لأبقرن بطنه أو لأموتن دونه[2].

وفي العبارة الأخيرة من الرواية تغييرا بهم معناها واحسب الرجل يشير إلى الحديث الثابت عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: إذا رأيتم معاوية على منبري فاقتلوه[3]. وفي رواية اخرى فارجموه.

ورواية عبدالرحمن بن سهل تدلّ على أن ذلك حدث في زمن عثمان إلاّ أن الروايات تضافرت أنّ معاوية لم يفتتح شرب الخمر في حكم ابن عمه بل كان يعاقرها وعمر على قيد الحياة.

وهذا الذي حمل عبادة بن الصامت على المجاهرة بنقده وكان يعترض البغال التي تحمل الخمر إليه فيمزق الأسقية على ظهورها حتى أرسل معاوية إليه أبا هريرة يعاتبه فكان جواب عبادة له وابن كثير تصرف كما هي عادته بالنص وحذف صدر الرواية التي فيها ذكر الخمر المحمولة إلى معاوية وكلام أبي هريرة لعبادة ينهاه عن ذلك واقتصر على قول عبادة لأبي هريرة: أنك لم تكن معنا إذ بايعنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

---

(١) ابن كثير، جامع المسانيد والسنن، ج٢ ص١٨٧، وأخرجه ابن حنبل في مسنده، ج٥ ص٣٤٧.

(٢) ابن كثير، جامع المسانيد، والسنن، ج٨ ص٣٣٧.

(٣) أخرجه بن كثير في البداية والنهاية والذهبي في ميزان الاعتدال وابن حجر في لسان الميزان وابن عدي في الكامل.

أنا بايعناه على السمع والطاعة في المنشط والكسل وعلى النفقة في اليسر والعسر وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وعلى أن نقول في الله ولا نخاف لومة لائم وعلى أن ننصر النبي صلى الله عليه وآله وسلم ...[1].

وكان عبادة لا يكتم ما سمعه من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فلقد أخبره النبي صلى الله عليه وآله وسلم عن واقع هذه الخمر التي يشربها معاوية عن شرحبيل بن السمط الكندي قال: دعاني عبادة بن الصامت حين حضر فقال إنّه لو ما حضرني لم أحدثكم حديثاً أريد أن أحدثكم، إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: يكون في آخر امتي شراب هو الخمر يستحلونه باسم يسمّونه غير الخمر[2].

وشرحبيل بن السمط هذا أحد أركان معاوية في حرب صفين وهو الذي أشار به أخوه عتبة أن يوقفه مقابل جرير رسول الإمام أميرالمؤمنين إليه خطيباً ليحشد الناس له وقال عنه ابن عساكر له صحبة: وكتب معاوية إليه يسأله القدوم عليه وهيأ له رجالاً يخبرونه أن علياً قتل عثمان منهم يزيد بن اسد البجلي وبسر بن أرطاه وأبو الأعور السلمي[3].

ولعل عبادة اختص شرحبيل بالحديث ليبلغه معاوية أو كان يشاطره في معاقرة الخمرة فأراد أن يعظه بأدب.

وعلى أية حال فمعاوية لم يترك شرب الخمر جاهلية ولا إسلاماً في زمن عمر وغيره وهكذا كان معاوية في زمن عمر الوالي المدلل الذي أغفى عمر عن كل ما يرتكب من المخالفات بما في ذلك شرب الخمر وبيع الربا وعمر صامت لا يحرك له ساكناً بل كان يتغاضى عن ذنوبه جميعاً ويدعمه بيده ولسانه.

وهنا تلجئنا هذه الحال أن نلقي سؤالاً بسيطاً على أخوتنا العميان فنقول لهم ما سرّ هذا الدعم؟ ولسنا ننتظر حتى يجيبوا وإنما علينا أن نحقق حتى نستخرج السر من أعماق الأحداث التاريخية ونقول أيضاً: هل ينفع عمر زهده وتقشفه مع ما يحمله على الأمة من جرائم معاوية وتجبره أليس وال مثل معاوية وما يجري على

---

(١) ابن كثير، جامع المسانيد والسنن، ج٧ ص٨٦.

(٢) جامع المسانيد والسنن، ج٧ ص١٢١.

(٣) ابن منظور، مختصر تاريخ دمشق، ج٢٥ ص٣٣.

يديه من المنكرات والجرائم قادحاً في عمر جملة وتفصيلاً، أجل والله لأن معاوية بحول عمر وطوله فعل ما فعل.

افتح عينك عزيزي السامع والقارئ سترى معاوية في الشام هو عمر في المدينة بقضّة وقضيضه.

ولقد قاتل عمر على الدنيا ونازع على السلطان في سقيفة بني ساعدة ونال شطر الحلب الذي حلبه فلما حصل عليه سقى معاوية منه افاويق علاً بعد نهل واحتاز لنفسه الماء الأسن إن هذا لهو الخسران المبين.

طعام معاوية ...

إنّ معاوية ابن أبي سفيان دعا بالطعام يوماً وقد أصلح له عجل مشوي فأكل معه دستاً من الخبز السميد وأربع فراني وجدياً حاراً وجدياً بارداً ووضع بين يديه مأة رطل من الباقلّى الرطب فأتى عليه[1].

وكان يأكل أربع أكلات آخرهن اعضلهن واشدّهن يتعشى فيأكل ثريدة عظيمة عليها بصل كثير وكان فاحش الأكل يلطخ منديلين أوثلاثة قبل أن يفرغ وكان يأكل حتى يتسطح أي لا يقوى على القيام والنهوض ثم يقول: يا غلام ارفع فوالله ما شبعت ولكن سئمت ...[2].

وقال الزمخشري: كان سليمان بن عبدالملك ثعباني الالتهام لقماني الالتقام على أن جميع المروانية كانوا امتالاً في الأكل امامهم في الأكل في سبعة امعاء معاوية[3].

يشير إلى الحديث النبوي المشهور: الكافر يأكل في سبعة امعاء.

---

(١) الآبي، نثر الدرر، ج٢ ص٢٤٥، وذكره الفخري في الآداب السلطانية، ص١٥٠، والفراني جمع فرني وهو خبز يسوّى في الفرن ويروّى سمناً وسكّراً.

(٢) نثر الدرر، ج٢ ص٢٤٦.

(٣) الزمخشري، ربيع الابرار، ج٣ ص٢٥٣.

دعاء النبي ﷺ عليه

دعى عليه النبي ﷺ فقال: لا أشبع الله بطنه فاستجيب له ووقع هذا البثق العجيب في كرشه وصار يضرب به المثل في النهمة حتى قال القائل:

لي صاحب وبطنه كالهاويه كأن في احشائه معاويه

روى مسلم في الصحيح عن ابن عباس قال: كنت العب مع الصبيان فجاء رسول الله ﷺ فتواريت خلف باب قال: فجاء فحطأني حطأة[1] وقال: اذهب وادع لي معاوية قال: فجئت فقلت: هو يأكل قال: ثم قال لي: اذهب فادع لي معاوية قال فجئت فقلت: هو يأكل، فقال لا أشبع الله بطنه، قال ابن المثنّى قلت لأميه ما حطأني قال: قفدني قفدة[2].

وكأنما آلم مسلم صاحب الصحيح هذا القول في سيده الأموي لذا قال ابن الأثير بعد اخراج الحديث: وأخرج مسلم هذا الحديث بعينه لمعاوية واتبعه بقول رسول الله ﷺ إني اشترطت على ربي فقلت: إنما أنا بشر ارضى كما يرضى البشر واغضب كما يغضب البشر فأيما أحد دعوت عليه من أمّتي بدعوه أن يجعلها له طهوراً وزكاة وقربة يقرّبه بها يوم القيامة.....[3]

يعتبر هذا من مسلم واضرابه صيغة منتهى الولاء لمعاوية بن أبي سفيان..

ولما جعل الله معاوية في الطرف المناقض لما عليه الأبرار من الخير فلابدّ من الأسائة إلى الأبرار عند تزكيته!! ولا يهم القوم ذلك لأن تزكية معاوية وتعديله لابدّ منه لاستقامة القاعدة الصحابية التي قعّدت له ولأمثاله، وإن أدّى ذلك إلى الأسائة إلى شخص النبي ﷺ بل وإن جرّهم ذلك إلى الكفر.

بعد الذي مر عليك من قول ابن الأثير عن مسلم هلم إلى قول النووي العجيب: قال النووي:

---

(١) أي حفدني، ومعناها حمله على الأسراع.

(٢) صحيح مسلم بشرح النووي، ج١٦ ص١٥٦، اسد الغابة، ج٤ ص٣٨٦، البيهقي، دلائل النبوة، ج٦ ص٢٤٣، البداية والنهاية، ج٦ ص١٢.

(٣) صحيح مسلم بشرح النووي، ج١٦ ص١٥٦.

... وأما دعائه على معاوية ففيه الجوابان السابقان.

أحدهما أنّه جرى على اللسان بلا قصد، والثاني أنّه عقوبة له لتأخره.

قال: وقد فهم مسلم من هذا الحديث أنّ معاوية لم يكن مستحقاً لهذا الدعاء عليه فلهذا أدخله في هذا الباب.

وجعله غيره من مناقب معاوية لأنه في الحقيقة يصير دعاءاً له[1] وصاحب هذا القول هو النووي نفسه. ذكر ذلك بن حجر الهيثمي قال: إنّ هذا الحديث من مناقب معاوية الجليلة وبه صرح الإمام النووي[2] لم يشتف بجعله منقبة حتى نعتها بكونها جليله.

ويقول ابن حزم عمن دعى عليهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم: فياويح من اصابه دعاء المصطفى[3].

ولكنّ شيعة أبن هند أبى لهم ولائهم له أن يفرّطوا فيه ولو على حساب ظلم الحق والاستهانة بأهله. وتعقب أبن حجر الهيثمي الحديث وراح يجري به في ميدان التأويل والتوجيه جرى الصبي بالكره. ولما رأى تباطأ ابن هند عن أمر النبي واعتذاره بالأكل يهدم مقامه المصطنع راح يلتمس له الوجوه بعد اعترافه بأن أمره صلى الله عليه وآله وسلم يقتضي الفورية. قال:

يحتمل أنّه ظن أن في الأمر سعة وأنّ هذا الأمر ليس فورياً. على أنّ الأصح عند الأُصوليين والفقهاء أنّ الأمر لا يقتضي الفورية إلاّ أمره صلى الله عليه وآله وسلم كان دعاه الله إليه، فإنّه تجب أجابته فوراً وإن كان في صلاة الفرض. وكانّ معاوية لم يستحضر هذا الاستثناء أو لا يقول به[4].

إن كان شر المصائب ما يضحك فإن هذه المصيبة لو مات الإنسان هماً منها ما عدّ ملوماً كيف لا وهؤلاء علماء الإسلام. لا يبالون من أين كفروا في سبيل الدفاع عن معاوية صنيعة سيدهم الفاروق عداء لعلي عليه السلام وأهل البيت.

---

(١) النووي على مسلم، ج١٦ ص١٥٦.

(٢) تطهير الجنان، ص٢٥.

(٣) شرح الزرقاني على موطأ مالك، ج٢ ص١٨٠.

(٤) تطهير الجنان، ص٢٩.

وقد كفر ابن حجر ما في ذلك ريب حين جعل قول معاوية ثالث قول الله ورسوله ﷺ. إنّ الله تعالى يقول: «يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله والرسول إذا دعاكم لما يحييكم » الآية ويقول ابن حجر: معاوية لا يقول به. اجل لأنه لا يؤمن به فبعداً للقوم الكافرين.

ويقول العلماء في وجوب طاعته على الأمة:.. فإذا وجب الإيمان به وتصديقه فيما جاء به وجبت طاعته لأنّ ذلك مما أتى به قال الله تعالى:

(يَا أَيّهَا الّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللّه وَرَسُولَهُ)[1]؛

وقال: (أَطِيعُوا اللّه وَأَطِيعُوا الرّسُولَ)[2]؛

وقال تعالى: (وَأَطِيعُوا اللّه وَالرسُولَ لَعَلّكُمْ تُرْحَمُونَ)[3]؛

وقال: (وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا)[4]؛

وقال: (مَن يُطِعِ الرّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللّه)[5].

فجعل تعالى طاعة رسوله طاعته وقرن طاعته بطاعته ووعد على ذلك بجزيل الثواب واوعد على مخالفته بسوء العقاب واوجب امتثال امره واجتناب نهيه[6] وفي حديث أبي هريرة: عنه ﷺ:

كل امتي يدخلون الجنة إلاّ من أبى قالوا يا رسول الله ومن يأبى؟ قال: من أطاعني دخل اجنة ومن عصاني فقد أبى[7].

فأين يقع إمام المرجئة وصنيعة الفاروق من هذه الحقائق الناصعة.

ثم نقول لأمة معاوية: إنّ الله تعالى يقول: (وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلاّ وَحْيٌ يُوحَى).

فكيف يمكن أن يتبادر إلى ذهن مسلم ذاق حلاوة الإسلام أنّ النبي دعا على

---

(١) النساء: ٥٩.

(٢) التغابن: ١٢.

(٣) آل عمران: ١٣٢.

(٤) النور: ٥٤.

(٥) النساء: ٨٠.

(٦) القاضي عياض، الشفا، ج٢ ص٦.

(٧) نفسه، ص٧.

معاوية من غير قصد إذا كان قرء هذه الآية وعرف معناها أليس هذا القول شعبة من قول عمر النبي يهجر.

ومن اتهم النبي بالكلام العابث الذي يرسله من غير تدبر ولا أمعان فقد باء بالكفر الصراح وكان وليه معاوية يوم يفد على الله تعالى في حشره.

وأمّا تأخر معاوية وما احتمله النووي من أنّ الحديث عقوبة له لتأخره فقد اعترف بذلك مرغماً بعد أن جعله أحد إحتمالين ونضيف عليه فنقول:

هذا الحديث يثبت كفر معاوية وضلاله وأنّه ما عرف للإيمان طعماً ولا خامر الإسلام عقله لأنّ الله تعالى يقول:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا للّه وَلِلرّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ)[1].

فلو كان معاوية من الذين آمنوا لأجاب نداء الداعي ولم تشغله البطنة والكظه عن أمر رسول الله ﷺ وأما الحديث الذي أخرجه مسلم عمن لعنهم رسول الله ﷺ حال الغضب أو آذاهم أو سبّهم أن يجعل ذلك كفارة وقربة ... الخ.

وهو الذي أخرجه الشيخان عن صنيعة الامويين أبي هريرة فقد تكلم عليه سيدنا الإمام شرف الدين ﷺ في كتابه أبي هريرة وبالغ في تزييفه حتى تركه هباءاً منثوراً فليراجع هناك. فإنّه من أجل ما فاضت به يراعة سيدنا العظيم رحمه الله تعالى[2].

ولا يمكن أن يزاد عليه أجل إن هذا المذهب الذي صار إليه القوم صيانةً لأبن هند وقومه الطلقاء يعفي على جميع المقاييس الصحيحة فلا يُهتدى حينئذ إلى التفريق بين مسلم ومنافق ولا برا وفاجر.

وإذا صح هذا المذهب فيمن يلعنهم رسول الله ﷺ فهو صحيح أيضاً فيمن يمدحهم ويشيد بهم لأنّه بشر يقول كما يقول البشر في الغضب والرضا، هكذا زعم الراوي.

وشأن البشر على هذه الشاكلة سواء في المدح والذم فكما يذمون ويلعنون

---

(١) الانفال: ٢٤.

(٢) الأمام سيد شرف الدين، ابو هريرة، ص٩١.

بداعي الهوى وسلطان الغضب فكذلك يمدحون بهذه الأسباب الحاكمة على البشر وهم منهم.

وحينئذ تتهاوى المقاييس ويختلط الحابل بالنابل ولا تبقى للأحاديث التي رواها رواتهم في حق أيمتهم أيّة مزية فهل هم مستعدون لهذه الخسارة الجسيمة؟! وعليه فما الذي يبقى من فلان وفلان.

استجاب الله تعالى لبنيه في معاوية فاعطاه كرشاً كجهنم هل امتلأت وتقول هل من مزيد. ولم يذكر التاريخ لمعاوية مشابهاً أو نظيراً. اللهم إلاّ ما كان يحكى عن أخيه يزيد بأنّه كان يأكل أنواع الطعام فقد بلغ عمران يزيد بن أبي سفيان يأكل أنواع الطعام فقال لمولى له يقال له يرفأ إذا حضر طعامه فاعلمني فلما حضر غذائه جاء فاعلمه فسلّم واستأذن فأذّن له فدخل فجاء بلحم فأكل عمر معه ثمّ قرّب شواءاً فبسط كفه وكفّ عمر يده ثم قال: الله يا يزيد بن ابي سفيان أطعام بعد طعام والذي نفس عمر بيده لئن خالفتم عن سنتهم ليخالفن بكم عن طريقهم[1]. ولا بدع أن يوحّد بينهما شبه الأكل فقد وحّد بينهما قبل ذلك الكفر.

اكل الكافر ...

جاء في الحديث الشريف الكافر يأكل في سبعة امعاء.

أخرجه البخاري في طرق عدة ومنها هذان الطريقان عن نافع قال: كان ابن عمر لا يأكل حتى يؤتى بمسكين يأكل معه فادخلت رجلاً يأكل معه فأكل كثيراً فقال يا نافع لا تدخل هذا علي سمعت النبي يقول: المؤمن يأكل في معي واحد والكافر يأكل في سبعة امعاء.

عن أبي حازم عن أبي هريرة أنّ رجلاً كان يأكل أكلاً كثيراً فأسلم فكان يأكل اكلاً قليلاً. فذكر ذلك للنبي ﷺ فقال: إنّ المؤمن يأكل في معي واحد والكافر يأكل في سبعة امعاء[2].

---

(١) ابن الجوزي، عمر بن الخطاب، ص١٦٤.

(٢) الجامع الصحيح للبخاري، ج٧ ص٩٢ وص٩٣.

والحديث كما أخرجه البخاري أخرجه مسلم في كتاب الاشربة والترمذي وابن ماجه واحمد في مسنده في طرق وسياقات عديدة. وأخرجه الدارمي في سننه بطريقين عن جابر وأبي هريرة وأخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه. وأخرجه الطحاوي في مشكل الآثار ونقل عن أبي جعفر أنّه قال: فكانت هذه الآثار قد رويت عن رسول الله ﷺ مؤتلفة غير مختلفة.

فتأملنا فوجدنا المؤمن يسمي على طعامه فيكون فيه البركة ووجدنا الكافر لا يسمي على طعامه فلا يكون فيه بركة ...[1]

وأخرجه البخاري أيضاً في الكبير وأخرجه ابن حجر في فتح الباري والمتقى الهندي في كنز العمال والقرطبي في تفسيره وابو نعيم في حليته وفي تاريخ اصبهان وكذلك أخرجه ابن كثير في البداية والنهاية.

والحديث صحيح لا غبار عليه وقد عنى بأخراجه هؤلاء الأعلام وهو يتناول معاوية وأخاه يزيد ومن شاكله من بني امية وقد مرّ عليك قول الزمخشري: إمامهم في الأكل في سبعة امعاء معاوية[2].

أشارة إلى كفره الذي دلّ عليه الحديث الشريف السالف. والآن هل يجد أوليائه مخرجاً من هذا الحديث؟! أجل لقد حاول الطحاوي أن يحرف معناه بجعله في إنسان بعينه[3] ولكن لم يتيسر له ذلك والحمد لله رب العالمين.

صفة طعامه ..

قال الاحنف: دخلت على معاوية فقدّم إلي من الحلو والحامض ما كثر تعجبي منه ثمّ قدّم لوناً ما أدري ما هو، فقلت ما هذا؟ قال: مصارين البط محشوّة بالمخ قد قلي بدهن الفستق وذرّ عليه الطبرزد فبكيت فقال: ما يبكيك؟ قلت: ذكرت علياً بينا أنا عنده فحضر وقت افطاره فسألني المقام إذ دعا بجراب مختوم قلت: ما في الجراب؟ قال: سويق شعير قلت: خفت عليه أن يؤخذ أو بخلت به؟

---

(١) الطحاوي، مشكل الآثار، ج٢ ص٢٨٠.

(٢) ربيع الابرار، ج٣ ص٢٥٣.

(٣) راجع مشكل الآثار، ج٢ ص٢٨٠.

قال: لا ولا أحدهما ولكني خفت أن يلتّه الحسن والحسين بسمن أو زيت. قلت: محرم هو يا أميرالمؤمنين قال: لا ولكن يجب على أيمة الحق أن يعتدّوا أنفسهم من ضعفة الناس لئلا يطغى الفقير فقره قال: معاوية ذكرت من لا ينكر فضله..[١]

قال ابن حمدون: وقد روي أنّ معاوية كان شحيحاً على الطعام ونسب إليه في ذلك ما ليس بمشهور فمن ذلك أنّه قال لرجل واكله: ارفق بيدك فقال له: وأنت فاغضض من طرفك وبصرك[٢].

وقال صعصعة: اكلت عند معاوية لقمة فقام بها خطيباً قيل وكيف ذاك؟ قال: كنت آكل معه فهيّأ لقمة ليأكلها واغفلها فأخذتها فسمعته بعد ذلك.

يقول في خطبته: أيّها الناس اجملوا في الطلب فرب رافع لقمة إلى فيه تناولها غيره[٣].

ومن عجيب أمره أنّه كان يوصي عماله. بقلّة الأكل قال لعامل له: كل قليلاً تعمل طويلاً. والزم العفاف يلزمك العمل. وإياك والرشا يشتد ظهرك عند الخصام[٤]. وكان يغار على الطعام كما يغار الرجل الغيور على عرضه.

دخل عبيدالله بن ابي بكره على معاوية ومعه ولد له فاكثر من الأكل فلحظه معاوية وفطن عبيدالله وأراد أن يغمز ابنه فلم يرفع رأسه حتى فرغ من الأكل ثمّ عاد عبيدالله وليس معه ابنه فقال معاوية: ما فعل ابنك التلقامه؟ قال: اشتكى قال: قد علمت أنّ أكله سيورثه داءاً .....[٥] وهذه الحكاية رواها المدائني بصورة أخرى تختلف عن سابقتها قال المدائني:

دخل اعرابي إلى معاوية ومعه ابنه فدعاهما إلى الغداء. فكان ابن الأعرابي لا يمرّ بشيء الاحطمه فأمر معاوية أن يحجب الأعرابي وابنه. فلم يزل الأعرابي يحتال حتى دخل فقال له معاوية: ما فعل التلقامة؟! قال: كظّ به يا أميرالمؤمنين ساعة

---

(١) التذكرة الحمدونية، ج١ ص٦٩ وص٧٠.

(٢) التذكرة الحمدونية، ج٢ ص٣٧٨.

(٣) التذكرة الحمدونيه، ج٢ ص٣٣١، وابو حيان التوحيدي، البصائر والذخائر، ج٢ ص٩٨.

(٤) التذكرة الحمدونية، ج١ ص٣٥٣.

(٥) ابن الاثير، الكامل، ج٣ ص٢٦٢.

خروجه من عندك قال قد رأيت ذاك مما يصنع وعلمت أنّه لا ينجو وسهل إذن الاعرابي[١].

وكان يعمل لمعاوية لونٌ من المخ لا يشاركه فيه أحد!! فأني به فضرب عبدالله ابن جعفر بيده فيه. وقال: إنّما أردت به أُنسَك يا أميرالمؤمنين قال: ما آنستني! ثمّ استحيا فأرسل إليه عشرة آلاف، فقال عبدالله: كم في هذه من لون مخ؟![٢]

تغدّى اعرابي عند معاوية فنظر معاوية إلى شعرة في لقمته فقال: يا اعرابي خذ الشعرة من لقمتك، قال: وإنك لتراعيني حتى تبصر في لقمتي، والله لا أكلت معك أبداً[٣].

أطلق معاوية لبطنه العنان فكان يخضم مال الله خضم الابل نبتة الربيع واصبح الحكم عنده لقمة دسمة يزدردها أو جرعة خمر يشربها أو ساعة أنس يقضيها مع أصحابه ونظرائه من أهل الشام وعمر في المدينة يتحدّث عن المثل العليا ويأخذ نفسه بالشديد من العيش وقد اعفى معاوية من كل التزام أمام الله وأمام الناس.

وكان معاوية يروح في موكب ويغدو في موكب وأصحاب الحوائج ببابه كما قال له عمر.

ولما عاتبه بذلك العتاب اللين الرقيق وهو يراه بام عينيه في تلك الكوكبة الحسنة. اعتذر عند عمر بجواسيس العدو فما زاد عمر على أن قال له: والله إن كنت كاذباً إنّه لرأيُ اريب ولئن كنت صادقاً أنّه لتدبير اديب ما سألتك عن شيء قط إلاّ تركتني فيه اضبق من رواجب الضرس لا آمرك ولا أنهاك[٤].

ومن المؤكد أن عمر كان عالماً بمخادعة معاوية اياه ولكنّه يدجنّه لأمر هام سوف يظهر لنا جليا من خلال البحث إن شاء الله.

ولو صح ما إدّعاه معاوية أو صح ما أظهره عمر من تصديقه لما قدم إلى الشام

---

(١) التذكرة الحمدونية، ج٤ ص٢١٠.

(٢) الأبي، نثر الدرر، ج٣ ص٢٧٨.

(٣) الأبي، نثر الدرر، ج٣ ص٢٧٨.

(٤) نثر الدرر، ج٣ ص١٣. وقوله: مثل رواجب الضرس أي تركتني في أمر يصعب على الخروج منه. الرواجب، اصول الأصابع، والضرس، الرجل الداهية.

بموكب بسيط جداً حتّى عدّ ذلك من مناقب الرجل.

عن أبي العالية الشامي: قال: قدم عمر الحابية على جمل أورق تلوح صلعته للشمس ليس عليه قلنسوة ولا عمامه، تصطفق رجلاه بين شعبتي رحله بلا ركاب، وطاؤه كساء ابنجاني ذو صوف هو وطاؤه إذا ركب وفراشه إذا نزل، حقيبته نمره أو شملة محشوّة ليفاً هي حقيبته إذا ركب ووسادته إذا نزل، عليه قميص من كرابيس وقد دسم وتخرّق جيبه فقال: ادعوا لي رأس القرية فدعوا له «الجلومس» فقال:

اغسلوا قميصي وخيّطوه واعيروني قميصاً او ثوباً فأتي بقميص كتان. فقال: ما هذا؟ قالوا: كتان قال: وما الكتان فاخبروه فنزع قميصه فغسل ورقع واني به فنزع قميصهم ولبس قميصه فقال له الجلومس:

أنت ملك العرب وهذه بلاد لا تصلح بها الابل فأتي ببرذون فطرح عليه قميص بلا سرج ولا رحل فركبه، فقال: احبسوا احبسوا ما كنت أظن الناس يركبون الشيطان قبل هذا فأتي بجمله فركبه[1].

وبالطبع لم تسلم هذه الحكاية من تلوين خيال الرواة. إذ ليس من المعقول أن يجهل عمر الكتان أو البردون وهو إن لم يكن رآهما قبل الملك فقد رآهما بعد أن صار ملكاً على أرض واسعة. ورآهما في الغنائم التي صبّت عليه من الأرض المفتوحة.

وعلى أية حال فصاحب هذا الموكب البسيط كيف سمح لمعاوية بموكبه الانيق الباذخ وهو ملك العرب كما قال له الجلومس ومعاوية واحد من عماله؟!!

والواقع أن عمر لم يخدع بمعاوية وأنّى لمعاوية بخديعة مثل أبي حفص ولكن هناك ظروف مستقبليه لابد من اعداد معاوية لها وإلاّ فلعمران يجيب معاوية بحياة من كان قبله من ولاة الشام كأبي عبيدة مثلاً فكيف استقامت لهم حياة البساطة وشظف العيش ولم تحلّ الكارثة بالاسلام وأهله بينما خاف معاوية من ترك حياة البذخ وخفض العيش أن يدخل ضرر على الإسلام من العدو المجاور المتربص؟!! إنّ هذا لشيء غريب.

---

(١) ابن الجوزي، تاريخ عمر بن الخطاب، ص١٣٧.

وانظر حياة أبي عبيدة بالشام يرويها لنا عروة ابن الزبير قال: قدم عمر بن الخطاب الشام فتلقّاه أمراء الاجناد وعظماء أهل الأرض فقال عمر: أين أخي؟ قالوا: من؟ قال: أبو عبيدة قالوا: يأتيك الآن. فجاء على ناقة مخطومة بحبل فسلم عليه وسأله ثم قال للناس: انصرفوا عنا فسار معه حتى منزله فنزل عليه فلم ير في بيته إلاّ سيفه وترسه ورمحه فقال عمر: لو اتخذت متاعاً أو قال: شيئاً فقال أبو عبيدة: يا أميرالمؤمنين إنّ هذا سيبلغنا المقيل[1].

كان معاوية يوحي لعمر أنّه يبتغي ببذخه وخفض عيشه عزة الإسلام لأنه مجاور قوماً أهل بذخ وبلهنية فإذا شاهدوا خشونة العيش باديةً لهم ابتعدوا عن قبول هذا الدين ونأوا بأنفسهم عنه أما حياة الخفض والسعة فتحدث عندهم نوع انعطاف نحو الإسلام وهذه الخدعة ربما تنطلي على جاهل مخرّف من عبّاد القواعد الباطلة أمس واليوم أمّا عمر فإنّ ذلك لا يخدعه حتماً ولكنه ينخدع له لأمور خاصة ما استعمل عمر معاوية إلاّ لأجلها وسوف تظهر خلال البحث إن شاء الله.

وكيف تخدع عمر هذه المظاهر البرّاقة التي قابله معاوية بها وهو القائل لأبي عبيدة كما روى طارق بن شهاب قال: لما قدم عمر الشام عرضت له مخاضة فنزل عن بعيره ونزع موقية فامسكها بيده فخاض الماء ومعه بعيره فقال له أبو عبيدة: قد صنعت اليوم صنيعاً عظيماً عند أهل الأرض صنعت كذا وكذا قال: فصكّ في صدره وقال: أوه لو غيرك يقولها يا أبا عبيدة، إنّكم كنتم أذل الناس واحقر الناس وأقلّ الناس فأعزّكم الله بالإسلام فمهما تطلبوا العزة بغيره يذلكم الله ...[2]

لقد نطق عمر بالحق ليست عزة الاسلام فرعونيّة كالتي يريدها معاويه ولكنها عزة الحق والإيمان وهي من عزّة الله ورسوله فإنّ العزّة لله ولرسوله وللمؤمنين فكيف انخدع لمعاوية.

الحق - والحق يقال - إنّه تظاهر بذلك وما أكثر غرائب أبي حفص مع ابن هند.

---

(١) تاريخ عمر بن الخطاب، ص١٣٨.

(٢) تاريخ عمر بن الخطاب، ص١٣٨.

جيش معاوية ...

انفرد معاوية من بين عمال عمر ببناء جيش جرار بمسمع من عمرو مشهد بخاصة حين زار عمر الشام فقد استقبله به وشاهد عن كتب ما يحتوي عليه هذا الجيش من العدة والعدد فلمن اعده معاوية؟! وهو لم يفتح به حتى قرية من قرى النمل والملفت للتظرانّ عمر ما سمّاه كسرى العرب الابعد مشاهدته تلك الأبهة التي لاقاه بها وذلك الجيش الضارب والعسكر المجري. ذكر طرفاً من هذا الجيش الطبري في الرواية التالية عن أبي محمد الأموي قال:

.. خرج عمر بن الخطاب إلى الشام فرأى معاوية في موكب يتلقّاه وراح إليه في موكب فقال عمر: يا معاوية تروح في موكب وتغدو في مثله وبلغني أنك تصبح في منزلك وذوو الحاجات ببابك! قال: يا أميرالمؤمنين إنّ العدو بها قريب منا ولهم عيون وجواسيس فأردت يا أميرالمؤمنين أن يروا للإسلام عزّاً فقال له عمر: إنّ هذا لكيد رجل لبيب أو خدعة رجل أريب فقال معاوية: يا أميرالمؤمنين مرني بما شئت أصر إليه، قال ويحك ما ناظرتك في أمر أعيب عليك فيه إلاّ تركتني ما أدري آمرك أم أنهاك[1].

وأخرجه الذهبي بسياق آخر وقال تلقاه في موكب عظيم وهيئة فنعت الموكب وعطف عليه هيئة ويستشف من هذا أنّه استقبل عمر بعرض عسكري كالذي يستقبل به الزعماء اليوم[2].

والذي يدلك على قوة هذا الجيش وكثرته هو وصف معاوية له حين أنبّه عمر في زيارته الشام فقال: يا أميرالمؤمنين أنا بأرض يكثر فيها حواسيس العدو فاحتاج أن أظهر لهم من ابهّة الملك والسلطان ما يزعهم[3].

تبيّن من هذا القول أنّ الجيش معد لمقابلة الروم وطوارئهم كما يزعم معاوية واعتبر بقوة جيش مبنيّ لترهيب الروم وردعهم.

---

(١) تاريخ الطبري: ج٥ ص٣٣١.

(٢) الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج٣ ص١٣٣.

(٣) صبح الأعشى، ج٣ ص٢٨٧.

لقد أقبل هذا الجيش المؤلف من أعداد غفيرة وعدة حسنه من دمشق بين يدي عمر وله دوي هائل سمّاه ابن عساكر له رز[١] وهو الصوت الذي تسمعه من بعيد ولا تدري ما هو.

وكان على عمر أن يسئل معاوية لمن أعدّ هذا الجيش العظيم ولكنّه تغاضى عنه لعلمه أنّه قوّة له أيضاً كما هو قوّة لقريش في قبال أهل بيت النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

وبلغ عدد المنتسبين إلى هذا الجيش في رواية ابن قتيبة مأة ألف[٢] ولم يكن العدد وحده مطلوباً بل هناك عنصر آخر لابدّ من توفره بل لاغنىً عنه لأي جيش نظامي مهما بلغ من وفرة العدد وحس العدة تلكم هي روح الطاعة للقائد والإلتفاف حوله.

يقول ابن قتيبة أيضاً: لا يعرفون علياً ولا قرابته[٣].

ويقول الدكتور ماهر حماده: إنّ معاوية بن أبي سفيان مؤسس الأسرة الحاكمة في سوريا عمل دائباً منذو كان والياً على سوريه زمن عمر بن الخطاب وعثمان على إيجاد جيش مخلص له شخصياً يستطيع الإعتماد عليه[٤].

لقد كان هذا الجيش بعين عمر بن الخطاب فما كان ليؤسسه معاوية بهذه القوة والإقتدار دونما علم من الخليفة. ولقد كان عمر يعرف الغاية من تأسيسه، بل ليس من نافلة القول أن نقول: إنّ الفكرة كانت من وضع عمر وكان المنفذ معاوية وكان عمر يعده جيشه ويعد قوته له. من ثمّ راح يهدد به وبمؤسسه.

تهديد الناس بمعاوية وجيشه

اتخذ عمر من معاوية وجيشه (البعبع) الذي يهدد به الناس فقد قال ذات يوم: اياكم والفرقة فإن فعلتم فاعلموا أنّ معاوية بالشام وستعلمون إذا وكّلتم إلى رأيكم

---

(١) مختصر تاريخ دمشق، ج٢٥ ص١٨.

(٢) ابن قتيبة، الإمامة والسياسة، ج١ ص٣٢.

(٣) ابن قتيبة، الإمامة والسياسة، ص٣٢.

(٤) الدكتور حماده، دراسة وثقية، ص٢٣.

كيف يستبرها دونكم[١].

وقال لأهل الشورى: لا تختلفوا فإنّ معاوية وعمراً بالشام[٢].

ومعنى الاختلاف في عرف الرجل هو إنتخاب علي للخلافة ولا يقول هذا عمر جزافاً ولا بنحو الأغراء لمعاوية وإن كان يوحي لمعاوية زخرف هذا المعنى ولكن لعلمه بطموحه وأنّه كان يتصنع للخلافة وعمر على قيد الحياة وتوضع له الأحاديث المتنبئة بصيرورتها إليه على لسان الكهان روي عن ذي قربات قال: لما توفي رسول الله ﷺ قيل يا ذا قربات من بعده؟ قال: الأمين يعني أبابكر قيل فمن بعده؟ قال: قرن من حديد، يعني عمر قيل فمن بعده؟ قال يعني عثمان قيل فمن بعده؟ قال: الوضّاح الازهر المنصور يعني معاوية[٣].

لذلك قال الحسن: لقد تصنع معاوية للخلافة في ولاية عمر بن الخطاب ...[٤] والواقع أنّه لم يتصنع هو بل صنعه عمر لها والحسن أما جاهل بحقيقة الحال أو كاتم للواقع.

وذو قربات هذا يهودي آخر وكاهن من كهان اليهود من فصيلة كعب الأحبار. وكان هذا الأخير ينوه باسمه ويزعم أنّه اعلم الناس فقد سأله معاوية قائلاً: دلني علي أعلم الناس قال: ما أعلمه إلاّ ذا قربات وهو باليمن فبعث إليه معاوية وهو بالغوطة فتلقّاه كعب فوضع رأسه له ووضع الآخر له رأسه فذكر قصة طويلة وفي ضمنها أنّه كان يهودياً ....[٥]

وما من شك أن عمر إنما قربه لتصنعه هذا للخلافة وكان على علم يقين أنّ قوّة بني هاشم المعنوية لا يمكن أن يقف في وجهها إلاّ رجل من بني امية يحمل خصائص معاوية.

وكانت ثقته أولاً في يزيد أخيه ولكن الأجل اخترمه قبل أن تتم الحبكة

---

(١) ابن منظور، مختصر تاريخ دمشق، ج٢٥ ص٢٥ والاصابة، ج٣ ص٤٣٤.

(٢) ابو حيان التوحيدي، ج٧ ص٦٥، البصائر والذخائر، ج٧ ص٦٥.

(٣) مختصر تاريخ دمشق، ج٢٥ ص٢٥.

(٤) مختصر تاريخ دمشق، ج٢٥ ص٢٤.

(٥) ابن حجر، الإصابة، ج١ ص٤٨٧.

الخبيثة على يديه ولهذا أظهر عمر جزعاً شديداً على يزيد.

عن أبي إسماعيل محمد بن عبدالله البصري قال: جزع عمر على يزيد جزعاً شديداً[1].

وليس من سبب يدعو أبا حفص إلى الجزع سوى ضياع الفرصة من يديه ولعل يزيد أكثر كفاءة من أخيه ووقع اختيار عمر بعد يزيد على أخيه معاوية فمن ثم اختصّه بالرعاية وأولاه عنايته الخاصة كما تقدم.

لماذا اختار عمر معاوية؟!

من المقطوع به عند المؤرخين واعتبروه ضرورة تاريخية أنّ التنافس والحسد والبغضاء في المجتمع القبلي أمر لا محيد عنه لم تسلم منه قبيله في عصر من العصور.

وقد تخف هذه الأُمور في قوم دون قوم وربما ثقلت واشتدت عند آخرين. فالمجتمع البدوي الذي يتقلب بين السكون والرحيل والذي يفرض عليه انتجاع الكلأ هنا وهناك أن لا يقيم في مكان واحد إلاّ بقدر ما تتم نجعته ثم يغادر الموضع إلى آخر وهكذا دواليك قد يكون بمنأىً عن المنافسة والحسد إلاّ ما تمليه ضرورة العيش عليه.

أمّا المجتمع المستقر في مكان واحد فوجود هذه الظواهر فيه أشد بروزاً وأعظم ظهوراً وكانت قريش بطوناً وافخاذاً تنتمي إلى مجتمع شبه متحضر وهو بعد مجتمع تجاري تولف التجارة أهم موارده الأقتصادية بل ليس له سواها هذا إذا اعتبرنا وفود الحجيج أيضاً من الموارد التجارية والحياة على هذه الشاكلة نضطر ابنائها إلى التعايش السلمي ولكنه تعايش مشوب بالحذر وسلم مطعم بالحسد وكان الحسد داء قريش الدوي وهو الذي حتم عليهم محاربة الإسلام ومناصبة نبيّه العداء كما حتم عليهم إبعاد أهل بيته عن منصبه يقول أميرالمؤمنين عليه السلام مشيراً إلى هذه الحقيقة: أين الذين زعموا أنّهم الراسخون في العلم دوننا كذباً وبغياً علينا أن رفعنا

---

(١) ابن عبدالبر، الاستيعاب، ج٣ ص٤٧١.

الله ووضعهم وأعطانا وحرمهم وأدخلنا وأخرجهم بنا يستعطى الهدى ويستجلى العمى أنّ الأيمة من قريش غرسوا في هذا البطن من هاشم لا تصلح على سواهم ولا تصلح الولاة من غيرهم[1]. وفي نهج البلاغة الكثير من هذا.

كانت بوادر من عداء قريش لأهل البيت تظهر على السطح والنبي ﷺ على قيد الحياة فقد صح أنّ العباس عمّه عليه السلام شكا إليه ما يلقون من قريش من تعبيسهم في وجوههم.

وقطعهم حديثهم عند لقائهم فغضب ﷺ غضباً شديداً حتى أحمر وجهه وعرق مابين عينيه وقال: والذي نفسي بيده لا يدخل قلب رجل الإيمان حتى يحبكم لله ولرسوله[2].

وكانوا يعارضون النبي ﷺ سرّاً وجهراً فيما يظهر من فضل أهل بيته فقد نقل الثعلبي والبغوي عن ابن حنبل: أنّه لما نزل قوله تعالى: (قُل لاَ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلاّ الْمَوَدّةَ فِي الْقُرْبَى) قال قوم في نفوسهم ما يريد إلاّ أن يحثنا على قرابته من بعده فأخبر جبريل النبي ﷺ أنّه اتّهموه فأنزل: (أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَى عَلَى اللّه كَذِباً) الآية فقال القوم يا رسول الله إنّك صادق فنزل وهو الذي يقبل التوبة عن عباده ....[3]

وطالما بلغ النبي أذاهم له ولأهل بيته فاغضبه ذلك والجئه إلى ذمّهم ونهيهم عنه ولكنّ حسدهم له ولأهل بيته يحرق كلّ معنى جميل في نفوسهم بل صيّر جماعة منهم إلى النفاق فكانوا يضمرون لهم البغضاء ويظهرون الإيمان حتّى فضحهم الوحي فخفت شرّتهم ولكنّها لم تخمد والذي أجج النار في صدورهم أكثر هو اختيار النبي علياً أخاً ووصيّاً وخليفةً من بعده وكانوا يطمعون بانقراض الدعوة في وفاة صاحبها وعزائهم الوحيد أنّه لا نسل له وسمّاه العاص أبتر فنزل القرآن بتكذيبه ولعنه وسمّاه شانئاً أبتر.

واعتبروا علياً وأولاده التجديد المستمر لحياة النبي ﷺ فلذلك صبّوا نقمتهم عليه وعلى أولاده وما قذفهم أم إبراهيم سرية النبي ونفيهم إبراهيم وإنكارهم

---

(١) الشيخ معنيه، في ظلال نهج البلاغة، ج٢ ص٣٢٠.

(٢) ابن حجر، الصواعق المحرقة، ص١٧٢.

(٣) الصواعق المحرقة، ص١٧٠.

أن يكون الحسنان ولديه بل حرمان الزهراء من الإرث إلاّ جزء من هذا المخطط الخبيث.

وعاكسوا النبي ﷺ في كل خطوة خطاها لإثبات فضل أهل بيته وتثبيت حقهم بخاصة تلك الساعة المشومة من يوم الخميس الذي أجرى دموع ابن عباس كعقد اللؤلؤ على خديه وسماها رزية وقد مرّ تفصيلها آنفاً وحصل لقريش ما أرادت من تقمص الخلافة وأعانت أوّلها بكل ما قدرت عليه.

والمهمّ الآن ليس غصب الخلافة بل العزم الذي تواطأ عليه القرشيون بعدم عودتها إلى بيت النبي مرّة أخرى.

وكانت خطتهم التي درجوا عليها أن يضعها السابق في حضن اللاحق قبل أن يغادر إلى معاده أو بحبك خطة تؤدي إلى حرمان علي منها كما فعل عمر في الشورى. وفوق هذا وذاك فقد رأوا من الأوفق بهم والأجدر بضمان مطالبهم أن يختاروا بيتاً من قريش ويختاروا من هذا البيت واحداً يقف في وجه على وأولاده وتلقى إليه تعاليم خاصة في كيفية صرف علي عن حقه أو التشويش عليه وتضييع الفرصة عليه إن أفلت الحكم منهم إليه بنحو من الأنحاء.

ولم يكن بيت في قريش يحمل خصائص العداء المطلوب لبيت علي أكثر من بني امية ولم يكن في بني امية أكثر خبثاً وعداءاً لعلي من آل أبي سفيان وليس فيهم أخبث من معاوية. وهو الموتور المغلوب مضافاً إلى عدائه التقليدي لبني هاشم عامة.

وكان الإمام عليه السلام قد وتر معاوية بأخيه حنظلة وهو شقيقه وجده عتبة وشيبة عم امه والوليد خاله وكان شبحُ هؤلاء القتلى يساقيه حقده الصاعق على علي وأولاده وما كانت ذكراهم تفارقه أو تفارق امه وهي القائلة تندبهم وتذكر قاتلهم:

أبي وعمي وشقيقي بكري بهم قصمت يا علي ظهري

من هنا اعتبر الد اعداء علي عليه السلام وأولاده تضاف هذه مجتمعة إلى ما تحويه ذاته من الغدر والدهاء والنفاق والخسة والجشع والفسق وغير ذلك.

ولم ينفذ نور الإسلام إلى ظلمات ذاته فبقي على ما هو عليه في الجاهلية لأنه لم يؤمن بالإسلام ديناً بل وسيلة ينال بها مئآربه ويحقق اغراضه وكيف يكون معاوية

مسلماً بعد عدائه السافر لعلي الذي جعله الله محكاً يميز به الخبيث من الطيب والصادق من الكاذب والمؤمن من المنافق وقد روى الحفاظ والأعلام عنه أنّه قال:

.. عهد عهده إلى رسول الله لا يحبني منافق ولا يبغضني مؤمن[١].

وعلى من انتحل له الأعذار وحرر له الوجوه والتأويلات أن يرد على هذا الحديث بالقبول أو الرفض. وعلى كل حال فقد وقع اختيار عمر وهو ناطق قريش الرسمي وإن شئت مدره القوم على معاوية لشديد عدائه لعلي عليه السلام.

يقول السيد بن عقيل رحمه الله: وليس على ظهر الكرة الارضية اعدى لعلي من معاوية وقد صرح كرم الله وجهه بذلك في مواطن مذكورة في محالها من كتب السير[٢].

ولئن صحت كلمة أحمد بن حنبل وهي صحيحة لا ريب في ذلك القائل لولده عبدالله بعد أن سأله: ما تقول في علي ومعاوية. فأطرق ثمّ قال: ايش أقول فيهما. اعلم أنّ علياً كان كثير الأعداء ففتّش له أعدائه عيباً فلم يجدوا فجائوا برجل قد حاربه وقاتله فأطروه كياداً منهم له[٣].

أقول إن صحت هذه الكلمة في حق غير عمر فهي في حق عمر أصح لأنّه رفع معاوية من الحضيض الاوهد إلى عز الخلافة والملك وصيّره من الرفش إلى العرش وخوّله تلك القوة التي قهر بها خصومه وسفك بها دماء أولياء الله ودرج على منهاج أبيه كما درج ولده على نهجه.

آل حـرب قـد اضـرموا لبـني المختـار حربـاً يشـيب منهـا الوليـد

فـابن حـرب للمصـطفى وابـن هنـد لعلـي وللحسـين يزيـد

---

(١) لهذا الحديث سياقات عده منها السياق المذكور أعلاه وبنها: لا يحبني إلاّ مؤمن ولا يبغضني إلاّ منافق وقد أخرجه جم غفير من الحفاظ: كمسلم في صحيحه وابن أبي شيبه في مسنده والترمذي في سننه والهيثمي في مجمع الزوائد والبغوي في شرح السنة والهندي في الكنز وهذا على سبيل المثال لا الحصر. والحمدلله رب العالمين.

(٢) السيد محمد بن عقيل، النصائح الكافية، ص١٥٨.

(٣) علي بن محمد الكناني، تنزيه الشريعة المرفوعة، ص٨.

الشجرة الملعونة

قال الله تعالى:

(وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا)

الأسراء: ٦٠

اختلف علماء التفسير في الرؤيا التي اريها النبي صلى الله عليه وآله وسلم وفي الشجرة الملعونة وكل ذهب إلى مذهب أمّا أهل البيت عليهم السلام فقد اجمعت كلمتهم التي نقلها عنهم شيعتهم أنّ الرؤيا هي ما رآه النبي من نزو بني امية على منبره ذات ليلة فاصبح مغموماً فعزّاه الله بما أنزل عليه من الذكر الحكيم واعلمه أنّ ذلك دنياً يلعقون منها ثم يذهبون إلى لعنة الله وأليم عذابه وأمّا الشجرة الملعونة فهم بنو امية ولم يختلف منهم أحد.

والذين اختلفوا هم مفسروا أهل السنة والجماعة ونحن نسبر القولين وننقد المذهبين.

الرؤيا والشجرة الملعونة عند الشيعة

روي عن أبي جعفر وأبي عبدالله عليهما السلام : أنّ ذلك رؤيا رآها في منامه أنّ قروداً تصعد منبره وتنزل فسائه ذلك وروى مثل ذلك سهل بن سعد الساعدي عن أبيه أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم رآى ذلك ومثله عن سعد بن بشار فأنزل الله عليه جبرئيل وأخبره ما يكون من تغلب أمر بني امية على مقامه وصعودهم على منبره[1].

---

(١) شيخ الطائفة، التبيان، ج٦ ص٤٩٤.

وروى سهل بن سعيد هذا عن أبيه:

أنّ النبي ﷺ رأى ذلك وقال: أنّه ﷺ لم يستجمع بعد ذلك ضاحكاً حتى مات وقالوا على هذا التأويل إنّ الشجرة الملعونة في القرآن هي بنو امية اخبره الله سبحانه بتغلبهم على مقامه وقتلهم ذريته روي عن المنهال بن عمرو قال:

.. دخلت على علي بن الحسين عليه السلام فقلت له: كيف أصبحت يا ابن رسول الله فقال: اصبحنا والله بمنزلة بني اسرائيل من آل فرعون يذبحون ابناءهم ويستحيون نساءهم واصبح خير البرية بعد رسول الله ﷺ بلعن على المنابر واصبح من يحبنا منقوصاً حقه بحبه ايانا[1].

عن القاسم عن أبي عبدالله عليه السلام قال: اصبح رسول الله ﷺ يوماً حاسراً حزيناً فقيل له مالك يا رسول الله؟ فقال: اني رأيت صبيان بني امية يرقون على منبري هذا فقلت يا رب معي؟ فقال لا ولكن بعدك.

والرواية التالية اشمل مضموناً لأنها تحصى عددهم وتحصره بأثني عشر رجلاً.

عن يونس بن عبدالرحمن الأشل قال:

.. سئلته عن قول الله (وَمَا جَعَلْنَا الرّؤْيَا الّتِي أَرَيْنَاكَ إِلاّ فِتْنَـةً لّلنّـاسِ) الآيات فقال: إنّ رسول الله ﷺ نام فرأى أنّ بني امية يصعدون المنابر فكلما صعد منهم رجل رأى رسول الله الذلة والمسكنة!! فاستيقظ جزوعاً!! من ذلك وكان الذين رآهم اثني عشر رجلاً من بني امية فأتاه جبرئيل بهذه الآية ثمّ قال جبرئيل إنّ بني امية لا يملكون شيئاً إلاّ ملك أهل البيت ضعيفه ... وفي هذه الرواية التالية يراهم قروداً وعددهم اربعة عشر.

.. عن أبي عبدالله الصادق أنّ النبي ﷺ رأى ذات ليلة وهو بالمدينة كان قروداً اربعة عشر قد علوا منبره واحداً بعد واحد فلما اصبح قصّ رؤياه على اصحابه فسئلوه عن ذلك فقال: يصعدون منبري هذا بعدي جماعة من قريش ليسوا لذلك اهلاً قال الصادق عليه السلام : هم بنو امية.

---

(١) الطبرسي، مجمع البيان، ج٣ ص٤٢٤.

وهذه الروايات تدلّ على أنّ من سبقهم اسعد حظاً منهم حيث لم يره النبي في المنام إلاّ أن الرواية التالية تلحقهم ببني امية في مصير واحد.

عن عبدالرحيم القصير، عن ابي جعفر عليه السلام في قوله: (وما جعلنا الرؤيا التي اريناك إلاّ فتنة للناس) قال: اري رجالاً من بني تيم وعدي على المنابر يردون الناس عن الصراط القهقرى قلت والشجرة الملعونة في القرآن قال: هم بنو امية يقول الله: (ونخوفهم فما يزيدهم إلاّ طغياناً كبيراً..).

ومقتضى هذه الرواية أنّ الرؤيا فيهم خاصة كما أن الشجرة الملعونة في بني امية.

العياشي عن حريز عن مسمع عن أبي جعفر عليه السلام: (وما جعلنا الرؤيا التي قد اريناك إلاّ فتنة لهم ليعمهوا فيها) والشجرة الملعونة في القرآن يعني بني امية[1].

يقول شيخنا الجليل مغنيه رحمه الله: إنّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم رأى بني امية ينزون على منبره نزو القردة فساءه ذلك. واغتم به ولم ير ضاحكاً. وذهب إلى هذا التفسير جماعة من الصحابة منهم سعيد بن المسيب وابن عباس كما في تفسير الرازي وسهل بن سعد كما في تفسير البحر المحيط وفي صحيح البخاري ج٩ كتاب الفتن، أنّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: (هلاك امتي على يد اغيلمه من قريش) وهذه الرواية تدعم تفسير الرؤيا ببني امية. وعليه يكون المراد بقوله تعالى: (والشجرة الملعونة في القرآن) هم بنوامية بالذات ....[2]

أقول ويدعمه أيضاً حديث رسول الله: إذا بلغ بنو أبي العاص ثلاثين رجلاً اتخذوا مال الله دولاً ودين الله دغلاً وعباد الله خولاً. أخرجه الهيثمي عن أبي سعيد بلفظ فلان قال ورواه احمد والبزار إلاّ أنّه قال إذا بلغ بنو أبي العاصي.

ومأأخرجه أيضاً عن عبيدة بن الجراح، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: لا يزال أمر امتي قائماً بالقسط حتى يكون أول من يثلمه رجل من بني امية يقال له يزيد ...[3]

---

(١) راجع لهذا كله، تفسير البحراني، البرهان، ج٢ ص٤٢٤.

(٢) الشيخ محمد جواد مغنيه، الكاشف، ج٥ ص٦٠.

(٣) الهيثمي، مجمع الزوائد، ج٥ ص٢٤١.

والرواية في جامع الشمل وليس فيها ذكر يزيد بن معاوية وقال مؤلفه: رواه أبو يعلى عن أبي ذر فقلنا نحن الأباضية: هو عثمان وقال غيرنا: إنّه يزيد بن معاوية لعنه الله[1].

ويدعمه ما جاء في المطالب العالية: لا يزال هذا الأمر قائماً بالقسط حتى يثلمه رجل من بني امية[2].

كما أنّ الاحداث التي صاحبت حكم عثمان وادت الى مصرعه وما جر قتله على الامة من الويلات والدواهي قرينة قوية جداً على إرادة عثمان بن عفان وكانت عائشة تقول وهي تخرج نعلى رسول الله ﷺ من كوة في المسجد: هذه نعل رسول الله لم تبل وابلى عثمان سنته وهذا هو معنى الثلم الوارد في الحديث الشريف.

الرأي الآخر ...

حاول شيعة بني امية صرف الحديث عن معناه الحقيقي ففسروا الرؤيا على أنّها رؤيا العين وهي ما رأى النبي ﷺ لما أُسري به من مكة إلى بيت المقدس ورووا ذلك عن عكرمة عن ابن عباس وسعيد بن جبير والحسن وأبي مالك ومسروق وقتادة وابن جريح وهذه رواية الحسن البصري قال: اسري به عشاءاً إلى بيت المقدس فصلّى فيه وأراه الله ما أراه من الآيات ثم اصبح بمكة فأخبرهم أنّه اسري به إلى بيت المقدس فقالوا له: يا محمد ما شأنك امسيت فيه ثمّ أصبحت فينا تخبرنا أنك اتيت بيت المقدس فعجبوا من ذلك حتى ارتد بعضهم عن الإسلام.

وتروى عن ابن عباس عن الرؤيا رواية أخرى في دخول مكّة عن ابن عباس قال: وما جعلنا الرؤيا التي اريناك إلاّ فتنة للناس قال: يقال: إنّ رسول الله ﷺ أرى أنّه دخل مكة هو وأصحابه وهو يومئذ بالمدينة فعجل رسول الله ﷺ السير إلى مكة قبل الأجل فردّه المشركون فقالت اناس: قد ردّ رسول الله ﷺ وسلم وقد كان حدثنا أنّه سيدخلها فكانت رجعته فتنتهم.

---

(١) محمد بن الخفيش المغربي، جامع الشمل، ج١ ص٥٣٦.

(٢) ابن حجر العسقلاني، المطالب العالية، ج٤ ص٣٣٢.

وأما تفسيرها برؤيا المنام فعن سهل به سعد قال: رأى رسول الله بني فلان ينزون على منبره تزو القردة فسائه ذلك فما استجمع ضاحكاً حتى مات قال: وأنزل الله عزوجل في ذلك وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلاّ فتنة للناس الآية. ومال الطبري مع القول الأول فقال: وأولى الأقوال في ذلك بالصواب قول من قال: عنى به رؤيا رسول الله ﷺ ما رأى من الآيات والعبر في طريقه إلى بيت المقدس وفي بيت المقدس ليلة اسرى به وإنما قلنا ذلك أولى بالصواب لإجماع الحجة من أهل التأويل على أنّ هذه الآية إنّما نزلت في ذلك[1].

والإجماع الذي ادّعاه الطبري غير حاصل فإنّ سعيد بن المسيب وابن عباس وسهل ابن سعد فسّروا الرؤية والشجرة الملعونة ببني امية.

كما أنّ الإمام الحسن قال ذلك بعد صلحه مع معاوية في خطبته. قال القرطبي: وقرأ الحسن بن علي في خطبته في شأن بيعته لمعاوية (وإنّ أدري لعله فتنة لكم ومتاع إلى حين) [2].

يشير الإمام عليه السلام إلى ما روي عن النبي ﷺ أنّه رأى بني امية في منامه يلون الناس فخرج الحكم من عنده فأخبر بني امية بذلك فقالوا له: ارجع فسله متى يكون ذلك.

فأنزل الله تعالى: وإن أدري اقريب ام بعيد ما توعدون وإن ادري لعله فتنة لكم ومتاع إلى حين يقول لنبيه عليه السلام قل لهم ذلك[3].

وليس الإجماع الذي حمل الطبري على الجنوح عن هذا المذهب وإنما هو الخوف من شمول الآية لفروع كثيرة مقدسة عند القوم ولذا سارع ابن عطية فقال: وفي هذا التأويل نظر ولا يدخل في هذه الرؤيا عثمان ولا عمر بن عبدالعزيز ولا معاوية[4].

ولو اننا تركنا مناقشته في عثمان وابن عبدالعزيز فكيف لا يدخل فيها معاوية

---

(١) الطبري، جامع البيان، ج١٥ ص٧٧ وص٧٨.

(٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج١٠ ص٢٨٣.

(٣) الجامع لأحكام القرآن، ج١١ ص٥١ وص٣٥٠.

(٤) نفسه، ج١٠ ص٢٨٣.

وهو اظهر مصاديق هذه الشجرة واخبث فروعها.

والشوكاني اشار إلى رؤيا المنام عرضاً وضعّف الرواية بصيغة التمريض وبعدم ذكر السند واختصار المتن اختصاراً مخلاً ثم قوله اخيراً وفيه ضعف وللإطلاع ننقل عبارته.

وقيل إنّ هذه الرؤيا المذكورة في هذه الآية هي أنّه رأى بني مروان ينزون على منبره نزو القردة فساءه ذلك فقيل إنما هي الدنيا اعطوها فسري عنه وفيه ضعف[1] ومما يدعو إلى التعجب قوله:

فإنّه لا فتنة للناس في هذه الرؤيا إلاّ أن يراد بالناس رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وحده ويراد بالفتنة ماحصل من المساءة لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أو يحمل على أنّه قد كان أخبر الناس بها فافتتنوا ....[2]

وأقول له وهل ابتلى الإسلام بفتنة أعظم من فتنة بني امية أمس واليوم؟!!

وأقول: اليوم! لأنّه تتحكم في حاضر المسلمين نفس العلاقات التي كانت سائدة قبلُ في حكم معاوية وعبدالملك بن مروان وهشام ولده بفارق واحد وهو أن الأخلاف ليست لهم سيطرة الأسلاف ولا قوتهم.

فلا أجد اليوم كبير فرق بين عبدالعزيز الباز الهالك وبلال بن أبي بردة وغيره من انياب الحكم الأموي وينفي الشوكاني الفتنة في رؤيا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ولو أنّه تخلّى عن رواسب اللاّشعور لعلم أنّ الله تعالى لما أرى نبيّه بني امية كالقردة على منبره أخبره أنّ حكمهم على امته ما هو إلاّ الفتنة التي وردت في الآية التالية (أَحَسِبَ النّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنّا وَهُمْ لاَ يُفْتَنُونَ) فهي فتنة تاني بعد الإيمان واختبار بعد الإسلام ليميز الله الخبيث من الطيب والصادق من المنافق.

ولقد أجاب الإمام الحسين عليه السلام معاوية على كتابه إليه بكتاب واصفاً ولايته عليها فيه باعظم فتنة تصيب الإسلام والمسلمين. قال عليه السلام:

وقلت فيما قلت: لا تردن هذه الأُمة في فتنة وإني لا أعلم لها فتنة اعظم من

---

(١) الشوكاني، فتح القدير، ج٣ ص٢٣٨.

(٢) فتح القدير، ج٣ ص٢٣٨.

امارتك عليها وقلت فيما قلت: انظر لنفسك ولدينك ولأمة محمد وإني والله ما أعرف أفضل من جهادك فإن أفعل فإنّه قربة إلى ربي وإن لم أفعله فاستغفر الله لذنبي ....[١]

وقال الرازي في مفاتيح الغيب القول الثالث قال سعيد بن المسيّب:

رأى رسول الله ﷺ بني امية ينزون على منبره نزو القردة فسائه ذلك، وهذا قول ابن عباس في رواية عطاء والأشكال المذكور[٢] عائد فيه لأنّ هذه الآية مكية وما كان لرسول الله ﷺ منبر، ويمكن أن يجاب عنه بأنّه لا يبعد أن يرى بمكة أن له بالمدينة منبراً يتداوله بنو امية[٣].

ويمكن أن يرد بهذا على الطبري الذي ادّعا اجماع الحجة في التفسير على مختاره.

لأنّ سعيد بن المسيب حجة عندهم لا يرد قوله وهو كما يقولون افقه الناس يقول ميمون بن مهران:

قدمت المدينة فسألت عن افقه أهلها فدفعت إلى سعيد بن المسيب.

وسئل الزهري ومكحول عن افقه من أدركتما؟ فقالا: سعيد بن المسيب سليمان بن موسى: كان سعيد بن المسيب افقه التابعين.

وإذا أردت أن تعرف السرفي حصول بن المسيب على هذه الثقة وهذه المكانة العلمية فستجدها في قول مالك بن أنس.

ولد سعيد بن المسيّب في امارة عمر بن الخطاب وكان بن عمر يرسل إليه في أحاديث عمر لأنّ سعيداً كان قد نصب نفسه لقول عمر فلم يَجُزْهُ[٤]. إذن هذا هو السبب الأول.

وأمّا الشجرة الملعونة قال ابن عباس رضي الله عنهما بنو امية يعني الحكم بن أبي العاص قال ورأى رسول الله ﷺ في المنام أنّ ولد مروان يتداولون منبره فقص

---

(١) جمهرة رسائل العرب، ج٢ ص٦٦.

(٢) أي أنّ هذه السورة مكية وهاتان الواقعتان مدنيّتان.

(٣) تفسير الرازي، ج٢٠ ص٢٣٦.

(٤) تاريخ ابي زرعة الدمشقي، ص١٨٢ وص١٨٣.

رؤياه على أبي بكر وعمر وقد خلا في بيته معهما فلما تفرقوا سمع رسول الله ﷺ الحكم يخبر برؤيا رسول الله ﷺ فاشتد ذلك عليه واتهم عمر في افشاء سره ثمّ ظهر أن الحكم يتسمع اليهم فنفاه رسول الله ﷺ ....[1]

وإنّما خصصوا الرؤيا في الحكم بن أبي العاص فلكي يدرئوا خطر شمولها لعثمان ومعاوية بل هي في بني امية جميعاً وأما كونها سرّاً وإتهام عمر بافشائه فإنّ ذلك مردود بأن معاني القرآن لا يمكن أن تبقى سراً مكتوماً في القلوب إذ لابدّ من ظهوره في يوم من الأيام ثمّ ما وجه مراعاة اللعين الحكم ومداراته في هذا القول وهو تفسير آية من كتاب الله أمر الله نبيّه ببيانه على الحتم والوجوب وقد واجه النبي الحكم بأكثر من هذا كلعنه ومن في صلبه علناً على رؤوس الأشهاد وأمام كافة المسلمين، وأمّا إتّهام عمر فليس من المستبعد أن يكون إتهمه على موالاته بني امية وتواطئه مع الحكم في مسئلة أخرى ولم ينف الحكم لهذا السبب بل لسبب آخر ذكره الرواة وقالوا: اطّلع على رسول الله وهو في احدى خلواته في بعض حجره، فخرج النبي وبيده مشقص يريد أن يفقأ عينه فوجده قد هرب فقال من عذيري من هذا اللعين ثمّ نقاه عن المدينة بعد أن لعنه ومن في صلبه.

وقد مرّ عليك آنفاً أنّ الحكم كان عند النبي وسمعه يحدّث عن ملك بني امية وكل هذا يدلّ على أنّ إتّهام عمر مسئلة أخرى اجنبية عما نحن فيه.

وابن كثير تابع الطبري على قوله ونقل روايته عن الرؤيا والشجرة الملعونة وقال: وقيل المراد بالشجرة الملعونة بنو امية وهو غريب ضعيف[2].

ويدلك على أن الشجرة اللعونة ليست هي شجرة الزقوم لعنُها لأن الله سبحانه لا يلعن خلقاً مسيّراً بأمره فاعلاً لما يراد منه بل يلعن المختار إذا عصى وترك فعل ما يراد منه.

ولذلك تراهم احتاروا في تأويل (الملعونة) فذهبوا إلى أقوال عدة لم يصب أي واحد منها وجه الحق وباعثهم على ذلك طلب التنزيه لبني امية لأنّ من هذه

---

(١) مفاتيح الغيب، ج٢٠ ص٢٣٧.

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج٣ ص٥٢.

الشجرة فروعاً مقدسة عندهم يؤذيهم أنّ تطالهم اللعنة كذي النورين وخال المؤمنين معاوية وجدهم أبي سفيان وجدتهم هند وهكذا.

والمهم عند هؤلاء صيانة الأيمه وإن كان الحق خلافهم وإن ضحوا بالقرآن لا بتأويله وحده وأحسن قول عثرت عليه هو قول الألوسي في روح المعاني يقول:

وأخرج ابن جرير عن سهل بن سعد قال: رأى رسول الله ﷺ بني امية ينزون على منبره نزو القردة فسائه ذلك فما استجمع ضاحكاً حتى مات عليه الصلاة والسلام وأنزل الله تعالى هذه الآية (وَمَا جَعَلْنَا الرّؤْيَا) الخ.

وأخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي في الدلائل وابن عساكر عن سعيد بن المسيب قال: رأى رسول الله ﷺ بني امية على المنابر فسائه ذلك فأوحى الله تعالى إليه إنما هي دنيا اعطوها فقرّت عينه وذلك قوله تعالى: (وَمَا جَعَلْنَا) الخ.

وأخرج ابن أبي حاتم عن يعلى بن مرة قال: قال رسول الله ﷺ: رأيت بني امية على منابر الارض وسيملكونها فتجدونهم ارباب سوء واهتم عليه الصلاة والسلام لذلك فأنزل الله سبحانه (وَمَا جَعَلْنَا) الآية وأخرج عن ابن عمر أنّ النبي ﷺ قال: رأيت ولد الحكم بن أبي العاص على المنابر كأنهم القردة وأنزل الله تعالى في ذلك: (وَمَا جَعَلْنَا) الخ والشجرة الملعونة الحكم وولده وفي عبارة بعض المفسرين هي بنو امية[1].

وأخرج ابن مردويه عن عائشة رضي الله تعالى عنها أنها قالت لمروان بن الحكم: سمعت رسول الله ﷺ يقول لابيك وجدك: أنكم الشجرة الملعونة في القرآن فعلى هذا معنى احاطته تعالى بالناس احاطة اقداره بهم، إلى أن يقول: ومعنى جعل ذلك فتنة للناس جعله بلاءاً لهم ومختبراً وبذلك فسّره ابن المسيب وكان هذا بالنسبة إلى خلفائهم الذين فعلوا ما فعلوا وعدلوا عن سنن الحق وما عدلوا وما بعده بالنسبة إلى ما عدا خلفائهم ممن كان عندهم عاملاً وللخبائث عاملاً أو ممن كان من أعوانهم كيف ما كان.

---

(١) الألوسي، روح المعاني، ج١٥ ص١٠٧.

ويحتمل أن يكون المراد ما جعلنا خلافتهم وما جعلناهم أنفسهم إلاّ فتنة وفيه من المبالغة في ذمهم ما فيه وجعل ضمير نخوفهم على هذا لما كان له أولاً أو للشجرة باعتبار أن المراد بها بنو امية ولعنهم لما صدر منهم من استباحة الدماء المعصومة والفروج المحصنة وأخذ الأموال من غير حلها ومنع الحقوق عن أهلها وتبديل الأحكام والحكم بغير ما أنزل الله تعالى على نبيّه عليه الصلاة والسلام إلى غير ذلك من القبائح العظام والمخازي الجسام التي لا تكاد تنسى ما دامت الليالي والأيام وجاء لعنهم في القرآن، أما على الخصوص كما زعمته الشيعة أو على العموم كما نقول فقد قال سبحانه وتعالى: (إِنّ الّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّه وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللُّه فِي الدّنْيَا وَالْآخِرَةِ) وقال عزوجل: (فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطّعُوا أَرْحَامَكُمْ * أُو لِكَ الّذِينَ لَعَنَهُمُ اللُّه فَأَصَمّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ) إلى آيات أخر ودخولهم في عموم ذلك يكاد يكون دخولاً اولياً.

لكن لا يخفى أنّ هذا لا يسوّغ عند أكثر أهل السنة لعن واحد منهم بخصوصه فقد صرّحوا أنّه لا يجوز لعن كافر بخصوصه ما لم يتحقق موته على الكفر كفرعون ونمرود فكيف من ليس كافراً وادّعى السراج البلقيني:

جواز لعن العاصي المعيّن ونورد دعواه بحديث الصحيحين إذا ما دعى الرجل امرأته إلى فراشه فأبت أن تجيء فبات غضبان لعنتها الملائكة حتى تصيح ...[1]

هذا هو كلام العالم الواعي الذي لا يهمه شيء سوى الظفر بالحقيقة من أي وجه كان لا ما يقوله الشوكاني كما مرّ عليك تواً فإنّه نفى أن تكون فتنة في ملك بني امية أو تكون الآية قد دلّت عليه بوجه من الوجوه ويمكن أن يقع هذا جواباً له ونسئل الله أن يعامل الألوسي بما يستحقّ من لطفه الخفي.

وأخرج بن مردويه عن الحسين به علي رضي الله عنهما: أنّ رسول الله ﷺ أصبح وهو مهموم فقيل مالك يا رسول الله؟ فقال: إني أُريت في المنام بني امية يتعاورون منبري هذا فقيل يا رسول الله لا تهتم فإنّها دنيا تنالهم فأنزل الله وما جعلنا

---

(١) الألوسي، روح المعاني، ج١٥ ص١٠٧ وص١٠٨.

الرؤيا التي أريناك إلاّ فتنة للناس.

وقال السيوطي: والشجرة الملعونة يعني الحكم وولده[١].

قال ابن حيان: وقيل بنو امية حتى أن من المفسرين من لا يعبر عنهم إلاّ بالشجرة الملعونة لما صدر منهم من استباحة الدماء المعصومة واخذ الأموال من غير حلها وتغيير قواعد الدين وتبديل الأحكام ولعنها في القرآن ألا لعنة الله على الظالمين إنّ الذين يؤذون الله ورسوله لعنهم الله في الدنيا والآخرة[٢].

وأمّا ما استشكلوا على تفسير الرؤيا بالمنام بأنّ رؤيا المنام لا فتنة فيها وما كان أحد لينكرها فقد ردّ عليهم ابن حبان بقوله:

وليس كما قال ابن عطيه فإنّ رؤيا الأنبياء حق ويخبر النبي بوقوع ذلك لا محالة فيصير اخباره بذلك فتنة لمن يريد الله به ذلك[٣].

والواقع أنّ كثيراً من الأقوال التي تفسر الآية بغير بني امية ذات سبب واحد وهو صيانة عثمان ومعاوية من الدخول في معناها لأنهما فرعان من الشجرة الملعونة. أما عثمان فلسنا الآن بصدد الكلام عنه.

وأما معاوية فهو اخبث فرع من فروع هذه الشجرة وتحضرني الآن حقيقة مرة من حقائق تنكره للدين وعدائه لسيد المرسلين وهي محاولة هدم منبر رسول الله ﷺ: زاعماً أنه يريد نقله إلى الشام عقاباً لأهل المدينة على خذلانهم عثمان فلا ينبغي أن يبقى المنبر عندهم هذه حجته وهدفه هو هدم المنبر حقداً على صاحبه وعلى تلك الرؤيا التي مسخه الله فيها وأهل بيته قروداً ينزون عليه.

معاوية وعدوانه على منبر رسول الله

أراد معاوية هدم منبر رسول الله ﷺ لتضييع معالم الروضة التي قال عنها ﷺ بين قبري ومنبري روضة من رياض الجنة[٤].

---

(١) السيوطي، الدر المنثور، ج٤ ص١٩١.

(٢) ابن حبان، البحر المحيط، ج٦ ص٥٥ وص٥٦.

(٣) ابن حبان، البحر المحيط، ج٦ ص٥٥ وص٥٦.

(٤) زاد المسلم فيما اتفق عليه البخاري ومسلم، ج٢ ص٢٤٣.

متذرعاً بحجة صبيانيه تافهة زاعماً أنّ أهل المدينة لا يستحقون وجوده بين ظهرانيهم لخذلانهم عثمان بن عفان والله يعلم أنّ هدفه الاكبر هدم المنبر ومحو آثاره ومعالمه ظاتاً يدافع من خبث سريرته أنّ زوال الآثار تدعوا إلى زوال صاحبها ولكن الله خذله حين أضله.

ذكر الطبري في تاريخه قال: قال محمد بن عمر: وفي هذه السنة أمر معاوية بمنبر رسول الله ﷺ أن يحمل إلى الشام فحُرّك فكسفت الشمس حتى رئيت النجوم بادية يومئذ فاعظم الناس ذلك فقال: لم أرد حمله إنما خفت أن يكون أرض فنظرت إليه ثمّ كساه يومئذ .... وعن سعيد بن دينار قال: قال معاوية: إني رأيت أنّ منبر رسول الله ﷺ وعصاه لا يتركان بالمدينة وهم قتلة أميرالمؤمنين عثمان وأعدائه فلما قدم طلب العصى وهي عند سعد القرض فجاءه أبو هريرة وجابر بن عبدالله فقالا: يا أميرالمؤمنين نذكّرك الله عزوجل أن تفعل هذا فإن هذا لا يصلح تخرج منبر رسول الله ﷺ من موضع وضعه وتخرج عصاه إلى الشام فانقل المسجد فأقصر وزاد فيه ست درجات.

وهذه الزيادة تؤكد خبثه فما كان المنبر بحاجة إليها ولكن الغرض منها تغيير هيئته التي خلفه عليها رسول الله ﷺ(١).

وزاد ابن الأثير في روايته مقطعاً آخر ينبيك عن حقد القرود على المنبر وصاحبه فقال بعد نقله رواية الكامل: فلما ولى عبدالملك بن مروان هم بالمنبر فقال له قبيصه بن ذؤيب:.. اذكرك الله أن تفعل أنّ معاوية حركه فكسفت الشمس وقال رسول الله ﷺ: (من حلف على منبري فليتبوء مقعده من النار) وهو مقطع الحقوق عندهم بالمدينة فتركه عبدالملك فلما كان الوليد ابنه وحج هم بذلك فارسل سعيد بن المسيب إلى عمر بن عبدالعزيز فقال: كلّم صاحبك لا يتعرض للمنبر ولا لله والسخط له فكلمه عمر فتركه.

ولما حج سليمان بن عبدالملك أخبره عمر بما كان من الوليد فقال سليمان ما

---

(١) محمد بن جرير، الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج٥ ص٢٣٨ وص٢٣٩ وانظر المسعودي، مروج الذهب، ج٣ ص٢٥.

كنت أحب أن يذكر عن اميرالمؤمنين عبدالملك هذا ولا عن الوليد ما لنا ولهذا أخذنا الدنيا فهي في أيدينا ونريد أن نعمد إلى علم من أعلام الإسلام يوفد إليه فنحمله هذا ما لا يصلح[١].

ويقول المسعودي في روايته فجزع من ذلك واعظمه ورده إلى موضعه .... وهذا يدلّ على أنّ المنبر اقتلع من مكانه فأحدث ردّ فعل شديد بين الناس ضرب قلب الطاغية بالخوف فردّه إلى مكانه وزاد فيه[٢] وتصرّف ابن كثير في النص لصالح معاوية فحذف المؤاخذات عليه وصار يوحي بأن معاوية خضع لرأي الصحابيين أبي هريرة وجابر اللذين طلبا منه الكف عن ذلك قال: فترك ذلك معاوية ولكن زاد في المنبر ست درجات واعتذر الى الناس[٣].

ولم يهدأ حقد القرد الدفين على المنبر وصاحبه حتى صنع منبراً قدم به معه من الشام فوضعه عند باب البيت الحرام يريد أن يضاهي به منبر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

قال اليعقوبي: فكان أول من وضع المنبر في المسجد الحرام..[٤] لقد كان معاوية باقعة أصيب بها الإسلام ولا زالت آثاره وسننه في الدين والشريعة تحيا في حاضر الإسلام وتمزّق صفوفه وقد كان الخليفة اتخذه درعاً واقية تقي سلطان قريش من بني هاشم ومن علي خاصة وكان على علم بحقيقة معاوية وخطره على مجموع الدين وجميع المسلمين لأنّه كالنار تحرق الأخضر واليابس والضار والنافع فقواه على عمد واصطنعه على علم منه بما يجري على يديه.

ولاية معاوية على الشام

لم يكن اختيار الشام لمعاوية اتفاقاً وصدفة بل هي خطة محبوكة وخطوة مدروسة أن يكون في هذا الجزء من البلاد ذي النظام المستقر والرخاء الدائم والحدود المصونة ثم هو بعد يتاخم حدود الروم وهي استراتيجيّة منظوره لعمر ذي

---

(١) ابن الأثير، الكامل، ج٣ ص٢٣٠ وص٢٢٩.

(٢) المسعودي، مروج الذهب، ج٣ ص٢٦.

(٣) ابن كثير، البداية والنهاية، ج٨ ص٤٦ وراجع ابن الجوزي المنتظم، ج٥ ص٢٨ و٢٢٧.

(٤) اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ج٢ ص٢٢٢.

الأهداف العميقة فما كان عمر وهو يضع هذا التصميم العظيم ليغفل بلاد الروم التي تشكل لمعاوية عمقاً استراتيجياً إذا شالت كفته في حربه مع علي.

ولقد حدثنا التاريخ عن علاقة طيبه لمعاوية مع الروم طيلة حربه مع علي في صفين ولا تزال هذه الصفحة مغلقة لم يحاول المؤرخون كشفها إمّا لاعتقادهم عدم جدواها اليوم للحياة المعاصرة وأمّا لاقتضاء حُسْنِ الاعتقاد بمعاوية تركها طيّ الكتمان وكان معاوية يفزع إلى أخيه القيصر إذا حال بينه وبين إجراء خططه حائل.

كما فعل حين استعار السم النافع لقتل الإمام الحسن عليه السلام من ملك الروم.

اجل اختار عمر لمعاوية الشام وهو كما وصفه العقاد مملكة مستقلة[1]. ويصفها ابن حجر الهيثمي بأنّها: ولاية واسعة مستمرة[2].

واختار له عمر هذه الولاية وجمعها له بعد أن عزل منها الصحابي الأمين عمير بن سعد وكان يسميه عمر (نسيج وحده) فما الذي حمله على عزله ولم تبدر منه بادرة تسئ إلى حكمه أو إلى رعيته. مع علمه بأنّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: من استعمل رجلاً من عصابة وفيهم من هوا رضى لله منه فقد خان الله ورسوله والمؤمنين[3]. وهو احد رواته وأخرجه الحاكم عن ابن عباس وقال حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه ونسبه العقيلي إلى عمر بن الخطاب بعد أن اعله بحسين بن قيس واخرجه الطبراني في معجمه عن ابن عباس بسياق آخر.

قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من تولّى من أمر المسلمين شيئاً فاستعمل عليهم رجلاً وهو يعلم أن فيهم من هو أولى بذلك وأعلم منه بكتاب الله وسنه رسوله فقد خان الله ورسوله وجماعة المسلمين وأخرجه الخطيب في تاريخ بغداد مرفوعاً بلفظ الطبراني[4]. فما الذي أنكر عمر من سياسة عمير بن سعد حتى يعز له ويزرع بن هند مكانه؟

---

(١) العقاد، معاوية بن ابي سفيان، ص٢١٥.

(٢) ابن حجر تطهير الجنان، ص١٦.

(٣) راجع محمد بن يوسف بن عيسى اطفيش المغربي، جامع الشمل، ج٢ ص١٣٤.

(٤) راجع الزيلعي، نصب الراية، ج٤ ص٦٢.

لابد من احاطة أو المامة بحياة هذا الرجل الذي انتزعه عمر وأقام معاوية مقامه. كان يسمّى نسيج وحده يقال إنّ عمر لأعجابه به سماه بذلك قال ابن سيرين كان عمر من عجبه بعمير بن سعد يسميه نسيج وحده وبعثه مرة على جيش. وكان عمير صحابياً صحب النبي ولم يشهد شيئاً من المشاهد. واستعمله عمر على حمص وكان زاهداً[١].

وكان عمير بن سعد يقول وهو امير على المنبر على حمص: ألا إنّ الإسلام حائط منيع وباب وثيق فحائط الإسلام العدل وبابه الحق فإذا نقض الحائط وحطم الباب استفتح الإسلام فلا يزال الإسلام منيعاً، ما اشتدّ السلطان وليس شدّة السلطان قتلاً بالسيف ولا ضرباً بالسوط ولكن قضاءاً بالحق واخذاً بالعدل[٢].

ولا استبعد أن تكون هذه الكلمات صكّت مسامع عمر فآذته وحملته على انتزاعه كذلك لا استبعد أن يكون عمير عرّض بأبي بكر وعمر بالسيف والسوط. فإن سيف الأوّل لا تجهل آثاره في المسلمين فيما يسمّى بحرب الرده كما أن سوط الثاني وهي الدره معروفة للجميع يقول بعض اليهود الشعراء المعاصرين لعمر:

يصول ابو حفص علينا بدرة ... رويدك إن المرء يطفو ويرسب
كأنك لم تتبع حمولة ما قط ... لتشبع أن الزاد شيء محبب
فلو كان موسى صادقاً ما ظهرتم ... علينا ولكن دولة ثم تذهب
ونحن سبقناكم إلى المين فاعلموا ... لنا رتبة البادي الذي هو اكذب
مشيتم على آثارنا في طريقنا ... وبغيّكم في ان تسودوا وتُرهبوا[٣]

وهذا تعريض ثقيل جداً على خليفة يحمل بين جانحيه نفساً لا تتخلى عن احقادها بحال من الأحوال.

يقال: أنّ سبب العداوة بين عمر وخالد بن الوليد أنّهما اصطرعا وهما غلامان

---

(١) الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج٢ ص١٠٣ وص١٠٤ وص١٠٥.
(٢) ابن سعد، الطبقات، ج٤ ص٣٧٥.
(٣) المهدي والمهدوية، ص٩.

وكان خالد ابن خال عمر فكسر خالد ساق عمر فعولجت وجبّرت وكان ذلك سبب العداوة بينهما[1].

وإذا كان عمر لا ينسى ما جرى عليه من خالد وهو غلام وقد غيّر الإسلام في جزيرة العرب كل شيء وآتاه الله الدنيا بحذافيرها وملكه عروش كسرى وقيصر وهو ما زال يحقد على خالد من اجل مصارعة قضت بكسر ساقه فكيف ينسى تعريض عمير به على رؤوس الأشهاد ومن رعيته وسنطلعك إن شاء الله على أُمور محيّره للعقول.. من ثم عزله يقول ادريس الخولاني: لما عزل عمر بن الخطاب عميراً بن سعد عن الشام وولّى معاوية قال الناس: عزل عمر عميراً وولّى معاوية فقال عمر: لا تذكروا معاوية إلاّ بخير، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: اللهم إهد به[2].

وهذه الرواية تدلّ على أنّ النقمة كانت عارمة على عمر لهذا اضطرته إلى الاعتذار وما كان عمر ليعتذر لأحد من الناس لولا ما شعر به من شدة الاعتراض هذا وإن المصيبة على عمرو على أهل الاسلام عظيمة في انتزاع صحابي زاهد نسيج وحده عن ولاية الشام وتوليه معاوية فرع الشجرة الملعونة المنافق. لذلك عمد الرواة والمؤخورون إلى صناعتهم المعروفة الوضع والدس والتبديل فزعموا أنّ عمر مات وعمير بن سعد على ولايته.

والزهري صاحب هذه المزعمة والذي يبد ولي من خلال هذا التضارب أنّ عزل عمير عن الشام أخذ مأخذه من سخط الناس ونقمتهم وقد مرّ تواً أنّ الناس لاموه فلم يعبأ بهم وبالغ في اطراء معاوية ومن المعقول جداً أن لا تنتهي هذه النقمة مادام معاوية على الشام يرتكب المحاذير ويفعل المنكرات ويخالف الشريعة الغراء.

من ثم انبرى أنصار عمر للدفاع عنه فعصبوا التهمة في جبين عثمان ليكون كبش فداء لعمر ومن قديم قال الحكيم: بجبهة العير يفدى حافر الفرس. ومن أولى من الزهري خصم بني هاشم ومبغضهم بعمر لذا راح يشيع بين الناس أن عثمان هو

---

(١) مختصر تاريخ دمشق، ج٨ ص٢٢.

(٢) الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج٣ ص١٢٦، وابن كثير البداية والنهاية، ج٨ ص١٢٥

الذي نزع عمير وجمع الشام لمعاوية[١]. والزهري هو صاحب الزعم الثاني: أنّ معاوية لم ينفرد بالشام حتى استخلف عثمان[٢].

وهذا ينافي ما اثبته خليفة من أنّ عمر جمع الشام كلها لمعاوية واقره عثمان[٣]ومثله قال اسماعيل بن اميه[٤].

ومن هذه الأمارة التي سوّدت وجه المأمور واتّهم بها الآمر استنبط الذهبي لمعاوية فضلاً وتقدماً فقال: وحسبك بمن يؤمره عمر ثم عثمان على اقليم هو ثغر فيضبطه ويقوم به اتم قيام ....[٥] ونقل الذهبي في ترجمة عمير قول الزهري كانه من المسلمات فقال: فكان على الشام هو ومعاوية حتى قتل عمر[٦].

ولو ذهبنا نبحث عن السبب في ولاء الناس لعمير لوجدناه في نزاهته وامانته وفضله حتى قال ابن عمر لولده عبدالرحمن: ما كان من المسلمين رجل من أصحاب النبي افضل من أبيك[٧]. واستمع إلى هذه الحكاية الغريبة التي تدلّ على نزاهة عمير وعلى تحين عمر الفرص لتخوينه تمهيداً لعزله عبدالملك بن هارون بن عنترة. حدثنا أبي عن جدي أن عميراً بن سعد بعثه عمر على حمص، فمكث حولاً لا يأتيه خبره فكتب إليه: أقبل بما جبيت من الفيء فأخذ جرابه وقصعته وعلق إداوته وأخذ عنزته - عصاه - واقبل راجلاً فدخل المدينة وقد شحب واغبرّ وطال شعره فقال:

السلام عليك يا اميرالمؤمنين فقال ما شأنك؟ قال: ألست صحيح البدن معي الدنيا فظن عمر أنّه جاء بمال فقال: جئت تمشي؟ قال: نعم قال: أما كان أحد يتبرع لك بدابة؟ قال: ما فعلوا ولا سألتهم قال: بئس المسلمون! قال: يا عمر إنّ الله قد نهاك عن الغيبة فقال: ما صنعتَ؟ قال: الذي جبيته وضعته مواضعه ولو نالك منه

---

(١) الذهبي سير أعلام النبلاء، ج٣ ص١٣٥.
(٢) الذهبي سير أعلام النبلاء، ج٣ ص١٣٥.
(٣) نفسه، ج٣ ص٣٢ وص٣٣.
(٤) نفسه، ج٣ ص٣٢ وص٣٣.
(٥) سير أعلام النبلاء، ج٣ ص١٣٢.
(٦) سير أعلام النبلاء، ج٢ ص١٠٥.
(٧) نفسه، ج٢ ص٥٥٩.

شيء لايتيتك به قال: جدّدوا لعمير عهداً قال: لا عملت لك ولا لأحد فلست لنصراني اخزاك الله وذهب إلى منزله على أميال من المدينة فقال عمر: أراه خائناً فبعث رجلاً بمئة دينار وقال: أنزل بعمير كأنك ضيف فإن رأيت حالاً شديدة فادفع إليه هذه المئة.

فانطلق فرآه يغلي قميصه فسلّم فقال له عمير: أنزل فنزل فساءله وقال: كيف أميرالمؤمنين؟ قال: ضرب ابناً له على فاحشة فمات.

فنزل به ثلاثاً، ليس الاقرص شعير يخصونه به وبطوون ثم قال: إنّك قد اجعتنا فأخرج الدنانير، فدفعها إليه، فصاح وقال: لا حاجة لي بها ردّها عليه قالت المرأة: إن احتجت إليها وإلاّ ضعها مواضعها فقال: مالى شيء اجعلها فيه فشقّت المرأة من درعها فاعطته خرقة فجعلها فيها، ثمّ خرج يقسمها بين ابناء الشهداء.

وأتى الرجل عمر، فقال: ما فعل بالذهب؟ قال: قال: لا أدري فكتب إليه عمر يطلبه فجاء فقال: ما صنعت الدنانير؟ قال: وما سؤالك؟ قدمتها لنفسي فأمر له بطعام وثوبين فقال لا حاجة لي في الطعام وأما الثوبان فإن ام فلان عارية فأخذها ورجع فلم يلبث أن مات .....[1]

ولو امتدبه العمر لذاق الأمرّين من أبي حفص وهذه الحكاية تدلّ على أنّ العلاقة بينهما بلغت حد القطيعة ولهذا اغلظ له عمير قائلاً: اخزاك الله وما كان وهو الزاهد التقي يدعو عليه بالخزي عبثاً لو لم يبلغ سكين عمر عظمه.

ولست أدري ما علة هذه الرقابة الشديدة على عمير مع ما عرف عنه من الزهد إلأنه لابليس الحرير؟ ولا يرابي ولا يشرب الخمر كما كان يفعل معاوية أم أنّ وراء الأكمه ما ورائها أجل إنّ عمر يترصد هذا الصحابي النزيه لعله يقع منه على هفوة ليعزله ويغرس صنيعته معاوية في أرض الشام والحكاية التالية تثبت ما ذهبنا إليه.

بعثه مرّه على جيش من قبل الشام، فوفد فقال: يا أميرالمؤمنين إنّ بيننا وبين عدونا مدينة يقال لها: عربسوس تطلع عدونا على عوراتنا ويفعلون ويفعلون فقال

---

(١) سير أعلام النبلاء، ج٢ ص٥٦٣.

عمر: خيّرهم بين أن ينتقلوا من مدينتهم ونعطيهم مكان كل شاة شاتين ومكان كل بقرة بقرتين ومكان كل شيء شيئين فإن فعلوا فاعطهم ذلك وإن أبوا فانبذ إليهم على سواء ثم أجّلهم سنة.

فقال: أُكتب لي يا أميرالمؤمنين عهدك بذلك فعرض عمير عليهم فأبوا فأجلّهم سنة ثمّ نابذهم فقيل لعمر: أنّ عميراً قد خرّب عربسوس وفعل فتغيّظ عليه فلما قدم علاه بالدره وقال: خرّبت عرب السوس وهو ساكت فلما دخل عمر بيته، استأذن عليه فدخل، وأقرأه عهده، فقال عمر، غفر الله لك[1].

أترى نسي عمر عهده أم هو اختلاق الأسباب لأزاحة هذا الزاهد النزيه عن درب الحكم والأتيان بالفرع الملعون لتتم الحبكة الخبيثة ضد ابناء هاشم وليت عمر واجه معاوية ببعض هذه الغلظة أو حاسبه ولو مرّة في عمره لكان معاوية نزع أوتاب عن كثير مما كان يمارس من آثام وجرائم ولكنّ عمر أحاط معاوية بعناية خاصة فلم يحاسبه ولم يعزله بل لم يعاتبه ولم يكتب إليه بكلمة نقد أو عتاب طيلة المدة التي ولاه بها على الشام وكان عمر لا يبقى عاملاً أكثر من سنة.

عمر والعمال ..!!

اتخذ عمر مع عمال الولايات والأقاليم سباسة صارمه في العزل والمحاسبة فكان لا يبقى العامل أكثر من سنة فإذا عزله حاسبه حساباً عسيراً وقاسمه ماله.

حتى بعد وفاته فقد كتب في وصيته أن لا يقر له عامل أكثر من سنة إلاّ أبا موسى أربع سنين[2].

وكان يعزل العامل بأتفه الأسباب فقد استعمل النعمان بن عدي بن نضلة على ميسان وكان يقول الشعر فقال:

ألا هل أتى الخنساء إن خليلها ... بميسان يسقى في زجاج وحنتم

إذا شئت غنتني دهاقين قرية ... ورقاصة تحبو على كل منسم

---

(١) الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج٢ ص٥٦٠.

(٢) ابن الجوزي، تاريخ عمر، ص٢٠٢، البداية والنهاية، ج٨ ص٦٢، المنتظم ج٥ ص٢٥٢.

فـإن كنـت نـدماني فبـالأكبر اسـقني ولا تسـقني بالأصـغر المتـثلم

لعـل اميرالمـؤمنين يسـوئه تنـاد منـا بالجوسـق المتهـدم

فلما بلغ عمر بن الخطاب قوله قال: نعم والله إنّه يسوئني من لقيه فليخبره أني عزلته فقدم عليه رجل من قومه فأخبره بعزله فقدم على عمر فقال: والله ما صنعت شيئاً مما قلت ولكن كنت امرأً شاعراً وجدت فضلاً من قول فقلت فيه الشعر. فقال عمر: أيم الله لا تعمل لي على عمل ما بقيت وقد قلت ما قلت[1].

وليته إذ عزل هذا المسكين على هوس الخيال ووسوسة الشعر عزل معاوية على حقيقة الشرب بالكأس الأكبر وبالروايا تنقل إليه على البغال وعمر يعلم ذلك فلا يحرك ساكناً حتى شفتيه بكلمة أمر بمعروف أو نهي عن منكر أن أمره مع معاوية لمريب وستطلع على كل غريب إن شاء الله. بل كان عمر يعزل الوالي بعد اختباره والرضاعنه باضغاث الأحلام.

عن محارب بن دثار عن عمر بن الخطاب أنّه قال لرجل قاض من أنت قال: أنا قاضي أهل دمشق، قال: فكيف تقضي قال: أقضي بكتاب الله قال: فإذا جاءك ما ليس في كتاب الله قال: اقضي بسنة رسول الله ﷺ قال: فإذا جاءك ما ليس في سنة رسول الله قال: اجتهد رأيي وأوامر جلسائي قال عمر: احسنت وقال له: إذا جلست فقل: (اللهم إني أسألك أن أفتى بعلم، اقضي بحكم، وأسألك العدل في الغضب والرضا) قال: فسار الرجل ما شاء الله أن يسير ثم رجع إلى عمر فقال: ما ارجعك قال: رأيت الشمس والقمر تقتتلان ومع كل واحد منهما جنود من الكواكب فقال: مع أيّهما كنت قال: كنت مع القمر قال: يقول عزوجل: (وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً) لا تلي لي عملاً ابداً ...[2]

وأقول: لو كان عمر مع القمر أكان يعزل نفسه؟! ثمّ ما باله لم يستنبط مساواة القمر بالشمس من قوله تعالى: والشمس والقمر بحسبان.. فيقر المسكين على عمله. وما هذه الأبدية التي نفى بها الرجل عن كل عمل أبداً.

---

(١) الطبقات، ج٤ ص١٤٠.

(٢) ابن الجوزي، عمر بن الخطاب، ص١١١ وهذا الرجل يدعى حابس بن سعد الطائي الحمصي شهد صفين مع معاوية على الرجالة وقتل يومئذ، انظر جامع المسانيد والسنن، ج٣ ص١٧٥.

والواقع أنّ عمر يمثل الدكتاتورية المطلقة في ذلك العهد وليته استدرك بعض ما لهذا الحالم من مزايا ومنها مزية علمه بالفضاء الذي امتحنه عليه عمر فاعجبه واستعمله ولم يعزله هذا العزل المهين والرد الشين وطالما استدرك عمر على نفسه فلم يعاقب بعد أن يقضي بالعقاب.

عن محمد بن عبدالغفار قال: استعمل عمر بن الخطاب رجلاً من قريش على عمله فبلغه أنّه قال:

اســـــقني شـــــربة ألـــــذّ عليهـــــا واســـق بـــالله مثلهـــا ابـــن هشـــام

فأشخصه إليه وذكر أنّه إنما اشخصه من أجل البيت فضم إليه آخر فلما قدم عليه قال ألست القائل:

اســـــقني شـــــربة ألـــــذ عليهـــــا واســـق بـــالله مثلهـــا ابـــن هشـــام

فقال نعم يا اميرالمؤمنين:

عســـــلاً بـــــارداً بمـــــاء ســـــحاب انـــني مـــا أحـــب شـــرب المـــدام

فقال: الله قال: الله قال: ارجع إلى عملك ...[1] وكان بامكان النعمان بن عدي أن يقسم لعمر أنّه لم يشرب الخمر وأنّه قول نفث على لسانه لو أنّ عمر أراد منه ذلك خلا أنّه لم يرده لماذا؟ لأنه لم يكن من قريش كصاحب ابن هشام ولعلّ هذا القرشي من الشجرة الملعونة التي يجد عمر لزاماً عليه غرسها في ضلوع الإسلام هذا كله يظهره عمر ويضرب ولده الحد وهو وقيذ بيده حتى الموت على شرب مزعوم ويترك لمعاوية وبني امية الحبل على الغارب بل يغريه في الشهوات حين يرضخ له ولأمه وأبيه وأهله الرضائخ من بيت المال.. لشد ما اختلف موقفاه وتباينت حالتاه.

مالان عمر مع عامل مالان مع معاوية فهذا خالد بن الوليد وهو من هو في شجاعته وجهوده العظيمة في تدعيم سرير الخلافة لعمرو من كان قبله فجرعه الأمرين ومرّغ انفه بالرغام وكانت عباراته إليه تحمل الحقد والضغينة والهزء كلما كتب إليه في شيء وكتب إليه بالسباب المقذع حين بلغه خبر دخوله الحمام وتدليكه فيه. مما استنفر الرأي العام ضده وعلم الناس أن عمر ينطوي على بغض متأصل

---

(١) تاريخ عمر، ص١٠ وص١٠٩.

لخالد ولم تقنعهم الذرائع التي نمسك بها عمر في ثلمه حتى اضطر ذات يوم إلى الإعتذار فقال: وإني اعتذر اليكم من خالد بن الوليد اني أمرته أن يحبس هذا المال على ضعفة المهاجرين فاعطاه ذا البأس وذا الشرف وذا اللسان فنزعته وأمّرت ابا عبيدة بن الجراح[١].

ومن المعلوم أنّ الأسائة إلى خالد بلغت حداً من نفوس الناس أوجبت على عمر الاعتذار إليهم وما كان عمر يبالي بأحد فيما يقول أو يفعل لكي يعتذر إلاّ أنّ الموقف من خالد يختلف فقد أثار سخط الناس بخاصة أوليائه ومن يمت إليه بصلة فقد قام إليه حفص بن المغيرة وعمر آخذ بالاعتذار مما فعله بخالد وقال: والله اعتذرت يا عمر لقد نزعت عاملاً استعمله رسول الله واغمدت سيفاً سلّه رسول الله ووضعت لواءاً نصبه رسول الله وقطعت الرحم وحسدت ابن العم فقال عمر: إنّك قريب القرابة حديث السن مغضب في ابن عمك[٢].

ولنا أن نتسائل ما بال موقفه مع معاوية اختلف عن موقفه مع خالد مع مابين الرجلين من البون الشامع والفرق البعيد. ومن أعجب عجائبه وأغرب غرايبه وأدق مصائبه أنّه عزل عاملاً لأنه قد تعجب من تقبيل عمر بعض ولده فقال: والله ما قبلت ولداً لي قط فقال عمر فأنت والله بالناس أقل رحمة لا تعمل لي عملاً فردّ عهده[٣] وكان لعمر عامل بمصر يسلك سلوك معاوية فانظر بماذا عامله عمر.

عن عاصم بن بهدله قال: كان عمر بن الخطاب جالساً مع أصحابه فمرّ به رجل فقال له: ويلاً لك يا عمر من النار فقال رجل: يا عمر ألا ضربته فقال له رجل أظنه عليّ ﷺ ألا سألته فقال: عليّ بالرجل فقال له: ولم؟ قال: تستعمل العامل وتشترط عليه شروطاً فلا تنظر في شروطه قال: وما ذاك؟ قال: عاملك على مصر اشترطت عليه شروطاً فترك ما أمرته به وانتهك ما نهيته عنه.

وكان عمر إذا استعمل عاملاً اشترط عليه أن لا يركب دابة ولا يلبس رقيقاً ولا يأكل نقياً ولا يغلق بابه عن حوائج الناس وما يصلحهم قال: فأرسل إليه رجلين،

---

(١) تاريخ عمر، ص١٠١.

(٢) تاريخ عمر، ص١٤٢.

(٣) تاريخ عمر، ص١١٣.

فقال: سلا عنه فإن كان كذب عليه فاعلماني وإن كان صدق فلا تملكا من أمره شيئاً حتى تأتياني به فسألا عنه فوجداه قد صدق عليه فاستأذنا ببابه فقال: إنّه ليس عليه إذن فقالا ليخرجن إلينا أو لنحرقنّ بابه وجاء أحدهما بشعلة من نار فلما رأى ذلك آذنه اخبره فخرج اليهما فقالا: أنا رسولا عمر لتأتيه، فقال: إنّ لنا حاجة نتزود قالا ما أنت بالذي تأتي أهلك فاحتملاه فأتيا به عمر فسلّم عليه فقال: من أنت ويلك؟ قال: عاملك على مصر وكان رجلاً بدوياً فلما أصاب من ريف مصر ابيضّ وسمن.

فقال: استعملتك وشرطت عليك شروطاً فتركت ما أمرت به وانتهكت ما نهيتك عنه أما والله لأعاقبنّك عقوبة ابلغ إليك فيها إأتوني بدرّاعه من كساء وعصا وثلثمائة شاة من شياه الصدقة فقال: أليس هذه الدراعة فقد رأيت أباك وهذه خير من درّاعته وهذه خير من عصاه إذهب بهذه الشاة فارعها في مكان كذا وكذا وذلك في يوم صائف ولا تمنع السابلة من البانها شيئاً واعلم أنّ آل عمر لم تصب من شياه الصدقة ومن البانها ولحومها شيئاً فلما أمعن ردّه فقال: افهمت ما قلت لك؟ وردد عليه الكلام ثلاثاً فلما كان في الثالثة ضرب بنفسه الأرض بين يديه وقال: ما استطيع ذلك فإن شئت فاضرب عنقي قال: فإن رددتك فأيّ رجل تكون قال: لا ترى إلاّ ما تحب فكان خير عامل[1].

أكان من حق هذا أن يرد؟ بعد أن ثبتت خيانته؟ أو كان من حقه أن ينقل من دار الأمارة إلى المرعى مع الشياه؟

ويترك لمعاوية الشام يفعل فيه ما يشاء وقد مرّ عليك أنّ عمر شاهد نعيم معاوية وغضاضة جلده وبضاضة جسمه بام عينيه فما زاد على أن بخ بخ له وقال نحن إذن خير الناس إن جمعت لنا الدنيا والآخرة فما هو السر في معاوية الذي على اساس منه أُعفي من كل تكليف وأُبيح له كل محظور. وعزل عمر زياداً لا لذنب جناه بل لكبر عقله ودهائه.

روي في الحديث أنّ زياداً بن ابي سفيان كان كاتباً لأبي موسى الأشعري فعزله عمر عن ذلك فقال له زياد: أعن عجز عزلتني يا اميرالمؤمنين أم عن خيانة؟ فقال: لا

---

(١) تاريخ عمر، ص١١٢ وص١١٣.

عن ذاك ولا عن هذا ولكني كرهت أن أحمل على العامة فضل عقلك[١].

هذا ولو قيس عقل زياد إلى عقل معاوية وخبث هذا إلى خبث ذاك لكان لا شيء مقيساً إلى شيء. واحياناً تكون محاسبة عمر لعماله من النوادر المضحكة.

عن يزيد بن حبيب: أنّ كاتب عمرو بن العاص كتب إلى عمر: فكتب بسم الله ولم يكتب فيها سيناً فكتب عمر إلى عمرو: أن أضربه سوطاً فقيل له في أي شيء ضربك قال: في سيناً (كذا) .....[٢]

وكان الشيخ يأخذ عماله باجتناب امور حضرها الشرع على المسلم ويشدد في ذلك عليهم وتأتيه الانباء عن معاوية أنّه يفعلها بحرية تامة وعلى مسمع ومشهد من أصحاب رسول الله فلا يلقي سمعاً لذلك ويغضي عنه عامداً فما هو السر؟

عن أبي عثمان الهدي عن عمر بن الخطاب أنّه قال: إترزوا وارتدوا وانتعلوا والقوا الخفاف والسراويلات والقوا الركب وانزو نزواً وعليكم بالمعدية والزموا الأغراض وذروا التنعم وزي العجم واياكم والحرير فإن رسول الله ﷺ نهى عنه ولا تلبسوا من الحرير إلاّ ما كان هكذا وأشار رسول الله باصبعيه.

ويقول لعتبة بن فرقد: اياكم والتنعم وزيّ أهل الشرك ولبوس الحرير فإنّ رسول الله ﷺ نهانا عن لبوس الحرير إلاّ هكذا ورفع لنا رسول الله ﷺ أصبعيه[٣].

وكان يشدد على نفسه فلا يأخذ من بيت المال إلاّ حلتين حلة في الشتاء وحلة في القيظ وما احج عليه واعتمر من الظهر وقوتي وقوت أهلي كقوت رجل من قريش ليس باغناهم ولا بافقرهم[٤] كما أنّه منع قوت بعض أهله حتى كاد يهلكهم من الجوع والمخمصة.

قال الحسن: بينا عمر يمشي في سكة المدينة إذا هو بصبية تطيش على وجه الأرض تقوم مرة وتقع أُخرى فقال عمر يا ويحها يا بؤسها من يعرف هذه منكم فقال عبدالله بن عمر أو ما تعرفها يا اميرالمؤمنين قال: لا ومن هي قال: هذه احدى بناتك

---

(١) ابن قتيبة، عيون الأخبار، ج١ ص٣٢٩.

(٢) تاريخ عمر بن الخطاب، ص١٢١.

(٣) تاريخ عمر بن الخطاب، ص١١٩ وص١٢٠.

(٤) نفسه، ص٩٦.

قال: وأيّ بناتي قال: هذه فلانة ابنة عبدالله بن عمر قال: ويحك ما صيّرها إلى ما أرى؟! قال: منعك ما عندك قال: ومنعي ما عندي منعك أن تطلب لبناتك ما تكسب الأقوياء لبناتهم أنّه والله مالك عندي غبر سهمك في المسلمين وسعك أو عجز عنك هذا كتاب الله بيني وبينك[1].

هذه الحكاية إن سلمت من خيال الرواة ولا أراها تسلم لأن عمر وتاريخه مسرح لخيال الرواة عظيم فالمقصود منها التبائس دلّ على ذلك حركاتها التمثيلية وإلاّ فان نصيب عبدالله ليس نزراً إلى الدرجة التي يتهاوى عياله جوعاً وخواءاً على الثرى في المشهد العام.

اضف إلى ذلك لو كانت في بيته مجاعة لأصابت عبدالله قبل أن تصيب ابنته فلما رأيناها اجنازته علمنا أنّها إلى التمثيل اقرب. وافرض معي صحتها جدلاً وهي محمدة من محامد عمر وإنما سجلها ابن الجوزي في تاريخه للتمدح في زهده وورعه!! أجل

لكن اجدني مضطراً لنفي ذلك عنه لا لعداء شخصي او عقيدي مع الفاروق ولكن للأمانة العلمية أن الباحث أي باحث يتسائل وهو يجوب هذه الدهاليز المعتمة ما بال شدّة عمر في ذات الحكم وذات العدل طالت حتى نفسه وأهله وأسباطه وأحفاده وقصّرت عن ابن هند ما باله يحرم نفسه وأهله من الحلال الطيب، ويمد معاوية وبني امية بالشام بالقوة والسلطان ليملأوا الكروش من كل خبث وحرام؟!!

وما هذا العدل الغريب الذي ضاق عن رغيف خبز وقطعة شحم تعطى لابنة ولده عبدالله لكي لا تطيش على وجه الأرض واتسع لعشرة آلاف دينار[2] تدفع لمعاوية لتستحيل بعد زمان قصير إلى حرير وروايا خمر تحمل على البغال له لست أدري؟!!!

إنّ هذا الموقف المتناقض حملني كباحث على الحياد وآلافاً مثلي على الشك في صحة رويته وسلامه نيّته ونبل مقصده!!

---

(١) تاريخ عمر بن الخطاب، ص٩٩.

(٢) ابن عبدالبر، الاستيعاب، ج٣ ص٤٧٥.

كتبه .. إلى معاوية ..

اعفى عمر معاوية من كل مسئولية لذلك لم تبق حاجة تدعو إلى الكتابة إليه وقد مرّ في اثناء هذا البحث كتابه المجمل بل المبهم والموجز ايجازاً متناهياً وفيه يقول: أما بعد فالزم الحق ينزلك الحق منازل أهل الحق يوم لا يقضى إلاّ بالحق والسلام[1].

كتاب لا يتجاوز الأربعة عشر كلمة اشدّ الكتب بعداً عن المطابقة لمقتضى الحال لأن الدواعي في الكتابة المسهبة إلى معاوية متوفره لعله ينزع أو يتوب والاختصار مضر بحال المرسل والمرسل إليه كتب عمر إلى أبي موسى الأشعري:

أما بعد فإنّ للناس نفرة عن سلطانهم فاعوذ بالله أن تدركني واياك عمياء مجهولة وضفائن محمولة اقم الحدود ولو ساعة من نهار وإذا عرض لك أمران: أحدهما لله والآخر للدنيا فآثر نصيبك من الله فإن الدنيا تنفد والآخرة تبقى واخيفوا الفساق واجعلوهم يداً يداً ورجلاً رجلاً وعدّ مرضى المسلمين واشهد جنائزهم وافتح لهم بابك وباشر امورهم بنفسك فانما أنت رجل منهم غير أن الله جعلك أثقلهم حملاً وقد بلغني أنّه قد فشا لك ولأهل بيتك هيئة في لباسك ومطعمك ومركبك ليس للمسلمين مثلها فأياك يا عبدالله أن تكون بمنزلة البهيمة مرّت بواد خصيب فلم يكن لها هم إلاّ السمن وإنما حتفها في السمن واعلم أنّ العامل إذا أزاغ زاغت رعيته واشقى الناس من شقي الناس به، والسلام[2].

ليت هذا الكتاب أو بعضه كتبه عمر إلى معاوية لعله يصادف من ضميره ساعة صحو فيعود إلى حضيرة الحق ولكن لم يقرء ولم يسمع معاوية من عمر إلاّ لتناء والأطراء بل والأغراء في البقاء على ما هو عليه ليزداد قوة إلى قوته ترقباً لليوم الموعود.

لقد كان بعض الأشرار في خلافة الأمام اميرالمؤمنين عليه السلام ينالون ولاية أو

---

(١) تاريخ عمر، ص١٢٣.

(٢) ابن قيبة، عيون الأخبار، ج١ ص١١.

منصباً ادارياً أمثال زياد بن ابيه إلاّ أنّه أبعد ما يكونون عن الظلم وهم في أوج أمارتهم وعز سلطانهم لماذا؟

لأن عين الأمام أميرالمؤمنين ترقبهم من عل وترصد من أفعالهم كل صغيرة وكبيرة فإذا بدرت منهم بادرة تسئ إلى الرعية اسرع الأمام إلى ردعم ومنعهم بالكتابة إليهم واعظاً أو منتزعاً أياهم من عملهم فقد كتب إلى زياد هذه الموعظة العجيبة: فدع الأسراف مقتصداً واذكر في اليوم غداً وأمسك من المال بقدر ضرورتك وقدّم الفضل ليوم حاجتك أتزجو أن يعطيك الله أجر المتواضعين وأنت عنده من المتكبّرين وتطمع وأنت متمرغ في النعيم تمنعه الضعيف والارملة أن يوجب لك ثواب المتصدقين وإنما المرء يجزي بما اسلف وقادم على ما قدّم والسلام[1]. والوعظ لا يردع زياداً ولا ينقي خبثه فكان لابد من التهديد والوعيد، وإنّي أقسم بالله قسماً صادقاً لئن بلغني أنّك خنت من فيء المسلمين شيئاً صغيراً أو كبيراً لأشدّنّ عليك شدّة تدعك قليل الوفر ثقيل الظهر.

هكذا ينبغي أن يسلك ولي الأمر مع الوالي إذا كانت نزعاته خبيثة فهل كتب خليفة المسلمين إلى معاوية وهو أشد خبثاً من زياد شيئاً من هذا.

وإنما نقلت إليك هذه النماذج من الكتب لتزداد بصيرة في الأمر وتعرف هوادة عمر مع معاوية وسيرته الهوينى معه.

لا يقال لعل بعد المسافة بين الشام والمدينة حجبت أخبار معاوية عن عمر فما كان يعلم بها والقلم مرفوع عن الجاهل والجواب أنّ كلمة المؤرخين عن عمر واحدة بأن علمه بمن نأى كعلمه بمن بات معه على وسادة واحدة واقتفى معاوية أثره وكذلك زياد[2] بعد الذي مر بك ليكن في علمك أن الكتب التي توجّهت من عمر نادرة جداً وأكثرها لا تتجاوز بضع كلمات وجل ما فيها مواعظ كلية تصلح لكل انسان حتى السوقة وما يخص معاوية منها لا يتعدّى الأوامر الخاصة التي تعالج وضعاً من أوضاع الخلافة أو الولاية.

---

(١) الشيخ مغنية رحمه الله، في ظلال نهج البلاغة، ج٣ ص٤٣٣ وص٤٣٥.

(٢) ابن حمدون، التذكرة الحمدونية، ج١ ص٣١٥.

ولما كان معاوية بمعزل عن هذا وذاك طالت يده بالظلم والغشم وقد قيل في المثل من آمن العقوبة اسأ الأدب.

محاسبة العمال

من سياسة عمر الثابتة محاسبة العمال ومقاسمتهم مالهم فقد حاسب عماله قاطبة بدءاً من أبي هريرة ومروراً بعمرو بن العاص وختاماً بسعد بن أبي وقاص يقول ابن الجوزي: وقد قاسم عمر غير واحد ماله إذ عزله منهم سعد بن أبي وقاص وأبوهريرة[١]

وكانت محاسبته أبا هريرة شديدةً قاسية ... لما قدم أبو هريرة من البحرين قال له عمر: يا عدو الله وعدو كتابه أسرقت مال الله؟ قال ابو هريرة لست بعدو الله ولا عدو كتابه ولكني عدو من عاداهما ولم اسرق مال الله. قال: فمن اين اجتمعت لك عشرة آلاف درهم؟ قال: خيلي تناسلت وعطائي تلاحق وسهامي تتابعت فقبضتها منه قال أبو هريرة: فلما صليت الصبح استغفرت لأمير المؤمنين ....[٢]

وابن قتيبة حذف كلمات جمة من الرواية وفيها كلمات نابية كما أنّ الدرة هبطت على رأس أبي هريرة ومتنيه وانتزع منه المال انتزاعاً. وعذر أبي هريرة مضحك عن جمع المال لأنّه لم يبق على البحرين الاسنة أو أقل من ذلك فمتى تتابعت عطاياه وتناتجت افراسه؟!؟!

لما عزل عمر خالداً وأمرّ على الجيوش أبا عبيده كتب إليه أن أنزع عمامته عن رأسه[٣] وقاسمه ماله نصفين فلما قال ابو عبيدة ذلك لخالد قال له خالد: امهلني حتى استشير أُختي فذهب إلى أخته فاطمة وكانت تحت الحارث بن هشام فاستشارها في ذلك فقالت له إنّ عمر لا يحبك أبداً وأنّه سيعزلك وإن كذبت نفسك فقال لها: صدقت والله فقاسمه أبو عبيدة حتى اخذ أحدى نعليه وترك له الآخرة

---

(١) تاريخ عمر، ص٥٨.

(٢) ابن قتيبة، عيون الأخبار، ج١ ص٥٤.

(٣) كان عمر و من بعده من الولاة إذا أخذوا العصاة نزعوا عمائمهم وأقاموهم للناس. شرح النهج الحديدي، ج١٢ ص٤٥.

وخالد يقول سمعاً وطاعة لأميرالمؤمنين[١].

هذا وحديثه مع ابن العاص حين قاسمه طريف فقد لعن عمرو زمناً صارفيه والياً لابن الخطاب قال ابن ابي الحديد: كتب عمر إلى عمرو بن العاص بعد مراجعة بينهما قد وجهت اليك محمداً بن مسلمه ليشاطرك على ما في يديك والسلام.

فلما قدم إليه محمد اتخذ له طعاماً وقدّمه إليه فأبى أن يأكل فقال: مالك لا تأكل طعامنا؟ قال: إنّك عملت لي طعاماً هو تقدمة للشر، ولو كنت عملت لي طعام الضيف لأكلته فابعد عني طعامك واحضر لي مالك.

فلما كان الغد وأحضر ماله جعل محمد يأخذ شطراً ويعطي عمرو شطراً فلما رأى عمرو وما حاز محمد من المال قال: يا محمد أقول: قال: قل ما تشاء قال: لعن الله يوماً كنت فيه والياً لابن الخطاب والله لقد رأيته ورأيت أباه وإنّ على كل واحد منهما.

عباءة قطوانية مؤتزراً بها ما تبلغ مأبض ركبتيه وعلى عنق كل واحد منهما حزمة من الحطب وإن العاص ابن وائل لفي مزررات الديباج[٢].

ولعل ابن العاص حمل لعمر بين دفتيه لاعج الضغينة من يومئذ فقد قدم عليه وكان والياً عى مصر فقال له: في كم سرت؟ قال: في عشرين قال عمر: لقد سرت سير عاشق! فقال عمرو: إني والله ما تأبطتني الأماء، ولا حملتني في غُبّرات المآلي فقال عمر والله ما هذا بجواب الكلام الذي سألتك عنه! وإن الدجاجة لتفحص في الرماد فتضع لغير الفحل، وإنما تنسب البيضة إلى طرقها فقام عمرو مربّد الوجه يقول ابن ابي الحديد: وسألت النقيب أبا جعفر عن هذا الحديث في عمر فقال: إنّ عمراً فخر على عمر لأن ام الخطاب زنجيّة وتعرف بباطحلي. تسمّى صهاك فقلت له وام عمرو النابغة امة من سبايا العرب فقال: امه عربية من عنزة سبيت في بعض الغارات فليس يلحقها من النقص عندهم ما يلحق الأماء الزنجيات ....[٣]

وصادر الحارث بن وهب أحد بني ليث بن بكر بن كنانة وقال له: ما قلاص

---

(١) البداية والنهاية، ج٧ ص١٨.

(٢) ابن ابي الحديد، شرح نهج البلاغة، ج١٢ ص٤٤.

(٣) شرح نهج البلاغة، ج١٢ ص٣٩.

واعبد بعتها بمائة دينار؟ قال: خرجت بنفقة لي فاتجرت فيها، قال: وأنا والله بعثناك للتجارة ادّها قال: أما والله لا أعمل لك بعدها قال: أنا والله لا استعملك بعدها ...[1]قاسم هؤلاء جميعاً الفاروق وترك واحداً لم يقاسمه[2] ذلك هو معاوية لأن بين الرجلين قاسماً مشتركاً هو الخصومة الحادة والعداوة الشديدة لعلي وأهل بيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ليس هذا فحسب بل كان يرضخ له ولأمه وأبيه من بيت المال الرضائخ الكبيرة فقد رسم له عشرة آلاف دينار في كل شهر.

وقامت إليه هند بنت عتبة بن ربيعة فسألته أن يقرضها من بيت المال أربعة آلاف درهم تتجر فيها وتضمنها فخرجت بها إلى بلاد كلب، فباعت واشترت وبلغها أن أبا سفيان قد أتى معاوية..... يستميحه ومعه ابنه عمر بن ابي سفيان فعدلت إليه من بلاد كلب وكان ابو سفيان قد طلقها فقال معاوية: ما أقدمك يا اماه؟ قالت: النظر إليك يابني إنه عمر وإنما يعمل لله وقد أتاك أبوك فخشيت أن تخرج إليه من كل شيء وأهل ذلك هو! ولكن لا يعلم عمر من أين اعطيته فيؤنبوك ويؤنبك ولا تستقيلها ابداً فبعث معاوية إلى أبيه وأخيه مأة دينار وكساهما وحمّلهما فسخطها عمر، فقال أبو سفيان: لا تسخطها فإنّه عطاء لم تغب عنه هند ورجع هو وابنه إلى المدينة.

فساله عمر: بكم أجازك معاوية؟ فقال: بمائة دينار فسكت عمر[3]. أما لو كان الحارث بن وهب لأوجعه ضرباً بالدرة وأخذ منه المائة. وقد عرفت قيمة مائة الدينار هذه فقد جمعها الحارث هذا من بيع فلائص واعبد!!!

ترك معاوية من دون محاسبة ولا مقاسمه فاتخذ معاوية ذلك ذريعة إلى الدعوة لنفسه وأوحى للناس أن عمر لم يتركه إلاّ لفضله على غيره. من ثم قاسم هو نفسه وأوصى بنصف ماله أن يرد إلى بيت المال.

نقل ابن كثير في كتابه (البداية والنهاية) أنّ معاوية لما احتضر أوصى بنصف ماله أن يردّ إلى بيت المال كأنه أراد أن يطيب له لأن عمر بن الخطاب قاسم

---

(١) نفسه، ج١٢ ص٤٢.

(٢) نفسه، ج١٢ ص٤٢.

(٣) شرح النهج الحديدي، ج١٢ ص٩٨.

عماله ...[1] واتفقت كلمة المؤرخين على أنّه فعل ذلك لأنّ عمر قاسم عماله واستدعت هذه العبارة عبارة أخرى لم يحررها المؤرخون وهي (ولم يقاسم معاوية) لماذا؟ لأنّ لمعاوية وضعاً خاصاً لابد من معاوية للسياسة المستقبلية.. ولن يقف في وجه المد العلوي عند ما يكتسح هذه النفايات في طريق الخير غير معاوية. فهو العدو المعول عليه ويشارك عمر بجامع العداء لعلي من هنا عمل عمر على تثبيت جذوره الخائرة في أرض الإسلام واتخذ عدة مقدمات تؤدي حتماً إلى نتيجة واحدة هي مجيء معاوية إلى ملك الإسلام ومن أولى هذه المقدمات استخلاف عثمان أولاً ومن الأدلة التاريخية الثابتة على أن عمر يعد العدة لاستخلاف عثمان ومن بعده معاوية هذه الرواية التي رواها صاحب الطبقات.. ذكر ابن سعد أن سعيد بن العاص أتى عمر يستزيده في داره التي بالبلاط وخطط أعمامه مع رسول الله ﷺ فقال عمر: صلّ معي الغداة وغبش ثم اذكرني حاجتك قال: ففعلت حتى إذا هو انصرف قلت يا اميرالمؤمنين حاجتي التي امرتني أن اذكرها لك قال فوثب معي ثمّ قال:.. امض نحو دارك حتى انتهيت اليها فزادني وخط لي برجله فقلت: يا أميرالمؤمنين زدني فإنّه نبتت لي نابتة من ولد واهل فقال حسبك واختبئ عندك أن سيلي الأمر بعدي من يصل رحمك ويقضي حاجتك قال فمكثت خلافة عمر حتى استخلف عثمان واخذها عن شورى ورضى فوصلني وأحسن وقضى حاجتي واشركني في امانته[2].

وقول عمر سيلي الأمر بعدي تصريح باستخلاف عثمان وفي كتب الرواية والتاريخ والسير قرائن كثيرة تدلّ على تدبير عمر لخلافة عثمان من بعده وأوصاه باستعمال معاوية[3].

ولو لم يكن عمر جازماً بمصير الأمر إلى عثمان لما أوصاه باستعمال معاوية

---

(١) البداية والنهاية، ج٨ ص١٤، مختصر تاريخ دمشق، ج٢٥ ص١٨، ابن الأثير، الكامل، ج٣ ص٢٦٠، الطبري، ج٥ ص٣٢٧.

(٢) ابن سعد، الطبقات، ج٥ ص٣١. وفي كتابي «جهاد كربلاء والإنسان» عرضت عدداً من الشواهد على ذلك.

(٣) ابن قتيبة، الإمامة والسياسة، ج١ ص١١٣.

بل أن سيرة عمر تدلّ على أنّه كان يمهد لعثمان في السفر والحضر عن حارثه قال: حججت مع عمر، فسمعت حادي عمر يحدو: أنّ الأمير بعده ابن عفان[1].

وابتدء الغرس العمري تتأشب أغصانه، وتتكاثف فروعه ويؤتي أكله وما أكله إلاّ عثمان فهو البوابة التي تدلف منه الاموية إلى خلافة الإسلام.

وما من ريب أن خطة عمرية موضوعة في عهد أبي حفص عهد بها إلى عثمان لكي يجريها بعد حياته مضارعة لخطة الشوري. وهذه الخطة هي سبيل معاوية إلى الحكم والباحث في هذه الدهاليز المعتمة لا يزال يعثر على عبارة أو حكاية أو أثر تفصح عن نوايا القوم تجاه الحكم وحرمان أهل البيت منه كان أبن عوف وهو ورقة عثمان الرابحة موكل إليه الأيتان بعثمان إلى الحكم ثم يكون الحكم له بعد عثمان وهذا ما كشفه أميرالمؤمنين بعد البيعة حين خاطب عبدالرحمن قائلاً: نفعت الختونة ياابن عوف! ليس هذا أول يوم تظاهرتم فيه علينا! فصبرجميل والله المستعان على ما تصفون والله ما ولّيت عثمان إلاّ ليرد الأمر إليك والله كل يوم هو في شأن.

وفي غير رواية الطبري أنّ عبدالرحمن قال له: لقد قلت ذلك لعمر، فقال عليه السلام: أو لم يكن ذلك كما قلت! وفي رواية أخرى إنّ عبدالرحمن قال له: بايع وإلاّ ضربت عنقك![2] وفي أخرى أنّ الإمام قال لعبد الرحمن: والله ما رجوت منه إلاّ ما رجى صاحبك من صاحبه دق الله بينكما عطر منشم.

والخنونة التي عناها الإمام عليه السلام أن عبدالرحمن زوج ام كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط وأمها أروى بنت كريز وأروى أم عثمان[3].

وظن عبدالرحمن أنّه الفارس الرابع إذا خلّى السرج نعثل ولكن خاب تدبيره وطاش سهمه فقد استجيب للإمام فيه فدق بينه وبين عثمان عطر منشم وهي إمرأة عطاره في الجاهلية كان العرب إذا أرادوا الحرب تطيبوا من عطرها ولم يعلم أنّ السرج بعد عثمان معد للفارس المعلم (معاوية) ولم يتضح له ذلك إلاّ بعد فوات الأوان.

---

(١) البلاذري، أنساب الأشراف، ج٣ ص١٥.

(٢) شرح ابن أبي الحديد، ج١٢ ص٢٦٥ وص٢٦٣.

(٣) شرح ابن الحديد، ج١٢ ص٢٦٥ وص٢٦٣.

روى اليعقوبي في تاريخه أنّ عثمان اعتل علة اشتدت به فدعا حمران بن أبان وكتب عهداً لمن بعده!! وترك موضع الأسم ثم كتب بيده عبدالرحمن بن عوف وربطه وبعث به إلى أم حبيبه بنت أبي سفيان فقرأه حمران في الطريق فأتى عبدالرحمن فأخبره فقال عبدالرحمن وغضب غضباً شديداً استعمله علانية ويستعملني سراً ونمى الخبر وانتشر بذلك في المدينة وغضب بنو امية فدعا عثمان بحمران مولاه فضربه مأة سوط وسيّره إلى البصرة فكان سبب العداوة بينه وبين عبدالرحمن بن عوف[١].

وفي وضع الكتاب عند ام حبيبه مع وجود غيرها من امهات المؤمنين على قيد الحياة كعائشة مثلاً قرينة قوية على إرادة معاوية خلفاً في الحكم لابن عمه وهي نزعة عمريه.

لأنّ عمر أوصى عثمان باستعماله[٢] ليس عاملاً فحسب بل فارساً للخلافة أيضاً وفي نثر الدرر: ثمّ استعمله عثمان برأي عمر[٣] وكان معاوية يتباهى بذلك عند أهل الشام فيقول: أيها الناس قد علمتم أني خليفة أميرالمؤمنين عمر بن الخطاب[٤].

وما قال هذه العبارة إلاّ ليقول شقيقتها فقد صعد المنبر فقال: يا أيها الناس ومن كان أحق بهذا الأمر مني؟ وهل بقي أحق بهذا الأمر مني؟[٥] صدق الرجل فلن يكون أحد لا في بني هاشم ولا في قريش أحق من صنيعة عمر وخليفته. لقد كان عمر يصف معاوية بأوصاف تحببه إلى السامع يقول: احذروا آدم قريش وابن كريمها من لا ينام إلاّ على الرضا ويضحك في الغضب ويأخذ ما فوقه من تحته[٦] ورواية ابن كثير هكذا: دعوا فتى قريش وابن سيدها أنّه لمن يضحك في الغضب ولا ينال منه إلاّ

---

(١) تاريخ اليعقوبي، ج٢ ص١٦٩.

(٢) الإمامة والسياسة، ج١ ص١١٣.

(٣) الإمامة والسياسة، ج١ ص٤٢١.

(٤) مختصر تاريخ دمشق، ج٢٥ ص٣٠.

(٥) مختصر تاريخ دمشق، ج٢٥ ص٤٢.

(٦) ابن قتيبة، عيون الأخبار، ج١ ص٩ والبلاذري، أنساب الأشراف، ج٥ ص٥٥.

على الرضا ومن لا يأخذ من فوق رأسه إلاّ من تحت قدميه[١].

وفي رواية ابن كثير دلالة على أنّ الناس نقموا منه ولاية معاوية بعد عمير بن سعد لذلك قال لهم: دعوا فتى قريش. وحمل عمر أوصاف معاوية على كفؤ الخلافة المستحق لها بقوله: إنّ هذا الأمر لا يصلح له إلاّ اللين في غير ضعف والقوي في غير عنف[٢].

وهاتان الصفتان يرادفان صفتي معاوية يضحك في الغضب ولا ينال منه إلاّ على الرضا هذه القرائن تقنع الباحث بأن عمر يعمل تصريحاً وتلميحاً لوصول معاوية إلى عرش الخلافة بدافع الغيرة من بني هاشم والبغضاء لعلي فتاهم وسيدهم بعد رسول الله وقد ثبت بغض عمر ونصبه لعلي وهو غير خاف على أحد.

ورحم الله الشريف الرضي حين سأله معلمه ما علامة النصب في عمر قال: بغضه علي بن أبي طالب عليه السلام[٣].

ونقف من كلام عمر عن الإمام عليه السلام على أنّه بغض شديد فقد كان يتهمه بالعجب وهي صفة مذمومة لأنّها شعبة من شعب التكبر وهي لا تجامع صفة الإيمان في المؤمن يقول لابن عباس: إنّ صاحبكم إن ولي هذا الأمر أخشى عجبه بنفسه أن يذهب به ....[٤]

وقال لابن عباس في حديث آخر: اتدري مامنع الناس منكم؟ قال - ابن عباس - لا يا أميرالمؤمنين قال: لكني أدري قال: ما هو؟ يا أميرالمؤمنين؟ قال: كرهت قريش أن تجتمع لكم النبوة والخلافة فيجحفوا جحفاً..[٥] وإنما كان يدري لأنّه منهم بل هو صاحب هذا المذهب دون من عداه وقال له ابن عباس ذات يوم واصفاً الإمام بعد حوار بينهما: أنّ صاحبنا ما قد علمت، أنّه ما غيّر ولا بدل ولا أسخط رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أيام صحبته له.

---

(١) البداية والنهاية، ج٨ ص١٢٧.

(٢) عيون الأخبار، ج١ ص٩.

(٣) شرح ابن ابي الحديد، ج١٢ ص٥٠.

(٤) شرح ابن ابي الحديد، ج١٢ ص٥٠.

(٥) شرح ابن ابي الحديد، ج١٢ ص٥٣.

فقال عمر: ولا في ابنة أبي جهل لما أراد أن يخطبها على فاطمة ....[1] ولعل ابن عباس كان يعني عمر بقوله غير وبدل واسخط الخ. من هنا نجد عمر غاص في الحوادث ماضيها وحاضرها فلم يجد غير ابنة أبي جهل وهي قضية وضعها العدو بعد أن ماتت سيدتنا الصديقة غاضبة على عمر ولا استبعد أن تكون بايعاز منه.

والمزاج العمري من الأمزجة التي لا تتخلى عن احقادها حتى تتخلى عنها الحياة وهو حاقد على أميرالمؤمنين بل على بني هاشم أن بعث الله رسوله منهم لذلك ابت نفسه أن يجمع هذا البيت النبوة والإمامة وأباها معه قرشيون كثيرون ومنهم البيت الأموي العدو التقليدي لبني هاشم، لذلك استنفر كل قواه العقلية وقدراته السياسية وطاقاته الخلاقة مشوبة هذه كلها بانحراف باطني قبلي عن بني هاشم حتى ادخل الأموية على الإسلام من بابه الواسع ومكّن لعثمان ليمكن لمعاوية وتتسلسل في بيته حتى نالها يزيد.. واعتقد أن شعر القاضي أبي بكر بن أبي فريعه ﷺ يشير إلى هذا المعنى:

يـــا مـــن يســـائل دائبـــاً ... عـــن كـــل معضـــلة ســـخيفه
لا تكشـــــفن مغطـــــأً ... فلربمـــا كشـــفت جيفـــه
ولـــرب مســـتور بـــدا ... كالطبـــل مـــن تحـــت القطيعـــه
إن الجـــواب لحاضـــر ... لكنـــني أخفيـــه خيفـــه
لـــو لا اعتـــداد رعيـــة ... الفـــى سياســـتها الخليفـــه
وســـيوف أعـــداء بهـــا ... هاماتنـــا أبـــداً نقيفـــه
لنشـــرت مـــن اســـرار ... آل محمـــد نكتـــاً طريفـــه
تغنـــيكم عمـــا رواه ... مالـــك وأبـــو حنيفـــه
وأريكـــم أن الحســـين ... أُصـــيب في يـــوم الســـقيفه
ولأي حـــال الحـــدت ... بالليـــل فاطمـــة الشـــريفه
ولمـــا حمـــت شـــيخيكم ... عـــن وطـــئ حجرتهـــا المنيفـــه

(١) شرح ابن ابي الحديد، ج١٢ ص٥١.

آه لبنـــــــــــت محمـــــــــــــد ماتـــــــت يقصـــــــتها أســـــــيفه[1]

أجل أُصيب الحسين في يوم السقيفة.

معاوية في الحكم..

أثر التدبير العمري ثمرة مرة كانت للمسلمين والإسلام شجىً في الحلق وقذىً في العين وانجلت غمرة السياسة العمرية التي غطت طبقاتها عالم الإسلام كله شامه وعراقه وحجازه ومصره وهكذا انجلت عن حكم معاوية بعد احداث دامية مريعة صبغت وجه البلاد بالحمرة القاتمة.

وما تناول معاوية الحكم إلاّ بعد سياسات وحروب نقض بها ومن أعانه أحكام الإسلام نقضاً بل أبدلها بأحكام من لدنه يمكن اعتبارها مسوخاً للأحكام الصحيحة.

وأول مفاجئة استقبل بها الأُمة المشرأبة إلى حكمه والمتجمهرة حول منبره وفي أول جمعة صلاها بالنخيلة قوله: ما قاتلتكم لتصوموا ولا لتصلّوا ولا لتحجوا ولا لتزكّوا قد عرفت أنّكم تفعلون ذلك ولكن إنما قاتلتكم لأتأمر عليكم فقد أعطاني الله ذلك وأنتم له كارهون[2].

واتبع هذه الكلمات ذات الدلالات الواسعة بمثلها في أول خطبة خطبها بالمدينة. لما قدم معاوية المدينة عام الجماعة تلفته رجال من وجوه قريش فقالوا: الحمد لله الذي اعز نصرك وأعلى أمرك فما ردّ عليهم جواباً حتى دخل المدينة، فقصد المسجد وعلا المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أما بعد فأني والله ما وليت أمركم حين وليته إلا وأنا أعلم أنّكم لا تسرون بولايتي ولا تحبونها وأني لعالم بما في نفوسكم ولكني خالستكم بسيفي هذا مخالسة ولقد رمت نفسي على عمل ابن أبي قحافة فلم أجدها تقوم بذلك وأردتها على عمل ابن الخطاب فكانت عنه أشدّ نفوراً وحاولتها على مثل سنيّات عثمان فابت على ....[3] لقد أخبر الصادق الأمين صلى الله عليه وآله وسلم

---

(١) الاربلي، كشف الغمة، ج٢ ترجمة الصديقة الطاهرة.

(٢) مختصر تاريخ دمشق، ج٢٥ ص٤٣، سير أعلام النبلاء، ج٣ ص١٤٧، البداية والنهاية، ج٨ ص١٣٤.

(٣) مختصر تاريخ دمشق، ج٢٥ ص٤٥، سير أعلام النبلاء، ج٣ ص١٤٨، البداية والنهاية، ج٨ ص١٣٥.

امته أن معاوية سيلي أمرهم ويعتلي منابرهم وينزو على منبره هو والقردة من بني امية ثمّ طلب منهم قتله إذا رأوه على منبره.

.. عن أبي سعيد مرفوعاً إذا رأيتم معاوية على منبري فاقتلوه[١] وعن أبي سعيد أن رسول الله ﷺ قال: إذا رأيتم معاوية على هذه الأعواد فاقتلوه فقام إليه رجل من الأنصار وهو يخطب بالسيف فقال أبو سعيد: ما تصنع؟ قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: إذا رأيتم معاوية يخطب على الأعواد فاقتلوه فقال له أبو سعيد: إنا قد سمعنا ما سمعت ولكنا نكره أن يسل السيف على عهد عمر حتى نستأمره فكتبوا إلى عمر في ذلك فجاء موته قبل أن يجيء جوابه[٢].

وعنه أنّ رسول الله ﷺ قال: إذا رأيتم معاوية على منبري فاقتلوه[٣].

وهذا الحديث من أعلام النبوة وهو صحيح لا ريب في ذلك ولكنّ شيعة ابن آكلة الأكباد من قبيل ابن كثير والذهبي وابن عساكر وغيرهم ضعفوه بأقوال واهية كبيوت العنكوبت كقول ابن كثير:.. وهذا الحديث كذب بلا شك ولو كان صحيحاً لبادر الصحابة إلى فعل ذلك لأنهم كانوا لا تأخذهم في الله لومة لائم[٤].

وأقول لابن كثير إنّ الصحابة الذين عصوا رسول الله ﷺ في جيش اسامة حتى لعنهم وخالفوه في كتاب يوم الخميس حتى غضب عليهم وطردهم شرّ طرده والذين خفوا للقافلة يوم الجمعة والنبي يخطبهم حتى ذكرهم الله في السورة وذكر انصرافهم إلى اللهو والتجارة.

فإذا رأوا تجارة أو لهواً انفضّوا إليها وتركوك قائماً هم أنفسهم الذين خالفوه في قتل معاوية بل هم إلى المخالفة والعصيان بعد وفاة النبي ﷺ أقرب منهم إليها والنبي على قيد الحياة.

وخيالك يابن كثير في الصحابة فج وهو أقرب إلى خيال المرضى والمرهّقين.

وما قنع القوم برد الحديث حتى اختلقوا صحابياً لم يخلقه الله سبحانه ليكون

---

(١) الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج٣ ص١٤٩.

(٢) مختصر تاريخ دمشق، ج٢٥ ص٤٦.

(٣) مختصر تاريخ دمشق، ج٢٥ ص٤٦.

(٤) البداية والنهاية، ج٨ ص١٣٣.

ستراً لمعاوية قال المسكين الذهبي: ويقال هو معاوية بن تابوه المنافق!!! وأنت أخي القارئ إذا لم يستبد بك الضحك الذي هو شر من البكاء وشر البلية ما يضحك فاعلم بأن معاوية بن تابوه هذا لم تر عيناه النور ولم يخلقه الله لحد الآن ولست أدري إن كان سيخلفه أو لا ولابد من أن يسبق خلقه والدٌ اسمه تابوه وأخيراً نقول لهم: هذا الحرير كثير على الرمة البالية.

ولم يكفهم هذا حتّى وضعوا حديثاً لتحريفه وتصحيفه كذبوا به على رسول الله ﷺ ونسبوه إلى جابر وقال عنه الذهبي اسناده مظلم.

عن جابر مرفوعاً: إذا رأيتم معاوية يخطب على منبري فاقبلوه فإنّه أمين مأمون[1].

وكما صارت الباغية الطالبة ولا أشبع الله بطنه فسره بعض المحبين قال: لا أشبع الله بطنه حتّى لا يكون ممن يجوع يوم القيامة لأن الخبر عنه أنّه قال: أطول الناس شبعاً في الدنيا أطولهم جوعاً يوم القيامة..[2]

أقول: كما غيّرت دار ضرب الحديث وتحريفه وتصحيفه هذه الأحاديث الشريفة من القدح إلى المدح فقد ضُربت مسكوكةٌ حديثية وفيها بدل اقتلوه اقبلوه ولكنها راجت في سوق المغفلين، أما نحن فنقول لهذه الدار وأربابها تبوءوا مقعدكم من النار.

ومن أجل هذا الحديث الذي أمر النبي ﷺ فيه بقتل معاوية من رآه على منبره عادى معاوية منبر النبي ﷺ فأراد انتزاعه ولكن الله صانه من عبث اليد الحائية وظل مرشداً إلى الروضة المباركة المتدفقة بالسناء والسنا بينه وبين القبر اجيالاً بعد أجيال وحقباً بعد أخرى وهكذا إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها وقد مرّ جانب من ذلك طيّ هذا البحث.

غرس ابن هند رجليه في الحكم وزالت عن وجهه العراقيل وتوطدت اركان دولته وابتدأ حكمه بشراء الذمم وأول ذمة اشتراها ذمة ام المؤمنين عائشة فقد

---

(١) الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج٣ ص١٥٠.

(٢) الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج٣ ص١٢٣.

أرسل إليها ثمانية عشر ألف دينار[1] وقال عروة: بعث معاوية مرّة إلى عائشة بمئة ألف ....[2]

ولما استتب الأمر إليه أوعز إلى عماله على الأمصار والولايات أن يأخذوا الناس بالشدة ويرهبوهم بالعنف والقسوة ولا يتركوا لشخص حرمة مهما كانت مكانته في الإسلام الامن والاه وأهل بيته وأن يشددوا النكير على شيعة أهل البيت ولا تأخذهم فيهم هواده وأوصاهم بقتلهم وتشريدهم في البلاد وأقل ما يسلكه الوالي معهم هو حرمانهم من أدنى مستويات العيش وأبسط الحقوق.

وسار حكام اقاليمه وعماله وامراء ولاياته على النهج الذي اختطه لهم لا يخرمون منه حرفاً واحداً وزادوا عليه بما املته عليهم طبائعهم الإجرامية ونشروا الظلم في البلاد حتى ضرب كل حي بأعصاره بل طال حتى الأموات.

وكانت حصة العراق من هذا وذاك أوفر الحصص لانه بلد التشيع الأول وفيه أنصار أميرالمؤمنين عليه الصلاة والسلام.

وهو منطلق الفيالق الضاربة التي الحقت بمعاوية هزيمة فاضحة لو لا أن تداركهابحيلة رفع المصاحف يوم صفين. وتركّزت عدوانية معاوية وعماله على الكوفة خاصة فكانت تعيش في خلافة معاوية وتحت ظل الأمراء الموفدين إليها كالمغيرة بن شعبة وزياد أتعس أيامها وأقسى ظروف عيشها.

وحباها معاوية بزياد ابن ابية فولغ في الدم وخوّض فيه حتى الحزام ويمكن للباحث أن يتميز الحكم زمن معاوية في السمات التالية.

سماة حكم معاوية العامة

١ - المكايده..

بدء معاوية حكمه بالمكايده وجعلها السمة البارزة له.

قدم المدينة فدخل المسجد وسعد بن أبي وقاص جالس إلى ركن المنبر

---

(١) سير أعلام النبلاء، ج٣ ص١٥٤.

(٢) سير أعلام النبلاء، ج٣ ص١٥٤.

فصعد معاوية المنبر فجلس في مجلس النبي ﷺ فقال له سعد: يا معاوية اجهلت فنعلمك أم جننت فنداويك؟ فقال: يا أبا اسحاق إني قدمت على قوم على غير تأهب لهم وأنا باعث إليهم باعطياتهم إن شاء الله فسمع الناس كلام معاوية ولم يسمعوا كلام سعد وانصرف الناس وهم يقولون كلمه سعد في العطاء فأجابه إليه[1].

في هذه الرواية أكثر من تسائل يحملنا على التوقف في قبولها وأوله إن كان سعد عاتبه على جلوسه في مجلس النبي فقد سبقه عثمان إليه اللهم إلاّ أن نقول بأن معاوية فعل على المنبر فعلاً مستهجناً أوجب عتاب سعد له وهذا أدنى إلى القناعة والرضا.

والكيد سمةٌ غالية على طباع معاوية في السلم والحرب كان حريث مولاه يلبس بزّة معاوية ويستلئم سلاحه ويركب فرسه ويحمل متشابهاً بمعاوية فإذا حمل قال الناس: هذا معاوية[2].

وانتهج حياته كلها سياسة الكيد وكان نصب عينيه لبلوغ اغراضه لا يتحاشى من فعل يبلّغه مرامه وإن كان فيه منقصة عليه وكأنه يعمل بسياسة اليهود الغاية تبرر الواسطة وهذه مواقف له تعرب عن عظيم كيده والكيد شرخصال ابليس وقد اخذه معاوية دأباً وديدنا.

مكايدة ابن عمر

كتب إلى ابن عمر: أما بعد فإنه لم يكن أحد من قريش أحب إلي أن يجتمع الناس عليه منك بعد عثمان فذكرت خذلك اياه وطعنك على انصاره فتغيّرت لك وقد هوّن ذلك عليّ خلافك على علي وطعنك عليه وردّني إليك بعض ما كان منك فاعنا يرحمك الله على حق هذا الخليفة المظلوم فإني لست أريد الإمارة عليك ولكني اريدها لك فإن ابيت كانت شورى بين المسلمين.

فعلم عبدالله ابن عمر أنّها مكيدة من معاوية فكتب جوابه، أمّا بعد، فإن الرأي

---

(١) الأبي، نثر الدر، ج٤ ص١٣٤.

(٢) الدينوري، الأخبار الطوال، ص١٧٦.

الذي اطمعك فيّ هو الذي صيّرك إلى ما صيّرك تركت علياً في المهاجرين والأنصار وتركت طلحة والزبير وعائشة واتبعك فيمن اتبعك وأمّا قولك إني طعنت على علي فلعمري ما أنا كعلي في الإسلام والهجرة ومكانه من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ولكن أحدث أمراً لم يكن الينا فيه من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عهد ففزعت إلى الوقوف وقلت إن كان هذا فضلاً تركته وإن كان ضلالة فشر منه نجوت فأغن عني نفسك[1].

أحسن ابن عمر في الرد إلى نفسه وأساء إلى الحق لأنّه إن كان التوقف في الأُمور المحدثة قد اتخذه منهجاً له فكان عليه أن يتوقّف في حروب الردة وفي بيعة ابيه وفي الشورى التي احدثها أبوه وهكذا حيث أنّها أُمور أحدثت بعد النبي ولم يكن إليهم فيها من رسول الله عهد.

والواقع إنّ الذي حمل ابن عمر على ترك البيعة هو الحلم الذهبي الذي راود أجفانه أن يزف على عروس الخلافة بعد عثمان كغيره من الحاملين فلما فتح عينيه على الخيبة وتبخرت أحلامه اسرحسواً في ارتغاء وأعلن ترك البيعة للإمام عليه السلام .

مكايدة ابن عباس

وكتب إلى إبن عباس كما كتب إلى ابن عمر كيداً منه أما بعد فإنّكم معشر بني هاشم لستم إلى أحد أسرع منكم بالمسائة إلى أنصار عثمان فإن يكُ ذلك لسلطان بني امية فقد ورثها عدي وتيم وقد وقع من الأمر ما قد ترى وأدالت هذه الحرب بعضنا من بعض حتى استوينا فيها فما اطمعنا فيكم وما ايأسكم منا أياسنا منكم وقد رجونا غير الذي كان وخشينا دون ما وقع ولستم ملاقينا اليوم بأحد من حدكم أمس وقد منعنا بما كان منا الشام وقد منعتم بما كان منكم العراق فاتقوا الله في قريش فما بقي من رجالها إلاّ ستة: رجلان بالشام ورجلان بالعراق ورجلان بالحجاز فأما اللذان بالحجاز فسعد وعبدالله بن عمر وأما اللذان بالشام فأنا وعمرو وأما اللذان بالعراق فعلي وأنت.

ومن الستة رجلان ناصبان لك وآخران واقفان عليك وأنت رأس هذا الجمع

---

(١) الإمامة والسياسة، ج١ ص٨٩.

اليوم وغداً ولو بايع الناس لك بعد عثمان كنا اسرع إليك منا إلى علي.

قال وذكروا أنّه لما أتى كتاب معاوية إلى ابن عباس ضحك ثم قال: حتى متى يخطب إلي معاوية عقلي؟ وحتى متى اجمجم له عما في نفسي؟ فكتب إليه:

أما بعد فقد جائني كتابك فأما ما ذكرت من سرعتنا بالمساءة إلى أنصار عثمان. لسلطان بني امية فلعمري لقد أدركت في عثمان حاجتك لقد استنصرك فلم تنصره حتى صرت إلى ما صرت إليه وبيني وبينك في ذلك ابن عمك وأخو عثمان الوليد بن عقبة وأما قولك: إنّه لم يبق من رجال قريش غير ستة فما أكثر رجالها وأحسن بقيّتها وقد قاتلك من خيارها من قاتلك ولم يخذلنا إلاّ من خذلك وأما أغراءك إيّانا بعدي وتيم فأبوبكر وعمر كانا خيراً منك ومن عثمان كما أنّ علياً خير منك وأما قولك: إنّا لا نلقاك إلاّ بما لقيناك به فقد بقي لك منا يوم ينسيك ما قبله وتخاف له مابعده وأما قولك: إنّه لو بايعني الناس استقمت فقد بايعوا علياً وهو خير مني فلم تستقم له وإن الخلافة لا تصلح إلاّ لمن كان في الشورى فما أنت والخلافة؟ وأنت طليق الإسلام وابن رأس الأحزاب وابن آكلة الأكباد من قتلى بدر (كذا) ....[1] وحيث أنه جبل على الكيد والحيلة فقد كان يكايد في كل صغيرة وكبيرة.

وقد كان في حجج معاوية في اتخاذ المقصورة بعد ضرب البرك اياه بالسيف أنّه ابصر كلباً على منبره[2].

مكايدة ابن العاص

وكايد عمراً بن العاص بعد ما أعطاه مصر طعمة فكتب إليه وهو على مصر: أما بعد فإن سؤال أهل الحجاز وزوار أهل العراق قد كثروا علي وليس عندي فضل من أعطيات الجنود فاعنّي بخراج مصر هذه السنة.

فكتب إليه عمرو:

معــاويَ إن تــدركك نفــس شــحيحة فمــا ورّثتــني مصــر امــي ولا أبي

---

(١) ابن قتيبة، الإمامة والسياسة، ج١ ص١٠٠.

(٢) الجاحظ، كتاب الحيوان، ج٢ ص١٦١.

ومـــا نلتـــه عفـــواً ولكـــن شـــرطتها وقـد دارت الحـرب العـوان علـى قطـب

ولـــولا دفـــاعي الأشـــعري وصـــحبه لألفيتهـــا ترغـــو كراغيـــة الســـقب

فلما رجع الجواب إلى معاوية تذمم فلم يعاوده في شيء من أمرها[1].

ومن أجل هذا الطبع المكايد في معاوية ظل ابن العاص الذي لا يقصر عنه كيداً على حذر منه يعرّض به إذا اجتمعا وعلى رؤوس الأشهاد احياناً.

قال معاوية يوماً لجلسائه وعنده الضحاك بن قيس الفهري وسعيد بن العاص وعمرو بن العاص ويزيد ابنه: ما أعجب الأشياء؟ فقال الضحاك: إكداء العاقل وخفض الجاهل وقال سعيد: أعجب الأشياء ما لم يُر مثله وقال عمرو: أعجب الأشياء غلبة من لاحق له ذا الحق.

فقال معاوية: اعجب من ذلك أن تعطي من لاحق له ما ليس له بحق من غير غلبة.

قال يزيد: أعجب الأشياء هذا السحاب الراكد بين السماء والأرض لا يدعمه شيء[2].

ولم تطب العلاقة بين الرجلين لتكافىء الخبث في نفسيهما فكان كل واحد منهما يريد الغلبة على صاحبه ويعلم ما عنده فيخشاه لذلك قال معاوية لعمرو بن العاس: هل غششتني منذ وتصحتني؟ قال: لا قال: بلى يوم اشرت علي بمبارزة علي وأنت تعلم من هو! فقال عمرو: دعاك رجل عظيم الخطر إلى المبارزة فكنت من مبارزته على احدى الحسنيين إما أن قتلته فقد قتلت قتّال الأقران وازددت شرفاً إلى شرفك وخلوت بملكك، وأما إن قتلك فتتعجل مرافقة الشهداء والصديقين والصالحين قال معاوية:.. لهذه اشدّ علي من الأولى فقال عمرو: أفكنت من جهادك في شك فتكون منه الساعة قال: دعني منك الآن[3].

---

(١) الأخبار الطوال، ص٢٢٢.

(٢) أبو حيان التوحيدي، البصائر الذخائر، ج١ ص٣٣.

(٣) السيد المرتضى، الأمالي، ج١ ص٢٩١.

مكايدته مروان بن الحكم..

وذكروا أنّ معاوية دعى مروان فقال: يا مروان إنّ الأشتر قد غمني فأخرج بهذه الخيل فقاتله بها غداً فقال مروان: ادع لها عمراً فإنّه شعارك دون دثارك قال معاوية: وأنت نفسي دون وزيري قال مروان: لو كنت كذلك الحقتني به في العطاء والحقته بي في الحرمان ولكنك اعطيته ما في يدك ومنيّتني ما في يد غيرك فإن غلبت طاب المقام وإن غُلبت خف عليك الهرب قال معاوية يعني الله عنك قال: أما اليوم فلا ....[1]

علم مروان بنية معاوية فامتنع لأن معاوية أراد أن يتخلص منه بالقائه بين فكي الأسد وكان مروان شديد المعارضة له مدلاً عليه بقربه من عثمان.

ولما طلب معاوية مبايعة عمرو له أجابه عمرو لا والله لا اعطيك من ديني حتى آخذ من دنياك قال معاوية: صدقت، سل تُعطه قال عمرو: مصر طعمة فغضب مروان بن الحكم وقال: مالي لا اشترى، فقال معاوية: اسكت يا ابن عم فانما يشترى لك الرجال فكتب معاوية لعمرو: مصر طعمة..[2]

ولم تفارق معاوية الموجدة على مروان فقد حج بالناس مروان سنة ثمان واربعين وهو يتوقع العزل لموجدة كانت من معاوية عليه وارتجع معاوية منه فدك وكان وهبها له[3]، فما هذه الموجدة؟

لا استبعد أن تكون على أثر إبائة البيعة ليزيد فقد كان مروان عامله على المدينة فكتب إليه يذكر الذي قضى الله به على لسانه من بيعة يزيد ويأمره أن يجمع من قبله من قريش وغيرهم من أهل المدينة ثم يبايعوا ليزيد.

فلما قرأ مروان كتاب معاوية أبى من ذلك، وأبته قريش فكتب لمعاوية: إنّ قومك قد أبوا اجابتك إلى بيعة ابنك فارأ رأيك فلما بلغ معاوية كتاب مروان عرف أنّ ذلك من قبله فكتب إليه يأمره أن يعتزل عمله ويخبره أن قد ولّى المدينة سعيد بن

---

(١) الإمامة والسياسة، ج١ ص٩٩.

(٢) الإمامة والسياسة، ج١ ص٨٨.

(٣) ابن الأثير، الكامل، ج ٣ ص٢٢٧.

العاص فلما بلغ مروان كتاب معاوية أقبل مغاضباً في أهل بيته وناس كثير من قومه حتى نزل بأخواله بني كنانة فشكا إليهم وأخبرهم بالذي كان من رأيه في أمر معاوية وفي عزله واستخلافة يزيد ابنه من غير مشوره مبادرة له فقالوا: نحن نبلك في يدك وسيفك في قرابك فمن رميته بنا اصبناه ومن ضربته بنا قطعناه الرأي رأيك ونحن طوع يمينك ثمّ اقبل مروان في وفد منهم كثير ممن كان معه من قومه وأهل بيته حتى نزل دمشق فخرج فيهم حتى أتى سدّة معاوية وقد اذن للناس فلما نظر الحاجب إلى كثرة من معه من قومه وأهل بيته منعه من الدخول فوثبوا إليه فضربوا وجهه حتى خلّى عن الباب ثم دخل مروان ودخلو معه[1] ودار بينه وبين معاوية كلام اغضب معاوية فنافقه وقال له في آخر كلامه:

فأنت نظير أميرالمؤمنين بعده وفي كل شدّة عضده وإليك عهد عهده فقد ولينك قومك واعظمنا في الخراج سهمك وأنا مجيز وفدك ومحسن رفدك وعلى أميرالمؤمنين غناك والنزول عند رضاك فكان أول ما رزق الف دينار في كل هلال وفرض له في أهل بيته مئة منه ...[2].

وكان معاوية ينافق مروان احياناً لعلمه بما تنطوي عليه دخيلته من الخبث والذي اطمع مروان بالخلافة هي معاريض معاوية فيه نفاقاً ودهاءاً عن قبيصه بن جابر قال: بعثني زياد في شغل إلى معاوية فلما فرغت من أموري قلت: يا اميرالمؤمنين لمن يكون الأمر بعدك؟ فسكت ساعة ثم قال: يكون بين جماعة أما كريم قريش سعيد ابن العاص واما فتى قريش حياءاً ودهاء وسخاءاً عبدالله بن عامر وأما الحسن بن علي فرجل كريم وأما القارئ لكتاب الله الفقيه في دين الله.. الشديد في حدود الله مروان بن الحكم وأما رجل فقيه عبدالله بن عمر وأما رجل يتردد الشريعة مع الدواهي السباع ويروغ روغان الثعلب فعبدالله بن الزبير[3].

قال عبدالله بن الزبير يوماً لمعاوية بشأن مروان: يا معاوية، لا تدع مروان يرمي الجماهير بمشاقصة ويضرب صفاتهم بمعوله لو لا مكانك لكان أخف على رقابنا من

---

(١) الإمامة والسياسة، ج١ ص١٥٢ وص١٥١.

(٢) الإمامة والسياسة، ج١ ص١٥١ وص١٥٢.

(٣) البداية والنهاية، ج٨ ص٨٨.

فراشه وأقل على أنفسنا من خشاشة وأيم الله لئن ملك أعنّة الخيل تنقاد له ليركبنّ منك طبقاً تخافه.

فقال معاوية: إن يطلب هذا الأمر فقد طمع فيه من هو دونه وإن يتركه يتركه لمن فوقه[1].

ولقد صدق ابن الزبير فإن مروان يضمر لمعاوية الشر، ويخافه معاوية، فهو يدار به ويراوغه ويطمعه بالأمر بعده بالمعاريض التي لا تجدي فتيلاً ومروان معها كالقابض على الماء.

أما الفقه الذي نعت به معاوية مروان فلا أحد يعرفه اللهم إلاّ ما أخرجه بن قتيبة عن أبي بكر بن حفص بن عمر قال: كان مروان بن الحكم امير المدينة فقضى في رجل فزّع رجلاً فضرط بأربعين درهماً[2]. ولا أدري لمن قضى بالدراهم له أو للمفزّع.

مكايدة الزبير ..

أظهر معاوية بالشام أنّ الزبير بن العوام قادم عليهم وأنه يبايع له فلما بلغه خروج الزبير وطلحة إلى الجمل أمسك عن ذكره فلما بلغه قتل الزبير قال: يرحم الله أبا عبدالله أما أنه لو قدم علينا لبايعنا له وكان أهلاً أن نقدّمه لها[3].

مكايدة أهل الشام

ما آمن معاوية برسول الله ﷺ طرفة عين كان الحقد عليه والحسد له ولأهل بيته يمزقان احشائه صباح مساء وطالما اطلق عليه الكنية التي كانت تطلقها امه (ابن ابي كبشة)[4] ولكنه أمام أهل الشام يقوم لرجل منهم وكان شيخاً مسناً قد بلغ التسعين

---

(١) الأبي، نثر الدرر، ج٣ ص١٧٧.

(٢) ابن قتيبة، عيون الأخبار، ج١ ص٧٣.

(٣) مختصر تاريخ دمشق، ج٢٥ ص٢١.

(٤) انظر شرح ابن ابي الحديد، ج٥ ص١٣٠.

فقيل له: اتقوم لهذا؟ فقال: إنّ فيه شبهاً من رسول الله ﷺ وأنا أقوم للنبي[1].

وكان يظهر في أسواق دمشق على بغلة خلفه وصيف قد اردفه عليه قميص مرفوع الجيب[2] يظهر للناس بمظهر الزاهد المنقشف.

مكايدة شرجيل بن السمط الكندي

وشرجيل هذا من رجال اليمن شجاعة ونجدة وهو ذو تأثير واضح على رجال كنده وهم رجال الحرب في الشام ولما أراد معاوية أن يحمله على الطلب بدم عثمان معه أرسل إليه ليأتيه. ثمّ وطّن له الرجال على طريقه كله يخبرونه بأن علياً قتل عثمان وكانوا من أهل الرضا عنده.

مثل يزيد بن اسد وبسر بن ارطاه وسفيان بن عمرو وخارق بن الحارث وحمزة بن مالك وحابس بن سعد وغير هؤلاء من أهل الرضا عند شرجيل بن السمط فوطّنهم له على طريقه فكان يلقى الرجل بعد الرجل من هؤلاء في طريقه فيخبرونه أنّ علياً ما لأعلى قتل عثمان ثم اشربوا قلبه ذلك فلما دنى من دمشق أمر معاوية أشراف الشام باستقباله فاستقبلوه وأظهروا تعظيمه فكان كلما خلا برجل منهم ألقى إليه هذه الكلمة فأقبل على معاوية مغضباً فقال:

أبى الناس إلاّ أن ابن ابي طالب قتل عثمان والله لئن بايعته لنخرجنك من الشام. فقال معاوية: ما كنت لأخالف أمركم وإنما أنا واحد منكم ....[3] (وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ).

مكايدة قتل عمار ..

تواتر عن رسول الله ﷺ قوله لعمار بن ياسر (تقتلك الفئة الباغية) وآخر شربه تشربها ضباع من لبن وقد كان ذوالكلاع سمع ذلك من عمرو بن العاص فكان ذوالكلاع يقول لعمرو: ويحك! ما هذا يا عمرو؟! فيقول له عمرو: إنه سيرجع إلينا

---

(١) ابو حيان التوحيدي، البصائر والذخائر، ج٣ ص١٤٧.

(٢) سير أعلام النبلاء، ج٣ ص١٥٢، مختصر تاريخ دمشق، ج٢٥ ص٥٣.

(٣) الأخبار الطوال، ص١٥٩ بتصرف.

قال: فلما أُصيب عمار بعد ذي الكلاع قال عمرو لمعاوية: ما أدري بقتل أيهما أنا. أشدّ فرحاً بقتل عمار أو ذي الكلاع والله لو بقي ذوالكلاع بعد قتل عمار لمال بعامة أهل الشام ولأفسد علينا جندنا عن يعقوب بن راهط قال: اختصم رجلان في سلب عمار وفي قتله فأتيا عبدالله بن عمرو بن العاص ليتحاكما إليه فقال لهما: ويحكما أخرجا عني فإن رسول الله ﷺ قال ولعت قريش بعمار مالهم ولعمار؟ عمار يدعوهم إلى الجنة ويدعونه إلى النار قاتله وسالبه في النار قال: فبلغني أنّ معاوية قال: إنما قتله من أخرجه يخدع بذلك أهل الشام[1] ويظهر من هذا أنّ أهل الشام على جانب عظيم من البلة فهلاّ قالوا له إذا صحّت دعواك هذه فإن دماء أهل الشام في عنقك لأنك أنت الذي اخرجتهم.

والحديث الشريف متواتر ما في ذلك ريب ولكنّ بعض أولياء معاوية انكروا تواتره واعترفوا باستفاضته وشهرته وهو من أعلى أنواع الصحيح عندهم وما أكثر من رواه من العدو والصديق.

عن حنظلة بن خويلد قال: بينا هو عند معاوية إذ جاءه رجلان يختصمان في قتل عمار فقال لهما عبدالله بن عمرو: ليطب كل واحد منكما نفساً لصاحبه بقتل عمار فأني سمعت رسول الله ﷺ يقول: تقتله الفئة الباغية فقال معاوية لعمرو:

ألا تنهى عنا مجنونك هذا؟ ثم أقبل معاوية على عبدالله فقال له: فلم تقاتل معنا؟ فقال: إنّ رسول الله ﷺ أمرني بطاعة والدي ما كان حياً وأنا معكم ولست أقاتل[2].

لقد بث معاوية الكيد والمكر والحيلة في شيعته فهاهم ينسجون على منواله ويسخرون بالأمة بتلاعبهم بالعبارات وتصحيفهم الكلمات ليعفوّا على عقولها اسناداً لمعاوية وتعذيراً له. وأول من فتح لهم هذا الباب إمامهم ابن آكلة الأكباد فقال لما سمع الحديث عن الفئة الباغية: إنما نحن الفئة الباغية! التي تبغي دم عثمان[3].

---

(١) البداية والنهاية، ج٧ ص٢٧٩.

(٢) البداية والنهاية، ج٧ ص٢٨٠.

(٣) الإمامة والسياسة، ج١ ص١١٠.

وجاء بعده المغفلون ينزهّون القاتل ويزعمون أنّه صحابي بدري[1] ليحظى برفع التكليف ويذهب دم عمار هدراً ويأبى الله إلاّ أن يدخل قاتله ومن أعانه ورضي بقتله في نار جهنم وبئس المصير.

ولابد من كلمة أخيرة نقولها للصحابي المتنطع عبدالله بن عمرو الذي الجئه على حضور القتال طاعة أبيه لو صدق الرجل والله يعلم أنّه الكاذب الطامع بالسحت الذي يصيبه من ابن هند أقول لوكان صادقاً فلم لم يطع أباه حين دعاه إلى الأكل في أيام متى قال:

إني صائم ثم الثانية فكذلك ثم الثالثة فقال: لا إلا أن تكون سمعته من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: فأبي سمعته من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم[2].

ايطيع أباه في قتال المسلمين وقتل عمار ولا يطيعه في افطار يوم حرام صومه لأنه من أيام التشريق؟!!

مكايدة عبيدالله بن عمر قاتل الهرمزان ..

خاف عبيدالله بن عمر من القصاص في خلافة الإمام عليه السلام لأنه قاتل الهرمزان وهو أمرئ مسلم وكان الإمام عليه السلام قد تهدده بالقصاص ففرّ إلى معاوية.

فكان معاوية يتمنّى قتله لخوفه من التفات أهل الشام عليه لأنه ابن عمر من هنا أعمل الحيلة في هلاكه فدعاه ذات يوم فقال: إنّ علياً كما ترى في بكر بن وائل قد حامت عليه فهل لك أن تسير في الشهباء؟ قال: نعم.

فرجع عبيدالله إلى خبائه فليس سلاحه ثم أنّه فكّر وخاف أن يقتل مع معاوية على حاله فقال له مولىً له: فداك أبي! إنّ معاوية إنّما يقدّمك للموت إن كان لك الظفر فهو يلي وإن قتلت استراح منك ومن ذكرك فاطعني واعتل قال: ويحك قد عرفت ما قلت فقالت له امرأته بحريه بنت هانئ مالي أراك مشمراً؟ قال: أمرني اميري أن اسير في الشهباء قالت: هو والله مثل التابوت لم يحمله أحد قط إلاّ قتل

---

(١) البداية والنهاية، ج٦ ص٢٢٠.

(٢) ابن سعد، الطبقات، ج٤ ص٢٦٤.

أنت تقتل وهو الذي يريد معاوية قال:

اسكتي والله لأكثرنّ القتل في قومك اليوم فقالت: لا يقتل هذا خدعك معاوية وغرك من نفسك وثقل عليه مكانك قد ابرم هذا الأمر هو وعمرو ابن العاص قبل اليوم فيك لو كنت مع علي أو جلست في بيتك كان خيراً لك قد فعل ذلك أخوك وهو خير منك قال اسكتي وهو يتبسم ضاحكاً لترينّ الأسارى من قومك حول خباءك هذا قالت: والله لكأني راكبة دابتي إلى قومي اطلب جسدك أواريه إنك مخدوع إنما تمارس قوماً غلب الرقاب فيهم الحرون ينظرونه نظر القوم إلى الهلاك.

لو أمرهم بترك الطعام والشراب ما ذاقوه قال: اقصري من العذل فليس لك عندنا طاعة.

فرجع عبيدالله إلى معاوية فضم إليه الشهباء وهم إثنا عشر الفاً وضمّ إليه ثمانية آلاف من أهل الشام فيهم ذوالكلاع في حمير.

فقصدوا يؤمون علياً فلما رأتهم ربيعة جثوا على الركب وشرعوا الرماح حتى إذا غشوهم ثاروا إليهم واقتتلوا اشد القتال ليس فيهم إلاّ الأسل والسيوف وقتل عبيدالله وقتل ذوالكلاع والذي قتل عبيدالله زياد بن خصفة التيمي وقال معاوية لأمرأة عبيدالله: لو أتيت قومك فكلمتهم في جسد عبيدالله بن عمر فركبت اليهم ومعها من يجيرها فأتتهم فانتسبت فقالوا: قد عرفناك مرحباً بك فما حاجتك؟ قالت: هذا الجسد الذي قتلتموه فأذنوا لي في حمله فوثب شباب من بكبر بن وائل فوضعوه على بغل وشدّوه واقبلت امرأته إلى عسكر معاوية فتلقّاها معاوية بسرير فحمله عليه وحفر له وصلّى عليه ودفنه ثمّ جعل يبكي ويقول: قتل ابن الفاروق في طاعة خليفتكم حيّاً وميّتاً فترحموا عليه وإن كان الله قد رحمه ووفقه للخير قال: تقول بحريه وهي تبكي عليه وبلغها ما يقول معاوية فقالت: أما أنت فقد عجلت له يتم ولده وذهاب نفسه ثم الخوف عليه لما بعد اعظم....[1]

---

(١) الطبقات، ج٥ ص١٧ وص١٨.

مكايدة الجوهره ..

بعث زياد إلى معاوية بهدايا مع عبيدالله أخي الأشتر النخعي وفي الهدايا سفط فيه جوهرة لم يُر مثلها فقدم عبيدالله بالهدايا ثم قال: يا أميرالمؤمنين إنّ زياداً بعث معي بسفط ما أدري ما فيه وأمرني أن أدفعه إليك في خلاء فقال: أحضره فلما فتحه قال: ما أظن رجلاً آثر هذا على نفسه إلاّ سيؤثره الله تعالى بالجنة ارجع به إليه فإن من قبله من المسلمين أحق بهذا من معاوية ثم كتب إلى زياد: إنك رفعت عليّ راية الاشتر حين وضعها الله بعثت مع أخيه بسفط يشهد به عليّ عند أهل العراق فارددْه إلي مع رجل لا يفقه عني ولا أفقه عنه فردّه إليه زياد مع غلام من غلمانه[1].

مكايدة رفع المصاحف ..

يقال إنها مكيده عمرو والواقع أنها ليست عفو الساعة منهم بل هي مكيدة دبّرت من أول القتال وبقيت طيّ الكتمان حتى آن أوانها بعد أن لاحت إرهاصات الهزيمة في جند الشام قال الطبري:

فلما رأى عمرو بن العاص أن أمر أهل العراق قد اشتد وخاف في ذلك الهلاك قال لمعاوية: هل لك في امر اعرضه عليك لا يزيدنا إلاّ اجتماعاً ولا يزيدهم إلاّ فرقة؟ قال: نعم قال: نرفع المصاحف ثم نقول ما فيها حكم بيننا وبينكم فإن أبى بعضهم أن يقبلها وجدت فيهم من يقول: بلى ينبغي أن نقبل فتكون فرقة تقع بينهم وإن قالوا: بلى نقبل ما فيها رفعنا هذا القتال عنا وهذه الحرب إلى أجل أوالي حين فرفعوا المصاحف بالرماح وقالوا: هذا كتاب الله عزوجل بيننا وبينكم من لثغور اهل الشام من بعد أهل الشام ومن لثغور أهل العراق من بعد أهل العراق! فلما رأى الناس المصاحف قد رفعت قالوا نجيب إلى كتاب الله عزوجل وننيب إليه[2].

وللقضية تفصيل مهم ولطالب المزيد الرجوع إلى المسعودي في تاريخه وابن

---

(١) التذكرة الحمدونية، ج١ ص٤١٦.

(٢) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج٥ ص٤٨.

الأعثم في فتوحه وابن الأثير في كامله وابن خلدون في العبر واليعقوبي والبدء والتاريخ والبداية والنهاية وغيرها من كتب التاريخ واستطاع ابن هند أن يخدع المغفلين بهذا الكيد ولكنّ الإمام عليه السلام كشف كيده للناس وقال:

عباد الله امضوا إلى حقكم وصدقكم وقتال عدوكم فإن معاوية وعمراً ابن العاص وابن ابي معيط وحبيب بن مسلمة وابن أبي سرح والضحاك بن قيس ليسوا باصحاب دين ولا قرآن أنا أعرف بهم منكم صحبتهم أطفالاً وصحبتهم رجالاً فكانوا شر اطفال وشر رجال ويحكم والله إنهم ما رفعوها إنهم يقرأونها ولا يعملون بما فيها وما رفعوها إلاّ خديعة ودهاءاً ومكيده ....[1]

مكايدة أهل مكة في بيعة يزيد

حشد معاوية كل مخزون كيدي في ذاته. موصولاً بالغدر والكذب وشراء الذمم وكان لا يبخل على ذمة يريد شراءها في البيعة ليزيد بشيء وسل التاريخ ما هي حكاية الطوق الذي ارسله معاوية إلى عائشة يقول عطاء: قدمت عائشة مكة، فأرسل إليها معاوية بطوق قيمته مئة ألف فقبلته..[2]

إنّ هذا الطوق شفيع مشفّع عند ام المؤمنين لكن ألا يحق للمرء أن يسأل من لا يجيب لماذا هذا الطوق؟ ولست واجداً مجيباً بسهولة اللهم إلاّ إذا امعنت نفشاً في التاريخ وفليت مفاوزه واحدة أثر أخرى فستعثر على السبب المباشر لهذا الطوق في بيعة يزيد إنّ ابن هند يريد من يضمن له رضا عائشة بهذه البيعة أو سكوتها على أقل تقدير عنها فماوجد أصحّ ضماناً من الذهب الأبريز بخاصة إذا كان طوقاً على الاعناق.

وخطب معاوية بالمدينة فذكر يزيد فمدحه وقال: من أحق منه بالخلافة في فضله وعقله وموضعه وما أظن قوماً بمنتهين حتى تصيبهم بوائق تحتث أصولهم وقد أنذرت إن أغنت النذر ثم أنشد متمثلاً:

---

(١) ابن كثير، البداية والنهاية، ج٧ ص٢٨٤.

(٢) مختصر تاريخ دمشق، ج٢٥ ص٦٤.

قـــد كنـــت حـــذرتك آل المصـــطلق وقلـــت يـــا عمـــرو اطعـــني وانطلـــق
إنـــك قـــد كلفتـــني مـــا لم اطـــق ســـاءك مـــا ســـرّك مـــني مـــن خلـــق
دونك ما استسقيته فاحس وذق

ثم دخل على عائشة وقد بلغها أنه ذكر الحسين وأصحابه فقال: لأقتلنهم إن لم يبايعوا فشكاهم إليها فوعظته وقالت: بلغني إنك تتهددهم بالقتل فقال: يا أم المؤمنين هم أعز من ذلك ولكني بايعت ليزيد وبايعه غيرهم افترين أن أنقض بيعة قد تمت؟! قالت فارفق بهم فإنّهم يصيرون إلى ما تحب إن شاء الله، قال: افعل[1].

ولا تفوتنك الدلالة في قولها يصيرون إلى ما تحب!! يعني بيعة يزيد. فهي من الراضين بها وتعد معاوية برضا اشد الناس إنكاراً ونقمة عليه وترشده إلى سياسة الهوينى واللين ليصل إلى الغاية من البيعة وهذا كله بشفاعة الطوق طبعاً.

اكـــرم بـــه اصـــفر راقـــت صـــفرته جـــوّاب آفـــاق ترامـــت ســـفرته
مـــــأثورة سمعتـــــه وشـــــهرته قـــد اودعـــت ســـرّ الغـــنى اســـرته
وقارنـــت نحـــج المســـاعي خطرتـــه وحببـــــت الى الأنـــــام غُرتـــــه
كأنمـــا مـــن القلـــوب نقرتـــه بـــه يصـــول مـــن حوتـــه صـــرته
..... يـــا حبـــذ انصـــاره ونضـــرته
كـــم أمـــر بـــه اســـتنبت امرتـــه ومـــترف لـــولاه دامـــت حســـرته
وجـــيش هـــم هزمتـــه كرتـــه وبـــــدرتم أنزلتـــــه بدرتـــــه
وكـــم اســـير اســـلمته اســـرته انفـــذه حـــتى صـــفت مســـرته
وحـــق مـــولىً ابدعتـــه فطرتـــه لـــولا التقـــى القلـــت جلّـــت قدرتـــه[2]

بعد محاولات جرت من معاوية عمادها الترغيب والترهيب لم يصل من المعارضين إلى غايته فأعيته الحيلة وعرف أن لا سبيل إلى استقطابهم فعمد إلى تجاوزهم وأخذ البيعة من الناس ولكن بما أن للمعارضين وفيهم الإمام الحسين عليه السلام تأثيراً كبيراً على سواد الأمة الأعظم هُرع إلى الحيلة والكيد كما هي عادته.

---

(١) الكامل في التاريخ، ج٣ ص٢٥١.
(٢) مقامات الحريري، ص٢٨.

بعد أن كلمهم وكلّموه وأشار عليه ابن الزبير بثلاث لكي يأخذ بأحدها فردّها جميعاً ثم قال: فأني قد أحببت أن اتقدم اليكم أنه قد أعذر من انذر إني كنت اخطب فيكم فيقوم اليّ القائم منكم. فيكذبني على رؤوس الناس فاحمل ذلك واصفح واني قائم بمقالة فاقسم بالله لئن رد علي أحدكم كلمة في مقامي هذا لا ترجع إليه كلمة غيرها حتى يسبقها السيف إلى رأسه فلا يبقين رجل إلاّ على نفسه ثمّ دعى صاحب حرسه بحضرتهم فقال:

اقم على رأس كل رجل من هؤلاء رجلين ومع كل واحد سيف فإن ذهب رجل منهم يرد على كلمة بتصديق أو تكذيب فلبضرباه بسيفهما ثمّ خرج وخرجوا معه حتى رقى المنبر فحمد الله واثنى عليه ثمّ قال:

إنّ هؤلاء الرهط سادة المسلمين وخيارهم لا يُبتز أمر دونهم ولا يقضى إلاّ عن مشورتهم وانهم رضوا وبايعوا ليزيد فبايعوا على اسم الله فبايع الناس وكانوا يتربصون بيعة هؤلاء النفر ثم ركب رواحله وانصرف إلى المدينة فلقى الناس اولئك النفر فقالوا لهم زعمتم أنكم لا تبايعون فلم رضيتم واعطيتم وبايعتم؟ قالوا والله ما فعلنا فقالوا: ما منعكم أن تردّوا على الرجل؟ قالوا: كادنا وخفنا القتل[1].

وهذه ليست بيعة بل هي داهية دهماء من دواهي الكيد بالإمامة ولنا أن نسئل عبدالله بن عمر وهو أحد المعارضين واحد من كادهم معاوية وسلط عليهم السيف في حرم الله.

أهذه البيعة التي سمّاها بيع الله ورسوله أم أن بينه وبين معاوية صفقة خاصة لا نعلمها ويذكر عنه أنّه دعا بنيه وجمعهم لما ابتز أهل المدينة يزيد وخلعوه فقال: إنا بايعنا هذا الرجل على بيع الله ورسوله وإني سمعت رسول الله يقول: إنّ الغادر ينصب له لواء يوم القيامة ...[2]

---

(١) ابن الأثير، الكامل، ج٣ ص٢٥٢ والقضية لشهرتها ذكرها جل المؤرخين.

(٢) ابن سعد، الطبقات، ج٤ ص١٨٣.

وكاد ربه في يزيد أيضاً

فقد كان يخطب ويقول في خطبته: أللهم إن كنت تعلم أني وليته - يزيد - لأنه فيما أراه أهل لذلك فأتمم له ما وليته وإن كنت وليته لأني أحبه فلا تتمم له ما وليته[1].

وهذا كيد عظيم يفوق كيد ابليس إذ يخال السامع أنّ الرجل لحسن نيته ونقاء حقيقته وعظيم نصحه للمسلمين أو كل الأمر إلى الله، فإذا تمت البيعة ليزيد كان الله سبحانه هو الذي تولّى عقدها لعلمه بصلاحه وإن لم تتم فالله دفعها عنه لعدمه.

وهذا الذي ذكرناه غيض من فيض وقطرة من مياه معاوية الأسنة وهناك نماذج كثيرة أعرضنا عنها لاقتضائها منا جهوداً اضافية منها قصة أرينب بنت اسحاق ولو لا اني مرتاب بها لذكرتها وقد عبّرت عن رأيي فيها في كتابي (حجة الشيعة الكبرى) فالتمسها هناك.

بهذا الكيد الرخيص حكم معاوية الأمة وعاشت تحت ظله فكانت تعبّ من هذه الأخلاق الردئية ما شائت وتتلون شخصيتها بهذه الألوان القاتمة المقيتة لأن الرعية على دين ملوكها ولقد عاش معاوية عمره كله على هذا النمط المسترذل.

يقول اليعقوبي: وكان أكثر فعله المكر والحيلة[2].

السمة الثانية الغدر ..

اعتبر اولياء ابن هند سمة الغدر صفة فاضله فيه فقد تمدّحوا بها ونعتوه من أجلها بالدهاء وصيّروه أحد دهاة العرب الخمسة[3]. وأول من مدحه وسمّى غدره دهاءاً عمر بن الخطاب حيث يقول: تذكرون كسرى وقيصر ودهائهما وعندكم معاوية. وقد مرّ هذا القول في أثناء الكتاب وهذا الدهاء الذي أعجب الخليفة وباهى به كسرى وقيصر هو الغدر الذي قال عنه أميرالمؤمنين عليه السلام:

---

(١) البداية والنهاية، ج٨ ص٨٣.

(٢) تاريخ اليعقوبي، ج٢ ص٢٣٨.

(٣) ابن كثير، البداية والنهاية، ج٨ ص١٠٥.

والله ما معاوية بادهى مني ولكنه يغدر ويفجر ولو لا كراهة الغدر لكنت من أدهى الناس ولكن لكل غدرة فجرة وكل فجرة كفرة ولكل غادر لواء يعرف به يوم القيامة والله ما استغفل بالمكيدة ولا استغمز بالشديدة[1].

ويقول عن المكر والغدر رسول الله ﷺ كما روى عنه قيس بن سعد فقال: لولا اني سمعت رسول الله ﷺ يقول: المكر والخديعة في النار لكنت من أمكر هذه الأمة[2].

أول غدر دشّن به ملكه هو غدره بالإمام الحسن بعد أن أعطاه شروط الصلح التي ذكر بعضها الدينوري في الأخبار الطوال: وهي أن لا يأخذ من أهل العراق بأحنه وأن يؤمن الأسود والأحمر ويحتمل ما يكون من هفواتهم ويجعل له خراج الأهواز مسلماً كل عام ويحمل إلى أخيه الحسين بن علي في كل عام الفي ألف ويفضل بني هاشم في العطاء والصلات على بني امية.

فكتب عبدالله بن عامر بذلك إلى معاوية فكتب معاوية جميع ذلك بخطه وختمه بخاتمه وبذل عليه العهود المركبة والإيمان المغلظة واشهد على ذلك جميع رؤساء الشام ووجه به إلى عبدالله بن عامر فأوصله إلى الحسن رضي الله عنه فرضي به وكتب إلى قيس بن سعد بالصلح ....[3]

والسيد ابن عقيل رحمه الله نقل شروط الصلح باوسع مما ذكره الدينوري وقال: أخذها من فتح الباري شرح صحيح البخاري ومن تاريخ أبي جعفر الطبري ومن الكامل لإبن الأثير وغيرها لتعلم ما الجأ الإمام الحسن عليه السلام إلى ذلك الصلح وما نكث معاوية من عهوده إلى أن يقول:

وعلم الحسن أنّه لن تغلب احدى الفئتين حتى يذهب أكثر الأُخرى فكتب إلى معاوية يخبره أنّه يصيّر الأمر إليه على شروط يشترطها فرضي معاوية بعد مراجعة في بعضها ثم تصالحا على أن تسلّم إلى معاوية ولاية المسلمين على أن يعمل فيها

---

(١) ابن عقيل، النصائح الكافية لمن يتولّ معاوية، ص٢٠٥.

(٢) البداية والنهاية، ج٨ ص١٠٥.

(٣) الأخبار الطوال، ص٢١٨.

بكتاب وسنّة نبيّه وسيرة الخلفاء الراشدين المهديين[1].

وليس لمعاوية أن يعهد إلى أحد من بعده عهداً بل يكون الأمر من بعده شورى بين المسلمين وعلى أن الناس آمنون حيث كانوا من أرض الله تعالى في شامهم ويمنهم وعراقهم وحجازهم وعلى أن أصحاب علي وشيعته آمنون على أنفسهم وأموالهم وأولادهم ونسائهم حيث كانوا لا يطلب أحد منهم بشيء كان في أيام علي وأن لا يبتغي للحسن ابن علي ولا لأخيه الحسين ولا لأحد من أهل بيت رسول الله غائلة سراً ولا جهراً ولا يخيف أحداً منهم في افق من الآفاق على معاوية بذلك عهد الله وميثاقه وكفى به شهيداً وزاد ابن الأثير أنّه يعطيه ما في بيت المال الكوفة وخراج دارا بجرد من فارس ليرضى بذلك من لا يرضيه إلاّ المال وأن لا يشتم علياً عليه السلام فأجابه إلى ذلك كله إلاّ شتم علي فإنّه التزم أن لا يشتمه والحسن يسمع وإلاّ أنّه قال أمّا عشرة أنفس فلا أومنهم فراجعه الحسن فيهم فكتب إليه يقول:

إني قد آليت أني متى ظفرت بقيس ابن سعد أن اقطع لسانه ويده فراجعه الحسن أني لا ابايعك أبداً وأنت تطلب قيساً أو غيره بتبعة قلّت أو كثرت فبعث إليه معاوية برق أبيض وقال اكتب ما شئت وأنا التزمه ثمّ اعطاه معاوية عهداً بذلك واصطلحا ثمّ قال السيد ابن عقيل رحمه الله:

وتحقق بذلك الصلح قوله عليه وآله الصلاة والسلام مما أخرجه الحاكم: ما اختلفت أُمة بعد نبيها إلاّ ظهر باطلها على حقها (قُلْ مَن كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَـٰنُ مَدًّا) ثم لم يف معاوية بالعمل بكتاب الله وسنة رسوله ونقض الميثاق بأنه لا يعهد إلى أحد من بعده فعهد بالخلافة لابنه السكير الخمير ولم يترك شتم علي حتى والحسن والحسين حاضران وسلط عليهما عامله مروان بالمدينة يجرعهما ما يجرّعهما من الاذى وحتى قتل الحسن بالسم كما مر ذكره ولم يف له بخراج دارا بجرد فإنّ أهل البصرة منعوه عنه وقالوا: فيئنا لا نعطيه أحداً وكان منعهم بأمر معاوية أيضاً قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من اثناء حديث أخرجه الطبراني في الكبير عن ابن

---

(١) أقول: وهل أوصل معاوية إلى سدّة الحكم الاسيرة الخلفاء ولكن الإمام يعني سيرة أبيه ولذا وصفهم بالمهديين.

عباس ﷺ ألا إنّه لا إيمان لمن لا أمانة له ولا دين لمن لا عهد له ومن نكث ذمة الله طلبه ومن نكث ذمتي خاصمته ومن خاصمته فلجث عليه ومن نكث ذمتي لم ينل شفاعتي ولم يرد عليّ الحوض.

خطب معاوية أهل الكوفة: يا أهل الكوفة اتروني قاتلتكم على الصلاة والزكاة والحج وقد علمت أنكم تصلون وتزكون وتحجون ولكني قاتلتكم لأتأمر عليكم وألي رقابكم وقد آتاني الله ذلك وأنتم كارهون ألا إنّ كل مال أو دم اصبت في هذه الفتنة مطلول وكل شرط شرطته فتحت قدمي هاتين ....[1]

يقول ابن قتيبة وكان سليمان ابن صرد قد عاتب الإمام الحسن على رضاه بالصلح واشار إلى غدر معاوية بقوله:

وزعم على رؤوس الناس ما قد سمعت، إني كنت شرطت لقوم شروطاً ووعدتهم عدات ومنيّتهم اماني ارادة اطفاء نار الحرب ومداراة لهذه الفتنة إذ جمع الله لنا كلمتنا والفتنا فإن كل ما هنالك تحت قدمي هاتين ووالله ما عنى بذلك إلاّ نقض ما بينك وبينه ....[2]

غدره بمروان ...

كتب معاوية إلى مروان بن الحكم وكان عامله على المدينة يعلمه باختيار يزيد ومبايعته اياه بولاية العهد ويأمره بمبايعته واخذ البيعة له على من قبله فلما قرأ مروان ذلك خرج مغضباً في أهل بيته وأخواله من بني كنانة حتى أتى دمشق فنزلها ودخل على معاوية يمشي بين السماطين حتى إذا كان منه بقدر ما يسمعه صوته سلّم وتكلم بكلام كثير يوبخ به معاوية منه:

أقم الأمور يا ابن ابي سفيان واعدل عن تأميرك الصبيان واعلم أنّ لك من قومك نظراء وإن لك على مناواتهم وزراء فقال له معاوية: أنت نظير أميرالمؤمنين وعدته في كل شديدة وعضده والثاني بعد ولي عهده وجعله وليّ عهد يزيد وردّ

---

(١) انظر، النصائح الكافية، ص١٩٣ وص١٩٤.

(٢) الإمامة والسياسة، ج١ ص١٤١ ويقول الطبري في حوادث السنة احدى وأربعين: فلم ينفذ للحسن عليه السلام من الشروط شيئاً، الطبري، ج٥ ص١٦٣.

إلى المدينة ثم أنّه عزله عنها وولاها الوليد بن عتبة بن ابي سفيان ولم يف لمروان ما جعله له من ولاية عهد يزيد بن معاوية[1].

غدره بعاشق ..

ربما وجد معاوية من يعتذر عنه بأن السياسة من مقوّماتها خلو علاقاتها من وجود القيم والمثل العليا فلا غرابة في غدر السياسي إذا وجد من الاصلح بتوجيه الأُمور وتقويم الرعية أن يغدر ولكن ما معنى الغدر على المستوى الأخلاقي المجرّد فهذا معاوية لتأصل صفة الغدر فيه يغدر حتى على المستوى الأخلاقي.

ذكر ابن كثير قصة غريبة وقال: ذكرها ابن الجوزي في كتابه المنتظم بسنده وهو أنّ شاباً من بني عذرة جرت له قصة مع ابن ام الحكم وملخصها:

أنّ معاوية بينما هو يوماً على السماط إذا شاب من بني عذرة قد تمثل بين يديه فانشده شعراً مضمونه التشوّق إلى زوجته سعاد فاستدناه معاوية واستحكاه عن أمره فقال:

يا أميرالمؤمنين إني كنت مزوجاً بابنة عم لي وكان لي ابل وغنم وانفقت ذلك عليها فلما قل ما بيدي رغب عني ابوها وشكاني الى عاملك بالكوفة ابن ام الحكم وبلغه جمالها فحبسني في الحديد وحملني على أن اطلقها فلما انقضت عدتها اعطاها عاملك عشرة آلاف درهم فزوجه اباها وقد اتيتك يا اميرالمؤمنين وأنت غياث المحزون الملهوف المكروب وسند المسلوب فهل من فرج! ثم بكى وانشأ يقول:

في القلب مني نار ... والنار فيها شرار
والجسم مني نحيل ... واللون فيه اصفرار
والعين تبكي بشجو ... فدمعها مدرار
والحب ذا عبر فيه ... حار الطبيب يحار
حملت فيه عظيماً ... فما عليه اصطبار
فليس ليلي بليل ... ولا نهاري نهار

---

(١) مروج الذهب، ج٣ ص٢٨.

قال: فرق له معاوية وكتب إلى ابن ام الحكم يؤنبه على ذلك ويعيبه عليه ويأمره بطلاقها قولاً واحداً فلما جاءه كتاب معاوية تنفّس الصعداء وقال: وددت أنّ أميرالمؤمنين خلّى بيني وبينها سنة ثم عرضني على السيف وجعل يؤامر نفسه على طلاقها فلا يقدر على ذلك ولا تجيبه نفسه وجعل البريد الذي ورد عليه بالكتاب يستحثه فطلقها وأخرجها عنه وسيّرها مع الوفد إلى معاوية فلما وقفت بين يديه رأى منظراً جميلاً فلما استنطقها فإذا افصح الناس واحلاهم كلاماً واكملهم جمالاً ودلالا فقال لابن عمها يا اعرابي هل من سلو عنها بافضل الرغبة؟ قال: نعم إذا فرّقت بين رأسي وجسدي ثم أنشأ يقول:

لا تجعلـــني والأمثـــال تضـــرب بي ... كالمســـتغيث مـــن الرمضـــاء بالنـــار
اردد ســـعاد علـــى حـــيران مكتنـــب ... يمســـي ويصـــبح في هـــم وتـــذكار
قـــد شـــفّه قلـــق مـــا مثلـــه قلـــق ... واســـعر القلـــب منـــه ايّ اســـعار
والله والله لا أنســـــــى محبتهـــــا ... حـــتى اغيـــب في رمســـي واحجـــار
كيـــف الســـلو وقـــد هـــام الفـــؤاد بهـــا ... واصـــبح القلـــب منهـــا غـــير صـــبار

فقال معاوية: فأنا نخيّرها بيني وبينك وبين ابن ام الحكم فانشأت تقول:

هـــــذا وإن اصـــــبح في اطـــــار ... وكـــان في نقـــص مـــن اليســـار
احـــب عنـــدي مـــن ابي وجـــاري ... وصـــاحب الـــدرهم والـــدينار

اخشى إذا غدرت حر النار

قال: فضحك معاوية وأمر له بعشرة آلاف درهم ومركب ووطاء ولما انقضت عدتها زوجه لها وسلمها إليه..[1]

أمّا معاوية فلا يخشى كهذه البدوية إذا غدر حرّ النار لأنه طبع على الغدر. ولئن وجد من يعتذر عنه في غدراته السياسية فما عذره هنا ..

---

(١) ابن كثير، البداية والنهاية، ج٨ ص٨٦.

السمة الثالثة اغتيال الأشراف ومن يخشاهم على ملكه من الناس!!

كان وجود الإمام الحسن على قيد الحياة ثقيلاً على معاوية لا لأنه يخشى أحداً من أجل الإمام الحسن أو لأنه اقتطع على نفسه شروطاً ويطلب الخلاص منها بوفاته فالرجل ليست له ذمة تحمله على الوفاء ولا هو ذو خلق ليستفضع الغدر والنكث.

ولكن شاءت ارادة الله أن يسعد الحسن بالشهادة على يد شر خلقه ويشقي ابن آكلة الأكباد بأكل كبد الحسن عليه السلام كما شقيت أمه بأكل كبد الحمزة عليه السلام.

فأوعز إلى ابنة الأشعث جعيدة زوجة الإمام الحسن أن تدسّ إليه السم واغراها بالوعود الجذّابة ولم يف لها بشيء إلاّ المال ولو لم يرسله إليها قبل أن ترتكب جريمتها لما وفى به أيضاً ...

وغدر معاوية لعنه الله بالإمام الحسن عليه السلام من الشهرة بحيث لم ينكره أكثر القوم ولاءاً له فهذا الذهبي ينقل في سير أعلام النبلاء الرواية التالية فيقول:

عن عمير بن اسحاق، قال: دخلنا على الحسن بن علي نعوده فقال لصاحبي: يا فلان سلني ثم قام من عندنا فدخل كنيفاً ثمّ خرج فقال: إني والله قد لفظت طائفة من كبدي قلبتها بعود وأني قد سقيت السم مراراً فلم اسق مثل هذا فلما كان الغد آتيته وهو يسوق فجاء الحسين فقال: اي أخي! انبئني من سقاك؟ قال: لم لتقتله؟ قال: نعم قال: ما أنا محدثك شيئاً إن يكن صاحبي الذي أظن فالله اشد نقمة وإلاّ فوالله لا بقتل بي بريء.

ونقل رواية ثانية عن الواقدي عن عبدالله بن حسن قال: كان الحسن كثير النكاح وقل من حظبت عنده وقل من تزوجها إلاّ احبته وصبت به فيقال: إنه كان سقي ثم افلت ثم سقي فأفلت ثم كانت الآخرة وحضرته الوفاة فقال الطبيب هذا رجل قد قطع السم امعائه وقد سمعت بعض من يقول: كان معاوية قد تلطف لبعض خدمه أن يسقيه سماً.

وروى عن أبي عوانة عن منير عن ام موسى: أنّ جعدة بنت الاشعث بن قيس

سقت الحسن السم فاشتكى فكان توضع تحته طشت وترفع أخرى نحواً من أربعين يوماً[1].

وابن كثير نقل ما رواه الذهبي ولكنه اعقبها بقوله وروى بعضهم أن يزيد بن معاوية بعث إلى جعدة بنت الاشعث أن سمّي الحسن وأنا اتزوجك بعده ففعلت فلما مات الحسن بعثت إليه فقال: أنا والله لم نرضك للحسن افنرضاك لانفسنا؟!

يقول ابن كثير: وعندي أن هذا ليس بصحيح وعدم صحته عن أبيه معاوية بطريق الأولى والأحرى[2].

ولم يثبت عدم صحته بدليل منفصل عن الذات لنعرف صلته بالحق من أين؟!

والدليل الوحيد هو ياء المتكلم حيث يقول: (عندي) وعنديته هي الأموية التي رسبت في اعماقه وأعماق سلفه من قبل وخلفه من بعد..

وحسن ظن هؤلاء بمعاوية ويزيد حاك عن نزارة الدين في نفوسهم وأنهم بمنزلة اليهود الذين يظهرون الإيمان بموسى ولكنهم يخالفونه في الصغير والكبير ويعفون باعمالهم وأقوالهم على الدين والشريعة.

ولو كان الذهبي أو ابن كثير أو ابن حجر الهيثمي في زمن معاوية لما سبقهم بسر بن ارطاة ولا زياد ولا الضحاك ابن قيس أو معاوية بن خديج على دنيا معاوية ولفتكوا بالامة اشد من فتك هؤلاء بها وسم معاوية الحسن ذكره جل المؤرخين. قال البلاذري: وقد قيل إنّ معاوية دس إلى جعدة بنت الاشعث بن قيس امرأة الحسن وارغبها حتى سمته وكانت شائقة له..

وقال الهيثم بن عدي: دس معاوية إلى ابنة سهيل بن عمرو امرأة الحسن مأة ألف دينار على أن تسقيه شربة بعث بها إليها ففعلت..[3]

---

(١) انظر ترجمة الإمام الحسن في سير أعلام النبلاء، ج٣ ص٢٧٤ وص٢٧٥.

(٢) البداية والنهاية، ج٨ ص٤٤ وقال ابن الأثير: سمته زوجته جعدة وسكت عن الباقي، الكامل ج٣ ص٢٢٨.

(٣) البلاذري انساب الاشراف، ج٣ ص٢٩٥.

إغتيال الأشتر رضي الله عنه بالسم

كان مالك بن الحارث النخعي الأشتر كما وصفه اميرالمؤمنين في كتابه إلى أهل مصر حين استعمله عليهم:

وإني قد بعثت اليكم عبداً من عباد الله لا ينام أيام الخوف ولا ينكل عن الأعداء حذر الدوائر من أشد عبيدالله بأساً وأكرمهم حسباً أضر على الفجار من حريق النار وأبعد الناس من دنس أو عار وهو مالك بن الحارث الأشتر لا نابي الضريبة ولا كليل الحد حليم في الحذر رزين في الحرب ذو رأي أصيل وصبر جميل فاسمعوا له وأطيعوا أمره ...

وقال ابن ابي الحديد في وصفه:

كان شديد البأس جواداً رئيساً حليماً فصيحاً شاعراً وكان يجمع بين اللين والعنف فيسطو في موضع السطوه ويرفق في موضع الرفق وقال أيضاً:

كان حارساً شجاعاً رئيساً من اكابر الشيعة وعظمائها شديد التحقيق بولاء أميرالمؤمنين عليه السلام ونصره ثم ذكر بعض ما يتعلق به ثم قال: وقد روى المحدثون حديثاً يدل على فضيلة عظيمة للأشتر وهي شهادة فاطمة من النبي صلى الله عليه وآله وسلم بأنه مؤتمن وهو قوله لنفر من أصحابه فيهم أبوذر ليموتن أحدكم بفلاة من الارض تشهده عصابة من المؤمنين وكان الذي أشار إليه النبي أبوذر رضي الله عنه وكان ممن شهد موته حجر بن عدي والأشتر[1] وهو القائل يتهدد معاوية:

بقيت وفري وانحرفت عن العلى ... ولقيت اضيافي بوجه عبوس

ان لم اشنّ على ابن هند غارة ... لم تخل يوماً من نهاب نفوس

خيلاً كامثال السعالى شزباً ... تغدو ببيض في الكريهة شوس

حمي الحديد عليهم فكأنه ... ومضان برق أو شعاع شموس

وقال ابن ابي الحديد: لله أم قامت عن الأشتر لو أن انساناً يقسم أن الله تعالى ما خلق في العرب ولا في العجم اشجع منه إلاّ استاذه علي بن ابي طالب عليه السلام لما

---

(١) الشيخ عباس القمي، الكنى والألقاب، ج٢ص٣٤، ط مطبعة العرفان صيدا ١٣٥٨.

خشيت عليه الاثم ولله در القائل وقد سئل عن الاشتر:

ما أقول في رجل هزمت حياته أهل الشام وهزم موته أهل العراق وبحق ما قال أميرالمؤمنين فيه كان الاشتر لي كما كنت لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

خبر شهادته رحمه الله

إنّ الأشتر مرّ بأبله متوجهاً إلى مصر فصحبه نافع مولى عثمان فخدمه والطفه حتى اعجبه واطمأن إليه فلما نزل القلزم حاضر له شربة من عسل بسم فسقاها له فمات[1].

ونقل الطبري خبر شهادته بسياق آخر لما تهيأ الاشتر للخروج إلى مصر وأتت معاوية عيونه واخبره بولاية الاشتر فعظم ذلك عليه وقد كان طمع في مصر فعلم أنّ الأشتر إن قدمها كان أشد عليه من محمد بن أبي بكر فبعث معاوية إلى الجايستار - رجل من أهل الخراج - فقال له: إن الاشتر قد ولى مصر فإن أنت كفيتنيه لم أخذ منك خراجاً ما بقيت فاحتل له بما قدرت عليه فخرج الجايستار حتى أتى القلزم وأقام به وخرج الأشتر من العراق إلى مصر فلما انتهى إلى القلزم استقبله الجايستار فقال هذا منزل وهذا طعام وعلف وأنا رجل من أهل الخراج فنزل به الأشتر فأتاه الدهقان بعلف وطعام حتى إذا طعم أتاه بشربة من عسل قد جعل فيها سماً فسقاه اياه فلما شربها مات.

وأقبل معاوية يقول لأهل الشام إنّ علياً وجه الأشتر إلى مصر فادعوا الله أن يكفيكموه قال: فكانوا كل يوم يدعون الله على الأشتر وأقبل الذي سقاه إلى معاوية فأخبره بمهلك الأشتر فقام في الناس خطيباً فحمد الله واثنى عليه وقال: أما بعد فإنّه كانت لعلي بن ابي طالب يدان يمينان قطعت أحداهما يوم صفين - يعني عمار بن ياسر - وقطعت الأخرى اليوم[2]. إنّ معاوية طالب ملك وطالب دنيا كل همه أن يبلغ غايته ولو بمحق دينه بل جعل معاوية دينه في خدمة دنياه وكيف يلام مثل هذا؟!

---

(١) القمي، الكنى والألقاب، ج٢ ص٢٦.

(٢) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج٥ ص٩٥ وص٩٦.

لكن اللوم على شيعته الذي يعتنقون الإسلام فيما يزعمون بما تجنوا على هذا الرجل العظيم والصحابي الجليل فنفوا عنه الصحبة ووافقوا عليه الأموية وعبّروا فيما كتبوا عن قول الأموية فيه فضل سعيهم وخاب فألهم وطاش سهمهم إن شاء الله تعالى.

اغتيال عبدالرحمن بن خالد بن الوليد

وعبدالرحمن هذا أول من بايع معاوية بعد شهادة الإمام اميرالمؤمنين عليه السلام يقول ابن قتيبة:

فلما قتل علي تداعى أهل الشام إلى بيعة معاوية وقال له: عبد الرحمن بن خالد بن الوليد نحن المؤمنون وأنت أميرنا فبايعوه وهو بايلياء لخمس ليال خلون من شوال سنة أربعين[١].

وكان في صفين يحمل راية أهل الشام العظمى وكان يحمل بها فلا يلقاه شيء إلاّ هدّه وكان من فرسان العرب[٢].

يقول ابن كثير: وكان من الشجعان المعروفين والابطال المشهورين كأبيه وكان قد عظم ببلاد الشام لذلك حتّى خاف منه معاوية ومات وهو مسموم رحمه الله وأكرم مثواه ....

وقد ذكر ابن جرير وغيره أن رجلاً يقال له: ابن أثال وكان رئيس الذمة بارض حمص سقاه شربة فيها سم فمات وزعم بعضهم أن ذلك عن أمر معاوية له في ذلك ولا يصح.

وقد ذكروا أنّ خالد بن عبدالرحمن بن خالد قدم المدينة فقال له عروة بن الزبير ما فعل ابن أثال؟ فسكت ثمّ رجع إلى حمص فثار على ابن أثال فقتله فقال: قد كفيتك اياه ولكن ما فعل ابن جرموز؟ فسكت عروة[٣]! وابن كثير من ارخص

---

(١) الإمامة والسياسة، ج١ ص١٣٩.

(٢) الدينوري، الأخبار الطوّال، ص١٨٥٠، الإمامة والسياسة، ج١ ص٩٣.

(٣) ابن كثير، البداية والنهاية، ج٨ ص٣٢، وراجع ابن جرير الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج٥ ص٢٢٧.

المؤرخين ذمة واسكتهم عن حق وأقولهم بباطل غراماً بابن آكلة الأكباد ...

والرجل يرسل القول على عواهنه راض بتمريغ عقله بوحل التقول بالباطل يقول عن سم معاوية لابن خالد لا يصح ولا يكلف نفسه أن يأتي بعذر ولو من اغدار أبي العبر القائل: أما قبل: فإنّا وجدنا في حكمة أهل الشام أنّه لا يأكل انسان الفاكهة إلا شرىً أو صدقة أو هدية أو سرقه ومن كان في البيت لم ير الناس ولم يروه إلاّ أن يدخلوا إليه أو يخرج اليهم وما أقل ما تجد في مائة يهودي واحداً مسلماً.

ويروى عن أبي الزنبور بأنّ أول من يدخل الجنة من البهائم الطنبور قال: وكيف ذاك يرحمك الله؟ قال لأنه في دار الدنيا يعصر حلقه ويعرك اذناه ويضرب بطنه فيقال له يوم القيامة: خذو برجله ألقوه في الجنة فإنّه متعوب.

وقيل له: لم صارت دجلة أكبر من الفرات؟ قال: لأنّ القلم يكون في الدواة[1].

وأقول: هل يريد ابن كثير والذهبي واضرابهما اضحاكنا بما يكتبون عن معاوية وحزبه أو يخادعون أنفسهم ويلبسون عليها على عمد لست أدري.

ويقول اليعقوبي عن قتل عبدالرحمن: واستعمل معاوية ابن اثال النصراني على خراج حمص ولم يستعمل أحد من الخلفاء قبله فاعترضه خالد بن عبدالرحمن بن خالد بالسيف فقتله ... ... وكان ابن اثال قتل عبدالرحمن بن خالد بن الوليد دس إليه شربة سم[2].

وفي قتل عبد الرحمن بن خالد والأخذ بثأره يقول ابن حمدون:

مرّ خالد بن المهاجر بن خالد بن الوليد بعروة بن الزبير وكان بينهما تباعد فقال له يا خالد اتدع ابن اثال وقد تفصّى اوصال عمك بالشام وأنت بمكة مسبل أزارك تجره وتخطر فيه متخابلاً وكان عبدالرحمن بن خالد عند معاوية بالشام فخافه معاوية على الأمر فدس إليه ابن اثال الطبيب فسقاه شربة فمات منها فحمي خالد بن المهاجر ودعى مولى له يدعى نافعاً فاعلمه الخبر وقال له: لابد من قتل ابن اثال

---

(١) الأبي، نثر الدر، ج٧ ص٢٩٤.

(٢) اليعقوبي، ص٢٢٣ ح٢.

وكان نافع جلداً شهماً فخرجا حتى قدما دمشق وكان ابن اثال يمسي عند معاوية فجلس له في مسجد دمشق إلى اسطوانة وجلس غلامه إلى أخرى حتى خرج فقال خالد لنافع: إياك أن تعرض له أنت ولكن احفظ ظهري واكفني من ورائي فإن رابك شيء من خلفي يريدني فشأنك فلما حاذاه وثب إليه خالد فقتله وثار إليه من كان معه فصاح بهم نافع فانفرجوا ومضى خالد ونافع وتبعهما من كان معه فلما غشاهما الليل حملا عليهم فتفرّقوا حتى دخل خالد ونافع زقاقاً ضيقاً ففاتا القوم فبلغ معاوية الخبر فقال: هذا خالد بن المهاجر اقلبوا الزقاق ..... عليه فأتي به فقال: لا جزاك الله من زائر خيراً قتلت طبيبي قال: فتلت المأمور وبقي الآمر فقال: أمَ والله لو كان تشهد مرّة واحدة لقتلتك به وحبسه وضرب نافعاً مئة سوط وألزم بني مخزوم اثني عشر ألف درهم. أدخل بيت المال منها ستة آلاف وأخذ هو ستة آلاف فلم يزل ذلك يجري دية المعاهد حتى جاء عمر بن عبدالعزيز فابطل الذي يأخذه السلطان لنفسه واثبت الذي يدخل بيت المال [1]

اغتيال معاوية ..

ولقد حاول قوم القضاء على معاوية بنفس المبدء الذي يقضى به على خصومه ولكن الله أراد استدراجه فلم يُقض عليه بعد أن تمكن مغتالوه من ضربه عن الزهري عن أنس قال: تعاهد ثلاثة من أهل العراق على قتل معاوية وعمرو بن العاص وحبيب بن مسلمه واقبلوا بعد بيعة معاوية بالخلافة حتى قدموا ايلياء فصلّوا من السحر في المسجد فلما خرج معاوية لصلاة الفجر كبّر فلما سجد انبطح أحدهم على ظهر الحرسي الساجد بينه وبين معاوية حتى طعن معاوية في مأكمته فانصرف معاوية وقال: أتموا صلاتكم وامسك الرجل فقال الطبيب: إن لم يكن الخنجر مسموماً فلا بأس عليك فاعد الطبيب عقاقيره ثم لحس الخنجر فلم يجده مسموماً فكبّر وكبّر من عنده وقيل ليس بأميرالمؤمنين بأس قلت - الذهبي -: هذه المرة غير المرة التي جرح فيها وقتما قتل علي ﷺ فإن تلك فلق اليته وسقي ادوية خلصته من

---

(١) ابن حمدون، التذكرة الحمدونية، ج٢ ص٤٥٤.

السم لكن قطع نسله[1].

اغتيال سعد بن ابي وقّاص

كان سعد بن ابي وقاص مغموزاً في نسبه ليس له في الإسلام سابقة تذكر اللهم إلاّ ما كان يتحدث به عن النبي ﷺ بأنّه جمع له أبويه في احدى معارك الإسلام وقال له: ارم فداك أبي وامي وطالما تباهى بذلك امام الناس.

وجعله عمر أحد الستة الذين سماهم عمر للخلافة وهم رجال الشورى ومن يومئذ تنامت اطماعه في نيل الخلافة ولم يكن لذلك أهلاً وهو يعلم من نفسه ذلك فلم يشارك في الأحداث التي صنعها الطامعون ومن رآه ظن ذلك فقهاً منه وسمّى الأحداث التي صاحبت خلافة الإمام عليه السلام فتنة واعتزلها بل لم يبايع الإمام وولاّه ظهره فتركه الإمام عليه السلام لعلمه بتفاهة شأنه ونزارة قدره وقلة خطره وبقي معتزلاً الدنيا في تلك الأيام حتى انتهت حرب صفّين واجتمعوا على التحكيم أراد ابنه عمر بن سعد لعنه الله أن يحركه لأطماعه الأشعبية وحمله على الحضور في دومة الجندن آملاً أن يكون لأبيه وجه مقبول عند القوم. وخسرت صفقة الداعي والمدعو والحمدلله هناك أيضاً.

وفي ملك معاويه جرت مشادة عنيفة بينه وبين معاوية ذكرها المسعودي في مروج الذهب وهي كما يلي: لما حج معاوية طاف في البيت ومعه سعد فلما فرغ انصرف معاوية إلى دار الندوة فاجلسه معه على سريره ووقع معاوية في علي وشرع في سبه فزحف سعد ثم قال: أجلستني معك على سريرك، ثمّ شرعت في سب علي والله لأن يكون فيّ خصلة واحدة من خصال كانت لعلي أحب إلي من أن يكون لي ما طلعت عليه الشمس، والله لأن أكون صهراً لرسول الله ﷺ وإن لي من الولد ما لعلي أحب إلي من أن يكون لي ما طلعت عليه الشمس والله، لأن يكون رسول الله ﷺ قال لي ما قال: يوم خيبر: (لأعطين الراية غداً رجلاً يحبه الله ورسوله ويحب الله ورسوله ليس بفرار، يفتح الله على يديه) أحب إليّ من أن يكون لي

---

(١) الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج٣ ص١٤٣.

ماطلعت عليه الشمس والله لأن يكون رسول الله ﷺ قال لي ما قال له في غزوة تبوك: ألا ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى إلاّ أنّه لا نبي بعدي أحب إليّ من أن يكون لي ما طلعت عليه الشمس وأيم الله، لا دخلت لك داراً ما بقيت ثم نهض ...

قال المسعودي: ووجدت في وجه آخر من الروايات وذلك في كتاب علي بن محمد بن سليمان النوفلي في الأخبار عن ابن عائشة وغيره، أن سعداً لما قال هذه المقالة لمعاوية ونهض ليقوم ضرط له معاوية وقال له: اقعد حتى تسمع جواب ما قلت ما كنت عندي قط الأم منك الآن فهلاّ نصرته؟ ولم قعدت عن بيعته؟ فأني لو سمعت من النبي ﷺ مثل الذي سمعت فيه، لكنت خادماً لعلي ما عشت، فقال سعد: والله اني لأحق بموضعك منك فقال معاوية: يأبى عليك ذلك بنو عذرة وكان سعد فيما يقال لرجل من بني عذره[1].

وادعاء سعد الأولوية بالحكم حمل معاوية على قتله قال ابوالفرج:

مات الحسن عليه السلام بالسم شهيداً مسموماً دس معاوية اليه وإلى سعد بن ابي وقاص حين أراد أن يعهد إلى يزيد ابنه بالأمر سماً فماتا في أيام متقاربة[2].

وهكذا تجد سلاح معاوية الصامت مسلطاً على الشخصيات البارزة في الأمة ولم يسلم من كيده أحد وما كان ليحول بين معاوية وبين لعبة الاغتيال شيء لا في الدين ولا في الدنيا وعلى هذا المنوال درج حتى هلك فكان الناس في مصيبة من فتك هذا السلاح الموجّه بالأطواق والأكياس وقناطير الذهب المقنطرة عليهم.

السمة الرابعة لعن الأبرار والبرائة منهم وحمل الناس بالقهر على ذلك:

ولما استتب له الأمر واطاعته الدنيا وخضعت له البلاد واطاعه العباد وجه اهتمامه إلى الرصيد المعنوي الهائل لعلي وأهل بيته في نفوس الناس وكان على علم يقين بأنّ الفضاء على الإسلام بمحوه من عرصة الوجود لا يتم لأحد ولكن بالإمكان

---

(١) المسعودي، مروج الذهب، ج٣ ص١٤.

(٢) النصائح الكافية، ص٨٦.

مسخه وتشويه صورته وتبديل أهم معالمه.

وذلك بالفضاء على قواعده الأولى وهم أهل البيت وسيد أهل البيت عليّ عليه السلام ثم خلط الصحيح منه بالموضوع والصادق بالكاذب والجوهر بالبهرج وهذه خطة فاعلة اعانه على وضعها ابليس وساعده ابالسة الجن والإنس عليها ثمّ سار على هذا النهج الاعوج حتى أدال الله منه وقضى عليه وعلى خططه وهو وان ورثه من جاء بعده واتبع خطاه وسار على طريقه إلاّ أن ذلك كله لا يتعدى الفقاعة من فقاعات الحياة فما هي إلاّ أيام قلائل حتى حل به ما أراده لأهل البيت فصار لعيناً مبغضاً إلى الناس تتقرب الأمة بلعنه وبغضه إلى الله إلاّ من شذ ممن لا دين له ولا إيمان بالإسلام إنما إيمانه برجال بعينهم وجد تعديلهم لا يتم إلاّ بتعديل صنائعهم فكان تعديله لمعاوية لا لوجود العدل والصلاح في ذاته ولكنّ طرحه مؤد إلى طرح من صنعه وتكفيره يصيب من أيده بشيء من الشرر.

فلذلك عمد إلى الدس والتأويل والوضع والتبديل والتغيير لا من أجل معاوية وحزبه ولكن من أجل من أيدهم وأوصلهم إلى ما صاروا إليه.

وبناءاً على هذا فإنّ آية الشيطان انعكست عليه واصبح لعنة الأجيال بعد أن أراد أن تكون هذه اللعنة على غيره وتحل بمن عداه عداوة لله ورسوله وانظر حديث المغيرة التالي عنه تعرف أنّ معاوية كان يخطط لمحو الدين.

قال المطرف بن المغيرة بن شعبة دخلت مع أبي على معاوية فكان أبي يأتيه فيتحدث معه ثم ينصرف إلي فيذكر معاوية وعقله ويعجب بما يرى منه إذ جاء ذات ليله فامسك عن العشاء ورأيته مغنماً فانتظرته ساعة فظننت أنه لأمر حدث فينا فقلت: مالي أراك مغتماً منذو الليلة؟ فقال: يا بني جئت من عند أكفر الناس واخبثهم قلت: وما ذاك؟ قال: قلت له وقد خلوت به إنك قد بلغت ستاً يا أميرالمؤمنين فلو اظهرت عدلاً وبسطت خيراً فإنّك قد كبرت، ولو نظرت إلى اخوتك من بني هاشم فوصلت ارحامهم فوالله ما عندهم اليوم شيء تخافه وإن ذلك مما يبقى لك ذكره وثوابه فقال: هيهات هيهات! أي ذكر أرجو بقائه! ملك أخو تيم فعدل وفعل ما فعل فما عدى أن هلك حتى هلك ذكره إلاّ أن يقول قائل أبوبكر ثم ملك أخو عدي فاجتهد وشمّر عشر سنين فما عدا أن هلك حتى هلك ذكره إلا أن

يقول قائل: عمر وإنّ ابن ابي كبشة ليصاح به كل يوم خمس مرّات اشهد أنّ محمّداً رسول الله فأي عمل يبقى وأي ذكر يدوم بعد هذا لا أبالك! لا والله إلاّ دفناً دفناً[1].

هذا ويروي الرواة الحمقى عنه أنه كان يقوم لرجل من أهل الشام لشبهه من رسول الله وقد مر ذلك آنفاً. وبدأ الخبيث حكمه بالكذب على رسول الله، ولعن أهل بيته نقل ابن أبي الحديد عن الواقدي:

أنّ معاوية لما عاد من العراق إلى الشام بعد بيعة الحسن عليه السلام واجتماع الناس إليه خطب فقال: أيها الناس، إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال لي: إنّك ستلي الخلافة من بعدي فاختر الأرض المقدسة فإنّ فيها الابدال وقد اخترتكم فالعنوا ابا تراب فلعنوه فلما كان من الغد كتب كتاباً ثم جمعهم فقرأه عليهم وفيه هذا كتاب كتبه أميرالمؤمنين معاوية صاحب وحي الله الذي بعث محمداً نبياً وكان امياً لا يقرأ ولا يكتب فاصطفى له من أهله وزيراً كان كاتباً اميناً فكان الوحي ينزل على محمد وأنا اكتبه وهو لا يعلم ما اكتب فلم يكن بيني وبين الله أحد من خلقه فقال له الحاضرون كلهم صدقت يا أميرالمؤمنين .....[2] وكان اميرالمؤمنين عليه السلام قد اخبرهم عن ذلك في احدى خطبه فقال:

أما إنّه سيظهر عليكم بعدي رجل رحب البلغوم مندحق البطن يأكل ما يجد ويطلب ما لا يجد فاقتلوه ولن تقتلوه ألا وإنّه سيأمركم بسبّي والبراءة مني فأما السب فسبّوني فإنّه لي زكاة ولكم نجاة وأما البرائة فلا تتبرئوا مني فإني ولدت على الفطرة وسبقت إلى الإيمان والهجرة[3].

والمعني بهذا الكلام معاوية لعنه الله بقرينة قوله عليه السلام مندحق البطن لقول الرواة: كان بطن معاوية كبيراً[4] وقد مرّ عليك كثرة أكله بدعاء رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم المستلزم لاندحاق بطنه يقول الشارح ان ابي الحديد:

إنّ معاوية أمر الناس بالعراق والشام وغيرهما بسب علي عليه السلام والبرائة منه.

---

(١) شرح ابن ابي الحديد، ج٥ ص١٢٩ وص١٣٠.

(٢) شرح ابن ابي الحديد، ج٤ ص٧٢.

(٣) انظر خطبة ٥٧ من شرح بن ابي الحديد، ج٤ ص٥٤.

(٤) شيخنا مغنيه في ظلال نهج البلاغة، ج١ ص٣٠٧.

وخطب بذلك على منابر الإسلام وصار ذلك سنة في أيام بني امية إلى أن قام عمر بن عبدالعزيز رضي الله عنه فأزاله وذكر شيخنا ابو عثمان الجاحظ أنّ معاوية كان يقول في آخر خطبة الجمعة: اللهم إنّ أبا تراب الحد في دينك وصد عن سبيلك فالعنه لعناًوبيلاً وعذبه عذاباً أليما وكتب بذلك إلى الآفاق فكانت هذه الكلمات يشاربها على المنابر إلى خلافة عمر بن عبدالعزيز[1]).

وروى ابوالحسن المدائني في كتاب الأحداث قال: كتب معاوية نسخة واحدة إلى عماله بعد عام الجماعة أن برئت الذمة ممن روى شيئاً من فضل أبي تراب وأهل بيته فقامت الخطباء في كل كوره وعلى كل منبر يلعنون علياً ويبرئون منه ويقعون فيه وفي أهل بيته .....[2]

وأمر عماله وولاة الأقاليم بأخذ الناس بالشدة بخاصة اولئك الذين لهم هوىً في أميرالمؤمنين وأمر المغيرة بن شعبة وهو يومئذ امير الكوفة من قبل معاوية حجر بن عدي أن يقوم في الناس فيلعن علياً عليه السلام فأبى ذلك فتوعده فقام فقال: أيها الناس، إنّ أميركم أمرني أن العن علياً فالعنوه فقال أهل الكوفة: لعنه الله! وأعاد الضمير إلى المغيرة بالنية والقصد.

وأراد زياد أن يعرض أهل الكوفة أجمعين على البراءة من علي عليه السلام ولعنه وأن يقتل كل من امتنع من ذلك ويخرب منزله فضربه الله ذلك اليوم بالطاعون فمات لا رحمه الله بعد ثلاثة أيام وذلك في خلافة معاوية لعنه الله[3].

وكان هدف معاوية من هذا اللعن تربية اجيال تأتي بعده تتبرء من علي وأهل بيته ومن ثم يسئ إلى ابن عمه وإلى دينه.

إنّ قوماً من بني امية قالوا لمعاوية يا أميرالمؤمنين إنك قد بلغت ما أملت فلو كففت عن هذا الرجل فقال: لا والله حتى يربو عليه الصغير ويهرم عليه الكبير ولا يذكر له ذاكر فضلاً[4].

---

(١) شرح ابن ابي الحديد، ج٤ ص٥٦ وص٥٧.

(٢) النصائح الكافية، ص٩٧.

(٣) شرح النهج الحديدي، ج٤ ص٥٨.

(٤) النصائح الكافية، ص٩٧.

والسؤال الملح هنا هل بلغ معاوية ما أمل في علي وأهل بيته أو أنّ الأمر انعكس عليه فحلت اللعنة به وانقلبت سياسته عليه فصارو من اعانه أكثر لعنا من ابليس لعنه الله؟!!

شـاءوا لعليـاء كـم حصـداً فمـا قـدروا إذالأللـــه تـــولّى زرع مـــا حصـــدوا

(وَاللَّهُ مُتِمّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ)

وتم لمعاوية ما أراد فترة من الزمن حتى اتخذ قوم من اولياءه ذلك سنة ولما تركها عمر بن عبدالعزيز ﷺ نودي من جوانب المسجد السنة السنة تركت السنة وحتى أجمع أهل حمص في زمن ما على أن الجمعة لا تصح بغير لعن أبي تراب عليه السلام[1] ولمعاوية نجاح آخر في هذا الزمان وهو وجود قوم بين المسلمين يرون الصفات التي ذكرها لنفسه في كتابه إلى أهل الشام صحيحة ويوالونه على أساس منها ومنهم وهابية اليوم كما أن نجاحه في إطلاق هذا الإسم (السنة)على شطر الأمة الأكبر والسنة التي قصدها معاوية هي (لعن علي وأهل بيته).

يقول سالم بن حمد العماني: فمن ثمّ ترى أصحابنا لا يتسمّون بذلك وإنما يتسمون بأهل الاستقامة في الديانة وعكس هذا الإسم تسمية أهل السنة فإنّه كان في الزمان الأول قبيحاً يكون المراد بالسنة التي سنها معاوية في سب علي وشتمه على المنابر فصار ذلك سنة ينشأ عليها الصغير ويموت عليها حتى غيرها عمر بن عبدالعزيز في خلافته فأهل ذلك الحال هم أهل السنة في ذلك الزمان ثم اندرس هذا السبب واختفى وظنوا أنّ السنة سنة النبي صلى الله عليه وآله وسلم وتمدّحوا بذلك وجمعوا بين المتضادين في الولاية وهم يعلمون أنّ الحق مع فريق منهم وخالفوا سنتهم الأولى حين صارت الدولة لبني العباس من بني هاشم قلت: روى هذا كله المسعودي والحاكم في تسميتهم بالسنية[2].

---

(١) النصائح الكافية، ص١١٦.

(٢) العقود الفضية في اصول الاباضية، تأليف ابي عبدالله سالم بن حمد بن سليمان بن حميد الحارثي العماني الأباضي المضيري، ص٧٠ وص٧١.

بمن اقتدى معاوية..

إن كان ابن ابي الحديد حمّل معاوية وزر من جاء بعده لأن سياسته افضت بالأمة إلى ذلك.

فإنّ وزر معاوية يحمله أيضاً من مهد له واعانه حتى بلغ الحكم وناله وقد مر بك هذا الفصل باسهاب فيما تقدم من الكتاب يقول ابن ابي الحديد بعد طعنه في عقيدته بقوله لأبي الدرداء وهو يكلمه في الشرب بآنية الذهب والفضة وبخيره عن قول النبي: (إن الشارب فيهما ليجرجر في جوفه نار جهنم). فيجيبه معاوية: أما أنا فلا أرى بذلك بأساً.

يقول المعتزلي: وهذا الخبر يقدح في عدالته كما يقدح أيضاً في عقيدته لأن من قال في مقابلة خبر قد روي عن رسول الله ﷺ أما أنا فلا أرى بأساً فيما حرمه رسول الله ﷺ ليس بصحيح العقيدة ومن المعلوم أيضاً من حالة استئثاره بمال الفئ وضربه من لا حد عليه واسقاط الحد عمن يستحق إقامة الحد عليه وحكمه برأيه في الرعية وفي دين الله واستلحاقه زياداً وهو يعلم قول رسول الله ﷺ: «الولد للفراش وللماهر الحجر» وقتله حجر بن عدي وأصحابه ولم يجب عليه القتل ومهانته لأبي ذر الغفاري وجبهه وشتمه واشخاصه إلى المدينة على قتب بغير وطاء لأنكاره عليه ولعنه علياً وحسناً وحسيناً وعبدالله بن عباس على منابر الإسلام وعهده بالخلافة إلى ابنه يزيد مع ظهور فسقه وشربه المسكر جهاراً ولعبه بالنرد ونومه بين القيان والمغنيات واصطباحه معهن ولعبه بالطنبور بينهن، وتطريقه بني امية للوثوب على مقام رسول الله ﷺ وخلافته حتى افضت إلى يزيد بن عبدالملك والوليد بن يزيد المفتضحين الفاسقين صاحب حبابه وسلاّمه والآخر رامي المصحف بالسهام وصاحب الأشعار في الزندقة والألحاد .....[1]

أقول: إنّ هذا التطريق أول من فعله مع بني امية عمر بن الخطاب وهو الذي بنى عش معاوية المنهار حتى تمكن من الخلافة ونالها بتمهيد من ابن الخطاب فإن

---

(١) شرح ابن ابي الحديد، ج٥ ص٣١ وص١٣٠.

كان معاوية متحملاً من أصر من جاء بعده بشطر فليحمل معه صاحبه من أصره واصرهم لأن المقياس واحد والا فلا عبرة بالقواعد التي تسيّرنا على ضوئها إذا كنا نحمّل من نشاء ونعفى من نشاء نزولاً عند مقتضيات الهوى ووسوسات العاطفة وأخيراً أقول إنّ الرجل اقتدى بمن كان قبله من اخوانه في سب أهل البيت وهو القائل لمحمد عن أبيه:

فإن يكن ما نحن فيه صواباً: فأبوك أوله وإن يكن جوراً فأبوك اسه ونحن شركائه فبهديه أخذنا وبفعله اقتدينا رأينا أباك فعل ما فعل فاحتذينا مثاله واقتدينا بفعاله وكشف معاوية عن قدوته فيما جنى على أهل البيت إنه أبوبكر فقد كان أبوبكر أول من سبّهم ووصفهم بالنعوت المنكرة والأوصاف المستشبعة.

لما خطبت الصديقة خطبتها المعروفة والقوم حضور وفيهم ابوبكر شق عليه مقالتها فصعد المنبر وقال: أيها الناس ما هذه الرعة إلى كل قاله؟!

أين كانت هذه الأماني في عهد رسول الله ﷺ ألا من سمع فليقل ومن شهد فليتكلم إنما هو تعاله شهيده ذنبه مرب لكل فتنة هو الذي يقول: كرّوها جذعة بعد ما هرمت يستعينون بالضعفه ويستنصرون بالنساء كام طحال احب أهلها إليها البغي ألا إني لو أشاء أن أقول لقلت ولو قلت لبحث اني ساكت ما تركت..[1]

إنّ هذا الذي قاله أبوبكر من مقذع الشتم ولم يشتم أحد في جاهلية ولا في اسلام بمثله اللهم إلا إذا كان شاعراً ليس على لسانه رقيب أو عتيد ولك أن تنظر الجزء السادس عشر من شرح ابن ابي الحديد لتعرف ما يعني بام طحال.. فإني لا اجرء على تسطير ذلك في كتابي والمعني بالكلام اميرالمؤمنين عليه السلام .. والقضية التي ثارت ثائرة الشيخ من أجلها هي فدك وكان قد عزم على ابتلاعها.

عن ابي الطفيل قال لما قبض رسول الله ﷺ ارسلت فاطمة إلى أبي بكر: أنت ورثت رسول الله أم أهله؟ فقال بل أهله قالت: فأين سهم رسول الله ﷺ؟ قال: فقال أبوبكر: إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: إنّ الله عزوجل إذا أطعم نبيّاً طعمة ثم قبضه جعلها للذي يقوم من بعده فرأيت ان أرد على المسلمين. فقالت:

---

(١) شرح ابن ابي الحديد، ج١٦ ص٢١٥.

فأنت وما سمعت من رسول الله ﷺ[1].

ولو كان الخليفة صادقاً فيما يدعيه لكان أهل بيت النبي أولى من غيرهم في ردّ فدك عليهم لصدق العنوان عليهم ولوجود الفضل فيهم.

ولكنّ الحقيقة أن الرجل يريدها لنفسه.

عن عروة ابن الزبير: إنّ أزواج النبي ﷺ أرسلن عثمان بن عفان إلى أبي بكر يسألنه مواريثهنّ من سهم رسول الله ﷺ بخيبر وفدك فقالت لهن عائشة: أما نتقين الله؟ أما سمعتن رسول الله ﷺ يقول: لا نورث ما تركنا صدقة، إنما هذا المال لآل محمد لنائبتهم وضيقهم فإذا مت فهو إلى والي الأمر من بعدي[2] فالشيخ يريد فدكاً أن تعود إليه وشهيده ابنته فمن من علي وأبي بكر أولى بثعاله؟؟!

وأخيراً نقول إنّ معاوية أصاب من الحقيقة مقتلاً حين اعترف بقدوته في سب أهل البيت أنّه الشيخ الأول الذي ردّ الجميل على رسول الله ﷺ ظلماً لابنته واحراقاً لبابها وغصباً لنحلتها وهدرا لكرامتها وسبّاً لبعلها فإنّا لله وإنّا إليه راجعون.

وهذا السب هو الذي كرهه الإمام ونهى أصحابه عنه حين سمعهم يشتمون أهل الشام أي يذكرونهم بالقبيح من القول لا كما زعمه الدينوري حيث قال: بلغ علياً أن حجراً بن عدي وعمرو بن الحمق. يظهران شتم معاوية ولعن أهل الشام فأرسل إليهما أن كفا عما يبلغني عنكما فاتياه فقالا: يا اميرالمؤمنين السنا على الحق وهم على الباطل؟ قال: بلى ورب الكعبة المسدّنه، قالوا: فلم تمنعنا من شتمهم ولعنهم؟ قال:.. كرهت لكم أن تكونوا شتّامين لعانين ولكن قولوا: اللهم احقن دمائنا ودماءهم واصلح ذات بيننا وذات بينهم واهدهم من ضلالتهم حتى يعرف الحق من جهله ويرعوى عن الفي من لهج به[3].

وقد وهم الدينوري لأن السب لا يشمل اللعن بل هو الشتم والنهي عن السب الذي نقله الدينوري هو كلام للإمام ورد في نهج البلاغة: إني اكره لكم أن تكونوا سبّابين ولكنكم لو وصفتم اعمالهم وذكرتم حالهم كان أصوب في القول وابلغ في العذر.

---

(١) المسند الجامع، ج٩ ص٦٣٠.

(٢) البلاذري، انساب الأشراف، ج٢ ص١٧٣.

(٣) الدينوري، الأخبار الطوال، ص١٦٥.

قال الشارح المعتزلي: والذي كرهه الإمام عليه السلام منهم أنهم كانوا يشتمون أهل الشام ولم يكن يكره منهم لعنهم اياهم والبذاءة منهم لا كما يتوهمه قوم من الحشويه فيقولون: لا يجوز لعن أحد ممن عليه اسم الإسلام وينكرون على من يلعن، ومنهم من يغالي في ذلك فيقول: لا العن الكافر، ولا العن ابليس، وإنّ الله تعالى لا يقول لأحد يوم القيامة لم لم تلعن؟ وإنما يقول: لم لعنت؟!

قال ابن ابي الحديد: واعلم أنّ هذا خلاف نص الكتاب، لأنّه تعالى قال: (إِنّ اللّه لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدّ لَهُمْ سَعِيراً)[1]

وقال: (أُو ِلكَ يَلْعَنُهُمُ اللّه وَيَلْعَنُهُمُ اللاّعِنُونَ)[2]

وقال في ابليس: (وَإِنّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدّينِ)[3]

وقال: (مّلْعُونِينَ أَيْنَما ثُقِفُوا)[4]

وفي الكتاب العزيز من ذلك الكثير الواسع[5]. والناظر في معاني اللعن يدرك لأول وهلة أن لاصلة بينه وبين الشتم مطلقاً فقد ذكر له المفسرون عدداً من المعاني.

المسخ، ضرب الجزية، السخط عذاب القبر الحد الدعاء والطرد والنار الفرق[6].

واللاعن لا يتصور هذه المعاني كلها حين يلعن بل لا يقصد بعضها كضرب الجزية والحد والعرف.

وإنما يدعو على مستحق اللعن أن يحل به سخط الله أو يعذب في قبره أو يطرد من رحمته سبحانه أو يقذف في ناره جزاءاً لما استحل من محارم الله فأين هذه المعاني من السب والشتمية واللعن في الواقع دعاء وداخل في مفهومه ويثاب الداعي عليه إن طلبه لمستحق وإلاّ فهو من الكبائر ويحل بالداعي إن كان في غير المستحق.

---

(١) سورة الاحزاب: ٦٤.

(٢) سورة البقرة: ١٥٩.

(٣) سورة ص: ٧٨.

(٤) سورة الاحزاب: ٦١.

(٥) شرح ابن ابي الحديد، ج١١ ص٢١ وص٢٢.

(٦) الحسين بن أحمد الدامغاني، قاموس القرآن، ص٤١٥.

من ثم نجد بني امية وصاحبهم معاوية لعنوا أولياء الله أياماً قليلة أعقبتهم هذه اللعنة الطويلة. وسوف تبقى عالقة بهم لا تفارقهم إن شاء الله.

السمة الخامسة حمل الناس على الكذب وبذل المال على ذلك

كانت أيام معاوية لأهل الإسلام بمنزلة النفق المظلم الذي لا يلجه الضيائ ولا الهواء.. فتخبط الناس فيه ذات اليمين وذات الشمال على غير هدى ولا دلالة هاد.

وبدء معاوية عهده بالكذب على رسول الله ﷺ ووظف ميزانية دولته للإنفاق على ذلك فقد كتب إلى عماله في جميع الآفاق أن لا يجيزوا لأحد من شيعة علي شهادة وكتب إليهم أن انظروا من قبلكم من شيعة عثمان ومحبيه وأهل ولايته الذين يروون فضائله ومناقبه فأدنوا مجالسهم وقرّبوهم وأكرموهم واكتبوا الي بكل ما يروي كل رجل منهم واسمه واسم ابيه وعشيرته ففعلوا ذلك حتى أكثروا في فضائل عثمان ومناقبه لما كان يبعثه إليهم معاوية من الصلاة والكساء والحباء والقطائع ويفيضه في العرب منهم والموالي فكثر ذلك في كل مصر وتنافسوا في المنازل والدنيا فليس يجد امرىءٌ من الناس عاملاً من عمال معاوية فيروي في عثمان منقبة أو فضيلة إلاّ كتب اسمه وقرّبه وشفعه فليثوا بذلك حيناً.

ثمّ كتب إلى عماله: أنّ الحديث في عثمان قد جهر وفشا في كل مصر وفي كل وجه وناحية فإذا جاءكم كتابي هذا فادعوا الناس إلى الرواية في فضائل الصحابة والخلفاء الأولين ولا تتركوا خبراً يرويه أحد من المسلمين في أبي تراب إلاّ وأتوني بمناقض له في الصحابة فإنّ هذا أحب إلي واقر لعيني وأدحض لحجة أبي تراب وشيعته واشد عليهم من مناقب عثمان وفضله[1]. ونعرض بعد هذا الكلام لثلاث مسائل لم يولّها العقاد والمؤرخون عنايتهم.

الأولى: أنّ مناقب عثمان التي ملأت الطروس وفاضت لو كانت في زمانه لما احتاج إلى إثبات فضيلة لنفسه لا يدعيها إلاّ مغفل غبي أو آخر لا يملك من المناقب كبيرة أو صغيرة لذلك يفزع إلى مثل هذه التُرهات التي هي إلى المذمة أقرب منها إلى

---

(١) انظر السيد ابن عقيل، النصائح الكافية، ص٩٧ وص٩٨.

المحمدة وهي قوله: إنّه لم يمسّ عضوه بيمينه منذ وبايع رسول الله بها وتكرر منه هذا القول في غير مناسبة وصاح به على المنابر وأذاعه على محاصريه قبل مصرعه.

ولو رزق عثمان السلامة من هذه الفضيلة لكان خيراً له وابقى وإلاّ فما وجه المدح في مثل هذا وهل مسّ العضو باليمين أو باليسار عيب ليتجنبه المسلم تفقهاً؟؟!

وهل اصاب عثمان وحده واخطأ المسلمون أمس واليوم والصحابة باجمعهم آنذاك لأنهم لم يهجروا هذه الفعلة الشنعاء؟!

مما لا ريب فيه أنّ عثمان لم يعلنها على الناس وهو يملك خيراً منها هذا مع فرض صدقه وصحتها أمّا إذا أردنا الدقة في الحكم فعلينا أن نطالبه بشاهد يشهد له وحينئذ ليس بوسعه إلاّ الإقتداء بثعاله في مثل هذه الحالة.

الثانية: ذكر العلماء أمر معاوية الرواة بالوضع في مناقب الثلاثة ونادراً ما اشاروا إلى امره الرواة بالوضع لصالحه.. فهناك روايات موضوعه في مناقب معاوية تصحك الثكلى وهذا من فضل الله على الحق وأهله أن جرّد الكذبة والوضاعين من العقل ساعة الوضع أو مطلقاً فاعماهم عن التبصر واصمهم عن التدبر واسوق لك مهزلة واحدة لتتبصر وتتدبر.

قال ابن حجر الهيثمي وهو من اشد الناس دفاعاً عن معاوية واثباتاً لمناقبه الموضوعة: ومنها - أي ومن مناقب معاوية - ما جاء بسند ليس فيه علة إلاّ اختلاط حصل لبعض رواته أن عوف بن مالك كان قائلاً نائماً بمسجد بأريحاء فانتبه فإذا هو اسد يمشي إليه فأخذ سلاحه فقال له الأسد: صه إنما ارسلت اليك برسالة لتبلغها قلت: من أرسلك؟ قال: الله أرسلني إليك لتعلم أنّ معاوية من أهل الجنة قلت: من معاوية؟ قال: ابن ابي سفيان..

وهنا يعقب ابن حجر على هذه المنقبة فيقول: ولا يستبعد ذلك لأنّ كلام الأسد له كرامه وهي جائزة الوقوع خلافاً للمعتزلة وكونه من أهل الجنة شهدت به أدلة كثيرة[1].

---

(١) ابن حجر الهيثمي، تطهيرالجنان، ص١٢.

وتداعى إلى ذهني نادرة تنسب إلى بعض المجانين لما سئل عن مغاويه بالغين بن ابي طالب من هو؟ قال: ذاك نبي ارسله الله إلى بني اسرائيل ليخبرهم أنّ عصى موسى كانت من شجر التوت!! ولا فرق من حيث المعنى بين هذه النادرة وعقل صاحبها وبين هذه المنقبة ومن يرويها أو يخرجه في كتاب لمعاوية.

الثالثة: أنت تقرء كتب الحديث فتعثر على العجائب في ما وضع الرواة المرتزقة من المناقضات للروايات الواردة في فضل ابي تراب وأهل بيته عليهم السلام.

ولكني ارشد القارئ إلى ظاهرة عجيبة في كل مكذوبة على النبي صلى الله عليه وآله وسلم وذلك أنّ فيها دلالةً ذاتية على وضعها بدون حاجة إلى بذل الجهد لتكذيبها من خارجها خذ على سبيل المثال حديث سدّ الأبواب إلاّ باب علي ثم انظر مناقضه وهو إلاّ باب ابي بكر أو إلاّ باب عثمان ودقق النظر في الموضوعين لمناقضته ولكي تزداد يقيناً بما أقول انقلها جميعاً لك.

حديث سدّ الأبواب

وحديث (سدوا الأبواب التي في المسجد إلاّ باب علي..) أخرجه الأيمه والحفاظ بصيغ وسياقات مختلفة وأكثر السياقات اختصاراً فيما اعلم رواية أبي نعيم عن عمرو بن ميمون عن ابن عباس: إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أمر بالابواب فسدّت كلها إلاّ باب علي.

والحديث متواتر عند الفريقين اما تواتره عند الشيعة فثابت لا ريب فيه وأما تواتره عند أهل السنة والجماعة فإنّه يستفاد من لازم خلافه[1].

وهو ما رووه في باب ابي بكر وخوخته فقد زعموا له التواتر ولم ينقل بالطرق المعتبرة والأسانيد الصحيحة والحسنة التي نقل بها الحديث الأول.

بل الحكم له بالتواتر فيه مسامحة فإنّه لم يرو إلاّ من طريقهم وحدهم وحديث باب علي عليه السلام روي من طريق الفريقين فأين هذا من ذاك.

ومع وروده مخرّجاً بهذه الطرق فقد ادّعى بعضهم كابن الجوزي ومن لف لفّه

---

(١) السيوطي، الحادي للفناوى، ج١ ص١٤٥.

الوضع له وقد كفانا ابن حجر العسقلاني عناء الرد عليه وعلى نظراته في القول المسدد قال ابن حجر:

قول ابن الجوزي: أنّه باطل وأنّه موضوع دعوى لم يستدل عليها إلاّ بمخالفة الحديث الذي في الصحيحين وهذا اقدام على رد الأحاديث الصحيحة بمجرد التوهم ولا ينبغي الأقدام على الحكم بالوضع إلاّ عند عدم إمكان الجمع ولا يلزم من تعذر الجمع في الحال أن لا يمكن بعد ذلك إذ فوق كل ذي علم عليم[1].

ولم يشر هذا الحافظ مع استحالة الجمع بين الحديثين الى أيّ واحد منهما يكون الرد أو القبول؟ أباب علي أم باب أبي بكر؟!

وطامة أخرى لأبن الجوزي يزعم أنّ حديث سدوا الأبواب إلاّ باب علي عليه السلام من وضع الرافضة قابلوا بها الحديث المتفق على صحته في: سدو الأبواب إلاّ باب أبي بكر[2].

وهذا من باب «رمتني بدائها وانسلت». وهي كارثة على الأمة لأنّ الأحاديث الموضوعة في مناقب القوم ما وضعت إلاّ مناقضة لمناقب أهل البيت عليهم السلام الثابتة بأمر معاوية ولما بعد الزمان وتطاولت السنون بيننا وبين عصر الإسلام الأول صعب علينا وربما استحال التفريق بين الحديثين الأصيل والدخيل الصحيح والموضوع ومن ثم سهل على المدّعين نعت أي واحد منهما بما شاءوا من النعوت.

ولهذا تمت لابن الجوزي مزعمته عن حديث باب علي أن ينبزه بالوضع للمناقضة والحال أنّ الحديث الذي اعتبره صحيحاً هو حامل هذه الصفة وستعرف ذلك قريباً إن شاء الله.

---

(١) القول المسدد في الذب عن مسند أحمد المطبوع بذيل المسند، ص٤٩١.

(٢) ابن الجوزي، الموضوعات، ج١ ص٣٦٦.

قال: هوحديث مشهور له طرق متعددة، كل طريق منها على انفراده لا تقصر عن رتبة الحسن ومجموعها مما يقطع بصحته على طريقة كثير من أهل الحديث وإمّا كونه معارضاً لما في الصحيحين فغير مسلم ليس بينهما معارضة وبعد كلام رد به على البزار قال: فمن طرقه ما رواه الإمام أحمد في مسنده أيضاً في مسند زيد بن أرقم قال: حدثنا محمد بن جعفر ثناعون عن ميمون عن زيد بن ارقم قال كان لنفر من أصحاب رسول الله ﷺ أبواب شارعة في المسجد قال: فقال يوماً (سدوا هذه الأبواب إلاّ باب علي) قال: فتكلم في ذلك أناس قال: فقام رسول الله ﷺ فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أما بعد فاني أمرت بسد هذه الأبواب غير باب علي فقال فيه قائلكم وإني والله ما سددت شيئاً ولا فتحته ولكن أمرت بشيء فاتبعته[1].

وشرع الحافظ في بيان طرقه الكثيرة والجفاظ الذين أخرجوه ومنهم النسائي والحاكم عن أحمد بن حنبل وقول الحاكم: صحيح الإسناد والحافظ المقدسي في الأحاديث (المختارة) مما ليس في الصحيحين، قال: ومن طرقه أيضاً ما رواه النسائي في السنن الكبرى والكلايذي في معاني الأخبار والترمذي بسنده عن ابن عباس قال: امر رسول الله بسد الأبواب فسدّت إلاّ باب علي.

قال: وروى الإمام أحمد والنسائي أيضاً من طريق أبي عوانه الوضّاح عن ابي بلج يحيى عن عمر بن ميمون قال قال ابن عباس في أثناء حديث:.. وسدّوا أبواب المسجد غيرباب علي فكان يدخل المسجد وهوجنب وهوطريقه ليس له طريق غيره قال: وأخرج النسائي والطبراني في الأوسط حديث سعد بن ابي وقاص عن مصعب بن سعد عنه قال: أمر رسول الله ﷺ بسد الأبواب إلاّ باب علي فقالوا يا رسول الله! سددت أبوابنا كلها إلاّ باب علي! فقال: ما أنا سددت أبوابكم ولكن الله سدّها.

وأخرجه الكلابذي في معاني الأخبار عن عبدالله بن عمر[2] إلى أن قال

---

(١) ابن حجر، القول المسدد، ص٤٩٢ ذيل المسند.

(٢) القول المسدد، ص٤٩٢ بتصرف.

الحافظ ابن حجر: فهذه الطرق المتظاهرة من روايات الثقات تدلّ على أن الحديث صحيح دلالة قوية وهذا غاية نظر المحدث[1].

أقول أنا لم ينسبه إلى الوضع إلاّ ابن الجوزي في كتابه الموضوعات وقد رد عليه الحافظ ابن حجر بما فيه مقنع كما رد عليه الحافظ السيوطي في اللئالي المصنوعة وبالغ في الرد عليه ولم تكن لابن الجوزي حجة إلاّ أنّه معارض بالحديث الوارد في الصحيحين كما مر من قول ابن حجر وقد بذل القوم جهداً عجيباً أدخلهم في حيص بيص في سبيل الجمع بين الحديثين ولم يوفقوا والحمد لله وقد ارتكبوا المخالفات وتأول الأقوال المضحكة حول ذلك من أجل الجمع والذي حملهم على هذا الجهد هو القاعدة التي لا يمكن تجاوزها وهي: اعتبار (ما اتفق عليه الشيخان) من المتواتر الذي لا يجوز ردّه قال في طلعة الأنوار:

أعلى الصحيح ما عليه اتفقا ... وما روى الجعفي فرداً ينتقى

والجعفي هو محمد بن اسماعيل البخاري. وما اتفق عليه الشيخان (البخاري ومسلم) لا شك عند السنة في صحته بل عده بعضهم كابن الصلاح مثل المتواتر حكماً كما أشرت إليه في دليل الناسك بقولي: وابن الصلاح قال: إن ما جرى بوفق ذين مثل ما تواتر ...[2]

وهذا الذي حمل ابن الجوزي على رد الصحيح الثابت من أجل الباطل الموضوع.

بعد أن سفّه ابن حجر قول ابن الجوزي وأثبت جهله شرع في عمليه الجمع بين البابين فارتكب لذلك مخالفات عجيبة فتارة يسميه أي باب أبي بكر باباً وأخرى يسميه خوخة وثالثة ورابعة وهكذا ولم يصل إلى قعر المأساة بل ظل عقله معلقاً في فراغ هائل كالريشة في الفراغ يستبد بها الهواء وكان عليه أن يقول الحقيقة ويخترق الطريقة ويزيّف القاعدة صيانة للعقل وكرامة للعلم ودفعاً للهوى هلاّ القى نظرة على واقع الأمر فيعلم أن باب أبي بكر وضعه الواضع في مقابل باب علي عليه السلام.

---

(١) القول المسدد، ص٤٩٢ بتصرف.

(٢) محمد حبيب الله الجكني، زاد المسلم، ج١ ص٥ وص٦.

لأنّ بيوت أبي بكر ليست ملاصقة للمسجد ليكون له باب شارعاً فيه وإنما بينه وبين المسجد بيوت ممتدة تحجز بينه وبين جدار المسجد يقول محمد حبيب الله الجكنى: يشير به أي بسدّ الباب - إلى قطع المنازعة مع أبي بكر في أمر الخلافة على الاستعارة التصريحية بأن شبّه طريق النزاع فيه بالابواب وقرينته ذكر المسجد الذي كان عامة جلوس النبي ﷺ وأحكامه فيه ولم يكن بيت أبي بكر متصلاً به وهذا الحديث قاله عليه السلام والصلاة في مرض موته في آخر خطبه خطبها ولا ينافيه قوله: في حق علي كرّم الله وجهه: (سدّوا أبواب المسجد كلها إلاّ باب علي) لأنّه محمول على حقيقته لأن بيت علي ثبت أنّه كان في جنب المسجد النبوي فلم يقصد به الإشارة إلى خلافته أولاً قبل الصديق رضي الله عنهما جميعاً[1].

أما أنا فاعذر هؤلاء المساكين الذين كمموا عقولهم وهي عقول علماء فحول بقواعد كانت لها بمنزلة القيود الثقيلة فهي ما فتئت ترسف بها فماذا يصنع الجكنى أو ابن حجر والسيوطي إزاء الطامة الكبرى (ما أنفق عليه الشيخان).

أيضربون به عرض الجدار ويستعدون للبلاء النازل وأخفه الإتهام بالرفض أم يضحون بعقولهم على مذبح اتفاق الشيخين وكان اخف المصيبتين الأخيرة وهكذا فعلوا قلبوا الباب أولاً إلى خوخه ثم صيروره رمزاً وأشارة على الاستعارة التصريحية وهم يعلمون أنّ الواقع لا هذا ولا ذاك بل الحديث موضوع ليقابل حديث (إلاّ باب علي عليه السلام) والحديث سكته دار معاوية لضرب الأحاديث الموضوعة ولابد بعد الذي مرّ من مناقشة خفيفة وإن طال المقام.

مناقشة لابد منها ولا محيص عنها

إنّ القوم لما اعيتهم الحيلة في الجمع بين الثابت الصحيح الذي تسالم الحفاظ على نقله وتصحيح سنده ومتنه وبين ما وضع معارضة له وليس له ما يدعمه من الثبوت إلاّ إخراج الشيخين البخاري ومسلم له في صحيحهما حاروا في أمرهم ودخلوا في طخية عمياء من رواتهم من ثم عمدوا إلى هذا الجمع العجيب الذي هو

---

(١) محمد حبيب الله الجكني، زاد المسلم، فيما اتفق عليه البخاري ومسلم، ج١ ص٨٦.

أشد استحالة من الجمع بين الضب والنون.

والذي يبطل هذا الجمع ويرده ويجرده من الوزن والقيمة..!!

أولاً: أكثر الروايات تنص على أنّه بابٌ وليس خوخة أبي بكر فماذا يصنعون بهذه الروايات فإن جوزوا عليها الوضع جاز أيضاً على روايات الخوخة إذ لا ترجيح في المسئلة وإذا رجحوا روايات الخوخة بداعي الجمع دفعاً للمعارضة رجحنا روايات الباب وحينئذ تتعارض مع الثابت الصحيح فتسقط وترد.

ثانياً: ليس لروايات باب أبي بكر من الإعتبار إلاّ كونها مما اتفق عليه الشيخان وهي قاعدة فولاذية قعّدوها لأمور خاصة واملتها مرحلة من الزمن معيّنة وما زالت فاعلة فينا.

وهذه القواعد عندنا هي بمنزلة الآلهة في العصر الجاهلي أسماء سُميت وما أنزل الله بها من سلطان صنعها الجاهلي بيديه ثم راح يعبدها كما يعبد المؤمن ربه ...

والمسئلة التي نحن فيها تقوقع في ظلام القاعدة (متفق عليه) ولا تدع مجالاً لبصيص من نور العقل ينفذ إليها ... ولو حكّموا العقل لأمكن ردّها بأقل اعتبار وعلينا كباحثين قبل أن نتمهذب لأحد النظر في هذه القاعدة بل الآلة!!

فإن رأيناها جارية في الجميع لم تُهمل من أفرادها واحداً بل استوعبت الكل فهذه مسئلة أخرى يختلف موقفنا معهم فيها.

ومع عدم جريانها في الجميع بل أجريت في البعض وأهملت في البعض الآخر من قبل واضعيها جاز حينئذ إهمالها ولم يبق لها الإعتبار المدعى وكان شأنها شأن القواعد الدستورية فلو أنّ قاعدة رفع الفاعل أو نصب المفعول لم تكن عامة في الجميع بل جاز أن ينصب بها الفاعل ويرفع المفعول لكانت مهملة غير معتبرة عند أحد.

وهكذا الحال بالنسبة إلى هذه القاعدة فقد اضطر عبّادها إلى الحكم برد بعض أفرادها. وهي رواية الابتر ابن الابتر عمرو بن العاص عن النبي: آل أبي طالب ليسوا لي بأولياء فحكموا بعدم صحتها بل بوضعها نظراً للخطأ المترتب على إثباتها لأن لفظ

(آل) معناها لغة الأهل والعيال والإتباع[1] وبناءاً على هذا المعنى يكون بنو هاشم جميعاً بمن فيهم جعفر وحمزة والحسن والحسين ليسوا لرسول الله بأولياء وهذا أولاً مدفوع بالقرآن الكريم، وفيه قوله تعالى: (وأُولُوا الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ) وثانياً في السنة النبوية عشرات الأحاديث تصادم موضوعة ابن العاص وتردها وكلها اظهار لفضل آل ابي طالب وبيان لمناقبهم واشادة بهم وفيها أحاديث تتناقض مع موضوعة ابن العاص لفظاً ومعنىً كقوله ﷺ لأمير المؤمنين عليه السلام في غدير خم (من كنت مولاه فعلي مولاه اللهم والي من والاه وعاد من عاداه)[2] فكيف والحال هذه يقول من أوتي جوامع الكلم (ليسوا لي بأولياء) ليشمل حتى بضعته الزهراء لأنها آل لأبي طالب عليه السلام.

من هنا اضطرتهم الحال إلى الإيهام أولاً فصيّروها آل فلان ثم صرفوها إلى ابن العاص وممن نقل ذلك القاضي عياض والرجل على فضله ووفور علمه لم يسلم من الغفلة والغفلات تعرض للأريب فإذا جاز اعتبار هذا الحديث موضوعاً أو متناهياً في الضعف على أقل تقدير مع كونه متفقاً عليه جاز ردّ رواية باب أبي بكر بانخرام القاعدة التي صححوه وقبلوه بها.

ثالثاً إنّ بيت أبي بكر لم يكن ملاصقاً للمسجد حتى يكون بابه أو خوخته شارعة فيه بل يفصل بينه وبين المسجد خوخات وبيوت وأبواب ولذا الجئتهم ضرورة الحال إلى التأويل بحمل ذلك على إشارة الإستخلاف وهنا ينبغي عليهم الإقرار بالنص كالشيعة وحينئذ يسهل الجدل معهم بتفييم النصين الواردين عن النبي في الإمام عليه السلام وأولهم.

وعرض كل واحد من النصين على الموازين العلمية والقواعد الثابتة المقررة في أصل الشرع لإختيار الحق منهما واعتماده في تأسيس الإعتقاد مع أنّهم لا يقولون بالنص: فكيف يمكن الجمع بين هذا وذاك رابعاً أنّ المتتبع لروايات الباب والخوخة

---

(١) صحاح الجوهري، مادة أول.

(٢) الحديث الشريف أكثر من متواتر ويكون ذكرنا للمصادر التي اخرجته كمن يوقد شمعه للإستضاءة في ضوء الشمس ولك أن تنظر محمد السعيد زغلول، موسوعة أطراف الحديث النبوي الشريف، حرف الميم.

البكريين يقع على اضطراب في سياق الرواية فضيع لا يمكن أن يصدر من إنسان سوي فضلاً عن سيد البلغاء والفصحاء والأنبياء ألا تراه بينا هو ينعى نفسه على رؤوس المئات من أفاضل الصحابة وفيهم الخطباء والشعراء وأهل الحل والعقد وفيهم من تحل له الحبى من بني عبدالمطلف الادنين فاكدت الأذهان ونضبت القرائح وغاضت الفهوم ولم يبق ذهن فاعل منها إلاّ ذهن أبي بكر فعرف ما يرمي إليه النبي فبكى ولم تكتف الرواية برمي الصحابة بقلة الادراك بل قذفتهم بالبلادة والبلاهة حيث عجبوا من بكاء نابغتهم أبي بكر من قول قاله النبي ولا موجب للبكاء.

فما كان من النبي إلاّ أن يتباهى بأبي بكر وصحبته ويخلع عليه فضيلة الخوخة الوهمية الرمزية التي يعجز عن فهمها حتى الملائكة المقربون فما هو الرابط بين صدر الرواية وعجزها ومقدّمها وتاليها يا امة القرآن.

ولكي تطّلع على واقع الحال وتسلم من قيل وقال وتستغنى عن السؤال انقل لك سياقاً واحداً من باب ابي بكر بلفظ البخاري الذي أخرجه في المناقب باب قول النبي سدّوا الأبواب إلاّ باب أبي بكر ....

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: خطب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الناس وقال: إنّ الله خيّر عبداً بين الدنيا وبين ما عنده فاختار ذلك العبد ما عند الله قال: فبكى ابوبكر فعجبنا لبكائه أن يخبر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن عبد خيّر فكان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هو المخيّر وكان أبوبكر اعلمنا فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إنّ من أمن الناس علي في صحبته وماله ابابكر ولو كنت متخذاً خليلاً غير ربي لاتخذت ابابكر ولكن اخوة الإسلام ومردّته لا يبقين في المسجد باب الاسد إلاّ باب أبي بكر[1].

وأخرجه البخاري أيضاً في باب الهجرة ومسلم في كتاب فضائل الصحابة في باب أبي بكر.

وهذه الرواية تنص على أنّه باب وليس خوخة وبعد هذا نقول لأهل الجمع بين الضب والنون وعباد القواعد كيف تكون لأبي بكر المنة على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والله تعالى يقول: يمنون عليك أن أسلموا بل الله يمن عليكم أن هداكم للإيمان..

---

(١) محمد بن اسماعيل البخاري، الجامع الصحيح، ج٥ ص٤، ط مطابع الشعب، مصر.

هذا من جهة ومن جهة أخرى إذا صح سد الأبواب قبل هذا باعوام كما تقرر في باب أميرالمؤمنين عليه السلام فكيف بقيت هذه الأبواب وهذه الخوخات مفتوحة ولو أنّ القوم نبذوا هذه القواعد الباطلة ظهر يا وضربوا بها عرض الجدار لعلموا أنّ باب أبي بكر ما هو إلاّ من وضع السياسة الأموية التي أقرّها معاوية بن أبي سفيان ليقابلوا به باب علي الذي هو باب حطة وباب الرحمة الواسعة ومن دخله كان آمناً من عذاب الله لقد كان من التواتر والشهرة بين المسلمين بحيث أقر به العدو والولي والدني والقصي.

يقول عبدالله بن عمر: كنا نقول في زمن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: رسول الله خير الناس ثمّ أبوبكر ثم عمر ولقد اوتي ابن ابي طالب ثلاث خصال لأن تكون لي واحدة منهن أحب إلي من حمر النعم زوجه رسول الله ابنته وولدت له وسد الأبواب إلاّ بابه في المسجد وأعطاه الراية يوم خيبر[1].

أخرج ابن مردويه عن أبي الحمراء وحبه العربي قالا: أمر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن تسد الأبواب التي في المسجد فشق عليهم قال: حبه إني لانظر إلى حمزة بن عبدالمطلب وهو تحت قطيفة حمراء وعيناه تذرفان وهو يقول: أخرجت عمك وأبابكر وعمر والعباس واسكنت ابن عمك فقال رجل!![2] يومئذ: ما يألو يرفع ابن عمه قال: فعلم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنّه قد شق عليهم فدعا الصلاة جامعة فلما اجتمعوا صعد المنبر فلم يسمع لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم خطبة قط كان ابلغ منها تمجيداً وتوحيداً فلما فرغ قال: أيها الناس ما أنا سددتها ولا أنا فتحتها ولا أنا اخرجتكم واسكنته ثم قرء والنجم إذا هوى، إلى يوحى[3].

نكتفي بهذا المقدار في اعطاء صورة لنموذج ما كان يفعله ابن هند من الوضع والدس حيث كتب إلى مرتزقته مثل أبي هريرة وعروة بن الزبير وغيرهما ...: ولا تتركوا خبراً يرويه أحد من المسلمين في أبي تراب إلاّ وائتوني بمناقض له في

---

(١) أحمد بن حنبل، المسند ج٢ ص٢٦.

(٢) لا أشك أنّه عمر.

(٣) السيوطي، الدر المنثور، ج٦ ص١٢٢، ط دار المعرفة، بيروت.

الصحابة فإن هذا أحب إلي واقر لعيني وأدحض لحجة أبي تراب وشيعته ....[1]

وما درى أن حجة أبي تراب وشيعته هي حجة الله ولله الحجة البالغة والواقع أنّ باب علي هو ذلك الباب الذي يفضي إلى مدينة العلم رسول الله وليس تلك الألواح المسمّرة إلى بعضها البعض ولو كان الثاني لكان استاذه عمر قد انتصر على علي منذودهر بعيد حين أحرقه بالنار.

لـو لا احـتراق البـاب مـا احترقـت لهـم في الغاضـــــرية اربـــــع وســـــتور

لـــو لم تســـير الطهـــر فـــاطم خلفـــه مـــا زينـــب خلـــف العليـــل تســـير

لـــو لم يقـــاد المرتضـــى مـــن داره مـــا قيـــد الســـجاد وهـــو اســـير

ومن أبواب الشر والكذب التي فتحها معاوية وما زالت اعاصير الشر والفتن تهب على الأمة منها أمس واليوم هي القصص.

أخرج الزبير بن بكار في أخبار المدينة عن نافع وغيره من أهل العلم قالوا: لم يقص في زمن النبي ﷺ ولا في زمان أبي بكر ولا زمان عمر و إنّما القصص محدّث أحدثه معاويه حين كانت الفتنة[2].

وهذا باب في الكذب واسع طالما سال منه الصديد والنتن حتى ملأ بطون الكتب والمعاجم.

أخرج السلفي من طريق الفضل بن زياد قال: سمعت أحمد بن حنبل يقول: اكذب الناس السؤال والقصاص وعن أبي قلابة: ما أمات العلم إلا القصاص.

وأخرج العقيلي عن عاصم قال: كان أبو عبد الرحمن يقول: اتّقوا القصاص[3].

وباب الكذب الذى فتحه ابن آكلة الأكباد وصنيعة ابن الخطاب واسع جدّاً ولكنّنا نعرض عنه ونقفله ونلعن من فتحه. وحسبه انّه الآن تبوّأ مقعده من النار.

---

(١) النصائح الكافية، ص٩٧.

(٢) أبو رية رحمه الله، أضواء على السنة المحمدية، ص١٢٤.

(٣) أبوريه، اضواء على السنة المحمدية، ص١٢٤. والواقع إنّ أوّل من قصّ تميم الداري بإذن عمر. انظر. مناهج التأليف عند العلماء العرب، ص٢٩.

السمة السادسة تخويف الناس وتطميعهم

اعتمد معاوية في علاقته بالرعية على الإرهاب وسلّط عليهم سلاحين أحدهما أشد فتكاً من صاحبه السلاح الأول السيف. سله لعمّال قساة لايعرفون الرحمة وأمرهم بالقتل على الظنة والشبهة وأن لايتقاعسوا في أخذ الشاهد بالغائب والحي بالميّت والبريء بالسقيم. وقد أنعمه هؤلاء الطغاة السفّاحون عيناً وقتلوا في الأُمّة قتلاً ذريعاً حتّى أصبح من ليس على دين معاوية أو مذهبه. لايدري أيصبح فيقتل أم يمسي فيقتل ناهيك بمن يتشيّع لأهل البيت عليهم السلام.

السلاح الثاني. هو السلاح الصامت وقد سلّط هذا السلاح على أوليائه أكثر ممّا سلّطه على أعدائه وراح يحصد به الرؤوس والأعيان. حتّى ذلّ له الجميع وأطاعه القاصي والداني. فكان من لم ينله سلاح السيف. فإنّ سلاح السم له بالمرصاد. وكتب الى عمّاله نسخة واحدة الى جميع البلدان انظروا من قامت عليه البيّنة أنّه يحبّ عليّاً وأهل بيته فامحوه من الديوان واسقطوا عطاءه ورزقه وشفع ذلك بنسخة أُخرى:

من اتهمتموه بموالاة هؤلاء القوم فنكّلوا به واهدموا داره ...[1].

واستعمل معاويه زياداً فكان اشد العمال حرصاً ودعوة الى لعن علي عليه السلام وسبّه. قال أبي الأثير: بعث زياد بن أبيه في طلب صيفي بن فسيل الشيباني فأتي به فقال له: يا عبدالله ما تقول في أبي تراب فقال: لا أعرفه فقال ما أعرفك به أتعرف عليّاً بن أبي طالب فذاك أبو تراب قال: كلاّ ذاك أبو الحسن والحسين فقال له صاحب الشرطة: يقول الأمير هو أبو تراب وتقول: لا. قال: فان كذب الأمير أكذب أنا وأشهد على باطل كما شهد؟ فقال له زياد: وهذا أيضاً علي بالعصى فأتي بها قال: ماتقول في علي قال: أحسن قول. قال: أضربوه فضربوه حتّى لصق بالأرض ثمّ قال: اقلعوا عنه ماقولك في علي قال: قال: والله لو شرحتني بالمواسي ما قلت فيه إلاّ ماسمعت مني قال: لتلعننه أو لأضربن عنقك قال: لا أفعل فأوثقوه حديداً وحبسوه قال الحافظ

---

(١) النصائح الكافية، ص٩٨.

الذهبي في التذكرة قتل زياد رشيداً الهجري لتشيّعه فقطع لسانه وصلبه[1].

وقد ساعده على ظلمه وتجبّره قوم مرتزقة. هم عبيد الدنيا. والدين لعق على ألسنتهم:

قال معاوية لعمرو بن العاص: قدّم عك والأشعريين فأنهم كانوا أوّل من انهزم في هذه الجولة. فأتاهم عمرو، فبلغهم قول معاويه فقال رئيسهم مسروق العكّي: انتظروني حتى آتي معاوية. فأتاه فقال: افرض لقومي في الفين الفين. ومن هلك منهم فابن عمّه مكانه قال: ذلك لك. فانصرف الى قومه فاعلمهم ذلك. فتقدّموا فاضطربوا هم وهمدان بالسيوف اضطراباً شديداً فاقسمت عك لاترجع حتى ترجع همدان واقسمت همدان على مثل ذلك فقال عمرو لمعاويه، لقيت أسدٌ أسداً لم أرَ كاليوم قط فقال معاوية: لو ان معك حياً آخر كعكٍّ. ومع علي كهمدان لكان الفناء[2]. فكانت مسألة عك هي من أجل دراهم الفين تصيّدوها من معاوية. بالطبع ماكانوا ليقبضونها بدون مقابل بل لابد من أن تطير الرؤوس وتطيح الأيدى وتقطع الأرجل فانظر الى وضع هؤلاء المرتزقين العجيب. رضوا بأن يبذلوا أغلى شيء عندهم. وهي الحياة بالثمن البخس دراهم معدودة.

واتّخذ معاوية سياسة الترغيب والترهيب شعاراً يرفعه في دولته ... علماً منه أن النّاس ليسوا على شاكلة واحدة. فمنهم من يحركه المال كالشراع يتحرّك بإتّجاه الريح. ومنهم من لاتصبيه المادّة ولاتقع من نفسه موقعاً حسناً. لذلك جرّد في هؤلاء السيف وبالغ في سفك دمائهم حتّى لاتث فنائهم له كأهل الكوفة وأهل اليمن. وممّن ساقه بعض الترغيب سعيد بن عثمان بن عفان. وهذا يعطيك نموذجاً آخر لمن استسلم للمادّة فلان لمعاوية بعد أن كان عصياً مشمخراً. يقول ابن قتيبة:

لما قدم معاوية الشام أتاه سعيد بن عثمان بن عفان وكان شيطان قريش ولسانها قال: يا أمير المؤمنين علام تبايع ليزيد وتتركني فوالله لتعلم أن أبي خير من أبيه وأُمّي خير من أُمّه وأنا خير منه.

---

(١) السيد بن عقيل، النصائح الكافية، ص١٠٣.

(٢) الدينوري، الأخبار الطوال، ص١٨٦.

وانّك انّما نلت ما أنت فيه بأبي. فضحك معاوية وقال: يا أبي أخي. أما قولك: انّ أباك خير من أبيه. فيوم من عثمان خير من معاوية وأما قولك: انّ أُمّك خير من امّه ففضل قرشية على كلبيّه فضل بيّن وأمّا أن أكون نلت ماأنا فيه بأبيك فإنّما هو الملك يؤتيه الله من يشاء قتل أبوك رحمه الله. فتواكلته بنو العاصي[1] وقامت فيه بنو حرب فنحن أعظم بذلك منةً عليك وأمّا أن تكون خيراً من يزيد فوالله ما أحب أن داري مملوءة رجالاً مثلت بيزيد ولكن دعني من هذا القول. وسلني أعطك فقال سعيد بن عثمان: يا أمير المؤمنين، لايعدم يزيد مركباً مادمت له وماكنت لأرضى ببعض حقّي دون بعض. فأذا أبيت فاعطني ممّا أعطاك الله فقال معاوية لك خراسان قال سعيد ماخراسان؟ قال: إنها لك طعمة وصلة رحم. فخرج راضياً وهو يقول:

ذكـــرت أمـــير المـــؤمنين وفضـــله ... فقلـــت جـــزاه الله خـــيراً بمـــا وصـــل

وقـــد ســـبقت مـــنّي إليـــه بـــوادر ... مـــن القـــول فيـــه آفـــة العقـــل والزلـــل

فعـــاد أمـــير المـــؤمنين بفضـــله ... وقـــد كـــان فيـــه قبـــل عودتـــه ميـــل

وقـــال خراســـان لـــك اليـــوم طعمـــة ... فجـــوزي أمـــير المـــؤمنين بمـــا فعـــل

فلـــو كـــان عثمـــان الغـــداة مكانـــه ... لمـــا نـــالني مـــن ملكـــه فـــوق مابـــذل

فلمّا انتهى قوله الى معاوية، أمر يزيد أن يزوّده وأمر إليه بخلعه[2] وهذه الطعمة الخراسانية هي والطعمة المصرية التي رضخها لإبن العاص سواء. فقد اشترى من هذا وذاك. ذمتهما ودينهما. ان كان لهما ذلك واستطاع معاوية بما بذل وما أرهب ترويض الأمة فلانت لحكمه ولولا ذلك لكان أبعد الناس عن الحكم.

---

(١) تواكلته بنو العاص: تركت القصاص من قتلته.

(٢) ابن قتيبة، الأمامة والسياسة، ج١ ص١٦٤/٥.

السمة السابعة: اختيار الجناة والقساة والطغاة والفسّاق لتوليتهم على الأُمّة.

فخوّضوا في الدماء وأظهروا فيها الفساد

اختلفت سياسة الحكّام في اختيار الولاة. فقد كان عمر يختارهم من المغمورين الذين لاشأن لهم ليكونوا أطوع له وأسهل عليه وتكون الأُمّة أقل احتفاءاً بهم والتفافاً عليهم. امثال أبي هريرة والأشعري وابن مسعود وغيرهم.

وكان الإمام أمير المؤمنين عليه السلام وشعاره في التولية الأمانة والدين. وقد قال لطلحة والزبير (نحن لانولي إلاّ من ارتضينا امانته ودينه) ولم يأت الزمان بمثل أمير المؤمنين. فلم يمتد بهذا المبدأ العمر الا ريثما انتقل الإمام الى الرفيق الأعلى فكانت الولايات تقدم الى الرجل طبقاً لمواصفات خاصة في الوالي أو المولىّ وتحضرني الآن نكتة غريبة عن مزاج المأمون العباسي في التولية وربّما تكون غريبة عن الباب ولكن لها نسب جدُّ قريب فيما نحن فيه وهي طريفة ممتعة.

عن محمّد بن الجهم البرمكي قال: قال لي المأمون يوماً: يامحمّد انشدني بيتاً في المديح جيداً فاخراً عربياً لمحدث حتى أوليك كورة تختارها قال: قلت. قول علي بن خليل:

فمـــع الســـماء فـــروع نبـــتهم ومـــع الحضـــيض منابـــت الغـــرس

متهللـــين علـــى أســـرتهم ولـــدى الهيـــاج مصـــاعب شمـــس

فقال احسنت. قد وليتك الدينور.

فانشدني بيت هجاء على هذه الصفة حتى أوليك كورة أُخرى. فقلت:

قبحـــت منـــاظرهم فحـــين خـــبرتهم حســـنت منـــاظرهم لقـــبح المخـــبر

فقال قد أحسنت قد وليتك همذان فانشدني مرثية على هذا حتّى اوليك. حتى أزيدك كورة أُخرى فقلت قول الذي يقول:

أرادوا ليخفـــوا قـــبره عـــن عـــدوه فطيـــب تـــراب القـــبر دل علـــى القـــبر

فقال: قد أحسنت قد وليتك نهاوند فانشدني بيتاً من الغزل على هذا الشرط حتّى اوليك كورة اخرى. فقلت قول الذي يقول:

تعـــالى نجـــدد دارس العلـــم بيننـــا كلانـــا علـــى طـــول الجفـــاء ملـــوم

فقال قد أحسنت قد جعلت الخيار إليك فاختر فاخترت السوس من كور الأهواز فولاني ذلك أجمع ووجهت الى السوس بعض أهلي[1].

ولا أعلم سياسة في العالم تضارع سياسة التولية بالشعر غير ناظرة الى الكفائة والأمانة والدين. وأمّا معاوية فقد انتهج في التولية خطة أُخرى. هي اختيار الوالي. إذا كان اشد اجراماً وأعظم فتكاً وأكثر ارهاباً من غيره. فمن هؤلاء زياد بن سميّة.

وقد مرّ عليك في أثناء هذا الكتاب أنّ زياداً استعمل في زمن الإمام عليه السلام. فلم يرق محجمة دم واحدة ولم يحتقب مالاً لنفسه ولم يشكه أحدٌ من رعيته وكان الإمام عليه السلام قد فرض رقابة عتيدة على الولاة. وقلب نظام الجاسوسية من الرعية فجعلها على الولاة ومنهم زياد. جاء في عهده لمالك الأشتر:

ليكن أبعد رعيتك منك واشنؤهم عندك أطلبهم لمعائب الناس. فأنّ في الناس عيوباً الوالي أحق من سترها. فلا تكشفنّ عمّا غاب عنك منها فإنّما عليك تطهير ماظهرلك. والله يحكم على ما غاب عنك فاستر العورة ما استطعت يستُر الله منك ماتحب ستره من رعيّتك.

ويقول عليه السلام: ثمّ انظر في امور عمّالك. فاستعملهم اختباراً ولا تولهم محاباة وأثره. فإنّهما جماع من شعب الحور والخيانة الى أن يقول عليه السلام: ثمّ تفقدّ أعمالهم وابعث العيون من أهل الصّدق والوفاء عليهم فإنّ تعاهدك في السر لأُمورهم. حدوة لهم على استعمال الأمانة والرفق بالرّعية[2].

وهذا النظام البديع من الرصد والمراقبة. هو الذى حمل زياداً واضرابه على احترام العدل والكف عن ظلم الرعية.

اما ابن هند فقد كان يبيح للعامل فعل كلّ ذنب وإتيان كلّ جرم إذا كان يجلب له الذهب ويمده به متدفقاً في الليل والنهار.

افتتح معاوية عهده بخطبة تنذر بالشر وتفصح عمّا كان قد اضمر للأُمّه وما ينوي ايقاعه بها من النكال. فقد قال:

---

(١) الأغاني، ج١٤ ص١٧٨.

(٢) في ظلال نهج البلاغة، ج٤ ص٥٢ وص٧٩.

ايها الناس! إنّ الحرب صعبة وانّ السلم من ومبره ألا وقد زبنتنا الحرب وزبنّاها. - كرهتنا وكرهناها - والفتنا والفناها فنحن بنوها وهي امّنا أيّها الناس! استقيموا على سبيل الهدى ودعوا الأهواء المضلّه والبدع المردية ولست أراكم تزدادون بعد الوصاة الا استجراءاً ولن ازداد بعد الأعذار والحجة عليكم الا عقوبة وقد التقينا نحن وأنتم عند حد السيف فمن شاء فليتحرّك أو يتقهقر ومثلي ومثلكم الا كما قال ابن قيس بن رفاعة الأنصاري:

من يصل ناري بلا ذنب ولاترة يصلى بنار كريم غير غدّار

انا النذير لكم مني مجاهرة كي لا ألام على نهيي وانذاري[1]

فهذه الخطبة تدل دلالة قاطعة على مايخبئ عدوّ الله للنّاس من عتو وطغيان وقد أتبع القول بالعمل فسلّط على العراق زياداً. وما هي إلاّ أيّام قلائل حتّى صرّح عن محضه وكشف عن حقيقته بتلك الخطبة البتراء. والواقع انّ حقيقة معاوية ايضاً كامنة تحت ظلّ الفاظة وجمله الجائرة يقول الطبري:

انّ معاوية استعمل زياداً على البصرة وخراسان وسجستان ثمّ جمع له الهند والبحرين وعمّان وقدم البصرة في آخر شهر ربيع الآخر أو غرّة جمادى الأُولى سنة خمس والفسق بالبصرة ظاهر فاش. فخطب خطبة بتراء.

أما بعد فانّ الجهالة الجهلاء والضلالة العمياء والفجر الموقد لأهله النار الباقي عليهم سعيرها مايأتي سفهاءكم ويشتمل عليه حلماؤكم من الأُمور العظام. ينبت فيها الصغير. ولايتحاشى منها الكبير. كأن لم تسمعوا بآي الله ولم تقرءوا كتاب الله ولم تسمعوا ما أعدّ الله من الثواب الكريم. لأهل طاعته والعذاب الأليم لأهل معصيته الى أن يقول:

انّي رأيت آخر هذا الأمر لايصلح إلاّ بما صلح به أوّله. لين في غير ضعف وشدّة في غير جبرية وعنف واني أقسم بالله لأخذن الولي بالولي والمقيم بالظاعن. والمقبل بالمدبر والصحيح منكم بالسقيم حتّى يلقى الرجل منكم أخاه فيقول: انج سعد فقد هلك سعيد. او تستقيم لي قناتكم. ان كذبة المنبر تبقى مشهورة. فاذا

---

(١) القلقشندي، صبح الأعشى، ح١ ص٢٥٩.

تعلقتم عليّ بكذبة فقد حلّت لكم معصيتي ...[1]. والخطبة طويلة وبهذا المقدار الكفاية ولقد وفّى زياد بما قطع على نفسه. فقتل الآلاف من الأبرياء في العراق والمدن التي تحت ولايته.

واستعمل زياد على شرطته عبدالله بن حصن فامهل الناس حتّى بلغ الخبر الكوفة وعاد إليه وصول الخبر الى الكوفة وكان يؤخر العشاء حتّى يكون آخر من يصلي ثمّ يصلي، يأمر رجلاً فيقرأ سورة البقرة ومثلها يرتل القرآن. فإذا فرغ أمهل بقدر مايرى أن انساناً يبلغ الخريبة ثمّ يأمر صاحب شرطته بالخروج. فيخرج ولا يرى انساناً الا قتله، قال: فأخذ ليلة اعرابياً فأتي به زياداً فقال: هل سمعت النداء؟ قال: لا والله. قد مت بحلوبة لي وغشيني الليل.

فاضطررتها الى موضع. فاقمت لأصبح ولا علم لي بما كان من الأمير. قال: اظنّك والله صادقاً ولكن في قتلك صلاح هذه الأُمّة ثمّ أمر به فضربت عنقه.

ولا يحل دم هذا المسكين في أي مذهب من مذاهب طغاة العالم قديماً وحديثاً الا في مذهب معاوية وزياد بن أبيه. وقال الطبري أيضاً:

وكان زياد أوّل من شدّ أمر السلطان واكدّ الملك لمعاوية. وألزم الناس الطاعة. وتقدّم في العقوبة وجرّد السيف، وأخذ بالظنة وعاقب على الشبهة وخافه الناس في سلطانه خوفاً شديداً ...[2] ومن عمال معاوية سمرة بن جندب..

عن محمد سليم قال: سألت أنس بن سيرين هل كان سمرة قتل أحداً؟ قال: وهل يحصى من قتل سمرة بن جندب! استخلفه زياد على البصرة وأتى الكوفة فجاء وقد قتل ثمانية آلاف من الناس فقال له: هل تخاف أن تكون قد قتلت أحداً بريئاً؟ قال: لو قتلت إليهم مثلهم ما خشيت أو كما قال[3].

عن أبي سوار العدوي، قال: قتل سمرة من قومي في غداة واحدة سبعة وأربعين رجلاً قد جمع القرآن[4].

---

(١) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج٥ ص٢١٩.

(٢) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج٥ ص٢٢١ وص٢٢٢.

(٣) نفسه، ج٥ ص٢٣٦ والبلاذري، أنساب الأشراف، ج٥ ص٢٢٠.

(٤) تاريخ الطبري، ج٥ ص٢٣٧.

وكان القتل عند سمره وأصحابه لمجرد التشهي والمتعة عن عوف، قال: اقبل سُمرة من المدينة فلما كان عند دور بني اسد خرج رجل من بعض ازقّتهم ففجأ أوائل الخيل فحمل عليه رجل من القوم فأوجره الحربة قال: ثم مضت الخيل فأتى عليه سمرة بن جندب وهو متشحط في دمه فقال: ما هذا؟ قيل: اصابته أوائل خيل الأمير قال: إذا سمعتم قد ركبنا فاتقوا استنتا.

إنّ زياداً اشتد في أمر الحرورية بعد قريب وزحّاف فقتلهم وأمر سُمره بذلك وكان يستخلفه على البصرة إذا خرج إلى الكوفة فقتل سمره منهم بشراً كثيراً كل هذا فعله وهو لم يبق في الإمارة أكثر من ستة أشهر فقد أقرّه معاوية بعد زياد ستة أشهر ثم عزله فقال سمره: لعن الله معاوية! وألله لو اطعت الله كما اطعت معاوية ما عذبني ابداً[1].

ونقول له لعن الله كليكما، فهذه حسرة الدنيا وأما الآخرة فإنّ الله أشد انتقاماً وأعظم تنكيلاً.

وكان الناس في زمن هؤلاء الطغاة يأمنون الوحوش والسباع ويخافونهم لأن الوحش أكثر رفقاً بالإنسان من زياد وسمره. يقول الفرزدق وقد خرج هارباً من زياد مع دليله مقاعس: فخرجنا إلى بانقيا حتى انتهينا إلى بعض القصور التي تنزل فلم يفتح لنا الباب فالقينا رحالنا إلى جنب الحائط والليلة مقمرة فقلت يا مقاعس أرأيت إن بعث زياد بعد ما تصبح إلى العتيق رجالاً، أيقدرون علينا؟ قال: نعم يرصدوننا ولم يكونوا جاوزوا العتيق وهو خندق كان للعجم قال: فقلت: ما تقول العرب؟ قال: يقولون امهله يوماً وليلة ثم خذه فارتحل فقال: إني أخاف السباع فقلت: السباع أهون من زياد فارتحلنا لا نرى شيئاً إلاّ خلفناه ولزمنا شخص لا يفارقنا فقلت: يا مقاعس أترى شخصاً! لم نمرر بشيء إلاّ جاوزناه غيره فإنه يسايرنا منذ والليلة قال: هذا السبع قال: فكأنه فهم كلامنا.

فتقدم حتى ربض على متن الطريف فلما رأينا ذلك نزلنا فشددنا أيدي ناقتينا

---

(١) تاريخ الطبري، ج٥ ص٢٩١، الكامل، ج٣ ص٢٤٥، المنتظم، ج٥ ص٢٦٧ ولم يذكر ابن الجوزي لعن سمره معاوية.

بثنايين وأخذت قوسي وقال مقاعس: يا ثعلب أتدري ممن فررنا إليك؟ من زياد فأحصب بذنبه حتى غشينا غباره وغشى نافثينا قال: فقلت: أرميه فقال: لا تهجه. فأنّه إذا أصبح ذهب. قال: فجعل يرعد ويُبرق ويزئر ومقاعس بتوعّده حتى انشقّ الصبح فلما رآهُ ولىّ وأنشأ الفرزدق. يقول:

ما كنتُ احسبنى جباناً بعدما ... لاقيت ليلة جانب الأنهارِ

ليثاً كان على يديه رحالة ... شثن البراثن مؤجد الأظفار

لما سمعت له زمازم أجهشت ... نفسى إليّ وقلت أين فرارى

وربطت جروتها وقلت لها اصبرى ... وشددت في ضيق المقام ازارى

فلأنتَ أهون من زياد جانباً ... أذهب إليكَ مخرِّم الأسفار[1]

واعتبر أنتَ أيّها القارىء بوال يكون السبع الضاري أهون جانباً منه..

ملأ زياد الأسلام بأمر معاوية دماً وإجراماً ولا يحصى من قتلهم بالسيف أو ما توافي سجنه تحت وطأة التعذيب فهلك ولمعاويه من اجرامه النصيب الأكبر.

وقرّب معاوية إلى سدّة حكمه كلّ من استشعر من نفسه حبّ الجريمة والولع بسفك الدم فأدناه وبذل له ما شاء من الدنيا الزائلة.

فهذا مسرف. مجرم الحرّة ومستبيح المدينة وقاتل الأبرار من صحابة وتابعين. كان من أقرب الناس إليه وآثرهم عليه واتّخذ منه مستشاراً له. ذكر ابن حمدون في تذكرته قال:

مرض سعيد بن العاص بالشام فعاده معاوية ومعه شرحبيل بن السمط ومسلم بن عقبة المري ويزيد بن شجرة الرهاوي فلمّا نظر سعيد إلى معاوية وثب عن صدر مجلسه إعظاماً له فقال له معاوية: أقسمت عليك أبا عثمان. فإنّك ضعفت للعلّة فسقط فبادر معاوية نحوه حتّى حنا عليه وأخذ بيده فأقعده معه على فراشه وجعل يسائله عن علّته ومنامه وغذائه ويصف له ما ينبغى أن يتوقّاه وأطال القعود عنده فلمّا خرج التفت إلى شرحبيل ويزيد بن شجرة فقال:

هل رأيتما خللا في حال أبي عثمان؟!

---

(١) الطبرى، تاريخ الرسل والملوك، ج٥ ص٢٤٧.

فقالا: لا ما رأينا شيئاً ننكره فقال لمسلم: ما تقول أنت؟ قال: رأيت خللا قال: وما ذاك؟ قال: رأيت على حشمه ومواليه ثياباً وسخة ورأيت صحن داره غير مكنوس ورأيت التجّار يخاصمون قهرمانه.

قال: صدقت. كلّ ذلك قد رأيت. فوجّه إليه مع مسلم بثلاثمائة ألف. فسبق رسول مسلم إلى سعيد يبشّره بتوجيهها ويخبره بما كان فغضب سعيد وقال للرسول: إنّ صاحبك ظنّ أنّه أحسن فأساء وتأوّل فأخطأ. فأمّا وسخ ثياب الحشم فمن كثرت حركته اتّسخَ ثوبه وأما كنس الدار. فلست من جعل داره مرآته وبهاءه لبسته ومعروفه عطره ثمّ لا يُبالي من مات هزلا من ذوي رحمه أو لحمته. وأمّا منازعة التجّار قهرماني فمن كثرت حوائجه وبيعه وشرائه لم يجد بدّاً من أن يكون طالباً أو مطلوباً وأمّا المال الّذي أمر لنا به أمير المؤمنين فوصلته به كلّ رحم قاطعه وهناه كرامة المنعم بها وقد قبلناه وأمرنا لصاحبك منه بمأة ألف ولشرحبيل بن السمط بمثلها وليزيد بن شجرة بمثلها وفي سعة الله وبسط يد أمير المؤمنين ما عليه معوّلنا. فركب مسلم إلى معاوية فأعلمه فقال: صدقَ ابن عمّي فيما قال وأخطأت فيما أنهيت إليه فاجعل نصيبك من المال لروح بن زنباع عقوبة لك فإنّه من جنى جناية عُوقب بمثلها. كما أنّه من فعل خيراً كوفيء عليه ...[1]

فأنت ترى أنّ مسرفاً أحد ثُقاته وهو مستشاره. وكان لثقته بمسلم يعدّه للوقائع الجسام والأُمور العظام حتّى أنّه لما حضرته الوفاة دعا يزيد فقال له: إنّ لك من أهل المدينة يوماً فإنّ فعلوها فارمهم بمسلم بن عقبة فإنّه رجل قد عرفنا نصيحته. فلمّا صنع أهل المدينة ما صنعوا وجه إليهم مسلم بن عقبة وقد بعث أهل المدينة إلى كلّ ماء بينهم وبين أهل الشام فصبّوا فيه زفاً من قطران وغوّروه فأرسل الله عليم السماء فلم يستقوا بدلو حتّى وردوا المدينة[2].

وهنا لابدّ أن يذهب معاوية إلى ربّه وفي عنقه دماء شهداء الحرّة. كما أنّ من نصّبه وأعانه ذهب بشطر من هذه الدماء كبير. وأعجب من هؤلاء المجرمين. الرواة

---

(١) التذكرة الحمدونية، ج٢ ص٢٩٠.

(٢) تاريخ خليفة بين خياط، ص٢٢٩ ج١، تحقيق أكرم العمرى، ط المجمع العراقي ١٣٦٨، مطبعة الآداب النجف.

والمؤرّخون الّذين ينحازون إلى جانبهم. بخيوط وهمية من الاعتقادات الباطلة فهذا ابن الخيّاط. يرى أنّ الله أعان مسرفاً على أهل المدينة بالمطر. أرسله على جيشه لئلا يظمىء وحتى يكون أقدر على القتل واستباحة حمى مدينة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم.

وأعجب منه ابن تغري بردي. ذكر جرائم مسرف في الحرّة وكثرة من قتل من الصحابة والتابعين وأغمار الناس ثمّ أمسك عنه. لأنّه فيما يزعم من الصحابة. قال: وفيها أي سنة ثلاث وستين.

كانت وقعة الحرّة على باب طيبة. وهو أنّ يزيد بن معاوية بعث إليها جيشاً عليهم مسلم بن عقبة حين خالفوا عليه وأمره بهتك حرمة المدينة وكان مع مسلم اثنا عشر ألفاً فوصل مسلم المذكور إلى المدينة وفعل فيها ما لا يفعله مسلم فإنّه قتل في هذه الواقعة خلقاً من المهاجرين والأنصار وانتهكت حرمة المدينة وانتهبت وافتضّت فيها ألف عذراء واستشهد فيها عبدالله بن حنظلة الغسيل في ثمانية من بيته وله صحبة وروايةوقتل فيها أيضاً معقل بن سنان الأشجعي صبراً واستشهد أيضاً عبدالله بن زيد بن عاصم المازني النجاري وله صحبة ورواية واستشهد فيها أيضاً أفلح مولى أبي أيّوب. ومحمّد بن عمرو بن حزم الأنصاري ولد في حياة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ومحمّد بن ثابت بن قيس بن شماس حنّكه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بريقه ومعاذ بن الحارث الأنصاري أبو حليمة القارىء الّذي أقامه عمر يصلي التراويح وتوفّي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وله ستّ سنين ومحمّد بن الجهم بن حذيفة ومحمّد بن أبي حذيفة العدوي كلّ هؤلاء قتلوا يومئذ وهذا ممَّا اختصرته من مقالة الذهبي.

وقد ذكر هذه الواقعة أيضاً أبو المظفّر وساق فيها اموراً شنيعة إلى الغاية وفيما ذكرناه كفاية يعرف منها حال مسلم بن عقبة المذكور ويكفيك أنّه من يومئذ سمي مسلم المذكور (مسرف بن عقبة) وقيل: انّه أدرك النبيّ .....

إلى أن يقول بعد كلام:

وذكر الذهبي رحمه الله: أنّ مسلماً هذا أدرك النّبي صلى الله عليه وآله وسلم قلت ولهذا أمسكنا عن الكلام في أمره ...[1]

---

(١) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج١ ص١٦٠ وص١٦١.

وهذا ان حقّقت. هو دين القوم. الذهبي وابن كثير وابن تغري بردي وغيرهم. يذكر جرايم مسرف ثم يلقي عليه حصانة هي كالدرع المجفف. انّها الصحبة. فمسلم أو مسرف لا يرقى إليه الذم لأنّه أدرك النبي. أي لأنّه صحابي. فكيف والحال هذه لا يؤلّهون معاوية وصاحبه.

ونحن نقول لهم إنّ معاوية شريك في هذه الدماء الّتي أراقها مسلم والأعراض الّتي انتهكها. كما أنّ صاحبة الّذي ولاّهُ وجرّأه على الإسلام وسمّاه فتى قريش وأصمّ أُذنيه عن سماع كلّ كلمة تسيء إليه وأمدّ له بالطغيان وقوّاه بالدعم المادي والمعنوي والعسكري أيضاً يتحمّل معه، التبعة الكبرى كذلك بشهادته على نفسه. حين قال له ابنه عبدالله عن علي عليه السلام لم لا تستخلفه؟! قال: أكره أن أتحمّلها حياً وميّتاً وبناءاً على هذا فالميت يتحمّل شطراً من تبعات الحيّ إذاكان شريكه في العمل وعونه عليه..

بسر بن أرطاة لعنه الله

وهذا نموذج ارهابي آخر من أعوان معاويه على الشرّ والجريمة. «بسر بن أرطاة» أحد بنى عامر بن لؤي بعثه معاوية بعد تحكيم الحكمين لقتل شيعة عليّ فمرّ في البلاد يشن الغارات ولا يكفُّون أيديهم عن النساء والصبيان!! ففعل ذلك بالمدينة ومكّة والسراة ونجران واليمن وكان عبيدالله بن العباس عاملا لعلي على اليمن وكان غائباً وقيل بل هرب من بسر ووجد صبيَّين له فذبحهما بمدية واسمهما عبدالرحمن وقثم وأصاب ام الصبيين وهي ام حكيم بنت فارط على ابنيها كالجنون فكانت لا تعقل ولا تصغى إلى قول من أعلمها أنّهما قد قتلا ولا تزال تطوف في الموسم تنشد الناس أبياتاً:

يا من أحسَّ بأبني الّذين هما ... كالدرّتين تشظى عنهما الصدف
يا من أحسن بابني اللّذين هما ... سمعي وقلبي فقلبي اليوم مختطف
نبئت بسراً وما صدّقت ما زعموا ... من قولهم ومن الإفك الّذي اقترفوا
أنحى على ودجي ابنى مرهفة ... مشحوذة وكذاك الاثم يقترف
حتّى لقيت رجالا من أرومته ... شمّ الأُنوف لهم في قومهم شرف

فـــالآن إلعـــن بســـراً حـــقّ لعنتـــه هـــذا لعمـــر أبي بســـر هـــو الســـرف

ولما بلغ عليّاً قتل الصبيَّين جزع ودعا على بسر فقال: اللهمّ اسلبه دينه ولا تخرجه من الدُّنيا حتّى تسلبه عقله. فأصابه ذلك وفقد عقله فكان يهذي بالسيف ويطلبه فيؤتى بسيف من خشب ويجعل بين يديه زق منفوخ فلا يزال يضربه ما شاء حتّى مات.

ولما كانت الجماعة واستقرّ الأمر على معاويه دخل عليه عبيدالله بن العبّاس وعنده بسر بن أرطاة فقال له عبيدالله: أنت القاتل للصبيَّين أيّها الشيخ؟ فقال بسر: نعم أنا قاتلهما فقال عبيدالله:

لوددت أنّ الأرض أنبتتني عندك فقال له بسر:

فقد انبتتك الآن عندي فقال عبيدالله:

ألا سيف؟ فقال بسر: هاك سيفى فلمّا أهوى عبيدالله إلى السيف ليتناوله أخذه معاوية ثمّ قال لبسر: أخزاك الله شيخاً قد كبرت وذهب عقلك تعمد إلى رجل من بني هاشم قد وترته وقتلت ابنيه تدفع إليه سيفك؟ أنّك لغافل عن قلوب بني هاشم والله لو تمكن منه لبدأ بى قبلك فقال عبيدالله أجل والله ثمّ لثنيتُ به[1].

وذكر الطبري هذه الواقعة بإيجاز وقال:

ولقي بسر ثقل ابن العبّاس وفيه ابنان له صغيران فذبحهما وقد قال بعض الناس انّه وجد ابني عبيدالله عند رجل من بني كنانه من أهل البادية فلمّا أراد قتلهما قال الكناني علامَ تقتل هذين ولا ذنب لهما! فإن كنت قاتلهما فاقتلني قال: أفعل فبدأ بالكناني فقتله. ثمّ قتلهما ثمّ رجع بسر إلى الشام وقد قيل أنّ الكناني قاتَل عن الطفلين حتّى قتل وكان اسم أحد الطفلين اللّذين قتلهما بسر عبدالرحمن والآخر قثم. وقتل بسر في مسيره ذلك جماعة كثيرة من شيعة علي ...[2]

وقال اليعقوبي:

وخرجت نسوة من بني كنانة فقلن: يا بسر هذا الرجال يقتلون فما بال الولدان

---

(١) التذكرة الحمدونيّة، ج٤ ص٢٧٦ وص٢٧٧.

(٢) تاريخ الطبري، ج٥ ص١٤٠.

والله ما كانت الجاهلية تقتلهم والله إنّ سلطاناً لا يشتد إلاّ بقتل الصبيان ورفع الرحمة لسلطان سوء فقال بسر: والله لقد هممت أن أضع فيكن السيف وقدّم الطفلين فدبحهما[١].

أجل، إنّ سلطان معاويه سلطان سوء وبهذه النفس المريضة حكم المسلمين خليفة بل ملكاً عشرين عاماً. ملأ بها دنيا الإسلام جرائم ومئاسي ودماء حتّى هلك بعد أن وصل ماضيه الأسود بحاضر ولده. فتمّ لفلان ما أراد من دخول الإسلام في هذا النفق المظلم.

السمة الثامنة: المتاجرة بعرضه

وهذه السمة من أحطّ السمات. فقد ألف الناس من سيرة الحاكم. الترفّع عن هذه الدنايا بخاصّة. إذا كان أساس حكمه الدّين. وهو يدعى أمير المؤمنين. ولكنّ معاوية. رفع شعار المتاجرة بالعرض. في حكمه حتّى رُميَ بقلّة الغيرة[٢].

ولعلّ من شواهد قلّة الغيرة عنده إرسال جاريته إلى يزيد ولده ليحيي سنة أُميّة جدّه حين تنازل عن امرئته وزوّجها ولده أبا عمر.

قال خديج الخصي مولى معاوية:

اشترى معاوية جارية بيضاء جميلة فأدخلتها عليه مجردة وبيده قضيب. فجعل يهوي به إلى متاعها يعني فرجها ويقول: هذا المتاع لو كان لي متاع..

اذهب بها إلى يزيد بن معاويه. ثمّ قال: لا!

ادع لي ربيعة بن عمرو الجرشي وكان فقيهاً فلما دخل عليه قال: إنّ هذه أتيت بها مجردة فرأيت منها ذاك وذاك. وإنّي أردت أن أبعث بها إلى يزيد قال لا تفعل يا أمير المؤمنين فإنّها لا تصلح له فقال: نعم ما رأيت[٣].

والّذي أعتقده أنّ هذه الحكاية أكملت بعد معاوية وربيعة الّذي استفتاه

---

(١) تاريخ اليعقوبي، ج٢ ص١٩٩.

(٢) الآبي، نثر الدر، ج٣ ص١٨.

(٣) البداية والنهاية، ج٨ ص١٤٣.

معاوية نسب إلى الفقه وكان يقصّ في زمن معاوية[1] ويقول أحمد بن حنبل عن هؤلاء القصاص أنّهم أكذب الناس.

وعن أبي قلابة: ما أمات العلم إلاّ القصاص[2].

ونسب الجريش إلى الصحبة ولم تثبت. وكل من ترجم له أشار إلى ذلك. وقالوا عنه: كان زبيريّاً.

ولو أنّنا تابعنا الحكاية وصحّحنا مقدمها وتاليها. وقُلنا بما قاله شيعة ابن هند إنّ في ذلك دلالة على فقهه أما كان في تجريد الجارية من ثيابها بين يدي الخصي دلالة على فقدان الغيرة عنده. وليس الخصي لأنّه مجبوب بعد عن النساء أو اجتواهن. بل الخصي ينكح ويتّخذ الجواري ويشتد شغفة بالنساء وشغفهنّ به وهو وإن كان مجبوب العضو فإنّه قد بقي له ما عسى أن يكون فيه من ذلك ما هو أعجب إليهنّ. وقد يحتلم ويخرج منه عند الوطىء ماء ولكنّه قليل متغيّر الريح. رقيق ضعيف وهو يباشر بمشقّة ثمّ لا يمنعه من المعاودة الماء الّذي يخرج منه إذ كان قليل المقدار. لا يخرجه من القوّة إلى الضعف مثل الّذي يعتري من يخرج منه شيء يكون من إنسان وهو أخثر وأكثر. واجد ريحاً. وأصح جوهراً[3].

وهذا كلام عالم بحقيقة وضع الخصي الجنسي. فكيف طابت نفس ابن هند أن يجرّد جاريته الجميلة بين يديه لو كان في رأسه قيراط غيرة.

وكما هانت عليه جاريته هانت عليه امّه فقد كانت تذكر بعض مزاياها النسائيّة بين يديه فلا يثير ذلك في نفسه شيئاً من الغيرة أو المروئة وينسبه من رآه إلى الحلم بل هو إلى فقدان الغيرة أقرب.

ذكر ابن كثير عن الأعمش أنّه قال:

طاف الحسن مع معاوية فكان معاوية يمشي بين يديه فقال الحسن ما أشبه إليتيه بإليتي هند؟.

---

(١) الحافظ المزي، تهذيب الكمال، ج٦ ص١٧٢، ط دارالفكر، بيروت ١٤١٤ هجري.

(٢) محمود أبو ريّة ﵀، أضواء على السنّة المحمديّة، ص١٣٤.

(٣) الجاحظ كتاب الحيوان، ج١ ص١٦٦، ط دارالفكر، بيروت ١٤٠٨ هجري.

فالتفت إليه معاوية فقال: أما إنّ ذلك كان يعجب أبا سفيان. [1]

وكذب بذلك الأعمش على الإمام الحسن عليه السلام لأنّه لا ينطق العوراء ولا يفحش بشهادة صاحب الإليتين.

قال معاوية: ما تكلّم عندي أحد كان أحب إلي إذا تكلّم أن لا يسكت من الحسن بن علي وما سمعت منه كلمة فحش قط إلاّ مرّة فإنّه كان بين الحسن بن علي وبين عمرو بن عثمان بن عفّان خصومة في أرض فعرض الحسن بن علي أمراً لم يرضه عمرو فقال الحسن: ليس له عندنا إلاّ ما رغم أنفه فهذه أشدّ كلمة فحش سمعتها منه قط[2].

وشهادة معاوية شهادة عدو بفضل عدوّه ولا أستبعد أن يكون غُلمته أذاع عن الإمام الحسن حكاية العجيزة حسداً منهم لما عرف به الإمام الحسن عليه السلام من نزاهة المنطق وحُسن القول. ويدلّ على ذلك حكاية أخرى عن عجيزة هند وابنها جاءت في صبح الأعشى بسياق آخر يقول القلقشندى:

ومن غريب ما يُحكى في ذلك أنّ رجلا أخذَ خطراً من قوم على أن يُغضب معاوية ابن أبي سفيان مع غلبة حلمه فعمد إلى معاوية وهو ساجد في الصلاة فوضع يده على عجيزته وقال: ما أشبه هذه العجيزة بعجيزة هند!

يعني ام معاوية فلمّا سلّم من صلاته. التفت إلى ذلك الرجل وقال: يا هذا إنّ أبا سفيان كان محتاجاً من هند إلى ذلك وإن كان أحد جعل لك شيئاً على ذلك فخذه.

وهذه الحكاية تغلب عليها الصنعة ولا يخالجني ريب في وضعها لأثبات حلم ابن هند.

لأنّ هذا الرجل إن كان معهم في الصلاة فكيف جازَ له الكلام ولو فعل لأنبه من حضر. وأوّلهم معاوية. ثمّ كيف ينفذ إلى المقصورة الّتي هي أمنع من عقاب الجو ومعاويه أوّل من أحدثها بعد محاولة اغتياله الفاشلة وكيف يتركه الحرس يتقدّم دون

---

(١) البداية والنهاية، ج٨ ص١٣٨، مختصر تاريخ دمشق، ج٢٥ ص٥٩.

(٢) اليعقوبي، ج٢ ص٢٢٧.

أن تمتدّ إلى لبطنة الحراب لتوجرها مع أنّ معاوية تقدّم إليهم أن لا يدخل عليه مجهول وكان جباناً في نفسه إلى حدّ الهلع والفزع.

لما دخل معاوية الكوفة أتاه شبيب كالمتقرّب إليه فقال: أنا وابن ملجم قتلنا علياً فوثب معاوية من مجلسه مذعوراً حتّى دخل منزله وبعث إلى أشجع وقال لئن رأيت شبيباً أو بلغني أنّه ببابي لأهلكنكم أخرجوه عن بلدكم[1].

جبنت من الرومي وهو مقيّد فكيف إذا لاقيته وهو مطلق

وحكاية عجيزة جدّة المؤمنين «هند» أوّل من تغزّل بها شيخ مضير تهم أبو هريرة ليرفع من قدر ولدها (خال المؤمنين) قال أبو هريرة:

رأيت هنداً بمكّة جالسة وكأنّ وجهها فلقة قمر وخلفها من عجيزتها مثل الرجل الجالس ....[2]

ولا يهمّنها من هند هذا ولا ذاك ولكن يهمنا أن نتميّز الأجواء الّتي علقت فيها بمعاوية وولدته وقضى سنيّ طفولته فيها.

لأنّها أجواء تعتبر بمثابة مفتاح السر الّذي يفتح لنا المغلق من شأن معاوية في غيرته على حرمه وكيف بلغ بها إلى درجة يأنف منها حتّى الإنسان الجاهلي بل يأباها حتّى القرد.

وأذكر من بعض مشاهداتي وما سجلته في سجل ذكرياتي إنّني في عهد الشبيبة وزميلا لي زرنا طهران وقصدنا حديقة الحيوان فيها. وسحنا في أطرافها وأكنافها وشاهدنا ضمن ما شاهدناه فيها أقفاص القرود وهي في الواقع خير ما فيها آنذاك ومررنا بقفص منها وفيه قردان و ما كنا نعلم أنّهما زوجان. وشاهدنا قرداً منهما نائماً إلى جانب السياج ممسكاً بإحدى يديه بطرف منه فعمد صاحبي إلى راحة يد القرد وأخذ يحكها بسبابتهِ بلطف وكأنه استطاب حمرتها ونعومتها وفجئة انقضَّ علينا القرد الراقد في أعلى القفص وقد ملأه صراخاً وزعيقاً وهبط إلى أسفل القفص وأوسع القدر النائم صراخاً وهمهمة فعللمنا حينئذ إنّها أُنثاه وقد غار عليها من سبابة

---

(١) ابن الأثير الكامل، ج٣ ص٢٠٦.

(٢) ابن الأثير الكامل، ج٣ ص٢٠٦.

زميلي وساعتها اكتشفنا لأوّل مرّة أنّ القرد يغار أيضاً على عرضه من الإنسان فما بالك به لو شاهد قرداً معها وأعتقد أنّ هذا القرد خير من معاوية ابن أبي سفيان الّذي وضع عرضه في مهبّ السياسة كالريشة في مهب الريح..

وأعتقد أنّ أجواء الإنفلات في بيت هند الّتي قضى فيها معاوية طفولته وصباه بل وفتوّته أيضاً هي الّتي أكسبته هذه اللامبالاة.

وصيّرته يستخدم العرض للأغراض السياسيّة فيهب البنت والأُخت وبنت الأخ والولد تارة لهذا واخرى لذاك. ليجذبهم إلى حضيرة سياسته. ويسخّرهم لمآربه ولقضاء أوطاره السياسيّة يقول الزمخشري:

وكان معاوية يعزى إلى أربعة إلى مسافر بن أبي عمرو وإلى عمارة بن الوليد وإلى العباس بن عبدالمطّلب وإلى الصبّاح مغن أسود كان لعمارة قالوا: كان أبو سفيان دميماً قصيراً وكان الصباح عسيفاً لأبي سفيان شاباً وسيماً فدعته هند إلى نفسها.

وقالوا: إنّ عتبة بن أبي سفيان من الصبّاح أيضاً وأنّها كرهت أن تضعه في منزلها فخرجت إلى أجياد فوضعته هناك وفي ذلك قال حسان:

لمن الصبي بجانب البطحاء ملقى غير ذي سهد

نجلت به بيضاء آنسة من عبد شمس صلتة الخد[1]

والبيت الأوّل كنا نقرءه كالتالي:

لمن الصبي بجانب البطحاء في الأرض ملقىً غير ذي مهد

وهو الصواب أمّا «غير ذي سهد» فلا معنى لها ولكني نقلته كما وجدته في المصدر.

في هذه الأجواء الأباحية ولد معاوية وترعرع فيها وهي أجواء الزنا الرسمي تقارفه هند على رؤوس الأشهاد لا تحذر أحداً.

وتأثير هذا على الولد أشدّ من تأثيره إذا كان خلسة مع الحذر والخوف.

ففي الأوّل يتفتّح وعي الناشىء في أحضانه على ممارسته بشكل علني وبإصرار فتهون عليه الأخلاق والمُثُل الشريفة. أمّا الثاني فيدرك أنّه إثم مذموم حين

---

(١) الزمخشري، ربيع الأبرار، ج٤ ص٢٧٥ وص٢٧٦.

يمارس مع الخوف والحذر.

فلا يبعد عن العلاقة الطيّبة مع الخلق الشريف والقيم المحترمة..

ومن المعقول أن تكون هذه الأجواء المنفلتة والمجانبة للآداب هي علّة خروج معاوية على المألوف من الغيرة واحترام العرض.

وإذا شئت فجزء علّة على أقلّ تقدير. والواقع أنّ الوسط الجاهلي بصورة عامّة يعيش مثل هذه الأجواء الداعرة وكان معاوية في بيته يعيش في أعماق ذلك الوسط الجاهلي.

من ثمّ أصبح في عزّ ملكه وليس يُبالي ما أنزل بعرضه والّذي يستنبطه الباحث من حياة معاوية السياسيّة انّه اتّخذ من شهوة الحكم غايته القصوى وصارت الوسائط عنده سواءٌ منها العرض أو الدين تبرّرها تلكم الغاية.

ولما استلحق معاوية زياداً بشهادة أبي مريم السلولي أرسلت إليه جويريّة بنت أبي سفيان عن أمر أخيها معاوية فأتاها فأذنت له و كشفت عن شعرها بين يديه وقالت أنت أخي أخبرني بذلك أبو مريم[1].

وأبو مريم هذا خمّار في الجاهلية شهد على أبي سفيان بالزنا بسميّة ولو كان لهذه الشهادة واقع صحيح فإنّ تمييز علوق سمية من أبي سفيان من بين عشرات الزائرين أمر مستحيل وكان على جويريّة لو لم تكن كأخيها الامتناع عن ذلك نظراً لهذه الحقيقة.

أمّا معاوية فقد تمادى في إدّعائه إلى حدّ توظيف العرض له.

وزوّجَ إحدى بناته من أحد أبناء زياد ليدلّ بذلك على صحّة هذا الإدّعاء.

فافتخرت يوماً على زوجها وتطاولت، فشكاها إلى أبيه زياد. فدخل عليهابالدرّة يضربها ويقول لها أشفراً وفخراً .....[2]

وحكاية معاوية مع عبدالله بن سلام بشأن امرأته أُرينب بنت اسحاق وكيف أغراه معاوية بابنته وزواجه منها ليطلّقها ويقضى واحدة من أماني ابنه يزيد في

---

(١) مروج الذهب، ج٣ ص٧.

(٢) أمالي المرتضى، ج١ ص٨٠.

الزواج منها وكان انعكاس هذه الحكاية على الرأي العام شديداً على معاوية. حتّى قال الناس فيه:

كما نقل ذلك ابن قتيبة بالتفصيل فقال:

.. وذاع أمره في الناس وشاع ونقلوه إلى الأمصار وتحدّثوا به في الأسحار وفي اللّيل والنّهار وشاع في ذلك قولهم وعظم لمعاوية عليه لومهم وقالوا:

خدعه معاوية حتّى طلّق امرأته وإنّما أرادها لإبنه فبئسَ من استرعاه الله أمر عباده ومكّنه في بلاده وأشركه في سلطانه يطلب أمراً بخدعة من جعل الله إليه أمره ويحيّره ويصرعه جرأة على الله[1].

وأحسب أنّ معاوية كان يحسب بناته بمثابة الذهب يوجّهه إلى من يُريد اكتسابه أو شراء ذمّته..

وطالما أنفقهنّ كمرادفهنّ الذهب في تمرير سياسته الباطلة. ولست واجداً في جاهلية أو اسلام أباً كمعاوية في جعل بناته بل عرضه بضاعة وَوَضْعِها في سوقه الخاصّة بالغدر والخديعة والكذب والدجل السياسي.

بلغ معاوية أنّ ابنته امتنعت على ابن عامر في الافتضاض فخرج إليها يتوذف في مشيته وفي يده مخصرة فجلس وجعل ينكث في الأرض ويقول:

من الخفرات البيض أما حرامها فصعب وأما حلّها فذلول

وخرج فدخل ابن عامر فلم تمتنع عليه[2].

وهذه حالة من غرائب الحالات لا تواتي إلاّ من كان مثل معاوية وما اختط لنفسه من السياسة العرضية ووضعها في مزاد سياسة الحكم.

وحكاية ابنته مع أبي دهبل تكشف عن هذه السياسة الوقاح بشكل سافر. نقل أبو الفرج الاصبهاني عن عاتكة ابنة معاوية أنّها حجّت فنزلت من مكّة بذي طوى فبينا هي ذات يوم جالسة وقد اشتد الحر وانقطع الطريق وذلك في وقت الهاجرة إذ أمرت جواريها فرفعن الستر وهي جالسة في مجلسها عليها شفوف لها تنظر إلى

---

(١) الإمامة والسياسة، ج١ ص١٧٠ وقد نقل ابن قتيبة حكاية أُرينب بنت اسحاق بتفصيل واف.

(٢) التذكرة الحمدونية، ج١ ص٤٥٩.

الطريق إذ مرّ بها أبو دهيل الجمحي وكان من أجمل الناس وأحسنهم منظراً. فوقف طويلا ينطر إليها وإلى جمالها وهي غافلة عنه فلما فطنت له سترت وجهها وأمرت بطرح الستر وشتمته فقال أبو دهبل:

إنّي دعـــــاني الحـــــين فاقتـــــادني حـــــتّى رأيـــــت الظـــــبي بالبـــــاب
يـــــا حســـــنه إذ ســـــبّنى مـــــدبراً مســـــــتتراً عـــــــني بجلبـــــــابِ
ســـــبحان مـــــن وقّفهـــــا حســـــرة صـــــبّت علـــــى القلـــــب بأوصـــــاب
يـــــذود عنهـــــا إن تطليتهـــــا اب لهـــــا لـــــيس بوهّـــــاب
أحلّهـــــا قصـــــراً منيـــــع الـــــذرى يحمـــــى بـــــأبواب وحجـــــاب

قال وأنشد أبو دهبل هذه الأبيات بعض اخوانه.

فشاعت بمكّة وشهرت وغنى فيها المغنون حتّى سمعتها عاتكة انشاداً وغناءاً فضحكت وأعجبتها وبعثت إليه بكسوة وجرت الرسل بينهما فلما صدرت عن مكّة خرج معها إلى الشام ونزل قريباً منها فكانت تعاهده بالبر واللطف حتّى وردت دمشق وورد معها فانقطعت عن لقائه وبعد من أن يراهاومرض بدمشق مرضاً طويلا فقال في ذلك:

طـــال ليلـــي وبـــت كـــالمحزون ومللـــت الثـــواء في حـــيرون
وأطلـــت المقـــام بالشـــام حـــتّى ظـــن أهلـــي مرجمـــات الظنـــون
فبكـــت خشـــية التفـــرّق جمـــل كبكـــاء القـــرين إثـــر القـــرين
وهـــي زهـــراء مثـــل لؤلـــؤة الفـــواص ميـــزت في جـــوهر مكنـــون
ثمّ خاصـــرتها إلى القبّـــة الخضـــراء تمشـــي في مرمـــر مســـنون
قبّـــة مـــن مراجـــل ضـــربوها عنـــد بـــرد الشـــتاء في قيطـــون
عـــن يســـاري إذا دخلـــت مـــن البـــا ب وان كنـــت خارجـــاً عـــن يميـــني
ولقـــد قلـــت إذ تطـــاول ســـقمي وتقلبـــت ليلـــتي في فنـــون
ليـــت شـــعري أمـــن هـــوىً طـــار نـــومي أم بـــراني البـــاري قصـــير الجفـــون

قال: وشاع هذا الشعر حتّى بلغ معاويه فأمسك عنه حتّى إذا كان يوم الجمعة دخل عليه الناس وفيهم أبو دهبل فقال معاويه لحاجبه إذا أراد أبو دهبل الخروج فامنعه وأردده إليَّ وجعل الناس يسلّمون وينصرفون فقام أبو دهبل لينصرف فناداه

معاوية يا أبا دهيل إليَّ فلما دنا إليه أجلسه حتّى خلا به ثمّ قال له: ما كنت أظن أنّ في قريش أشعر منك حيث تقول:

ولقـــد قلـــت إذ تطـــاول ســـقمي وتقلبـــــت ليلـــــتى في فنـــــون
ليـت شـعري أمـن هـوىً طـار نـومي أم يـــراني البـــاري قصـــير الجفـــون

غير أنّك قلت:

وهـــي زهـــراء مثـــل لؤلـــؤة الغـــوّاص ميـــزت مـــن جـــوهر مكنـــون
وإذا مـــا نســـبتها لم تجـــدها في ســـناء مـــن المكـــارم دون

ووالله إنّ فتاةً أبوهامعاوية وجدها أبو سفيان وجدّتها هند بنت عتبة لكما ذكرت وأي شيء زدت في قدرها ولقد أسأت في قولك:

ثمّ خاصـــرتها إلى القبـــة الخضـــراء تمشـــي في مرمـــر مســـنون

فقال والله يا أمير المؤمنين ما قلت هذا وإنّما قيل على لساني فقال له: أمّا من جهتي فلا خوف عليك لأنّي أعلم صيانة ابنتي نفسها وأعرف أنّ فتيان الشعر لم يتركوا أن يقولو النسيب في كلّ من جاز أن يقولوه فيه وكلّ من لم يجز وإنّما أكره لك جوار يزيد وأخاف عليك وثباته فإنّ له سورة الشباب و أَنَفَة الملوك ...[1]

والحكاية طويلة ذكرها أبو الفرج بطولها وفي ختامها أنّ أبا دهبل لم يزل يطارد عاتكة فرأى معاوية أن يزوّجه ليتخلّص من قالة السوء فزوّجه وكفّ عنها.

فهل هذا حُلُم أو دياثة ادع ذلك لفطنة القارىء واحسب ان عرض معاوية كان مثار حديث أهل الشام ودهشتهم. لذلك نرى معاوية في احدى خطبه ينهى عن ذلك من طرف خفي فيقول على المنبر:

إيايّ وقذف المحصنات وان يقول الرجل سمعت وبلغني فلو قذفت إمرأة على عهد نوح لسئل عنها يوم القيامة ...[2]

ولعلّ توغّله في الزمن صعوداً إلى عهد نوح قرينة على أنّ القوم كانوا يخوضون في سيرة امّه وما ورّثتهُ اياهُ من عدم الاهتمام بالعرض من ثم سارع إلى بيان

---

(١) الأغاني، ج٧ ص١٢١.

(٢) مختصر تاريخ دمشق، ج٢٥ ص٤٩.

ذلك ليكون أوقع في الردع.

وإلاّ فلا أجد مناسبة تدعوه إلى ذكر ذلك سوى تلك المناسبة.

وربّما بدرت من معاوية بادرة صغيرة دلّت على ما يتّصف به من قلّة الغيرة.

ذكر الجاحظ: إنّ معاوية خرج ذات يوم يمشي ومعه خصي له. إذ دخل على ميسون ابنة بجدل وهي ام يزيد فاستترت منه فقال:

أتستترين منه وإنّما هو مثل المرأة؟ قالت أترى إنّ المثلة به تُحلّ ما حرّم الله[1].

وإن تعجب من هؤلاء فإنّ أمرهم عجب وأيّ عجب ولكن أعجب من شيعتهم أمثال ابن كثير والذهبي وابن تيميّة وغيرهم.

فهذا ابن كثير يعدّ خلافة يزيد مكافئة لأمّه على احتجابها من الخصي قال:

وكانت حازمة عظيمة الشان جمالا ورياسة وعقلا وديناً دخل عليها معاوية يوماً ومعه خادم خصي فاستترت منه وقالت: ما هذا الرجل معك؟ فقال: إنّه خصي فاظهري عليه.

فقالت: ما كانت المثلة لتحلّ ما حرّم الله عليه وحجبته عنها. وفي رواية إنّها قالت له:

إنّ مجرّد مثلتك له[2] لن تحلّ ما حرّم الله عليه فلهذا أولى الله ابنها يزيد الخلافة بعد أبيه[3] وأقول لهذا العاشق المفلس:

ما أعزّ ميسون على الله وما أهون امّة محمّد يكافىء هذه المرأة على احتجابها من خصي بكارثة كبرى ينزلها في الإسلام والمسلمين وهي ولاية يزيد لعنه الله فيقتل أهل البيت ويستبيح المدينة ويقتل أهلها وفيهم سبعون بدرياً ويجري من غربان الشام ما يجري على نسائها وعواتقها. ويهدم الكعبة بنصب المجانيق على أسوارها لقتل ابن الزبير كلّ هذا مكافئة لميسون لأنّها استترت من خصي. بعداً وسحقاً لعقلك يا ابن كثير وعقل اشباهك.

---

(١) الجاحظ، كتاب الحيوان، ج١ ص١٧٧.

(٢) وقولها هذا يدلّ على أنّ معاوية هو الذّي خصاه..

(٣) البداية والنهاية، ج٨ ص١٤٨.

وقد تكون هذه المرأة على شيء من الحزم حين عرفت عن معاوية ودنياه وعرفت طبيعة ذاته.

لما زفت ميسون بنت بجدل الطلبية إلى معاوية تشوّقت إلى البادية فقالت:

لبيـــــت تخفـــــق الأرواح فيـــــه أحـــــبّ إليّ مـــــن قصـــــر منيـــــف

وأصـــــوات الريـــــاح بكـــــلّ فـــــج أحـــــبّ إليّ مـــــن نقـــــر الـــــدفوف

وكلـــــب ينـــــبح الطـــــراق عـــــني أحـــــبّ إليّ مـــــن هـــــر ألـــــوف

وبكـــــر يتبـــــع الأضـــــعان صـــــعب أحـــــب إليّ مـــــن بغـــــل زفـــــوف

ولـــــبس عبـــــاءة وتقـــــرّ عيـــــني أحـــــبّ إليّ مـــــن لـــــبس الشـــــغوف

وخـــــرق مـــــن بـــــني عمـــــي كـــــريم أحـــــبّ إليّ مـــــن علـــــج عليـــــف

فلمّا بلغت الأبيات معاوية قال: والله ما رضيت بنت بجدل حتى جعلتني علجاً عليفاً ...[1]

ولا أعتقد أنّ مجرّد الحياة الحضرية المغايرة لطبيعة البادية حملتها على هذا الحنين وطلب العودة من حيث أتت بل من الممكن أن تكون قَلَت حياة الابتذال في القصر وما كانت تشاهده من غياب الضوابط الأخلاقية ونقر الدفوف!! وما يتبع ذلك من هزّ الأعطاف في قصر معاوية.

والواقع أنّ أكثر الكلمات استيعاباً لحقيقة معاوية قول عبدالملك بن مروان فيه:

قال أبو عاصم عن ابن جريج عن أبيه قال:

حجّ علينا عبدالملك بن مروان سنة خمس وسبعين بعد مقتل ابن الزبير بعامين فخطبنا فقال:

أمّا بعد فإنّه كان قبلي من الخلفاء يأكلون من هذا المال ويوكلون واني والله لا أداوي أدواء هذه الأمّة إلاّ بالسيف ولست بالخليفة المستضعف يعني عثمان ولا الخليفة المداهن يعني معاوية[2].

---

(١) التذكرة الحمدونية، ج٧ ص٤١٦.

(٢) تاريخ خليفة بن خياط، ج١ ص٢٧٠.

أجل والله صدق هذا الخبيث فلن تجد مداهناً في دينه وعرضه مثل معاوية بن أبي سفيان.

السمة التاسعة: أفقار الناس بنهب أموالهم وحيازة أراضيهم واستصفاء الذهب والفضة وجمعها في خزائنه ليحوك المؤامرات ويشتري الذمم

وأعتقد أنّ هذه السمة أشدّ السمات فتكاً وأعمّها أثراً في الأُمّة فقد تنبهت في معاوية بعد أن ذاق حلاوة الحكم حاسّة الجشع الفاجر واستفحلت فيه طبيعة الطمع بعد أن وجد سبيل النهب والجمع والادّخار معداً له في إمارته وخلافته. بخاصة وقد جعل له عمر عطاءه من بيت المال عشرة آلاف دينار وهو مبلغ خيالي في ذلك الزمان ...

والدينار يساوي المثقال وهو احدى وسبعون شعيرة تقريباً بناءاً على أنّ الدانق ثماني حباب وخمسمائة حبّة..[1]

وباستطاعتك أن تلمّ بالمبلغ الكبير الّذي كان يهبه عمرلمعاوية ثمناً لكيده الإسلام ومخالفته شرائعه.

ولقد إسر حبّ المال معاوية وملك عليه شغاف قلبه فأعشى بريق الذهب عينيه وأصم أذنيه أذنيه. وجعله قاعدةً رفع عليها. دعائم ملكه. واستعبد به عبّاده مثل ابن العاص فقد قال له ذات يوم:

ما أشدّ حبّك للمال قال ولِمَ لا أُحبّه وأنا استعبد به مثلك وابتاع دينك ومروءتك ....[2]

وصدق ابن هند لقد ابتاع به دين الكثير من نظراء ابن العاص في الطمع والخسّة.

وفد الأحنف بن قيس وجارية بن قدامة من بني ربيعة بن كعب بن سعد والجون بن قتادة العبشمي والحتات بن يزيد أبو منازل أحد بني حُويّ بن سفيان بن مجاشع إلى معاوية بن أبي سفيان.

---

(١) حسين يوسف موسى وعبدالفتاح الصعيدي، فقه اللغة، ج٢ ص١٢٣٠.

(٢) التذكرة الحمدونية، ج٧ ص١٩١.

فأعطى كلّ رجلّ منهم مائة ألف وأعطى الحتات سبعين ألفاً فلما كانوا في الطريق سأل بعضهم بعضاً فأخبروه بجوائزهم. فكان الحتات أخذ سبعين ألفاً فرجع إلى معاوية فقال: ما ردّك يا أبا منازل؟ قال: فضحتني في بني تميم أما حسبي بصحيح أولست ذا سن! أولست مطاعاً في عشيرتي! فقال معاوية: بلى قال: ما بالك خسست بي دون القوم! فقال: اني اشتريت من القوم دينهم ووكلتك إلى دينك ورأيك في عثمان بن عفّان وكان عثمانياً فقال: وأنا فاشتري منّي ديني فأمر له بتمام جائزة القوم وطُعن في جائزته فحبسها معاوية ... ...[1]

والمال عند معوية سبب مهم لبلوغ غايات ومنها شراء الذمم والأديان وما من أحد ممّن اشترى معاوية منهم دينهم يجهل حقيقة الصفقة أو خطة معاوية في ذلك.. فهذا عمرو بن العاس يعلم انّه باع دينه بدنانير مصر. عن ابن عباس:

.. إنّ عمرو بن العاص قال لمعاوية بن أبي سفيان: رأيت فيما يرى النائم أبا بكر كئيباً حزيناً قد أخذ بضبعيه رجلان قلت: بأبي أنت وأمي يا خليفة رسول الله ﷺ ما شأنك؟ أراك كيباً حزيناً! قال وكّل بي هذان الرجلان ليُحاسباني بماترى. وإذا صحف ليس بالكثيرة ورأيت عمر بن الخطّاب كئيباً حزيناً وقد أخذ بضبعيه رجلان فقلت بأبي وأمي انت يا أمير المؤمنين مالى أراك كئيباً حزيناً! قال: وكّل بي هذان الرجلان ليُحاسباني بما ترى وإذا صحف مثل الحزورة جبيل ليس بالضخم. ثمّ رأيت عثمان بن عفّان كئيباً حزيناً فقال وكّل بي هذان يُحاسباني بما ترى وإذا صحف مثل الخذمة.

- جبل إذا دخلت البطحاء عن يسارك - ورأيتك يا معاوية كئيباً حزيناًقد أخذ بضبعيك رجلان قد ألجمك العرق فقلت: بأبي وأُمي يا أمير المؤمنين! مالى أراك كئيباً حزيناً؟ فقلت: وكلّ بي هذان ليُحاسباني بما ترى وإذا صحف مثل أُحد وثبير. فقال معاوية: أما رأيت ثمّ دنانير مصر[2].

وهذه الدنانير هي الّتي جعلت عمراً كالكلب يتبع الضرغام كما وصفه الإمام

---

(١) الطبري، ج٥ ص٢٤٢، والكامل، ج٣ ص٢٣١.

(٢) مختصر تاريخ دمشق، ج٢٥ ص٦٩، والبداية والنهاية، ج٨ ص١٤٨.

عليه السلام بذلك قال في إحدى رسائله إليه:

فإنّك جعلت دينك تبعاً لدنيا امرىء ظاهر غيّهِ مهتوك ستره يشين الكريم بمجلسه ويُسَفِّهُ الحليم بخلطته فأتبعت اثره وطلبت فضله إتّباع الكلب للضرغام يلوذ إلى مخالبه وينتظر ما يلقى إليه من فضل فريسته فأذهبت دنياك وأخرتك[1].

وهذه الصفات الّتي أطلقها الإمام على ابن العاص تشمل كلّ من هو على شاكلته في إتّباع معاوية وطلبه فضله وما أكثرهم.

وبما أنّ سلاح الذهب سلاح فتّاك فقد جرّبه معاوية مع كلّ أحد فاقتنع بفاعليّته قال مالك بن هبيرة السكوني حين أبى معاوية أن يهب له حجراً وقد اجتمع إليه قومه من كندة والسكون وناس من اليمن كثير. فقال: والله لنحن أغنى عن معاوية من معاوية عنا وإنّا لنجد في قومه منه بدلا ولا يجد منا في الناس خلفاً. سيروا إلى هذا الرجل فلنخله من أيديهم فأقبلوا يسيرون ولم يشكّوا أنّهم بعذراء لم يقتلوا فاستقبلتهم قتلتهم قد خرجوا منها فلمّا رأوه في الناس ظنوا أنّما جاءهم ليخلّص حجراً من أيديم فقال لهم: ما وراءكم؟ قال: تاب القوم وجئنا لنخبر معاوية فسكت عنهم ومضى نحو عذراء فاستقبله بعض من جاء منها فأخبره أنّ القوم قد قتلوا فقال: عليَّ بالقوم! وتبعتهم الخيل وسبقوهم حتّى دخلوا على معاوية فأخبروه خبر ما أتى له مالك بن هبيرة ومن معه من الناس فقال لهم معاوية: اسكنوا فإنّما هي حرارة يجدها في نفسه وكأنّها قد طفئت ورجع مالك حتّى نزل في منزله ولم يأت معاوية فأرسل إليه معاوية فأبى أن يأتيه فلمّا كان الليل بعث إليه بمأة ألف درهم وقال: له: إنّ أمير المؤمنين لم يمنعه أن يشفّعك في ابن عمّك. إلاّ شفقة عليك وعلى أصحابك أن يُعيدوا لكم حرباً أُخرى وإنّ حجر بن عدي لو قد بقي خشيتُ أن يكلّفك وأصحابك الشخوص إليه وأن يكون ذلك من البلاء على المسلمين ما هو أعظم من قتل حجر فقبلها وطابت نفسه وأُقبل إليه من غده في جموع قومه حتّى دخل عليه ورضي عنه[2].

---

(١) مغنية، في ظلال نهج البلاغة، ج٣ ص٥٥٣.

(٢) تاريخ الطبري، ج٥ ص٢٧٨/٩، وتاريخ ابن خلدون، ج٣ ص١٣، والبلاذري، أنساب الأشراف، ج٥ ص٢٧٠.

ولولا هذه الدراهم الساحرة لطال جداله مع ابن هبيرة أو تحوّل الجدال إلى جلاد.

واستطاع معاوية أن يروّض كلّ عصي بالمال الّذي انتهبه واغتصبه حتّى عائشة تشفّع إليها بالأطواق وأكياس الذهب ومئات الأُلوف الّتي تتواتر عليها من لدنه تواتر الغيث وهو يعلم أنّ عائشة وإن بدت امرأة حبيسة دارها. ولكنّها قوّة في المسلمين خارقة أليست هي المجلبة على عثمان أو نعثل كما سمته؟ وصاحبة الجمل الّتي لا تزال آثاره تعيش معنا في القرن العشرين.

عن سعيد بن عبدالعزيزى قال: قضى معاوية عن عائشة ثمانية عشر ألف دينار[1].

وقال عروة:

بعث معاوية مرّة إلى عائشة بمئة ألف فوالله ما أمست حتى فرّقتها[2].

وأرضت معاوية الصفقة مع عائشة كما نقلت صفقة أُخرى عبدالله بن عمر من صفوف المعارضين إلى صفوف الراضين بل الأعوان الّذين يهددون بالصيلم وقد مرّ بعض ذلك في هذا الكتاب فما بقيت سلعة من هؤلاء لم يشترها معاوية بكيس أو أكياس وطوق أو أطواق وهكذا دواليك.

وصار الذهب لسلطان معاوية بمنزلة الهواء للنفس إذا أمسك عنه هلك. من ثمّ راح يكتب إلى عمّاله أن يمدّوه به.

أخرج ابن عبدالبر في الاستيعاب قال: حدّثنا أحمد بن أبي عبدالله قال: حدّثنا بقي (كذا) قال: حدّثنا أبو بكر بن أبي شيبة قال: حدّثنا ابن عليه عن هشام عن الحسن البصري قال: كتب زياد إلى الحكم بن عمروا الغفاري وهو على خراسان. إنّ أمير المؤمنين كتب إليَّ أن تصفي له البيضاء والصفراء فلا تقسّم بين الناس ذهباً ولا فضّة فكتب إليه الحكم بلغني أنّ أمير المؤمنين كتب إنّ تصفَّي له البيضاء والصفراء وإنّي وجدت كتاب الله قبل كتاب أمير المؤمنين وإنّه والله لو أنّ السموات والأرض

---

(١) سير أعلام النبلاء، ج٣ ص١٥٤.

(٢) سير أعلام النبلاء ج٣ ص١٥٤.

كانتا رتقاً على عبد ثمّ اتّقى الله جعل له مخرجاً والسلام عليكم ثمّ قال للناس اغدوا على ما لكم فقسّمه بينهم وقال الحكم: اللهمّ إنّ كان عندك لي خير فاقبضني إليك فمات بخراسان بمرو.....[1]

لابدّ من ضخّ الذهب والفضّة كي تجري في شرايين حكمه ليمتد به العمر وإلاّ فإنّ الفناء له بالمرصاد أن توقّف هذا الضخّ.

وذكر يونس ابن عبيد أنّ معاوية كتب إلى المغيرة يستمد بمال يبعثه. من بيت المال فبعث عِيراً تحمل مالا. فاعترض لها حجر فأمسك بزمام أوّلها وقال: لا والله حتّى يوفّى كلّ ذي حقّ حقّه.....[2]

ولقد استأثر معاوية بالفيء واحتازه لنفسه ولأقربائه ولِذي ودّه ومن يُريد شرائه من المرتزقة وتركت عامّة الناس في فقر مدقع وخصاصة متناهية وحضر علي الوجهاء والأعيان أن يبلغوه شيئاً من هذا وإذا أسعف أحدهم الحظ وحظي بزيارته فعليه أن لا يتكلّم إلاّ لنفسه.

قدم وفد العراق على معاوية وفيهم الأحنف فقام الآذن وقال: إنّ أمير المؤمنين يعزم عليكم أن يتكلّم أحد إلاّ لنفسه فلمّا وصلوا إليه قال الأحنف لولا عزمة أمير المؤمنين لأخبرته أنّ رادفة ردفت ونازلة نزلت. ونائبة نابت والكلّ بهم الحاجة إلى معروف أمير المؤمنين وبرّه فقال:

حسبك يا أبا بحر فقد كفيت الغائب والشاهد[3].

وقوله حسبك ليس لا عجابه وقناعته بما قال ولكن كفاً لما يريد بيانه.

وتمادى بذلك معاوية ومنع أن يسئل أحد لغيره وإنّما فعل ذلك لأنّ الّذين يصلون إليه هم عادة الرؤساء والأعيان وأهل النفوذ وأمّا السواد الأعظم وهم أهل الحاجات وعليهم تدور دوائر الجوع والغرم الفادح هم حاملوه كحملهم البؤس والحرمان وأولئك لا يمكّنون من المثول بين يديه فأراد أن لا يسمعه أحد من أهل النفوذ صوتهم.

---

(١) النصائح الكافية، ص١٣١.

(٢) البداية والنهاية، ج٨ ص٥٢.

(٣) التذكرة الحمدونية، ج٢ ص٢٠.

وقد يحدث أحياناً أن يحتك معاوية بواقعهم بفعل الصدفة كما حدث أن خرج متنزّهاً فمر بحواء ضخم فقصد لبيت منه فإذا بفنائه امرأة برزة فقال لها هل من غداء؟ قالت: نعم حاضر قال: وما غداءك؟ قالت خبز خمير وماء نمير وحيس فطير ولبن هجير فثنى وركه ونزل فلمّا تغدى قال: هل لك من حاجة؟ فذكرت حاجة أهل الحواء قال: هاتي حاجتك في خاصة نفسك قالت: يا أمير المؤمنين إنّي أكره أن تنزل وادياً فيرفّ أوّله ويقف آخره.

والحكايات هذه دائماً تسكت عن فعل معاوية وتوليه السكوت. فهل استجاب للأحنف أو المرأة. لا نعلم؟! والأرجح أنّه لم يفعل.

وما فتىء العمّال يجلبون الذهب والفضّة لمعاوية فتدرّ عليهم أخلاف الولايات الكثير الكثير منه فيحمل إليه موفّراً دون أن ينفق قيراط منه في البلد الّذي حمله إليه. وكلّ بلد يجرد من بيت المال يسقط عطاء أبنائه فتعمّهم الخصاصات وتحلّ بهم المجاعات ولمّا بلغ السيل الزبى والسكين العظم عمد الناس إلى الأعتراض ومنع ذلك فمنهم من يوفّق إلى حفظ المال ومنهم من يواجه بالعنف والقسوة فيبوء بالخيبة والخسران.

قال العقبي: حمل زياد من البصرة مالا إلى معاوية. ففزعت بنو تميم والأزد إلى مالك بن مسمع وكانت ربيعة مجتمعة عليه كاجتماعها على كليب في حياته واستغاثوا به وقالوا: يحمل المال ونبقى بلا عطاء فركب مالك في ربيعة واجتمع إليه الناس فلحق بالمال فردّه وضرب الفسطاط بالمربد وأنفق المال في الناس حتّى وفّاهم عطائهم وقال: إن شئتم الآن أن تحملوا فاحملوا فما راجعه زياد في ذلك بحرف[1].

وإنّما لم يراجعه لقوّته والتفاف قومه عليه ولو وجده ضعيفاًخائراً لأذاقه الموت الزؤام وليس الناس في سياسة معاوية سواءً تحت حد الفقر بل قصد جماعة بعينهم فأفقرهم إلى حدّ الادقاع وذلك لعدائه القديم لهم يُضاف إليه إنحرافهم عن حكمه أو ولائهم لأهل البيت منهم جابر بن عبدالله الأنصاري.

---

(١) التذكرة الحمدونية، ج٢ ص١٥٢.

روي أنّ جابر بن عبدالله استأذن على معاوية فلم يأذن له أيّاماً ثمّ دخل فمُثِّلَ بين يديه فقال يا معاوية اشهد انّي سمعت المبارك يقول: ما من أمير احتجب عن الفقراء إلاّ احتجب الله عنه يوم يفتقر إليه فغضب معاويه وقال: يا جابر ألست ذكرت عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنّه قال: يا معشر الأنصار سيصيبكم بعدي أثرة فاصبروا حتّى تلقوني على الحوض؟ قال: قد سمعت الطيب المبارك صلى الله عليه وآله وسلم يقوله. قال معاوية: فألاّ صبرت؟ قال: إذن والله اصبر كما صبرت حين ضربت أنفك وأنف أبيك حتّى دخلتما في الإسلام كارهين ثمّ انصرف وهو يقول:

إنّي لأختار البلاء على الغِنى وأجزأ بالماء القراح عن المحض
وأدّرع الأملاق صبراً وقد أرى مكان الغنى أن لو أُهين له عرضي

فناشده معاوية أن يأخذ صلته وبعث في أثره يزيد بن معاوية فقال: والله لا يجمعني وإيّاه بلد أبداً.

فلمّا خرج لقى عبدالله بن عباس وعبدالرحمن بن سليط فقال له ابن عباس:

قد بلغني ما كان من ابن آكلة الأكباد وكهف النفاق ورأس الأحزاب. هلمّ إليَّ أُشاطرك مالي كما قاسمتني مالك ولك نصف داري كما أسكنتني دارك فقال جابر ثمر الله مالك وبارك لك في دارك فقد أثبت ما أنت أهله وقال معاوية ما كان يشبهه[1] وحبس العطاء عن سيّد الشهداء عليه السلام حتّى اضطرّ إلى الاقتراض من ابن عمّه عبدالله بن عباس يقول ابن حمدون.

.. وحبس معاوية عن الحسين بن علي عليهما السلام صلاته فقيل له: لو وجهت إلى ابن عمّك عبيدالله فإنّه قدم بنحو ألف ألف فقال الحسين عليه السلام: وأين تقع ألف ألف من عبيدالله فوالله لهو أجود من الريح إذا عصفت وأسخى من البحر إذا زخر ثم وجّه إليه مع رسوله بكتاب ذكر فيه حبس معاويه عنه صلاته وضيق حاله وإنّه يحتاج إلى مأة ألف درهم فلمّا قرء عبيد الله كتابه وكان أرقّ الناس قلباً وألينهم عطفاً انهملت عيناه ثمّ قال:

ويلك يا معاوية مما اجترحت يداك من الاثم حتّى أصبحت لين المهاد رفيع

---

(١) التذكرة الحمدونية، ج٤ ص٣٠١.

العماد والحسين يشكو ضيق الحال وكثرة العيال؟! ثمّ قال لقهرمانة احمل إلى الحسين نصف ما نملكه من فضّة وذهب ودابّة. وأخبره أنّي شاطرته مالي فإن أقنعه ذلك وإلاّ فارجع إليه واحمل إليه الشطر الآخر فقال له القهرمان: وهذه المؤن الّتي عليك من أين تقوم بها؟ قال: إذا بلغ ذلك دللتك على أمر تقيم به حالك فلمّا أتاه الرسول قال: إنّا لله حملت والله على ابن عمي وما حسبت أنّه يتّسع لنا هذا كله وأخذاالشطر من ماله[1].

وكان يوحي للناس إنّ ما يأخذه وما يجمعه من البلاد وليس لأحد فيه حقّ وان من حقّ معاوية أن يعطي من يشاء ويحرم من يشاء وان خزائن الله عنده وهو مخوّلٌ من قِبله في العطاء والحِرمان.

في ربيع الأبرار قال: خطب معاوية فقال إنّ الله تعالى يقول:

وإن من شيء إلاّ عندنا خزائنه وما ننزله إلاّ بقدر معلوم فعلامَ تلومونني إذا قصّرت في إعطائكم فقال الأحنف: إنّا والله ما نلومك على ما في خزائن الله ولكن على ما أنزله لنا من خزائنه فجعلته أنت في خزائنك وحلت بيننا وبينه[2].

ولكن كيف جعلها في خزائنه إنّه أرسل على الأُمّه زياداً والمغيرة ومعاوية ابن خديج والضحاك بن قيس وأمثال هولاء، فجبوا الدنيا له وجمعوها حتى أقفرت ربوعها وعصفت فيها المجاعات ولم ينفق من هذه الأموال حتّى أقل القليل على إعمار هذه البلاد المنكوبة به وبعمّاله قال العتبي:

وفد زياد على معاويه فأتاه بهدايا وأموال عظام وسفط مملوء جوهراً لم يُرَ مثله فسرّ سروراً شديداً فلمّا رأى زياد ذلك صعد المنبر وقال:

انا والله يا أمير المؤمنين أقمت صعر العراق وجبيت لك مالها وألفظت إليك بحرها فقام يزيد بن معاوية فقال:

إن تفعل ذلك يا زياد فنحن نقلناك من ولاء ثقيف إلى ولاء قريش ومن القلم إلى المنابر ومن زياد بن عبيد إلى حرب بن اميّة فقال معاوية: اجلس فداك أبي وأُمّي[3].

---

(١) التذكرة الحمدونية، ج٢ ص٢٨٧.

(٢) النصائح الكافية، ص١٣٣.

(٣) التذكرة الحمدونية، ج٧ ص١٧٢.

وما فتىء جشعه يزداد كلّما تقدّم به العمر فإذا وافته من المال دفعة اشتاق إلى اختها وهكذا دواليك حتّى بلغ جشعه درجة تمنّى أن يزدرد الدنيا معها روي عن معاوية انّه قال لجلسائه مرّة وددت لو أنّ الدنيا في يدي بيضة نيمبرشت واحسوها كما هي[1].

وحارَ ابن حمدون في هذا الجشع النادر فقال: وهذا خبر غريب بعيد اورده الزمخشري اللغوى في كتابه المعروف بربيع الأبرار وبهذه السياسة الطامعة والجشع الجهنّمي هجم على أموال الناس اقتناءاً واحتواءاً ومصادرةً لنفسه وترك الأُمّه للجوع والخواء وصبّت نقمته على بنى هاشم والأنصار خاصّة.

حجّ معاوية سنة ٤٤ ..... ولما وصل إلى المدينة أتاه جماعة من بني هاشم، وكلّموه في أُمورهم فقال: أما ترضون يا بني هاشم أن نقرّ عليكم دمائكم وقد قتلتم عثمان حتّى تقولوا ما تقولون؟ فوالله لا أنتم أجلّ دماً من كذا وكذا وأعظم في القول فقال له ابن عباس: كلّما قلت لنا يا معاويه بين دفّتيك أنت والله أولى بذلك منّا أنت قتلت عثمان ثمّ قمت تغمص على الناس أنّك تطلب بدمه فانكسر معاوية فقال ابن عباس: والله ما رأيتك صدقت إلاّ فزعت وانكسرت قال: فضحك معاوية وقال والله ما أحب أنّكم لم تكونوا كلّمتموني ثمّ كلّمه الأنصار فأغلظ لهم في القول وقال لهم ما فعلت نواضحكم؟ قالوا أفنيناها يوم بدر كما قتلنا أخاك وجدّك وخالك ولكنّا نفعل ما أوصانا به رسول الله قال: ما أوصاكم به؟ قالوا: أوصانا بالصبر قال: فاصبروا ثمّ أدلج معاوية ولم يقضِ لهم حاجة[2].

وكان معاوية يعزل العامل شرّ عزل إذا حاول الخروج على سياسته فأطعمَ جائعاً أو كسى عرياناً أو حمل راجلا.

عن سعيد بن حنظلة إنّ معاوية بن أبي سفيان أمّر عمرو بن العقيلي على الصائفة فلمّا قدم سأله عمّا بلغ الخمس فأخبره فقال أين هو؟ قال عمرو تسألني عن الخمس وأرى رجلا من المهاجرين يمشي على قدميه لا أحمله! فقال معاوية: لا

---

(١) التذكرة الحمدونية، ج٣ ص١٤٢.

(٢) تاريخ اليعقوبي، ج٢ ص٢٢٢.

جرم لاتنالها ما بقيت. قال إذن لا أُبالي وأنشأ يقول:

تهـــادي قـــريش في دمشـــق غنيمـــتي واتـــرك أصـــحابي فمـــا ذاك بالعـــدل
ولســـت اســـيراً أجمـــع المـــال تـــاجراً ولا أبتغـــي طـــول الإمـــارة بالبخـــل
فـــإن يمســـك الشـــيخ الدمشـــقي مالـــه فلســـت علـــى مـــالى بمســـتغلق قفلـــي[١]

وبهذه السياسة الجائرة بلغ معاوية منتهى التعسّف حين يعزل العامل لأنّه أنفق المال الّذي جباه في الوجوه الصحيحة الّتي أمر الله بها.

مصادرة الأرض والاستيلاء عليها وشراء الدور بالثمن البخس من أهلها ونهب الثروات

في أوّل عهده بالحكم وفي زمن عمر بن الخطاب بدء معاوية بمصادرة الأرض والاستيلاء عليها بحجة وبغير حجة.

وقيل إنّ استيلائه على الأرض بدء في عهد عثمان وبطلب ترخيص منه في زرع الأرض الّتي تركها أصحابها وهاجروا إلى بلاد الروم[٢].

والّذي أعتقده أنّ غرام معاوية بأخذ الأرض بدء في عهد عمر حين أمره بإحراق الزرع وقد ابيض[٣] ومن المعقول أن تكون شهيته لابتلاع الأرض بدئت من يومئذ وهو يشاهد الثروة الزراعية الهائلة الّتي أمره بإحراقها.

ومن المعقول أيضاً أن يخلي الأرض صاحبها بعد احراق زرعه فتتنبه شهية معاوية من ساعتئذ لسلبها.

كما إنّ عمر مهّد لمعاوية طريق سلب الأرض حين حضر على المسلمين الزراعة بأي وجه من الوجوه فقد قال لقيس بن عبدالفوت المرادي:

لا آذن لك بالزرع إلاّ أن تُقر بالذل وأمحو إسمك من العطاء ...[٤]

وتمادى عمر في الاستهانة بالزراعة إلى أبعد حدّ حين عامل الفلاح معاملة

---

(١) تاريخ خليفة بن خياط، ج١ ص٢١٩.

(٢) معاوية بن أبي سفيان، ص٢١٥.

(٣) مجلة العربي، العدد ١٤٠ ربيع الثاني ١٣٩٠ يوليو تموز ١٩٧٠ ص٢٥.

(٤) العربي، عدد ١٤٠ ربيع الثاني ١٣٩٠ يوليو تموز ١٩٧٠ ص٢٥.

المشرك الكتابي فكتب إلى أهل الشام: من زرع واتبع أذناب البقر حلّت عليه الجزية[1].

ومن الطبيعي أن يكون حاصل هذا الموقف هجر الأرض وترك زراعتها وبوارها وحينئذ يجد معاوية الذريعة حاضرة لسلبها.

سواء في زمن عمر أو زمن عثمان وفي عهد هذا الأخير كتب إليه أن يقطعه الأرض الّتي قتل أصحابها من الروم أو تركوها وهاجروا إلى بلاد غير البلاد المفتوحة من أرض الدولة البيزنطية وتعلّل له بكثرة وفود الأمصار والرسل وان هذه الضياع المتروكة لا يؤخذ عليها الخراج ولا تحسب من أهل الذمّة كما جاء في تاريخ ابن عساكر وكانت هذه الضياع تلحق ببيت المال وينفق منها على المصالح العامّة ومعونة المعوزين وذوي الحاجات فلمّا أذن لمعاوية بزرعها والانتفاع بثمراتها حبسها على نفسه وعلى آل بيته وخدّامه وأعوانه في سياسته. وعمد إلى كلّ معترض عليه وعلى انفاقه لهذه الأموال في غير وجهها فأقصاه عن الشام وأرسله إلى حيث يشاء من البلاد الاسلامية الأخرى لا يعنيه أن يصنع الشاغبون ما يصنعون في غير ولايته[2].

خراج الأرض يصب في خزائن بن هند

كان خراج السواد مائة ألف ألف وعشرين ألف ألف درهم وخراج فارس سبعين ألف ألف وخراج الأهواز وما يضاف إليها أربعين ألف ألف وخراج اليمامة والبحرين خمسة عشر ألف ألف درهم وخراج كور دجلة عشرة آلاف ألف درهم وخراج نهاوند وماه الكوفة وهو الدينور وماه البصرة وهو همذان وما يضاف إلى ذلك من أرض الجبل أربعين ألف ألف درهم وخراج الري وما يضاف إليها ثلاثين ألف ألف درهم وخراج حلوان عشرين ألف ألف درهم وخراج الموصل وما يضاف إليها ويتصل بها خمسة وأربعين ألف ألف درهم وخراج أذربيجان ثلاثين ألف ألف درهم بعد أن أخرج معاوية من كلّ بلد ما كانت ملوك فارس تستصفيه لأنفسها من الضياع

---

(١) العربي، عدد ١٤٠ ربيع الثاني ١٣٩٠ يوليو تموز ١٩٧٠ ص٢٥.

(٢) العقاد معاويه بن أبي سفيان، ص٢٨٧.

العامرة وجعله صافية لنفسه فأقطعه جماعة من أهل بيته.

وكان صاحب العراق يحمل إليه من مال صوافيه في هذه النواحي مائة ألف ألف درهم. فمنها كانت صلاته وجوائزه، واستقر خراج مصر في أيّام معاوية على ثلاثة آلاف ألف دينار وكان عمرو بن العاص يحمل منها إليه الشيء اليسير. فلمّا مات عمرو حُمل المال إلى معاوية فكان يفرق في الناس أعطياتهم[١] ويحمل إليه ألف ألف دينار، واستقر خراج فلسطين على أربعمائة وخمسين ألف دينار، واستقر خراج الأردن على مائة وثمانين ألف دينار، وخراج دمشق على أربعمائة ألف وخمسين ألف دينار، وخراج قنّسرين والعواصم على أربعمائة ألف وخمسين ألف دينار، وخراج الجزيرة وهي ديار مضر وديار ربيعة على خمسة وخمسين ألف ألف درهم، وخراج اليمن على ألف ألف ومائتي ألف دينار وقيل تسعمائة ألف دينار ...[٢] ذكر ذلك كلّه اليعقوبي في تاريخه ثمّ قال:

وفعل معاوية بالشام والجزيرة واليمن مثل ما فعل بالعراق من استصفاء ما كان للملوك من الضياع وتصييرها لنفسه خالصة وأقطعها أهل بيته وخاصته. وكان أوّل من كانت له الصوافي في جميع الدنيا حتّى بمكة والمدينة فإنّه كان فيها شيء يحمل في كلّ سنة من أوساق التمر والحنطة.[٣]

فهذه المبالغ الخيالية المنهوبة من القرى والدساكر والمدن الإسلاميّة ما كان لينال أحداً من الفقراء والمساكين والمحتاجين منها شيء ولو كان أقلّ القليل، وكانت تنفق على ملاذ معاوية وأبنائه وبناته وأهل بيته وشهواتهم كما أنّ القسم الأكبر منها يصرف على شراء الذمم والضمائر وقسم منها يستحيل إلى أطواق من الذهب فيعطى للصديقات ثمناً لسكوتهنّ. وكانت غالبية الأُمّة تكاد تهلك جوعاً كما عرفت في حكاية جابر رضوان الله عليه مع معاوية. وتطوق كلاب معاوية ويزيد بأطواق الذهب.

---

(١) والناس الذين لهم أعطيات هم الأمويون ومواليهم وشيعتهم، وجلّ أفراد الأُمّة لا عطاء لهم.

(٢) تاريخ اليعقوبي، ج٢ ص٢٣٣ و٢٣٤.

(٣) تاريخ اليعقوبي، ج٢ ص٢٣٤.

لما استعمل ابن زياد عبدالرحمن بن أُم برثن[1] ثمّ عزله وأغرمه مائتي ألف درهم، فخرج إلى يزيد ابن معاوية، فلمّا كان على مرحلة من دمشق نزل وضرب له خباء وحجرة فإنّه لجالس إذا كلبة من كلاب الصيد قد دخلت عليه وفي عنقها طوق من ذهب وهي تلهث، فأخذها وطلع يزيد على فرس له، فلمّا رأى هيئته أدخله الحجرة وأمر بفرسه أن تقاد، فلم يلبث أن توافت الخيل فقال له يزيد: من أنت وما قصّتك؟ فأخبره فكتب له من ساعته إلى عبيدالله في ردّ المائتي ألف عليه ...[2]

وماذا لو كان طوق الكلبة نحاساً. ويدفع هذا الذهب إلى البطون الجائعة والبيوت التي تعاني شظف العيش؟!! بالطبع لا يتغيّر شيء من ملاذ أبناء هند ولكنّهم أمعاناً منهم في السخرية بالأُمّة يصنعون هذا الصنيع.

ولقد كان معاوية يعبث بالذهب عبثاً وينفقه في موارد غير ضرورية بل لا داعي لها اطلاقاً ولا حاجة تدعو إليها ولكنّه العبث ووفرة الذهب التي لا يدري أين يضعها معاوية.

بنى معاوية الخضراء بدمشق من لبن وطين فقدم عليه وفد صاحب الروم فقال لهم: كيف ترون بنائي هذا؟ قالوا: ما أحسنه إلاّ أنّك تبنيه لنفسك وللعصافير يريدون أنّ العصافير تحفره وتنقره ولم تبنه ليبقى لمن بعدك فهدمها وبناها بالحجارة[3]. هكذا تتدفق القناطير الذهبية في عبث معاوية كتدفق العذب في الأجاج وغالبيّة الأُمّة تكاد تهلك هزالاً وجوعاً.

صعد معاوية المنبر فحمد الله وأثنى عليه، فلمّا أراد الكلام قطع عليه غلام من الأنصار قام فقال: يا معاوية ما جعلك وأهل بيتك أحقّ بهذا المال منّا؟ وإنّما أفاءها الله على المسلمين بسيوفنا ورماحنا ومالنا عندك ذنب نعلمه إلاّ أنّا قتلنا خالك وليداً وجدّك عتبة وأخاك حنظلة. فقال معاوية: لا والله يابن أخي ما أنتم قتلتموهم ولكنّ الله قتلهم بملائكة بعد ملائكة على يدي بني أبيهم وما ذاك بعار ولا منقصة، قال الأنصاري: فأين العار والمنقصة إذن؟ قال: صدقت. أفلك حاجة؟

---

(١) كان منبوذاً فأخذته أُم برثن وربته وتبنّته حتّى أدرك وصار رجلاً جزلاً له نبل وفضل وتألّه.

(٢) البلاذري، أنساب الأشراف، ج٥ ص٣٠٩.

(٣) أنساب الأشراف، ج٥ ص١٥٥.

قال: نعم، لي عجوز كبيرة وأخوات عواتق وقد عضنا الدهر وحلّ بنا الحدثان. فقال معاوية: خذ المال ما استطعت وكان مالاً ورد من بعض النواحي فحمل الغلام وقره ومضى معاوية في خطبته حتّى فرغ[1].

وما من ريب أنّ الغلام رأى المال يحمل إلى معاوية فثارت ثائرته ولو خاطبه على انفراد لما أعطاه شيئاً. ولو كلّمه بضعف واستخذاء لما أعتنى به ولكن عرف معاوية فيه ذرباً فهابه وهكذا هو لا تندمنه قطرة حتّى يجلد بالسنة حداد ويخاف ممّا يُعدّ له أصحابها.

قال معاوية لشداد بن أوس: قم فاذكر عليّاً وتنقّصه، فقام شداد فقال: الحمد لله الذي افترض طاعته وجعل في التقوى رضاه، على ذلك مضى أوّل الأُمّة وعليه يمضي آخرهم. أيّها الناس، إنّ الآخرة وعد صادق يحكم فيه ملك قادر وإنّ الدنيا أجل حاضر يأكل فيها البرّ والفاجر، وإنّ السامع المطيع لا حجّة عليه، وإنّ السامع مع العاصي لا حجّة له، وإنّ الله إذا أراد بالناس صلاحاً عمل عليهم صلحائهم وقضى بينهم فقهائهم وجعل المال في سمحائهم، وإذا أراد بالعباد شرّاً عمل عليهم سفهائهم وقضى بينهم جهلائهم وجعل المال عند بخلائهم، وإنّ من صلاح الولاة أن تصلح قرابينها ووزرائها، نصحك يا معاوية من أسخطك بالحق وغشّك من أرضاك بالباطل.

فكره معاوية أن يجيء بشيء يكرهه فقال: اجلس رحمك الله وأمر له بمال. فقال معاوية: الست من السمحاء؟ قال: إن كان من مالك دون مال المسلمين ممّا تعهّدته عند جمعه مخافة تبعته تعهده لك من محضك النصح وآثر الحق وإن كنت أصبته اقترافاً وأنفقته إسرافاً فإنّ الله يقول: (إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ)[2] ...[3]

هذا ومن مفارقات الدهر أن يأمر هذا السارق الكبير بقطع يد سارق صغير ثمّ يدرء ذلك عنه ويتصدّق بمائة ألف عن ذلك وهذه سخرية أُخرى من الدين وأهله.

---

(١) أنساب الأشراف، ج٥ ص١٢٣.

(٢) سورة الإسراء آية ٢٧.

(٣) أنساب الأشراف، ج٥ ص١٠٥ و١٠٦.

أُتي معاوية بشابّ قد سرق فأمر بقطع يده فقال:

يـــدي يـــا أميرالمـــؤمنين أعيـــذها بعفـــوك أن تُلقـــى مكانـــاً يشـــينها

ولا خـــير في الـــدنيا وكانـــت حبيســـة إذا مـــا شمـــال فارقتهـــا يمينهـــا

ولـــو قـــدأتى الأخبـــار قـــومي لقلّصـــت إليـــك المطايـــا وهـــي خـــوص عيونهـــا

ودنت أُمّه وهي تبكي فقالت: يا أميرالمؤمنين واحدي اعفُ عنه عفى الله عنك. فقال: ويحك إنّ هذا حدّ من حدود الله. فقالت: اجعل تركه يا أميرالمؤمنين من ذنوبك التي تستغفر الله منها، فخلّى سبيله وتصدّق بمائة ألف[1].

أقول: لا أعرف كفّارة بهذا المبلغ، ولكنّها الوفرة التي لا يريد أن يسدّ بها معاوية حاجة الناس ولا يدري أين يضعها. هذا من جانب ومن جانب آخر إذا كان درء الحد ذنباً وكفّر عنه معاوية بهذا المبلغ فبم يكفّر عن سمّ الحسن وقتل حجر واستلحاق زياد وغيرها من جرائمه وموبقاته.

سلب الأرض من أهلها بالمصادرة والإحتيال

لم يكن نظير لمعاوية في الطغاة والجبابرة في ولعه بالإستيلاء على الأرض أينما تكون ولأيّ إنسان تكون، وما فتيء يحتال على الأراضي التي تستحوذ على قلبه حتّى يأخذها. وأحياناً تعوزه الحيلة فيفزع إلى القوّة والإرهاب والتهديد وهذا مرض سلطاني عجيب. يقول له عقيبة الأسدي:

أكلـــــتم أرصـــــنا فجرّدتموهـــــا فهـــل مـــن قـــائم أو مـــن حصـــيد

فهبهـــا أُمّـــه هلكـــت ضـــياعاً يزيـــد يسوســـها وأبـــو يزيـــد ...[2]

والظاهر أنّ أحلامه في كلّ شيء تحقّقت إلاّ في أخذ الأرض وامتلاكها، لأنّه وإن ملك أكثر الأراضي في بلاد الشام والعراق ومصر والجزيرة إلاّ أنّ حلمه الذهبي أن تكون الكرة الأرضيّة بمياهها ووديانها وجبالها وقيعانها له لا يشركه بها غيره. كان معاوية يقول: ما شيء أحبّ إليّ من عين خرّارة في أرض خوّارة ...[3] كما أنّ بيوت

---

(١) أنساب الأشراف، ج٥ ص١٣١ و١٣٢.

(٢) أنساب الأشراف، ج٥ ص٦٤.

(٣) أنساب الأشراف، ج٥ ص٦٥.

الناس جزء من هذه الأرض التي يريد امتلاكها. فقد راح يبذل المال الطائل لتكون بيوت الناس سكناهم ومأواهم وأرض زراعتهم له وله وحده، والناس أجراء عنده إن شاء أبقى وإن شاء طرد. اشترى معاوية من حويطب بن عبدالعزّى داره بخمسة وأربعين ألف دينار فهنّأه قوم فقال: وما خمسة وأربعون ألف دينار بالحجاز مع سبعة من العيال[١].

وتبدو لي في هذه الحكاية ظاهرة غريبة وهي تهنئة الناس له هل هي لحويطب وحده؟ بناءاً على ظروف خاصة أو هي عامة لكلّ من يبيع داره أو أرضه؟ وما هو السبب؟ لعلّ الحاجة بلغت بالناس حداً أن فضّل معها الناس بيع دور السكنى على الجوع والحاجة وأحسب أنّ قول حويطب مع سبعة من العيال قرينة على وقوع ذلك.

ولقد بلغ ولع معاوية بالأرض حدّ الجنون، فقد أراد ابتياع ضيعة من بعض اليهود وذكرت له فبعث إلى صاحبها فأُتي به وهو شارب نبيذ، فلمّا رآه معاوية طمع في غبّته، فقال له: بعني ضيعتك، فضحك اليهودي وقال: ليس هذا وقت بيع ولا شراء ولكن إن شئت غنّيتك صوتاً، فضحك معاوية وقال: اللهمّ اخزه فما أشدّ عقدته وأثبت عكدته[٢].

وعمرو نفسه وقد عرف معاوية تهالكه على الطمع راوده ذات يوم عن أرض له تسمّى «الوهط» وقال له: أحب أن تصفح لي عن الوهط ضيعتك. فقال: يا أميرالمؤمنين أحبّ أن تعرض لي عنها. قال: لا. فأبى عمرو أن يفعل، فقال معاوية: مثلك يا عمرو مثل ثور في روضة إن ترك رتع وإن هيّج نطح. فقال عمرو: ومثلك يا أميرالمؤمنين مثل بعير في روضة يصيب من اخلاط الشجر فيها فرأى شجرة على صخرة زلاّء فرغب عمّا هو فيه وتعاطى الشجر فتكسّر[٣].

وبقيت ذكرى الوهط تعتاده حتّى إذا هلك عمرو أراد أن يصادرها من ورثته ومنهم عبدالله ولده. عن سعد بن إبراهيم أنّه سمع رجلاً من بني مخزوم يحدّث عن

---

(١) أنساب الأشراف، ج٥ ص٦٧، والبداية والنهاية، ج٨ ص٧٢، والمنتظم، ج٥ ص٢٧٥.

(٢) أنساب الأشراف، ج٥ ص٧٢. والعكدة العصعص والقوّة.

(٣) أنساب الأشراف، ج٥ ص٧٥.

عمّه: إنّ معاوية أراد أن يأخذ أرضاً لعبدالله بن عمرو يقال لها (الوهط) فأمر مواليه فلبسوا آلتهم وأرادوا القتال، قال: فأتيته فقلت: ماذا؟ فقال: إنّي سمعت رسول الله ﷺ يقول: ما من مسلم يظلم بمظلمة فيقاتل فيقتل إلاّ قتل شهيداً[1].

وكان عهد إلى وكلائه أن يأخذوا كلّ أرض تمتدّ إليها أيديهم. قال الواقدي: حدّثني أصحابنا عن ابن جعدية وغيره قالوا: كان لعبدالرحمن بن زيد بن الخطّاب أرض إلى جانب أرض لمعاوية، وكان وكيل معاوية بالمدينة النضير مولاه فعمد إلى أرض عبدالرحمن فضمّها إلى أرض معاوية وقال: هذه لأميرالمؤمنين. فقال عبدالرحمن: عندي البيّنة، إنّ أبابكر بن أبي قحافة قطعها لي مقتل أبي باليمامة. فقال النضير: هذه قطيعة أميرالمؤمنين، فخاصمه إلى مروان بن الحكم. فقال: اصطلحا وكره أن يجزم القضاء على معاوية.

فأتى عبدالرحمن بن زيد الشام فلمّا صار إلى باب معاوية ألقاه جالساً بالخضراء بدمشق، فقال لأبي يوسف: استأذن لي على أميرالمؤمنين، فاعتلّ عليه، فرفع صوته فقال: مالي بدّ من الوصول إليه، فأنا إلى أن توصل أرحامنا وتُثمر لنا أموالنا أحوج منّا إلى أن يؤخذ منّا ما في أيدينا. فسمعه معاويه فقال: ادخله، فدخل فسلّم وقال: إنّ وكيلك بالمدينة تعدّى عليّ وعمد إلى ما قطع لي خليفة رسول الله ﷺ وأجازه لي عمر فألجأه إلى أرضك وزعم أنّ عنده كتاباً من عثمان بأنّه قطعه لك، وكيف يقطع لك عثمان حقّاً هو لي؟

فقال معاوية: تركت أرضك لم تعمرها حتّى عملتها، فلمّا غرست فيها خمسة آلاف وديّة قلت قطعية أبي بكر وقد روي عن عمر أنّه بلغه أنّ قوماً يتحجّرون الأرض ثمّ يدعونها عطلاً فيجيء آخرون فيزرعونها أنّها لمن زرعها. فقال: والله ما قلت الحق يا معاوية فأنصفتني. فقال معاوية: عليّ بالقاضي ...[2] ويقال: إنّ القاضي حكم عليه.

لقد صادر معاوية حتّى أولياء نعمته، فهذا المتظلم منه هو ابن أخي ولي

---

(١) ابن كثير، جامع المسانيد والسنن، ج٢٦ ص٤٥٦.

(٢) أنساب الأشراف، ج٥ ص١٣٩.

نعمته وغارس شجرته عمر بن الخطّاب، ولكنّ ابن هند لا يبالي بصاحب الأرض إذا حاز أرضه له وإن كان ولي نعمه أو صاحب يد سلفت إليه. بنى معاوية استيلائه على الأرضين وحيازته لها على دعامة عجيبة من أوهام الحكم واستبداده في رأس صاحبه، فقد كان يرى ذلك مباحاً له، بل حتّى الأرض التي يتركها فإنّه يفعل ذلك ممتناً على صاحبها أي إنّ له في عنقه منه في قبال تركه أرضه دونما مصادره. قال يوماً لجلسائه: الأرض لله وأنا خليفته فما أخذت فلي حلال وما تركت للناس فلي عليهم فيه منّة. فقال صعصعة: ما أنت وأقصى الأُمّة فيه إلاّ سواء، ولكن من ملك استأثر. فغضب معاوية وقال: لقد هممت. قال صعصعة: ما كلّ من همّ فعل. قال: ومن يحول بيني وبين ذلك؟ قال: الذي يحول بين المرء وقلبه[1].

وحين نستنطق النص ندرك أنّ معاوية لم يقل ذلك ابتداءاً بل لابدّ من سبق اعتراض عليه من جلسائه أو من غيرهم، والحقيقة أنّ الأُمّة لم تتلق جشع معاوية بالرضا والقبول، ولكن لم تنقل نقمتها على معاوية إلاّ موجهة أو معدلة أو مخففة إلى أن انقرضت دولة الشجرة الملعونة وما نقل إليها فقد نقله كائناتٌ مدّجنة ونعني بهم اولئك المؤرخين الذين نقلوا التاريخ وكتبوه بروح أُمويّة صرفه.

وبلغ معاوية هوس الإستيلاء على الأرض وحيازتها إلى درجة غير معقولة، فما وصفت إليه أرض ذات تربة صالحة إلاّ وأسرع لأخذها ما لم يحل بينه وبينها حائل، وكان يتحرّى إلحاح الحاجة على صاحب الأرض فيأخذها منه بالثمن البخس أو غصباً إن قدر على ذلك. وكان يُدل على خاصته بيد له عليهم أو معروف سالف أسداه لهم أو حتّى صلة القربى بينه وبينهم فيأخذ أرضهم ويجردهم منها فلم يسلم منه حتّى خاصته.

حج معاوية فرأى شخصاً يصلّي في المسجد الحرام عليه ثوبان أبيضان، فقال: من هذا؟ قالوا: شعبة بن غريض، وكان من اليهود، فأرسل إليه يدعوه، فأتاه رسوله فقال: أجب أميرالمؤمنين. قال: أوليس قد مات أميرالمؤمنين؟ قيل: فأجب معاوية، فأتاه فلم يسلّم عليه بالخلافة. فقال له معاوية: ما فعلت أرضك التي

---

(١) التذكرة الحمدونية، ج٧ ص١٦٩.

بتيماء؟ قال: يكسى منها العاري ويردّ فضلها على الجار. قال: أفتبيعها؟ قال: نعم. قال: بكم؟ قال: بستّين ألف دينار ولولا خلّة أصابت الحي لم أبعها. قال: لقد أغليت. قال: أمّا لو كانت لبعض أصحابك لأخذتها بستّمائة ألف دينار. قال: أجل، وإذا بخلت بأرضك فأنشدني شعر أبيك يرثي نفسه. فقال: قال أبي:

يا ليت شعري حين أندب هالكاً ... ماذا تؤبنني به أنواحي

أيقلن لا يبعد فربّ كريهة ... فرّجتها ببشارة وسماح

ولقد ضربت بفضل مالي حقّه ... عند الشتاء وهبّت الأرواح

ولقد أخذت الحقّ غير مخاصم ... ولقد رددت الحقّ غير ملاحي

وإذا دعيت لصعبة سهّلتها ... أُدعى بأفلح مرّة ونجاح

فقال: أنا كنت بهذا الشعر أولى من أبيك. قال: كذبت ولؤمت. قال: أمّا كذبت فنعم وأمّا لؤمت فلم؟ قال: لأنّك كنت ميت الحق في الجاهلية وميتة في الإسلام ; أمّا في الجاهلية فقاتلت النبي ﷺ والوحي حتّى جعل الله كيدك المردود، وأمّا في الإسلام فمنعت ولد رسول الله ﷺ الخلافة وما أنت وهي وأنت طليق بن الطليق. فقال معاوية: قد خرف الشيخ فأقيموه. فأخذ بيده فأُقيم[1].

ولم يسلم على أرضه وماله حتّى أهله وخاصّته، وفد الوليد بن عقبة إلى معاوية، فقيل له: هذا الوليد بالباب. فقال: والله ليرجعنّ مغيظاً غير معطىً فإنّه قد أتانا يقول: عَلَيّ دين وعليّ كذا وكذا، يا غلام إئْذن له، فأذن له، فساءله معاوية وتحدّث معه فقال له: أما والله إن كنّا لنحبّ إتيان مالك بالوادي وقد أعجب أميرالمؤمنين فإن رأيت أن تهبه ليزيد فعلت. قال الوليد: هو ليزيد. أُنظر يا أميرالمؤمنين في شأني فإنّ عَلَيّ مؤونةً وقد أرهقني دين. فقال له معاوية: ألا تستحي بحسبك ونسبك تأخذ ما تأخذه فتبذّره ثمّ لا تنفكّ تشكو ديناً؟! فقال الوليد: أفعل ثمّ انطلق من مكانه وصار إلى الجزيرة وقال:

تأبى فعال الخير لا ... تروى وأنت على الفرات

فإذا سُئلت تقول لا ... وإذا سئلت تقول هات

---

(١) النصائح الكافية، ص١٣٣.

أفـــــــلا تميـــــــل إلى نعـــــــم أو تـــــــرك لا حـــــــتّى الممـــــــات؟

وبلغ معاوية مقدمه إلى الجزيرة فخافه وكتب إليه أن اقبل إليّ فكتب إليه من الطويل.

اعـــف واســـتغني كمـــا قـــد أمـــرتني فـــأعط ســـواي مـــا بـــدا لـــك وانحـــل

ســـأحدو ركـــابي عنـــك إنّ عـــزيمتي إذا نـــابني أمـــر كســـلّة منصـــل

وإنّي امـــرىء للـــرأي مـــنّي تطـــرب ولـــيس شـــبا قفـــل عَلَـــيّ بمقفـــل

ورحل إلى الحجاز فبعث إليه معاوية بصلته وجائزته ...[1]

واشترى معاوية الدور من أصحابها ليكون الناس جياعاً في العراء، ويكون معاوية وحده صاحب الدار والمال ومن يحب من الخاصة، باع حكيم بن حزام داره من معاوية بستّين ألف دينار فقيل له: غبنك معاوية. فقال: والله ما أخذتها في الجاهلية إلاّ بزق خمر أشهدكم أنّها في سبيل الله فانظروا أيّنا المغبون[2].

وما باع أحد داره أو أرضه إلاّ اضطراراً أو من شدّة الخصاصة أو المخمصة فهذا قيس بن سعد وهو الكريم ابن الكريم والشهم ابن الشهم، لما رأى ما على جيرانه وإخوانه وقومه من أثر الحاجة المروّع، عمد إلى بيع أرضه من معاوية بتسعين ألفاً فقدم المدينة فنادى مناديه: من أراد القرض فليأت، فأقرض منها خمسين ألفاً وأطلق الباقي، ثمّ مرض بعد ذلك فقلّ عوّاده، فقال لزوجته قريبة بنت أبي عتيق أخت أبي بكر: إنّي أرى قلّه من عادني في مرضي هذا وإنّي لأرى ذلك من أجل مالي على الناس من القرض، فبعث إلى كلّ رجل ممّن كان له عليه دين بصكّه المكتوب عليه فوهبهم ماله عليهم. وقيل إنّه أمر مناديه فنادى: من كان لقيس بن سعد عليه دين فهو منه في حلّ، فما أمسى حتّى كسرت عتبة بابه من كثرة العوّاد ...[3]

وعمّ البلاء حتّى الأموات، فقد مات سعيد بن العاص وهو أُموي صليبة من شجرة معاوية، ولما دفن بالبقيع ركب ابنه عمرو إلى معاوية فعزّاه فيه واسترجع

---

(١) التذكرة الحمدونية، ج٣ ص١٢١.

(٢) نفسه، ج٢ ص٩٨، والبداية والنهاية، ج٨ ص٧١.

(٣) البداية والنهاية، ج٨ ص١٠٣.

معاوية وحزن عليه وقال: هل ترك من دين عليه؟ قال: نعم! قال: وكم هو؟ قال: ثلاثمائة ألف درهم وفي رواية ثلاثة آلاف درهم. فقال معاوية: هي عليّ. فقال ابنه: يا أميرالمؤمنين إنّه أوصاني أن لا أقضي دينه إلاّ من ثمن أراضيه، فاشترى منه معاوية الأراضي بملغ الدين وسأل منه عمرو أن يحملها إلى المدينة فحملها له ...[1]

ولم تكن الأرض وحدها مورد نُهمته ومجال نُهزته بل همّه الأكبرنهب الثروات الشعبيّه والأموال العامّة بأيّة وسيلة كانت ومن أيّ جهة أتت. لما ألزم بني مخزوم اثنى عشر ألف درهم دية ابن أثال أدخل بيت المال منها ستة آلاف وأخذ هو ستّة آلاف، فلم يزل ذلك بجري دية المعاهد حتّى جاء عمر بن عبدالعزيز فأبطل الذي يأخذه السلطان لنفسه، وأثبت الذي يدخل بيت المال[2].

ومعاوية أوّل من سنّ هذه السنّة الخبيثة، فقد كانت السنّة الأُولى أنّ دية المعاهد كدية المسلم، فكان معاوية أوّل من قصرها إلى نصف الدية، وأخذ نصف الدية لنفسه[3]، وليس معنى ذلك أنّه حطّ الدية إلى النصف من دية المسلم، بل معناه أنّه قسّمها نصفين، أخذ نصفاً لنفسه ودفع الباقي إلى أصحابها، فكان الذي يدفع ديةً النصف، فقيل قصّرها على النصف. وما أكثر السنن المبتدعة التي وضعها معاوية في الناس، فسار عليها من جاء بعده من طواغيت أُميّة. يقول اليعقوبي:

وكان معاوية أوّل من أقام الحرس والشرط والبوّابين في الإسلام، وأرخى الستور، واستكتب النصارى، ومشي بين يديه بالحراب، وأخذ الزكاة من الأعطية، وجلس على السرير والناس تحته، وجعل ديوان الخاتم، وبنى وشيّد البناء، وسخّر الناس في بنائه ولم يسخر أحد قبله، واستصفى أموال الناس فأخذها لنفسه[4]واقتدى به من جاء بعده.

كان العجير السلولي دلّ عبدالملك بن مروان على ماء يقال له مطلوب، وكان لناس من خثعم فأنشأ يقول:

---

(١) البداية والنهاية، ج٨ ص٩٠، وراجع المنتظم، ج٥ ص٢٩٧، والحكاية فيه أكثر تفصيلاً.

(٢) التذكرة الحمدونية، ج٢ ص٤٥٤.

(٣) مختصر تاريخ دمشق، ج٢٥ ص٧٢.

(٤) اليعقوبي، ج٢ ص٢٣٢.

لا نـــوم إلاّ غـــرار العـــين ســـاهرة إن لم اودع بغـــيظ أهـــل مطلـــوب
إن تشـــتموني فقـــد بـــدّلت أيكـــتكم ذرق الـــدجاج بحفـــان اليعاقيـــب
وكنـــت أُخـــبركم أنّ ســـوف يعمرهـــا بنـــو أُميّـــة وعـــداً غـــير مكـــذوب

قال: فركب رجل من خثعم يقال له أُميّة إلى عبدالملك حتّى دخل عليه فقال: يا أميرالمؤمنين إنّما أراد العجيران يصل إليك وهو شويعر سأّل وحرّبه عليه [1] فكتب إلى عامله بأن يشدّ يد العجير إلى عنقه ثمّ يبعثه في الحديد فبلغ العجير الخبر فركب في الليل حتّى أتى عبدالملك فقال له: يا أميرالمؤمنين أنا عندك فاحتبسني وابعث من يبصر الأرضين والضياع فإن لم يكن الأمر على ما أخبرتك فلك دمي حلّ وبل. فبعث فاتّخذ ذلك المال فهو اليوم من خيار ضياع بني أُميّة ...[2]

وتكاملت سنن ابن هند على يد ابن الزرقاء، فكان له جواسيس يصفون له الأرضين فما راق له أخذه لا يردعه عن ذلك رادع ولا يمنعه مانع، ومعاوية شريكه في ظلمه، كما أنّ من نصب معاوية حتّى بلغ هذا الحد شريكه في ظلمه أيضاً هذه الجرائم والمنكرات التي تأباها الإنسانيّة، وكان معاوية يقترفها باسم الدين والقرآن وخلافة سيّد المرسلين ﷺ. وتتبرّء منها ذووا الضمائر الحرّة، تبعّد معاوية حتّى من حضيرة الملوك والجبابرة، لأنّ لأولئك نفوساً عالية تترفّع عن دنايا معاوية وموبقاته، كان الذي ولي حفر خليج سردوس لفرعون عدوّ الله هامان فلمّا ابتدء في حفره أتاه أهل القرى يسئلونه أن يجري الخليج تحت قراهم ويعطون على ذلك ما أراد من المال، فكان يعمل ذلك حتّى اجتمعت له أموال عظيمة فحمل تلك الأموال إلى فرعون فسأله فرعون عنها فأخبره الخبر، فقال فرعون: إنّه ينبغي للسيّد أن يعطف على عبيده ويفيض عليهم معروفه ولا يرغب فيما في أيديهم، ونحن أحقّ بمن يفعل هذا بعبيده، فاردد على أهل كلّ قرية ما أخذته منهم، ففعل هامان ذلك[3].

---

(١) سأّل: الملحاح في السؤال. حربه: حرّضه عليه.

(٢) أبوالفرج الإصفهاني، الأغاني، ج١٣ ص٥٩. ومعنى قوله: حلّ وبل أي حلال ومباح مطلق. وبل من برد الماء أي دمي يبرد صدرك.

(٣) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج١ ص٥٦.

حتّى فرعون سمى بفعله عن دنائة معاوية، وظهر من هذا أنّ عائشة لم تصب له نعتاً يساوي حقيقته غير فرعون وإن جلّ عنه ونأى بترفّعه عن ظلم بن هند. عن الأسود بن يزيد قال: قلت لعائشة[1]: ألا تعجبين لرجل من الطلقاء ينازع أصحاب رسول الله ﷺ في الخلافة؟ فقالت: وما تعجب من ذلك؟ هو سلطان الله يؤتيه البرّ والفاجر، وقد ملك فرعون أهل مصر أربعمائة سنة وكذلك غيره من الكفّار.

واستنبط صاحب النصائح الكافية ثلاثة أُمور من كلام عائشة: الأوّل: دلالة مفهوم الصفة مخالفة إنّ معاوية ليس من أصحاب محمّد. الثاني: الإشارة بالمثال إلى فجور معاوية. الثالث: تشبيهها معاوية بفرعون الذي بيّن الله حاله بقوله تعالى: ﴿وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ * يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ * وَأُتْبِعُوا فِي هذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ﴾[2].

والحقيقة إنّ استنباط سيّدنا ابن عقيل جميل، ولكن لم تعرف ذلك عائشة ومن ثمّ لم تقله قصداً ولو علمت لما قالت.. وما كانت أُمّ المؤمنين لتفرط في عدوّ عدوّها، وقد أنسى الناس جملها بصفينه وكان دائماً عند حسن ظنّها.

روي أنّ عائشة بعثت إلى معاوية وهو بالمدينة تذكر حاجة من آل أبي بكر.. فأرسل إليها بثلاثين ألف درهم صلة لها وبمثلها لآل أبي بكر، وبعث إلى أُم حبيبة أُخته عشرين ألف درهم، فقالت: أتفضّل عليّ وأنا أُختك وحقّي ما تعلم؟ فقال: إنّي آثرت هوى رسول الله ﷺ واقتديت به فيكما. فقالت: فإن كنت صادقاً فاعتزل ما أنت فيه وخلّ بينه وبين من أدخلك في الإسلام، فوالله لهوى رسول الله ﷺ فيه كان فوق هواه فيك. فقال معاوية: لله درّ الحق ما اقمعه[3].

لقد ملأ معاوية دنيا الإسلام جرائم ومنكرات، قال الحسن البصري: أربع خصال في معاوية لو لم تكن فيه إلاّ واحدة منها لكانت موبقة: انتزائه على هذه الأمّة بالسيف حتّى أخذ الأمر من غير مشورة وفيهم بقايا الصحابة وذووا الفضيلة، واستخلافه من بعده سكّيراً خمّيراً يلبس الحرير ويضرب بالطنابير، وادّعائه زياداً

---

(١) البداية والنهاية، ج٨ ص١٣٤، والنصائح الكافية، ص٢٨ نقلاً عن الدرّ المنثور.

(٢) الهود ٩٧ - ٩٩

(٣) التذكرة الحمدونية، ج٧ ص١٦٩ و١٧٠.

وقد قال رسول الله ﷺ: الولد للفراش وللعاهر الحجر، وقتله حجراً وأصحاب حجر ويا ويلاً له من حجر وأصحاب حجر[1].

يقول هذا الحسن البصري ويقول غيره مراعاةً للسلطان وسكوتاً عن المنكر وأهله. قال الأوزاعي: سأل رجل الحسن البصري عن علي وعثمان فقال: كانت لهذا سابقة ولهذا سابقة ولهذا قرابة وابتلي هذا وعوفي هذا. فسأله عن علي ومعاوية، فقال: كان لهذا قرابة ولهذا قرابة ولهذا سابقة وليس لهذا سابقة وابتليا جميعاً[2].

وأقول لهذا الضالّ المرائي: أقرابةُ عثمان كقرابة علي وسابقته كسابقته، وابتلاء المحق كابتلاء المبطل، فما لكم كيف تحكمون، وقول الحسن شعبة من قول عمر بن عبدالعزيز. قال ميمون بن مهران: كنت أُفضّل عليّاً على عثمان رحمة الله عليهما فقال لي عمر بن عبدالعزيز: أيّهما أحبّ إليك؟ رجل أسرع في كذا أو رجل أسرع في المال؟ قال: فرجعت وقلت: لا أعود[3].

ولا أرتاب أنّ الأموي الحاقد ميمون بن مهران كذب على عمر بن عبدالعزيز فيما قال، والرجل على خلاف ما نقل عنه وقد ثبت ولائه لأميرالمؤمنين عندي وتفضيله على كلّ أحد بعد رسول الله ﷺ وأعلم بأنّ تصحيفاً وستراً جريا على الخبر نفاقاً من أنصار بني أُميّة ولست أدري من أيّ منافق منهم كان ذلك أمن أبي زرعة وثبت نفاقه ببغضه الإمام عليه السلام أم من غيره، فقد صحّف لفظ أسرف إلى أسرع وأبهم لفظ الدماء بلفظ كذا، وتكون العبارة الصحيحة هكذا: رجل أسرف في الدماء ويعني بذلك أميرالمؤمنين، أو رجل أسرف في المال يعني عثمان.

وأقول: أوّلاً: لا أملك لهؤلاء المنافقين إلاّ أن أردّد مع الإمام أميرالمؤمنين قول النبي له: لا يحبّني منافق ولا يبغضني مؤمن. وأقول ثانياً: اللهمّ أوقر ظهري وعنقي من هذه الدماء التي سفكها علي عليه السلام واجعلني ووالديّ ومن أحبّ شركاء في سفكها. اللهمّ فإن رأيتني لا أستحقّ هذا الثواب العظيم فاجعل في صحيفتي ولو قطرة منها. آمين.

---

(١) النصائح الكافية، ص٣٥ نقلاً عن الكامل، وانظر أبا الفداء، ج١ ص٢٥٩.

(٢) سير أعلام النبلاء، ج٣ ص١٤٢.

(٣) أبو زرعة، تاريخ أبي زرعة، ص١٤٥.

وقول ميمون بن مهران هذا عن الإمام وأنّه أسرع في كذا جزء من كل، فإنّ شيعة ابن هند المنافقين يرونه محقّاً في حربه بصفّين لعلي عليه السلام. يقول ابن تيميّة: ولم يكن معاوية ممّن يختار الحرب ابتداءاً بل كان من أشدّ الناس حرصاً على أن لا يكون قتال، وكان غيره أحرص على القتال منه[1]. ويعني (بغيره) الإمام أميرالمؤمنين، فانظر كيف أضلّه الله على علم ...

ولست أهتدي إلى السرّ الذي يحملهم على تعديل معاوية مع تواتر هذه الجرائم والمنكرات عنه اللهمّ إلاّ سرّاً واحداً هو النفاق الذي يشعرون به، ثمّ هو بعد صنيعة عمر بن الخطّاب فلابدّ من تعديله حرصاً على صانعه. يقول أبوبكر بن العربي: وأمّا معاوية فعمر ولاّه وجمع له الشامات كلّها وأقرّه عثمان عليها، بل إنّما ولاّه أبوبكر الصدّيق رضى عنه (كذا) لأنّه ولّى أخاه يزيد واستخلفه يزيد فأقرّه عمر لتعلّقه بولاية أبي بكر لأجل استخلاف واليه له فتعلّق عثمان بعمر وأقرّه فانظروا إلى هذه السلسلة ما أوثق عراها، ولن يأتي أحد مثلها أبداً بعدها[2].

لقد صدق إنّ حلقات هذه السلسلة آخذ بعضها برقاب بعض، وهم جميعاً من معدن واحد ولن يخالجني شك أنّ معدن معاوية وعثمان من معدن صاحبيهما. ولن يضارع أحدٌ من يدافع عن معاوية ويطري سيرته بالعدل والخير في الصلف قط. فهذا ابن تيمية في منهاج السنّة يقول: وكانت سيرة معاوية مع رعيّته من خيار سير الولاة وكان رعيّته يحبّونه وقد ثبت في الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنّه قال: خيار أيمّتكم الذين تحبّونهم ويحبّونكم وتصلون عليهم ويصلون عليكم وشرار أيمّتكم الذين تبغضونهم ويبغضونكم وتلعنونهم ويلعنونكم ...[3]

وقد رسمنا لك صورةً واضحةً مدعومة بالشواهد من سيرة معاوية، فقل عنها ما تشاء، واعلم بأنّنا لا نلوم المنافقين في دفاعهم عن ابن هند، ولكن ينبغي على أصحاب الضمائر أن يتحرّروا من هذه التركات الثقيلة وينظروا بعين الحقّ والواقع، ليعرفوا موقع ابن هند من الإسلام. يقول الخطيب وهو منافق عصري: بل إنّ معاوية

---

(١) العواصم من القواصم، ص١٧١، انظر حاشية الخطيب عليه.

(٢) العواصم من القواصم، ص٨١، ط بيروت، مكتبة اسامة بن زيد، ١٣٩٩ هجري.

(٣) العواصم من القواصم، ص٨٣، هامش الخطيب عليه.

نفسه حاول السير على طريقة عمر كما نقل ذلك الحافظ ابن كثير في البداية والنهاية: عن محمّد بن سعد قال: حدّثنا عارم حدّثنا حمّاد بن زيد عن معمر عن الزهري: إنّ معاوية عمل سنتين على عمل عمر ما يخرم فيه ثمّ إنّه بعد عن ذلك[١].

وقوله هذا سند إدانة لعمر قبل أن يكون برائة لمعاوية، ثمّ من يكون عمر هذا حتّى تكون سيرته مثالاً يحتذى وهل هو إلاّ حاكم كسائر الحكّام، اقتضت الفترة التي قضاها في أوج إنتصارات الإسلام وبين خيار الصحابة أن يكون أكثر التزاماً من غيره وهذه سيرته تنطق بما وضع من البدع والإضافات في الدين وما حذف منه، ولو رحنا نحذف ونأوّل ونُكذِّب ونبطل ما دلّ على ذلك منها، فهل باستطاعتنا أن نردّ تأييده وتوليته لمعاوية؟! فهو إحدى صنايع ابن الخطّاب وهذا الذي حمل القوم على إنكار المسلّمات بل الضرورات التاريخية دفاعاً عن ابن آكلة الأكباد، حتّى عدّوا جرائمه وموبقاته التي جلّت عن الحصر (هنات).

يقول الذهبي: ومعاوية من خيار الملوك الذين غلب عدلهم على ظلمهم وما هو ببريء من الهنات، والله يعفو عنه[٢]. إن كان الذهبي وابن تيميّة من قبله وابن كثير من بعده ظلموا الحقّ ولم ينصفوا وغضّوا الطرف عن موبقات ابن هند الكبار المخزية وسمّوها (هنات) مبالغة في تقليلها وتصغيرها، فمن العلماء من نصر الحق وعرف حقيقة معاوية وشيعته وأنصاره والحمد لله، فهذا الشافعي كان لا يقبل شهادة أربعة من الصحابة وهم معاوية وعمرو بن العاص والمغيرة وزياد[٣]، ولم يكن هؤلاء في زمن الشافعي حتّى لا يقبل شهادتهم ولكنّه كان يفسّقهم، فكبر على شيعتهم ذلك، فقالوا: لا يقبل شهادتهم.

من جهة أُخرى كيف يطلق لفظ صحابي على زياد وقد جزم ابن عساكر: بأنّه أدرك النبي ولم يره. قال ذلك ابن حجر. وقال شيعة زياد ابوبكر بن العربي المالكي: والذي ندريه حقّاً ونقطع عليه علماً أنّ زياداً من الصحابة بالمولد والرؤية لا بالتفقه والمعرفة ...[٤]

---

(١) العواصم من القواصم، ص٧٧، حاشية الخطيب عليه.

(٢) سير أعلام النبلاء، ج٣ ص١٥٩، والبداية والنهاية، ج٨ ص١٢٣.

(٣) أبوالفداء، المختصر في أخبار البشر، ج١ ص٢٥٩.

(٤) العواصم من القواصم، ص٢٣٨، وانظر حاشية الخطيب عليه نفس الصفحة.

وأعجب ما رأيت من خداع العقل الذكي الذي قارب أن يكون بلهاً ما وصف به العقّاد معاوية بالغيرة الدينيّة، وكنت أحسبها لأوّل وهلة غيرة على ما كان يعبد أبو سفيان وهند الهنود حتّى رأيته شفعها بأحكام المروئة والعرف المتّبع في الأخلاق وأكّد ذلك ببرهان مضحك حين جعل إسلامه على يد النبي وصحبته إيّاه وعمله على أيدي الجلّة من صحابته باعثاً على عدم الغفلة عن هذه الغيرة المدّعاة وأحكام الفرائض وواجبات المروئة في عرف زمنه[1].

وأظنّ الرجل لم يقرء تاريخ معاوية ليعرف أنّه لم يؤمن بهذا الدين لكي يغار عليه وإنّما تقلّب في النفاق عمره كلّه وجناياته وأقواله وأفعاله شاهد على ذلك، فمتى تدخل الغيرة قلباً لم يدخل الإيمان فيه طرفة عين. وأصدق كلمة نقولها فيه وفي أمثاله قول أميرالمؤمنين عليه السلام: دخلت في الإسلام كرهاً وخرجت منه طوعاً. ونقل ابن الأثير عن الإمام علي عليه السلام من كلام له: لم يرعني إلاّ انشقاق رجلين قد بايعاني وخلاف معاوية الذي لم يجعل له سابقة في الدين ولا سلف صدق في الإسلام الطليق بن الطليق حزب من الأحزاب لم يزل حرباً لله ولرسوله هو وأبوه حتّى دخلا في الإسلام كارهين.

وقال عليه السلام وهو يحرّض أصحابه على الجهاد: سيروا إلى قتلة المهاجرين والأنصار قد طالما سعوا في إطفاء نور الله وحرّضوا على قتل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ومن معه، ألا إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أمرني بقتال القاسطين وهم هؤلاء الذين سرنا إليهم والناكثين وهم هؤلاء الذين فرغنا منهم والمارقين ولم نلقهم بعد ...[2] هذه حقيقة معاوية نجدها واضحةً من غير أصباغ ومساحيق في أقوال أيمّة الدين وخيار المسلمين. ولم يحملهم على كشف حقيقته عداء شخصي له، بل لكونهم عرفوا الدين حلاله وحرامه فعرفوا من ثمّ أتباعه، من التزم بضوابطه وقيوده ومن اتّخذه هزواً ولعباً.

أمّا ابن تيميّة وابن كثير وابن العربي والذهبي وفي زماننا محبّ الدين الخطيب

---

(١) العقاد، معاوية بن أبي سفيان، ص٢١٠، ط دارالكتاب اللبناني، بيروت.

(٢) النصائح الكافية، ص٤٦.

الذين تحتوا الأعذار لمعاوية وأوّلوا مخالفاته الشرع، وسخّروا الدين لتعديله بل سخروا منه لأجله، فأولئك لم يُقرّوا بالإسلام الموحى به إلى سيّد الرسل، بل الإسلام المصنّع الذي ابتدعته مخيلة الحكام وأنصارهم، وهؤلاء أشدّ خسراً وأعظم هلكاً من زياد وسمرة بن جندب وبسر بن أرطاة ومعاوية بن خديج والضحّاك بن قيس والحجّاج، فهؤلاء خسروا دينهم وربحوا دنياهم وأولئك خسروا الدين والدنيا ولو أدركوا زمن معاوية لكانوا شرّاً ممّن ذكرنا.

ونختم هذا الفصل بواقعة جرت بين مولانا سيّد الشهداء أبي عبدالله الحسين عليه السلام وابن هند: مرّ بنا في أثناء هذا الفصل أنّ الخبيث حبس عن الإمام الحسين عليه السلام عطائه حتّى شاطره عبيدالله بن العباس ماله. ذكر الرواة أنّ مالاً حمل من اليمن إلى معاوية فلمّا مرّ بالمدينة وثب عليه الحسين بن علي عليه السلام فأخذه وقسّمه في أهل بيته ومواليه وكتب إلى معاوية:

من الحسين بن علي إلى معاوية بن أبي سفيان. أمّا بعد، فإنّ عيراً مرّت بنا من اليمن تحمل مالاً وحللاً وعنبراً وطيباً إليك لتودعها خزائن دمشق وتُعلُّ بها بعد النهل بني أبيك وإنّي احتجت إليها فأخذته والسلام[1].

الإمام لم يبدأ كلامه بالسلام على معاوية لأنّه لا يستحقّ ذلك، وأمّا الختام فقد أطلقه الإمام ولم يخصّ به أحداً.

مالي أُسالم قوماً عندهم ترقي ... لا سالمتني يد الأيّام إن سلموا

وكيف يسلّم عليه وهو إن ينسى كلّ شيء فلن ينسى كبد الحسن في الطست ...

السمة العاشرة: إذلال الناس والإستهانة بهم

لم يكن حكم معاوية مرغوباً فيه من قبل الأُمّة بل فرض على الأُمّة بالبطش والإرهاب وقوّة السلاح وما تسنّم معاوية غارب الحكم إلاّ بخوض الغمرات وشنّ الحروب والقسوة المتناهية حتّى قال القائل في سلطانه: والله إنّ سلطاناً لا يشتدّ إلاّ

---

(١) جمهرة رسائل العرب، ج٢ ص٢٢، ط مصر، مصطفى البابي الحلبي، ١٣٥٦ هجري.

بقتل الصبيان ورفع الرحمة لسلطان سوء[1].

وبعد أن استتب له الأمر وأطاعته الأُمّة مرغمة قرّب إليه أعوانه ومن يهابهم أو يخشاهم من وجوه الأُمّة وأقصى الكثرة الكاثرة إلى حيث أعدّ لهم من الجوع والبؤس والذلّ والحرمان، وبالغ في إذلال أعدائه القدامي من الأنصار والمهاجرين وأمعن في أقصائهم، وأعظم القول في بني هاشم. ومن سخريّته بالأُمّة أن رتّب لرفع الحوائج امرأة تدعى (منّة) وهي مولاته.

وقف عبدالله بن الزبير على باب منّة مولاة لمعاوية كانت ترفع حوائج الناس إليه فقيل له: يا أبابكر تقف على باب منّة؟! قال: نعم إذا أعيتك الأُمور من رؤوسها فأتها من أذنابها ...[2]

هل يا ترى قلّ مواليه ليحتاج إلى (منّة) وحجابئها أو قلّ المتزلفون إلى حكمه الطامعون في سحته؟ كلاّ ولكنّه يمعن في الإستهانة بالناس شأن المغمورين الأذلاّء المصابين بالعاهات الخلقية المولودين في البيوت السافلة الذين ربّتهم الدعارة في أحضانها، وهذه حقيقة نفسية لا محيد من الإعتراف بها بل لابدّ من تحليل شخصيّة معاوية على ضوئها وهي أنّ خلفيّات بيته الأُموي ورصيده النفسي من أبي سفيان وهند وولادته بين زانيين في وسط مشحون بالإباحية والتحرر من الإلتزامات الأدبيّه، هذا كلّه حكم على سلوكه في حكمه بالتعاظم في غير عظمة والتكابر دونما كبر.

كما أنّه وجّه تصرّفه مع الناس شطر الإستهانة بهم والحقد عليهم أعداءاً وأولياء، ولعلّ من أولى شواهد وضعه النفسي استلحاقه زياداً مع اعترافه على أبيه بالزنا حتّى قال له الشاعر:

أتغضب إذ يقال أبوك عف ... وترضى إذ يقال أبوك زاني

وأقسم أن رحمك من زياد ... كرحم الفيل من ولد الأتان

وما كانت ضرورة أخلاقية ولا ضرورة سياسية تدعو إلى استلحاقه، وما كان

---

(١) تاريخ اليعقوبي، ج٢ ص١٩٩.

(٢) التذكرة الحمدونية، ج١ ص٤٦١.

زياد بحاجة إلى أب يعزى إليه، بل هو بحاجة إلى حكم يسند إليه وولاية توضع بين يديه، ولو فعل معاوية ذلك لما فقد من طاعة زياد شيئاً ولكنّها صفة معاوية الخلقيّة، وسقوط أُسرته في حمأة الصغار والقمائة وصغر نفسه سوّل له ذلك. ولقد كان ضرر استلحاق زياد على معاوية أكثر من نفعه، بان ذلك حين أراد معاوية البيعة ليزيد، فكان زياد من أشدّ المعارضين لهذه البيعة حتّى أثار حفيظة معاوية وهدّده بردّه إلى وضعه البيتي القديم.

ولقد كان زياد يطمع بولاية العهد لنفسه بعد معاوية. المدائني عن مسلمة قال: وفد زياد على معاوية فحدا به الحادي:

قد علمته الضمر الجياد أنّ الأمير بعده زياد

فبلغ ذلك معاوية فغضب ولم يذكر لزياد شيئاً، فقال يوماً لحضين بن المنذر الرقاشي بحضرة زياد: يا أبا ساسان إنّ لك رأياً وعقلاً فما فرّق أمر هذه الأُمّة حتّى سفكت دمائها واختلف ملأها وسفهت أحلامها؟ فقال: قتل أميرالمؤمنين عثمان. فقال: صدقت والخلافة لا تصلح لمنافق ولا ذي دعابة يعرض بعلي، وإنّ زياداً كان من أعوانه ففطن زياد فقال: راجز رجز بشيء لم يكن عن أمري ولقد زجرته ونهرته فقبل ذلك معاوية[1].

ولابدّ لي قبل المرور إلى صلب الموضوع من وقفة فاحصة لتعريض معاوية بالإمام علي عليه السلام في الدعابة. فاعلم أنّها كلمة خبيثة قالها أُستاذه الأوّل ابن الخطّاب في حقّ الإمام للحطّ من شخصيّته الزعاميّة، وأنّه بمثابة (بطّال) وحاشاه ذلك لا يصلح للزعامة، فقد قال له في قصّة الشورى: لله أنت لولا دعابة فيك! أما والله لئن ولّيتهم لتحملنّهم على الحقّ الواضح والمحجّة البيضاء ...[2] وشرقت هذه الكلمة وغربت حتّى استلمها ابن النابغة. يقول الإمام عليه السلام: عجباً لابن النابغة يزعم لأهل الشام أنّ فيّ دعابة وأنّي امرىء تلعابة ... إل آخر كلامه في النهج، والعجب من ابن النابغة أوّل من قالها أكثر ...

---

(١) أنساب الأشراف، ج٥ ص٣٤.

(٢) شرح ابن أبي الحديد، ج١ ص١٨٦.

وبقيت الكلمة تتموج في الزمن حتّى قالها محمّد بن عيسى الأعشى حين أراده الأمير الحكم على القضاء لما مات القاضي محمّد بن بشير. ذكر الأمير الحكم القضاء ومن يصلح أن يولّيه، فقال: ما أرى غير فقيه البلد: محمّد بن عيسى الأعشى، وما يغمّني منه غير إفراط الدعابة التي فيه وعزم على ذلك من أمره. فقال له بعض الوزراء: لو أمتحنت أمره قبل المشافهة كان ذلك رأياً حسناً. فأرسل إليه بعض وزرائه فنزل عليه وذاكره الأمر وأعلمه بما عابه به الأمير من افراط دعابته، فقال: أمّا القضاء، فإنّي والله لا أقبله ألبتة ولو فعل بي وفعل فلا يحتاج الأمير أبقاه الله أن يكشف إليّ وجهه في ذلك، وأمّا الدعابة فعلي بن أبي طالب ﷺ لم يدعها للخلافة أأدعها للقضاء[١].

وأقول لهم وكلّي ألم وحسرة كما قال الله تعالى: ﴿جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّاً شَيَاطِينَ الإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً﴾[٢].

بهذه النفسية الوضيعة حكم معاوية أُمّة حديثة ناهضة رائده فسلك سبلاً مروعة في إدخال الذلّ عليها. قال ابن الأثير: قيل: وكان الناس يقولون: أوّل ذلّ دخل الكوفة موت الحسن بن علي وقتل حجر ودعوة زياد ...[٣] ولا داعي لتخصيص الكوفة بالذل دون سائر البلاد، إلاّ لكونها متمحّضة للتشيّع.

وكان سبب موت الربيع بن زياد أنّه سخط قتل حجر بن عدي حتّى أنّه قال: لا تزال العرب تقتل صبراً بعده ولو نفرت عند قتله لم يقتل رجل منهم صبراً ولكنّها أقرّت فذلّت[٤].

وربّما عبّر بعض شرائح المجتمع البائس المصاب بالذلّ من حكم معاوية بالعبارات ذات الدلالات العميقة. وفدت سودة بنت عمارة الهمدانية على معاوية فقال لها: ما حاجتك؟ قالت: إنّك أصبحت للناس سيّداً ولأمورهم متقلّداً والله مسائلك عن أمرنا وما افترض عليك من حقّنا ولا يزال يقدم علينا من ينوء بعزّك

---

(١) الخشني القروي، قضاة قرطبة، ص٢٩، دارالكتابين المصري واللبناني، ط ثانية، ١٤١٠ هجري.

(٢) سورة الإنعام الآية ١١٢.

(٣) ابن الأثير، الكامل، ج٣ ص٢٤٢.

(٤) نفسه، ج٣ ص٢٤٥.

ويبطش بسلطانك فيحصدنا حصد السنبل، ويدوسنا دوس البقر، ويسومنا الخسيسة، ويسلبنا الجليلة، وهذا بسر بن أرطاة قدم علينا من قبلك فقتل رجالي، يقول لي فوهي بما استعصم الله تعالى منه وألجأ إليه منه، ولولا الطاعة لكان فينا عزّ ومنعه، فإمّا عزلته عنّا فشكرناك وإمّا لا فعرفناك.

فقال معاوية: أتهدّديني بقومك؟ لقد هممت أن أحملك على قتب أشرس فأردك إليه ينفذ فيك حكمه، فأطرقت تبكي ثمّ أنشأت تقول:

صلّى الإله على جسم تضمّنه ... قبر فأصبح فيه العدل مدفونا

قد حالف الحق لا يبغي به بدلاً ... فصار بالحق والإيمان مقرونا

فقال لها: ومن ذاك؟ قالت: علي بن أبي طالب رضوان الله عليه. قال: وما صنع بك حتّى صار عندك كذا؟ قالت: قدمت عليه في مُصدِّق قدم علينا من قبله والله ما كان بيني وبينه إلاّ ما بين الغث والسمين، فأتيت علياً لأشكو إليه ما صنع بنا فوجدته قائماً يصلّي، فلمّا نظر إليّ انفتل من صلاته ثمّ قال لي برأفة وتعطّف: ألك حاجة؟! فأخبرته فبكى ثمّ قال: اللهمّ أنت الشاهد عليّ وعليهم أنّي لم آمرهم بظلم خلقك ولا بترك حقّك، ثمّ أخرج من جيبه قطعة جلد كهيئة طرف الحراب فكتب فيها: (بسم الله الرحمن الرحيم * أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِ ـَانَ بِالْقِسْطِ وَلاَ تَبْخَسُوا النّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلاَ تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ * بَقِيّتُ اللّه خَيْرٌ لَكُمْ إِن كُنتُم مُؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ ـ َفِيظٍ ...)[1] إذا قرأت كتابي هذا فاحتفظ بما في يديك من عملنا حتّى يقدم عليك من يقبضه منك والسلام، فأخذته منه والله ما ختمه بطين، ولا حزمه بحزام، فقرأته.

فقال لها معاوية: لقد لمّظكم ابن أبي طالب الجرأة على السلطان، فبطيئاً ما تفطمون، ثمّ قال: اكتبوا لها بردّ مالها والعدل عليها. قالت: ألي خاصة أم لقومي عامّة؟! قال: ما أنت وقومك؟ قالت: هي إذن والله الفحشاء واللؤم، إن كان عدلاً شاملاً وإلاّ أنا كسائر قومي قال: اكتبوا لها ولقومها[2].

---

(١) سورة هود الآيات ٨٥ - ٨٦.

(٢) التذكرة الحمدونية، ج٢ ص٢٠.

فقولها واصفةً حال قومها تحت وطأة بسر: (يدوسنا دوس البقر ويسومنا الخسيسة) غنيٌ عن التعليق لدلالته الواضحة على نصيب الذلّ الذي ساقه معاوية لهم على يد بسر بن أرطاة، وأحياناً يستيقظ الضمير عند بعض عمّال معاوية فيعترف بشدّته على الأُمّة كما فعل أخوه عتبة. رقي عتبة في مرض موته فقال: يا أهل مصر قد تقدّمت لي فيكم عقوبات كنت يومئذ أرجو الأجر فيها، وأنا اليوم أخاف الوزر عليّ منها، فليتني لم أكن اخترت دنياي على معادي، ولم أصلحكم بفسادي، وأنا أستغفر الله منكم وأتوب إليه فيكم، ولقد هلك من شقي بين عفو الله ورحمته ...[1]

وتوبة الذئب هذا على وزن (حَتّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنّ تُبْتُ الآنَ ...) لأنّه عاد بعد أن عوفي إلى أشدّ ممّا كان عليه من ذي قبل. وهذه الصفحة المعتمة من سياسة معاوية للأُمّة هي التي أوقفت حركة الجهاد والفتح، وتركت الأُمّة منشغلة بنفسها عمّا أعدّت له من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

أجل، هناك فتح بسيط جدّاً جرى على يد معاوية وهو فتح قبرص والواقع أنّ قبرص هانت على الروم بعد ضياع سوريا من أيديهم فتركوها من غير حامية وانحازوا عنها إلى مواقع أكثر استراتيجية منها من ثمّ كانت لمعاوية لقمة سائغة فانقضّ عليها واستولى على أراضيها دونما أدنى مقاومة. وأمّا ما قيل من غزوة عاصمة الروم الشرقيّة فإنّها كانت مناورة منه لشغل ولي عهده المرتقب (يزيد) عمّا انغمس فيه من اللعب والقصف والفساد، وليظهر للأُمّة قدراته الحربية، فكان بحمد الله غير موفّق، ولم يكن من رأيه ذلك، ولكن أشار عليه زياد به ليخفي يزيد في أعماق الثغور عن عيون منتقديه.

وكان بعض الفتوح قام به جملة من عمّاله على الحدود الشرقيّة من البلاد، ولم تكن فتحاً بالمعنى المألوف للفتح، بل هي في الواقع دفاعات لابدّ منها لصدّ حملات المغيرين من أهل البلاد المفتوحة أو ثورات أبنائها التي نائت بثقل ما حملت من حكم معاوية. وهذا كلّه حاك عن ضعف الأُمّة، حيث أنّ الأُمّة الذليلة المرهقة والخانعة لحكّامها والخائفة من قسوتهم وإرهابهم ليست من الجهاد ولا الجهاد منها.

---

(١) التذكرة الحمدونية، ج٤ ص١٢٥.

السمة الحادية عشرة: تأصيل العقد بين الناس

جاء في عهد الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام لمالك الأشتر رضي الله عنه: اطلق عن الناس عقدة كلّ حقد، واقطع عنهم سبب كلّ وتر ...[1]

من البديهي لنجاح الحكم أن يترفع الحاكم فيه عن صفات العامة والسوقة بخاصة بعد انتصاره في معارك الحكم. أمّا معاوية فجهاز آخر من الناس فما كاد يضع رجله في ركاب الحكم حتّى أغرق الناس في لجّة عارمة من الحقد والثار والعقد. وصارت قضايا وقعت في الجاهليّة تستحضر في ملكه ويُعامل أطرافها على أساس أخذ الثأر. وأقلّ ما كان يفعله مع هؤلاء تذكيرهم بمواقفهم ثمّ حرمانهم من حقوقهم المشروعة وعزلهم عن فئات الشعب لأنّهم ثأره ومرتع حقده وموبىء عقده.

كتب معاوية إلى زياد: اعزل حريث بن جابر فإنّي ما أذكر فتنة صفّين إلاّ كانت حزازة في صدري. فكتب إليه: خفّض عليك يا أميرالمؤمنين فقد بسق حريث بسوقاً لا يرفعه عمل ولا يضرّه عزل[2]. وهو إن وجد لحرب صفّين حزازة في صدره فما أيّامها ببعيدة عنه ولا عارها ممّا ينسىء ولكن ما بال ثأر الجاهلية لا زال يعاوده ويلحّ عليه.

المدائني عن محمّد بن علي بن الحكم قال: حضر ناجذ بن شمرة ووائلة بن الأسقع الكناني باب معاوية فقال معاوية لآذنه وهو أبو أيّوب يزيد مولاه: ايذن لناجذ فأذن له فمنعه وائلة ووائلة أحد بني ليث بن بكر بن عبد مناة بن كنانة، وناجذ أحد بني الحارث بن عبد مناة بن كنانة. فدخل الآذن فأعلم معاوية فأمره أن يدخلهما معاً، فقال وائلة: يا أميرالمؤمنين لم أذنت لهذا قبلي ولي صحبة برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ولي سنّ عليه؟ قال معاوية: إنّي وجدت برد أسنانك بين ثديي ووجدت كفّ هذا تدفع ذلك البرد يعني يوم الفجار الذي كان بسبب البرّاض وهو يوم نخلة. فقال: يا معاوية أبثأر الجاهلية تطالبني؟! أفلا أخذت الذي قال:

---

(١) مغنيه، في ظلال نهج البلاغة، ج٤ ص٥٣.

(٢) التذكرة الحمدونية، ج٢ ص٢٦.

أغـــرّك أن كانـــت لبطنـــك عكنـــة وإنّـــك مكفـــي بمكـــة طـــاعم

فقال معاوية:

إذا جـــاءك البكـــري يحمـــل قُصـــبة فقـــل قُصـــب كلـــب صـــاده وهـــو نـــائم

فقال وائلة:

فمـــا منـــع العـــير الضـــروط ذمـــاره ولا منعـــت مخـــزاة والـــدها هنـــد

فقال معاوية: سوءة أجهلتنا وأجهلناك وأسأنا إليك ولنا المقدرة عليك. ارفع إلينا حوائجك فقضاها ووصله[١].

وما فتىء يحمل لرجالات الأُمّة وأعيانها قلباً مشيحاً ونفساً مريضة جرّاء مواقف كانت منهم تجاه معاوية لم يرضها في حرب أو سلم، ولكنّه إذا خلى إليهم نافقهم وأظهر رضاه عنهم وأعجابه بهم.

كتب إلى زياد: انظر رجلاً يصلح لثغر الهند نولّهِ. فكتب إليه زياد: إنّ قبلي رجلين يصلحان لذلك الأحنف بن قيس وسنان بن سلمة، فكتب معاوية بأيّ يومي الأحنف نكافئه: ألخذلان أُمّ المؤمنين أم بسعيه علينا يوم صفّين؟ فوجّه سناناً فكتب إليه زياد: إنّ الأحنف قد بلغ من الشرف والسؤدد ما لا ترفعه الولاية ولا بضعه الغرل[٢].

وكان قد ذكر الأحنف ذات يوم مقامه بصفّين فأغلظ له الأحنف فقال: والله إنّ القلوب التي أبغضناك بها لبين جوانحنا وإنّ السيوف التي قاتلناك بها لعلى عواتقنا، ولئن مددت بشبر من غدر لنحدّن بباع من محتد ولئن شئت لتستصفينَّ كدر قلوبنا بصفو حلمك قال: فأنّي أفعل[٣].

ولكنّه لم يفعل بل ظلّ يحمل بين جوانحه حقداً أسود ما برح يعتاده كلّما تذكّر موقفاً من مواقفهم يوم صفّين أو غيره ولم تصفو نفسه الجاهليّة على أحد وما إصراره على لعن الإمام عليه السلام إلاّ جزء من هذا التأصيل الذي حاول معاوية أن يجعله سائداً في زمانه وما بعده وهو بهذا يهدف إلى غايتين: الأولى حمل الأُمّة على

---

(١) أنساب الأشراف، ج٥ ص٨٢ - ٨٣.

(٢) التذكرة الحمدونية، ج٢ ص٢٧.

(٣) الآبي، نثر الدر، ج٥ ص٦٤.

التنكر لقيمها الفاضلة المجسّدة في أهل الفضل من رجالها لتتمَّ له السيطرة عليها وذلك حين تضعف عندها حاسة التمييز بين الخير والشر ومن ثمّ تختلط الصور في ذهنها فتضع كلّ واحدة من هاتين القيمتين مكان الأُخرى.

الثانية: التشفّي وإدراك الثأر الذي تنزع إليه نفسة تأثراً برواسب جاهليته الأُولى من أعدائه القدامى الذين قتلوا أسلافه، وهزموه في معارك أدّت إلى قلع جذور جاهليّته وخضد شجرته الملعونة، فهو وإن اكتفأ الإناء وحده واحتاش الثمرة لنفسه إلاّ أنّ لاعج الضغينة لا يهدأ من روحه الخبيثة حتّى يستأصل عدوّه وجوداً ويمحو ذكره الحسن الذي تستلزمه المثل العليا الدائرة في المجتمع المسلم آنذاك. ويمكن أن تشكّل هذه الغاية جزء العلّة الأكبر في إصراره الجنوني على لعن الإمام أميرالمؤمنين وأنصاره وخلّص أصحابه وأولاده.

جلس معاوية يوماً وعنده وجوه الناس وفيهم الأحنف إذ دخل رجل من أهل الشام فقام خطيباً وكان آخر كلامه أن لعن عليّاً عليه السلام، فأطرق الناس وتكلّم الأحنف فقال: يا أميرالمؤمنين إنّ هذا القائل آنفاً ما قال لو علم أنّ رضاك في لعن المرسلين للعنهم فاتّق الله ودع عليّاً، فلقد لقي الله وأفرد في حفرته وخلا بعمله وكان والله ما علمنا المبرّز بسيفه، الطاهر في خلقه، الميمون النقيبة، العظيم المصيبة.

فقال معاوية: يا أحنف لقد أغضيت العين على القذى، وقلت بغير ما ترى، وأيم الله لتصعدنّ المنبر فتلعننّه طائعاً أو كارهاً. قال الأحنف: إن تُعفني فهو خير، وإن تجبرني على ذلك فوالله لا تجري به شفتاي. قال: قم فاصعد. قال: أما والله لأنصفنّك في القول والفعل. قال معاوية: وما أنت قائل إن أنصفتني؟ قال: أصعد فأحمد الله بما هو أهله وأُصلّي على نبيّه ثمّ أقول:

أيها الناس، إنّ معاوية أمرني أن ألعن عليّاً ألا وإنّ عليّاً ومعاوية اختلفا واقتتلا وادّعى كلّ واحد منهما أنّه مبغي عليه وعلى فئته فإذا دعوت فأمّنوا يرحمكم الله، ثمّ أقول: اللهمّ العن أنت وملائكتك وأنبياءك ورسلك وجميع خلقك الباغي منهما على صاحبه والعن الفئة الباغية على الفئة المبغي عليها آمين ربّ العالمين. فقال

معاوية: إذن نعفيك يا أبا بحر[1].

وطبع معاوية أخبث طبع عرف لحدّ الآن وما كان الله سبحانه ليجعل عدوّ الحق والخير على شيء من الصفات الحسنة. ولا يمكن أن يكون صاحب هذا الطبع إلاّ حسوداً حقوداً.. وما نسب إليه من خلّة الحلم لا تعدو أن تكون تصنّعاً، أو كظمأ لحالة التفريغ بناءاً على ظرف خاص زامن تلكم الحالة ... وسوف نتحدّث بشيء من التفصيل عن هذا الحلم الموهوم المنسوب إليه وهو أبعد خلائق الله عنه.

وفد ابن أبي محجن على معاوية فقام خطيباً فأحسن فحسده فأراد أن يكسره فقال: أأنت الذي أوصاك أبوك بقوله:

إذا متُّ فادفنّي إلى أصل كرمة ... تروّي عظامي بعد موتي عروقها

ولا تدفنّي في الفلاة فإنّني ... أخاف إذا ما متُّ أن لا أذوقها

فقال: بل أنا الذي يقول أبي:

لا تسأل الناس ما مالي وكثرته ... وسائل الناس ما جودي وما خلقي

أعطي الحسام غداة الروع حصّته ... وعامل الرمح أرويه من العلق

ويعلم الناس أنّي من سراتهم ... إذا سما بصر الرعديدة الفرق

وأطعن الطعنة النجلاء عن عُرُص ... وأكتم السرّ فيه ضربة العنق[2]

وكان يناصب الأحنف ابن قيس العداء في السرّ وإنّ تملّقه في العلانية. كتب عبيدالله بن زياد إلى معاوية يستشيره في تولية الأحنف بن قيس السند، فأجابه معاوية: بأيّ أيّامه يستحقّ ذلك؟ أبخذلانه أميرالمؤمنين يوم الجمل - كذا هي والصحيح أُمّ المؤمنين -؟ أم بقتاله يوم صفّين؟ أم بمشورته على علي يوم صفين بأمر الحكمين؟ اضرب عنه[3].

وكان يوصي ابن زياد والأحنف حاضر به وسعى لإصلاح ما فسد بينه وبين ابن زياد وهذا نفاق رخيص كان معاوية يجيده، وما ضمّه واحد أعدائه القدامى

---

(١) الآبي، نثر الدر، ج٥ ص٥٥.

(٢) التذكرة الحمدونية، ج٢ ص٤٦٨.

(٣) البصائر والذخائر، ج١ ص٢٣٥.

مجلس إلاّ وأثار في وجهه دفائن الماضي.

دخل أبوالطفيل عامر بن وائلة الكناني على معاوية فقال له: أنت من قتلة عثمان؟ قال: لا ولكنّي ممن حضره فلم ينصره. قال: وما منعك من نصره؟ قال: لم ينصره المهاجرون والأنصار. قال معاوية: لقد كان حقّه واجباً، وكان يجب عليهم أن ينصروه. قال: فما منعك من نصرته يا أميرالمؤمنين ومعك أهل الشام؟ قال: أو ما طلبي بدمه نصرة له؟ فضحك عامر فقال: أنت والله وعثمان كقوله:

لا أعرفنّك بعد الموت تندبني وفي حياتي ما زوّدتني زادي

فقال معاوية: دع هذا عنك وقل لي: ما بقّاه الدهر من ثكلك على علي بن أبي طالب؟ فقال: ثكل العجوز المقلاة والشيخ الرقوب. قال: فكيف حبّك له؟ فقال: حبّ أُمّ موسى لموسى وإلى الله أشكو التقصير.

ولما أخذ أهل الكوفة بالبيعة لم يرضها منهم إلاّ بإضافة بند جديد وهو البرائة من الإمام عليه السلام لعلمه بهوى أهل الكوفة فيه. ذكر الآبي أنّ معاوية جلس بالكوفة يبايع على البرائة من علي عليه السلام، فجاء رجل من بني تميم فأراده على ذلك، فقال: يا أميرالمؤمنين نطيع أحياءكم ولا نتبرّء من موتاكم، فالتفت إلى المغيرة فقال: إنّ هذا رجل فاستوص به خيراً[1].

وتدنى حقده على الناس والأشراف منهم خاصة حتّى بلغ حدّ الدنائة فبينما هو يحرق الأرم حقداً على مخاطبه إذ سرعان ما هان واستكان وما عهد هذا الخلق الوضيع عن أحد ممّن آتاهم الله الملك إذ كانوا بين موقفين: العفو والصفح، أو الأخذ بالذنب وإنزال العقاب.

قال عبدالرزاق عن ابن عيينة: قال: قدم قيس بن سعد على معاوية فقال له معاوية: وأنت يا قيس تلجم عليّ مع من ألجم؟ أما والله لقد كنت أحبّ أن لا تأتيني هذا اليوم إلاّ وقد ظفر بك ظفر من أظافري موجع فقال له قيس: وأنا والله قد كنت كارهاً أن أقوم في هذا المقام فأحيبك بهذه التحية. فقال له معاوية: ولم؟ وهل أنت الأحبر من أحبار اليهود؟ فقال له قيس: وأنت يا معاوية كنت صنماً من أصنام

---

(١) الآبي، نثر الدر، ج٥ ص٢٠٥.

الجاهليّة دخلت في الإسلام كارهاً وخرجت منه طائعاً. فقال معاوية: اللهمّ غفراً مدّ يدك، فقال له قيس: إن شئت زدت وزدت[1].

وكان حقده يحرق القريب والبعيد، حتّى سعيد بن العاص وهو اموي من أرومته وجذمه ولكن تميّزت في شخصه صفات الأداري القدير المطاع فعاداه معاوية. دخل المسور على معاوية فقال له: كيف تركت سعيداً؟ فقال: عليلاً. قال: لليدين وللفم به لا بظبي بالصريمة اعفرا. قال: وعمرو بن سعيد صبيٌ يسمع قوله من ورائه فقال: إذن والله لايسد حفرتك ولا يزيد في رزقك ولا يدفع حتفاً عليك بل يفت في عضدك ويهيض ظهرك وينشر أمرك، فتدعو فلا تجاب وتتوعّد فلا تهاب.

فقال معاوية: أبا أُميّة أراك هاهنا إنّ أباك جارانا إلى غاية الشرف فلم نعلق بآثاره ولم نقم لمحضاره ولم نلحق بمضماره ولم ندن من غباره، هذا مع قوّة إمكان وعزّة سلطان وإنّ أثقل قومنا علينا من سبقنا إلى غاية شرف ...[2]

ومن عجيب أمره أنّه كان يتفوّه بكلمات تنطبق عليه أضدادها ويدّعي مقامات أثبتت سيرته نقائضها، من قبيل قوله لابنه وقد رآه ضرب غلاماً له: إيّاك يا بني والتشفّي ممّن لا يمتنع منك فوالله لقد حالت القدرة بين أبيك وبين ذوي تراثه ولهذا قيل: القدرة تذهب الحفيظة[3].

وإن صحّ شيء من هذا القول في معاوية فهو قوله: حالت القدرة إلى آخره والواقع أنّها قدرتهم لا قدرته فما كان يسلم الضعيف من شرّه ونكاله حتّى ربّات الحجال اللواتي يأنف ذوو الهمم الشماء أن يتعرّضوا لهنّ بالإساءة وإن بدرت منهن بوادر مؤذيه أو حالات مؤسية، ولكن ابن هند انحى على من اشتركت في صفّين منهنّ باللائمه وقطع لهامن ذات نفسه تهديداً ووعيداً بخاصة الثابتة منهنّ على الولاء والمحبّة.

وأوفد معاوية الزرقاء بنت عدي بن غالب فقال لها: ألست راكبة الجمل الأحمر يوم صفين بين صفّين توقدين الحرب وتحضّين على القتال؟ فما حملك

---

(١) ابن كثير، البداية والنهاية، ج٨ ص١٠٣.

(٢) التذكرة الحمدونية، ج٢ ص٤٢ و١٣٨.

(٣) التذكرة الحمدونية، ج٢ ص٤٢ و١٣٨.

على ذلك؟ قالت: يا أميرالمؤمنين إنّه قد مات الرأس وبقي الذنب والدهر ذو غير ومن تفكّر أبصر والأمر يحدث بعده الأمر.

قال: صدقت فهل تحفظين كلامك يوم صفّين؟ قالت: ما أحفظه. قال: ولكنّي والله أحفظه لله أبوك سمعتك تقولين: أيها الناس، إنّكم في فتنة غشتكم جلابيب الظلم وجارت بكم عن قصد المحجة فيا لها من فتنة صمّاء، لا يسمع لقائلها ولا ينقاد لسائها. أيها الناس، إنّ المصباح لا يضيء في الشمس، وإنّ الكواكب لا تَقِدُ في القمر، وإنّ البغل لا يسبق الفرس، وإنّ الزفّ - صفير الريش - لا يوازن الهجر ولا يقطع الحديد إلاّ الحديد، ألا من استرشدنا أرشدناه، ومن استخبر أخبرناه، إنّ الحقّ كان يطلب ضالّته فصبراً يا معشر المهاجرين والأنصار، فكأنّ قد اندمل شعب الشتات والتأمت كلمة العدل وغلب الحقّ باطله فلا يعجلنّ أحد فيقول كيف وأنّى وليقض الله أمراً كان مفعولا. ألا إنّ خضاب النساء الحناء وخضاب الرجال الدماء، والصبر خير في الأمور عواقباً، إلى الحرب قدماً غير ناكصين فهذا يوم له ما بعده.

ثمّ قال معاوية: والله يا زرقاء لقد شركت علياً في كلّ دم سفكه. فقالت: أحسن الله بشارتك يا أميرالمؤمنين وأدام سلامتك مثلك من بشّر بخير وسرّ جليسه. قال لها: وقد سرّك ذاك؟ قالت: نعم والله، لقد سرّني قولك، فأنّى بتصديق الفعل؟ فقال معاوية: والله لوفاءكم له بعد موته أحبّ إليّ من حبّكم له في حياته[1].

وأعتقد أنّ في العبارة تغييراً في قوله: أحبّ، فما كان معاوية ليحبّ شيئاً يعزى إلى أميرالمؤمنين عليه السلام وأغلب الظنّ أنّها أعجب.

وأوفد أُمّ الخير بنت الحريش البارقيّة ومعنى أوفد هنا أي استقدمها للإعتقال والمحاكمة، فما كان ليعف عن النساء بعد أن استئصل الرجال وأُوتي الحكم لمشيئة ربّانية الله أعلم بالغاية منها، فقال لها: كيف كان كلامك يوم قتل عمّار بن ياسر؟ قالت: لم أكن والله روّيته قبل ولا دوّنته وإنّما كانت كلمات نفثهنّ لساني حينالصدمة فإن شئت أن أحدث لك مقالاً غير ذلك فعلت. قال: لا أشاء ذلك، ثمّ التفت إلى أصحابه فقال: أيّكم حفظ كلام أُمّ الخير؟ قال رجل من القوم: أنا أحفظه يا

---

(١) الآبي، نثر الدر، ج٤ ص٧٩ و٨٠.

أميرالمؤمنين كحفظي سورة الحمد. قال: هاته.

قال: نعم، كأنّي بها يا أميرالمؤمنين في ذلك اليوم وعليها برد زبيدي كثيف الحاشية وهي على جمل أرمك وقد أُحيط حولها وبيدها سوط منتشر الضفيرة وهي كالفحل يهدر في شقشقته تقول: يا أيها الناس اتّقوا ربّكم إنّ زلزلة الساعة شيء عظيم، إنّ الله قد أوضح الحقّ وأبان الدليل ونور السبيل ورفع العلم، فلم يَدَعْكم في عمياء مبهمة ولا سوداء مدلهمّة، فإلى أين تريدون رحمكم الله؟ أفراراً عن أميرالمؤمنين أم فراراً من الزحف أم رغبة عن الإسلام أم ارتداداً عن الحق؟ أما سمعتم الله عزّوجل يقول: ﴿وَلَنَبْلُوَنّكُمْ حَتّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصّابِرِينَ وَنَبْلُوَا أَخْبَارَكُمْ﴾[1]؟ ثمّ رفعت رأسها إلى السماء وهي تقول: اللهمّ قد عيل الصبر وضعف اليقين وانتشرت الرعيّة وبيدك يا ربّ أزمّة القلوب فاجمع إليه كلمة التقوى وألّف القلوب على الهدى، وأردد الحقّ إلى أهله، هلمّوا رحمكم الله إلى الإمام العادل والوصي الوفي والصدّيق الأكبر، إنّها أحن بدريّة وأحقاد جاهليّة وضغائن أحديّة وثب بها معاوية حين الغفلة ليدرك بها ثارات بني عبد شمس.

ثمّ قالت: ﴿فَقَاتِلُوا أَئِمّةَ الْكُفْرِ إِنّهُمْ لاَ أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلّهُمْ يَنتَهُونَ﴾[2] صبراً معشر المهاجرين والأنصار، قاتلوا على بصيرة من ربّكم وثبات من دينكم، فكأنّي بكم غداً قد لقيتم أهل الشام كحمر مستنفرة فرّت من قسورة لا تدري أين يسلك بها من فجاج الأرض، باعوا الآخرة بالدنيا واشتروا الضلالة بالهدى وباعوا البصيرة بالعمى وعمّا قليل ليصبحنّ نادمين، تحلّ بهم الندامة فيطلبون الإقالة، إنّه والله من ضلّ عن الحقّ وقع في الباطل ومن لم يسكن الجنّة نزل النار.

أيها الناس، إنّ الأكياس استقصروا عمر الدنيا فرفضوها، واستبطئوا الآخرة فسعوا لها، والله أيّها الناس لولا أن تبطل الحقوق، وتعطّل الحدود، ويظهر الظالمون، وتقوى كلمة الشيطان، لما اخترنا ورد المنايا على خفض العيش وطيبه، فإلى أين تريدون رحمكم الله عن ابن عمّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وزوج ابنته وأبي ابنيه؟

---

(١) سورة محمّد الآية ٣١.

(٢) سورة التوبة الآية ١٢.

خلق من طينته وتفرّع من نبعته وخصّه بسرّه وجعله باب مدينته وعلم المسلمين وأبان ببغضه المنافقين، فلم يزل كذلك يؤيّده الله عزّوجل بمعونته ويمضي على سنن استقامته لا يعرج لراحة الدار، ها هو مغلق الهام ومكسّر الأصنام إذ صلّى والناس مشركون وأطاع والناس مرتابون، فلم يزل كذلك حتّى قتل مبارزي بدر وأفنى أهل أُحد، وفرّق جمع هوازن فيا لها من وقايع زرعت في قلوب قوم نفاقاً وردّة وشقاقاً، قد اجتهدت في القول وبالغت في النصيحة وبالله التوفيق، وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته.

فقال معاويه: يا أُمّ الخير ما أردت بهذا الكلام إلاّ قتلي ووالله لو قتلتك ما حرجت في ذلك. قالت: والله ما يسوءني يابن هند أن يجري الله ذلك على يدي من يسعدني بشقائه. قال: هيهات يا كثيرة الفضول.. ما تقولين في عثمان بن عفّان؟ وقالت:وما عسيت أن أقول فيه؟ استخلفه الناس وهم كارهون، وقتلوه وهم راضون. فقال معاوية: إيهاً يا أُمّ الخير، هذا والله أصلك الذي تبنين عليه. قالت: ﴿لكِنِ اللهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلاَئِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللّه شَهِيداً﴾[1] ما أردت لعثمان نقصاً، ولقد كان سبّاقاً إلى الخيرات وإنّه لرفيع الدرجات. قال: فما تقولين في طلحة بن عبيدالله؟ قالت: وما عسى أن أقول في طلحة؟ أُغتيل من مأمنه، وأُتي من حيث يحذر، وقد وعده رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الجنّة.

قال: فما تقولين في الزبير؟ قالت: يا هذا، لا تدعني كرجيع الضبع، يُعرك في المركن. قال: لتقولين ذلك وقد عزمت عليك. قالت: وما عسيت أن أقول في الزبير ابن عمّة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وحواريه؟ وقد شهد له رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بالجنّة، ولقد كان سبّاقاً إلى كلّ مكرمة من الإسلام وإنّي أسألك بحقّ الله يا معاوية فإنّ قريشاً تحدث إنّك من أحلمها، فأنا أسألك بأن تسعني بفضلك وأن تعفيني من هذه المسائل وامض لما شئت من غيرها. قال: نعم وكرامة قد أعفيتك وردّها مكرمة إلى بلدها[2].

بهذه السياسة الحاقدة والأساليب المرتكزة على عقد الضغائن حكم الأُمّة

---

(١) سورة النساء الآية ١٦٦.

(٢) الآبي، نثر الدر، ج٤ ص٧٩ إلى آخره.

معاوية وما كانت الأُمّة لتخرج من أتونها دون أن تحترق وتكون رماداً، فقد خسرت الأُمّة قيمها الفاضلة، وأتت أساليب ابن هند الجاهليّة في الحكم على أخلاقها الجميلة ومحامد صفاتها واكتسحت أخلاقه الآجنة وأصحابه وذويه وخاصته آدابها التي بناها الإسلام وأرسى قواعدها على الحبّ والأخاء، وهذه تعتبر من أقسى الضربات التي تلقتها الأُمّة من سياسة معاوية والأُمويين.

السمة الثانية عشرة: التأثير على العامة وأوشاب الناس

انتهت أيّام معاوية في سنة ستّين للهجرة ولكن لم تنته آثار حكمه، بل بقيت عالقة في الجماعة الإسلاميّة، وتحوّلت من أُروقه السياسة إلى مذاهب الفرق والطوائف، وانقسمت إلى مسائل فقهيّة وأُخرى كلاميّة، واختفى الواضع الأوّل أعني معاوية في العدم، وبقيت أقواله أو جلّها على أحسن تقدير معمولاً بها عند أكثر المذاهب الإسلاميّة، خذ على سبيل المثال مسألة التفضيل بين الصحابة فما كان أحد يعتريه الشك في تقديم الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام على المسلمين بأجمعهم، حتّى جاء معاوية وراح يوسوس في صدور الناس ومعه مرتزقة من رواة وعلماء وفقهاء حول أفضليّة الإمام فأنكر كلّ خاصة له وبذر بذور الشك في كلّ فضيلة ثبتت بالتواتر له، وقدّم عليه في الفضل من تقدّمه في الحكم، فقد كتب إلى الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام:

أمّا بعد، فإنّ الله اصطفى محمّداً بعلمه وجعله الأمين على وحيه والرسول إلى خلقه، واجتبى من المسلمين أعواناً أيّده بهم وكانوا في منازلهم عنده على قدر فضائلهم في الإسلام، فكان أفضلهم في الإسلام وأنصحهم لله ولرسوله الخليفة من بعده، ثمّ خليفة الخليفة، ثمّ الخليفة الثالث المظلوم عثمان، فكلّهم حسدت وعلى كلّهم بغيت، عرفنا ذلك في نظرك الشزر وقولك الهجر وتنفّسك الصعداء وإبطاءك عن الخلفاء، وأنت في كلّ ذلك تقاد كما يقاد البعير المخشوش حتّى تبايع وأنت كاره ...[1]

---

(١) جمهرة رسائل العرب، ج١ ص٤٣٧.

وها أنت عزيزي القارىء ترى أنّ مسئلة التفضيل بن الخلفاء الأربعة وتفضيل الثلاثة على الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام بدأت من معاوية ولم تكن معهودة في المسلمين قبل ذلك، بل لم يكن المسلمون يعرفون لهؤلاء الثلاثة شيئاً من التقدم على بلال وخباب بن الأرت وخوات ابن جبير بله عليّاً عليه السلام، ولكن معاوية أطلقها وأشاعها بين المسلمين لأغراضه السياسية وتلقفها من بعده الأُمويون ثمّ شاعت في العباسيين بعد ثورة بني الحسن عليهم السلام، وتجذّرت في عصر المتوكل وهو المعبّر عنه بيزيد بني العباس وكان نصبه ممّا لا يكاد ينكر وما زالت هذه المسئلة معمولاً بها اليوم بخاصة بين نابتة الأُموية.

وتكرّرت هذه المقولة الباطلة على لسان معاوية بصيغ شتّى وعبارات مختلفة، فقد كتب إلى الإمام عليه السلام ثانية يقول: ثمّ إنّ الله سبحانه اختصّ محمّداً عليه الصلاة والسلام بأصحاب أيّدوه ونصروه وكانوا كما قال الله سبحانه لهم أشدّاء على الكفّار رحماء بينهم، فكان أفضلهم مرتبة وأعلاهم عند الله والمسلمين منزلة الخليفة الأوّل الذي جمع الكلمة ولمّ الدعوة وقاتل أهل الردّة، ثمّ الخليفة الثاني الذي فتح الفتوح ومصّر الأمصار وأذلّ رقاب المشركين، ثمّ الخليفة الثالث المظلوم الذي نشر الملّة وطبّق الآفاق بالكلمة الحنيفيّة[1].

والباحث النزيه حين يحتك بهذه الأحداث ويتناولها بعقل القاضي الحصيف يدرك حتماً أنّ واضع بذرة التفضيل معاوية ليحط من قدر أهل بيت النبي بزعمه وأتبعه القوم أمس واليوم، وما كان المسلمون حتّى من أفردوهم بالتقدم يجهلون فضل أهل البيت على الناس قاطبة ولقد سئل الإمام الصادق عليه السلام علن أفضلية علي، فقال: سبق الأبعدين بالقرابة والأقربين بالسبق إلى الإسلام، وهذه كلمة قيّمة تغني المسلم عن تجشّم البحث والفحص وفيها مقنع للعقول السليمة من أسر الهوى.

وكان أميرالمؤمنين عليه السلام يقول للناس على المنبر: يا لله وللشورى، متى اعترض فيّ الريب مع الأوّل منهم حتّى صرت أقرن إلى هذه النظائر، لكنّي اسففت إذ أسّفوا وطرت إذ طاروا.

---

(١) جمهرة رسائل العرب، ج١ ص٤٤٤.

وكان معاوية نفسه يعترف بسبق الإمام وتقدّمه وفضله وذلك في كتابه إلى محمّد بن أبي بكر يقول فيه: فقد كنّا وأبوك معنا في حياة نبيّنا نعرف حقّ ابن أبي طالب لازماً لنا وفضله مبرزاً علينا، فلمّا اختار الله لنبيّه عليه الصلاة والسلام ما عنده وأتمّ له ما وعده وأظهر دعوته وأفلج حجّته وقبضه الله إليه صلوات الله عليه كان أبوك وفاروقه أوّل من ابتزّه حقّه وخالفه على أمره على ذلك اتّفقا واتّسقا[1].

وفي هذه الرسالة يعترف بفضل الإمام على من تقدّمه لأنّه يريد بذلك أن يخصم ابن أبي بكر وتعلّقت سياسته فيما عدا ذلك بتفضيل فلان وفلان على أميرالمؤمنين وسار القوم على نهجه ونسجوا على نوله ولم يفيئوا إلى حجة صحيحة مقبولة ولا إلى ميزان سليم يتمّ الفضل به لواحد ويسلب عن آخر، اللهمّ إلاّ هذه النزغات المطعمة بالحقد والأغراض الشخصيّة.

وأشهر ما في باب التفضيل أقوال تعزى إلى أصحابها وليس فيها خبر يقين عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم عن عمر بن أسيد عن عبدالله بن عمر قال: كنّا نقول في زمن النبي صلى الله عليه وآله وسلم رسول الله خير الناس ثمّ أبوبكر ثمّ عمر، ولقد أُوتي ابن أبي طالب ثلاث خصال لأن تكون لي واحدة منهنّ أحبّ إليّ من حمر النعم: زوّجه رسول الله ابنته وولدت له، وسدّت الأبواب إلاّ بابه في المسجد، وأعطاه الراية يوم خيبر[2].

وابن عمر حجّ نفسه بنفسه، لأنّ صاحب هذه الخصال التي تمنّى واحدة منها هل لأبيه وصاحبيه شيء منها، فكيف يفضّلهما عليه، وهل هذا إلاّ الهجر والهذيان، ثمّ هو يقول: كنّا نقول ...!! إن كان القائلون هم الأولاد والأحفاد والزوجات والبنات ومن لفّ لفّهم فنجيبهم بمثل واحد ونكسب النجاة من وجع القلب: القرد في عين أُمّه غزال، وإن كان غيرهم فكان على ابن عمر أن يسمّيهم ولو كانوا من طراز سيّدنا هيان بن بيان.

ويقول أحمد بن حنبل اقتفاءاً لقول معاوية وسئل عن التفضيل: من قدّم عليّاً على أبي بكر فقد طعن على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ومن قدّمه على عمر فقد طعن على

---

(١) جمهرة رسائل العرب، ج١ ص٥٤٥.

(٢) مسند أحمد، ج٢ ص٢٦.

رسول الله ﷺ وعلى أبي بكر، ومن قدّمه على عثمان فقد طعن على أبي بكر وعمر وعثمان وعلى أهل الشورى والمهاجرين والأنصار[١].

ولو سئلنا سلالة حرقوص[٢] ذي الثدية ابن حنبل ما سبب الطعن على رسوله في تقديم ابن عمّه وابن أُمّه قاطمة وزوج ابنته وأبي سبطيه على ابن أبي قحافة وابن صهّاك الزنجيّة المعروفة بباطحلي وتاريخها معروف مشهور، ماذا يكون جوابه؟ قلنا سابقاً إنّ الذين اتّبعوا ابن هند في نزغاته هم أوشاب الناس وأوباشهم، ومن علامتهم أنّهم لا يحتكمون إلى العقل فيما يقولون أو يفعلون أو يعتقدون.

حجّ خراساني من أهل السنّة، فلمّا حضر الموسم أخذ دليلاً يدلّه على المناسك، فلمّا فرغ أعطاه شيئاً يسيراً لا يرضيه، فأخذه منه ثمّ جاء به إلى بعض الأركان فنطح الركن برأسه فقال له الخراساني: ما هذا؟ قال: كان معاوية يأتي هذا الركن فينطحه برأسه، وكلّما كانت النطحة أشدّ كان الأجر أعظم، فشدّ الخراساني على الركن ونطحه نطحةً سالت الدماء منها على وجهه وسقط مغشيّاً عليه فتركه الرجل ومرّ[٣].

وهذا منتهى البلاهة والحمق ولا تظنّنّ أنّ ذلك من أحاديث التسلية والترفيه عن النفس وأكثره موضوع من الظرفاء لا أصل له كلاّ ثمّ كلاّ.. فإنّ جلّ من اتّبع معاوية فيما وضع وابتدع بمنزلة هذا الخراساني أو أشدّ حمقاً. كان بعضهم يتشدّد في خلق القرآن فسئل عن معاوية أمخلوق هو؟ قال: كان إذا كتب الوحي غير مخلوق وإذا لم يكتبه كان مخلوقاً ...[٤]

ومسئلة أُخرى اتّبعوا فيها معاوية وخالفوا رسول الله ﷺ وهي استلحاقه زياداً، وسوف نطلعك فيما يأتي على اتّباعهم معاوية وتركهم قول رسول الله ﷺ ورائهم ظهريّاً.

---

(١) ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ج٣ ص٤٥.

(٢) يقال: إنّ أحمد بن حنبل من سلالة حرقوص بن زهير ذي الثدية الخارجي الذي قتله الإمام بالنهروان.

(٣) التذكرة الحمدونية، ج٣ ص٢٧٥.

(٤) التذكرة الحمدونية، ج٣ ص٢٧٨.

لما كان الوسط الجاهلي منغمساً في الإباحية الجنسيّة حتّى شحمة أُذنيه، ولم تقتصر هذه الإباحية على أهل الجاهلية وحدهم، وإنّما امتدّت لها ذيول هنا وهناك بين من أسلموا حديثاً، وما زالت أخلاق الجاهلية تعتادهم كما يعتاد المرض الناقه، لذلك كثرت فيهم حالات القذف والولادات غير الشرعية كما كثر فيهم الأدعياء، وهذه بالطبع مسألة حادة جدّاً تؤدّي إلى انقسام المجتمع الوليد على نفسه، وتجرّ إلى فتن عمياء بها ينفى الصميم ويقصى الحميم ويلحق الدعي لهذا اقتضت المشيئة الربانية تحقيقاً للرحمة التي لازمت شرعه وتجسّدت بسيّد أنبيائه أن يكون لها حلّ شرعي، بعيداً عن مؤثّرات العاطفة واختلاجات النفس الأمّارة بالسوء وبمنأىً كذلك عن الروح الجاهليّة المدمّرة.

وهذا الحلّ الشرعي كسائر الحلول للقضايا الحادة لا يأخذ بعين الإعتبار إلاّ المصلحة العامة بغضّ النظر عن رضا الراضين وغضب الغاضبين، وليس من وكده أن ينال القبول عند فئة معيّنة، بل الغاية القصوى له أن يكون حلاً جذريّاً عام المنفعة يتمّ تنفيذه بيسر وسهولة، وجاء الحلّ على لسان النبي ﷺ بعد طرو حالة معيّنة على المجتمع الجديد الناهض.

أخرج البخاري في جامعه عن عائشة قالت: كان عتبة عهد إلى أخيه سعد أنّ ابن وليدة زمعة منّي فاقبضه إليك، فلمّا كان عام الفتح أخذه سعد، فقال: ابن أخي عهد إليّ فيه. فقام عبد بن زمعة فقال: أخي وابن وليدة أبي ولد على فراشه فتساوقا إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال سعد: يا رسول الله ابن أخي قد كان عهد إليّ فيه، فقال عبد بن زمعة: أخي وابن وليدة أبي ولد على فراشه. فقال النبي ﷺ: هو لك يا عبد بن زمعة، الولد للفراش وللعاهر الحجر، ثمّ قال لسودة بنت زمعة: احتجبي منه لما رأى من شبهة بعتبة، فما رآها حتّى لقي الله ...[1]

(١) صحيح البخاري، ج٨ ص١٩١.

وأخرج البخاري أيضاً عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: الولد للفراش[1].

وأخرج البخاري أيضاً بسياق آخر مثل: الولد للفراش وفي فم العاهر الحجر[2].

وأخرجه مسلم في كتاب الرضاع والترمذي رقم ٢١٢٠، ٢١٢١ وأخرجه أبو داود في كتاب الطلاق والنسائي في المجتبى كتاب الطلاق وللحديث سياق آخر عند البخاري وهو: الولد للفراش وللعاهر الحجر وهي الصيغة المشهورة للحديث وله سياقات أُخرى أخرجتها كتب جمّة بأسانيد كثيرة لا تحصى، ومن أهمّ هذه الكتب على سبيل المثال لا الحصر: مسند أحمد، فتح الباري، مصنّف عبدالرزاق، مصنّف ابن أبي شيبة، جامع مسانيد أبي حنيفة، الطبقات الكبرى لابن سعد، شرح معاني الآثار، تاريخ إصبهان لأبي نعيم، البداية والنهاية لابن كثير، ومجمع الزوائد، كنز العمال، تاريخ بغداد للخطيب، سنن البيهقي، موطأ مالك، شرح السنة للبغوي، وغير هذه كتب ليست في حوزتي فلم يتيسّر لي الإطلاع عليها.

وقال العلماء تعليقاً على هذا الحديث الشريف كأبي جعفر فقد قال: ذهب قوم إلى أنّ الأمة إذا وطئها مولاها فقد لزمه كلّ ولد يجيء به بعد ذلك ادّعاه أو لم يدّعه، واحتجّوا في ذلك بهذا الحديث لأنّ رسول الله ﷺ قال: هو لك يا عبد بن زمعة، ثمّ قال: الولد للفراش وللعاهر الحجر، فألحقه رسول الله ﷺ بزمعة لا لدعوة ابنه لأنّ دعوة الإبن للنسب لغيره من أبيه غير مقبولة، ولكن لأنّ أُمّه كانت فراشاً لزمعة بوطئه إيّاها[3].

وبهذا يظهر زيف ادّعاء معاوية نسب زياد من أبي سفيان، لأنّها دعوة ابن لنسب غيره من أبيه، وكانت أُمّ زياد فراشاً لغيره، وكان عمر بن الخطّاب يفتي بهذا طيلة خلافته. عن عبدالله بن عمر أنّ عمر بن الخطّاب قال: ما بال رجال يطئون ولائدهم ثمّ يعزلونهنّ، لا تأتيني وليدة يعترف سيّدها أن قد ألم بها إلاّ قد ألحقت به

---

(١) صحيح البخاري، ج٨ ص١٩١.

(٢) راجع من البخاري: ج٣ ص٧٠ و١٠٦ و١٦١ وج٤ ص٤٠ وج٥ ص١٩٢ وج٨ ص١٤٠ و٢٠٥.

(٣) الطحاوي، معاني الآثار، ج٣ ص١١٤، ط دار الكتب العلمية، ١٤١٦ هجري.

ولدها، فاعزلوا أو أتركوا[1].

واتّبع عبدالله أباه في فتواه، عن نافع عن ابن عمر قال: من وطىء امة ثمّ ضيّعها فأرسلها تخرج ثمّ ولدت فالولد منه والضيعة عليه[2].

وخالفهما زيد بن ثابت، فقد روى عنه خارجة ابنه أنّ أباه كان يعزل عن جارية فارسية، فحملت فأنكره وقال: إنّي لم أكن أُريد ولدك وإنّما استطيب نفسك فجلدها وأعتقها وأعتق الولد[3].

وفتوى عمر وابنه جائت موافقة للحديث الشريف وأمّا ابن ثابت فمن المحتمل أن يكون ثبت عنده أنّ الولد من غيره بالقطع واليقين لأنّه لم يمارس العمل بحيث تصب النطفة في الرحم أو بعضها، ليحتمل نسبة الولد إليه، وبهذا صحّ انكار الولد واعتبره من غيره واعتبر الجارية مقارفةً إثماً لذلك عمد إلى جلدها.

ومهما تكون الحال، فإنّ الشريعة وعمل الصحابة جاء بخلاف ما عمل به معاوية من استلحاقه زياداً بنسبه وما كانت ضرورة تدعوه إلى ذلك ولكن أراد مخالفة رسول الله ﷺ. أجل مجرّد مخالفته والردّ عليه، وهو معذور طبعاً لما ينطوي عليه من العداء الساخن للشريعة وصاحبها ولكن ما بال من انتسب إلى الدين والعلم وتقدم المسلمين إماماً يقتدى به ويعمل برأيه ويقلّد في الحلال والحرام أمثال مالك بن أنس وأبي بكر بن العربي وابن خلدون وابن كثير وابن تيميّة وأمثالهم كثير ردّوا سنّة المصطفى بأقوال واهية وآراء فجة واتّبعوا سنّة ابن هند؟

يقول أبوبكر بن العربي: فإن قيل: أحدث معاوية في الإسلام الحكم بالباطل والقضاء بما لا يحلّ من استلحاق زياد! قلنا: قد بيّنا في غير موضع أنّ استلحاق زياد إنّما كان لأشياء صحيحة وعمل مستقيم. ثمّ شرع ابن العربي يناقش أقوال المؤرخين بشأن زياد فقال: قالوا: كان زياد ينتسب إلى عبيد الثقفي من سمية جارية الحارث بن كلدة واشترى زياد عبيداً أباه بألف درهم فأعتقه. قال أبو عثمان النهدي: فكنّا نغبطه. إلى أن يقول:

---

(١) نفسه، ج٢ ص١٤.

(٢) معاني الآثار، ج٣ ص١٤ و١٦.

(٣) معاني الآثار، ج٣ ص١٤ و١٦.

ورووا أنّ عمر أرسله إلى اليمن في إصلاح فساد، فرجع وخطب خطبة لم يسمع مثلها، فقال عمرو بن العاص: أما والله لو كان هذا الغلام قرشياً لساق الناس بعصاه. فقال أبو سفيان: والله إنّي لأعرف الذي وضعه في رحم أُمّه. فقال له علي: ومن؟ قال: أنا. قال: مهلاً يا أبا سفيان. فقال أبو سفيان أبياتاً من الشعر:

أمـــا والله لـــولا خـــوف شـــخص ... يـــراني يـــا علـــي مـــن الأعـــادي
لأظهـــر أمـــره صـــخر بـــن حـــرب ... ولم تكـــن المقالـــة عـــن زيـــاد
وقـــد طالـــت مخـــالفتي ثقيفـــاً ... وتركـــي فـــيهم ثمـــر الفـــؤاد

فذلك الذي حمل معاوية واستعمله علي على فارس، وحمى وجبى وأصلح وكاتبه معاوية يروم إفساده فوجّه زياد بكتابه إلى علي بشعر فكتب إليه علي: إنّي ولّيتك ما ولّيتك وأنت أهل لذلك عندي ولن يدرك ما تريد بما أنت فيه إلاّ بالصبر واليقين، وإنّما كانت من أبي سفيان فلتة زمن عمر لا تستحق بها نسباً ولا ميراثاً، وإنّ معاوية يأتي المؤمن من بين يديه ومن خلفه.

فلمّا قرأ زياد الكتاب قال: «شهد لي أبوالحسن وربّ الكعبة» فذلك الذي جرّأ زياداً ومعاوية بما صنعا، ثمّ ادّعاه معاوية سنة أربع وأربعين وزوّج معاوية ابنته من ابنه محمّد. وبلغ الخبر أبا بكره أخاه لأُمّه فآلى يميناً أن لا يكلّمه أبداً وقال: هذا زنى أُمّه وانتفى من أبيه والله ما رأت سمية أبا سفيان قط، وكيف يفعل بأُم حبيبة أيراها فيهتك حرمة رسول الله وإن حجبته فضحته. فقال زياد: جزى الله أبابكرة خيراً فإنّه لم يدع النصيحة في حال، وتكلّم فيه الشعراء ورووا عن سعيد بن المسيّب أنّه قال: أوّل قضاء كان في الإسلام بالباطل استلحاق زياد.

قال القاضي أبوبكر رضي الله عنه: قد بيّنا في غير موضع هذا الخبر وتكلّمنا عليه بما يغني عن إعادته ولكن لابدّ في هذه الحالة من بيان المقصود منه فنقول: كلّ ما ذكرتم لا ننفيه ولا نثبته لأنّه لا يحتاج إليه، والذي ندريه حقّاً ونقطع عليه علماً أنّ زياداً من الصحابة بالمولد والرؤية، لا بالتفقه والمعرفة، وأمّا أبوه فما علمنا له أباً قبل الدعوة على التحقيق وإنّما هي أقوال غائرة من المؤرخين وأمّا شرائه له فمراعاة للحضانة فإنّه حضنه عنده إذ دخل عليه فله نسب بالحضانة إليه، إن كان ذلك.

وشرع ابن العربي يرد ما تقدم بحجج واهية يستحي أهل العلم من نسبتها إليهم فمنها قوله:

وأمّا بعث معاوية إليه ليكون معه فصحيح في الجملة، وأمّا تفصيل ما كتب معاوية أو كتب زياد به إلى علي أو جاوب به علي زياداً فهذا كلّه مصنوع.

وأظنّه استراح من عناء الرد والبحث وتأليف الحجج بقوله: كلّه مصنوع. وذكّرني ابن عربي بأيّام طفولتنا يوم كنّا نسرح ونمرح على ضفاف شطّ العرب لاهين وادعين ... وقد يحدث أحياناً أن ننقسم إلى كتلتين كتلة تقاتل كتلة وتغار منها، فإذا انجلت المعركة الوهمية عنّا وجلسنا للعتاب أخذ الرواة ينقلون ما قاله بعضنا في البعض الآخر، وما من كلمة إلاّ ولها صلة بالحقيقة وإن أضاف النقل إليها أو حذف منها إليها أو حذفت منها تبعاً لمشاعر الناقل أو أمانته أو سلامة ذاكرته ... وما كنت تسمع من الأقران إلاّ عجيج التكذيب، وأكبر حجة يعتمدها الجميع هي قول: كذب، صنعه، أو وضعه، أو لم أقله، أو افترى عليّ ونحو ذلك، وتنتهي اللعبة بالإرهاق والنعاس فنغادر الطرقات والحارات إلى الأسرة أو السطوح ... وهذه هي روح الطفولة فهل يريد ابن العربي أن يتعامل مع تاريخنا بمثل هذه الروح؟ لست أدري!!

ويقول ابن العربي مثبتاً قول معاوية ناسياً أباه إلى الإجتهاد: وأمّا قول علي: إنّما كانت من أبي سفيان فلتة زمن عمر لا تستحقّ بها نسباً، فلو صحّ لكان ذلك شهادة كما روى عن زياد، ولم يكن ذلك بمبطل لما فعل معاوية لأنّها مسئلة اجتهاديّة بين العلماء فرأى علي شيئاً ورأى معاوية وغيره غيره. وأمّا نكتة الكلام وهو القول في استلحاق معاوية زياداً وأخذ الناس عليه في ذلك، فأيّ أخذ عليه فيه إن كان سمع ذلك من أبيه؟ وأيّ عار على أبي سفيان في أن يليط بنفسه ولد زناً كان في الجاهليّة، فمعلوم أنّ سميّة لم تكن لأبي سفيان كما لم تكن وليدة زمعة - أشار إلى الحديث النبوي الذي مرّ - لعتبة، لكن كان لعتبة منازع تعيّن القضاء له ولم يكن لمعاوية منازع في زياد.

وهذا تلبيس من ابن العربي، لأنّه لم يشترط بالفراش أن يكون صاحبه على قيد الحياة حتّى ينازع في أمر الإدعاء، بل يكفي أن يكون له وجود قبل الإدّعاء في

مقابل الدعوة، وهذا عين ما نحن فيه، فإنّ منازع معاوية في زياد هو واقع الحال الذي كان عليه انتساب زياد إلى غير أبي سفيان الذي كانت أُمّه تضاجعه في فراش واحد وهو عبيد الثقفي ولا يشترط في صاحب الفراش أن يبقى حيّاً أو يبعث من جديد لكي ينازع معاوية في زياد وإلى هذه المسئلة نظر الحديث الشريف فأثبت الولد للفراش.

ولو دقّقنا النظر في مسئلة زمعة فسوف نرى المنازع وهو زمعة غير موجود ساعة ادعاء سعد الولد، بل هو في الموتى وإنّما نازع سعد عبد بن زمعة أخو المنازع فيه، وهذا لا حقّ له في المنازعة لما مرّ من أنّ دعوة الإبن للنسب لغيره من أبيه غير مقبولة، فشابهت حكاية زمعة استلحاق معاوية زياداً وابن العربي يعرف ذلك ولكنّه على عمد لبّس على نفسه.

ويقول ابن العربي في الردّ على ابن المسيّب: وأمّا ما روي عن سعيد بن المسيّب فأخبر عن مذهبه في أنّ هذا الإستلحاق ليس بصحيح وكذلك رأي غيره من الصحابة والتابعين، وقد صارت المسئلة إلى الخلاف بين الأُمّه وفقهاء الأمصار، فخرجت من حدّ الإنتقاد إلى حدّ الإعتقاد، وقد صرّح مالك في كتاب الإسلام وهو الموطأ بنسبه فقال: في دولة بني العباس: زياد بن أبي سفيان ولم يقل كما يقول المجادل: زياد بن أبيه. هذا على أنّه لا يرى النسب يثبت بقول واحد[1].

وليس هذا قول ابن العربي أو مالك وحدهما، وإنّما عليه أهل السنّة والجماعة برمّتهم إلاّ من عصم الله وقليل ما هم، مع علمهم بأنّ استلحاق زياد جرّ على الإسلام والمسلمين الويلات. يقول ابن الأثير: وكان استلحاقه أوّل ما ردّت به أحكام الشريعة علانية فإنّ رسول الله ﷺ قضى بالولد للفراش وللعاهر الحجر. وقال ابن الأثير أيضاً: ومن اعتذر لمعاوية قال: إنّما استلحق زياداً لأنّ أنكحة الجاهلية كانت أنواعاً لا حاجة إلى ذكرها جميعاً وكان منها أنّ جماعة يجامعون البغي فإذا حملت وولدت ألحقت الولد بمن شاءت منهم فيلحقه، فلمّا جاء الإسلام حرّم هذا النكاح إلاّ أنّه أقرّ كلّ ولد كان ينسب إلى أب من أيّ نكاح كان من أنكحتهم

---

(١) راجع حول أقوال أبي بكر بن العربي وردوده كتابه «العواصم من القواصم» من الصفحة ٢٣٦ - ٢٤٢.

على نسبه ولم يفرق بين شيء منها فتوهّم معاوية أنّ ذلك جائز له ولم يفرق بين استلحاق في الجاهليّة والإسلام، وهذا مردود لاتّفاق المسلمين على إنكاره ولأنّه لم يستلحق أحد في الإسلام مثله ليكون به حجة ...[1]

وابن الأثير فاتته الإشارة إلى أنّ هذا الإستلحاق لم ينطبق عليه ولا نكاح واحد من أنكحة الجاهلية والنكاح الذي استشهد به المعتذرون يعتمد على شهادة البغي الأُم وإلحاقها الولد بواحد من زوّارها. أمّا مسئلة استلحاق زياد فنعتمد على دعوة معاوية بنسبة ذلك إلى أبيه وشهادة أبي مريم السلولي الخمّار: فأين هذه من تلك. يقول ابن الأثير:

قال معاوية لأبي مريم: بم تشهد يا أبا مريم؟ فقال: أنا أشهد أنّ أبا سفيان حضر عندي وطلب منّي بغيّاً فقلت له: ليس عندي إلاّ سميّة. فقال: ائتني بها على قذرها ووضرها فأتيته بها فخلا معها، ثمّ خرجت من عنده وإنّ اسكتيها لتقطران منيّاً، فقال له زياد: مهلاً يا أبا مريم إنّما بعثت شاهداً ولم تبعث شائماً، فاستلحقه معاوية[2].

ولم يأنف زياد إلاّ من اسكتيها، ولم يعتبر زناها شنيعة، والحمد لله الذي جعل عدوّ أهل البيت على شاكلة هؤلاء نسباً وعقلاً وديناً، ولو ذهبنا نلتمس العذر لهم في اعتذارهم عن معاوية وفي طلب الوجوه لاستلحاقه زياداً بنسبه فما عذرهم في اتّباع معاوية في صدقة رمضان وتركهم قول رسول الله الذي أمروا باتّباعه وبهذا ثبت لنا أنّهم الغوغاء وليس العلماء لأنّ العالم لا يحيد عن الحقّ ولا يجنح مع الهوى واعتبر بمن يجعل من نزغات معاوية وأهوائه الشيطانيّة ديناً يقابل بها أقوال رسول الله ﷺ كيف يصنع مع عمر.. وإليك فصلاً نافعاً عن صدقة الفطر ... وما فعل معاوية ليميل بها إلى هواه عن حقيقتها وموقف الأوباش منها.

أخرج مسلم عن ابن عمر قال: فرض النبي ﷺ صدقة رمضان على الحرّ والعبد والذكر والأُنثى صاعاً من تمر أو صاعاً من شعير. قال: فعدل الناس به نصف

---

(١) ابن الأثير، الكامل، ج٣ ص٢٢١.

(٢) الكامل في التاريخ، ج٣ ص٢٢١.

صاع من بر .. وعنه أيضاً أنّه قال: إنّ رسول الله ﷺ أمر بزكاة الفطرة صاع من تمر أو صاع من شعير. قال ابن عمر: فجعل الناس عدله مدّين من حنطة[١].

وهنا أبهم الأمر مسلم على جاري عادته فلم يقل جعل معاوية بل نسب ذلك إلى الناس، ونعثر على الرواية التالية في مسند الإمام الشافعي تجلي الإبهام: عن داود بن قيس أنّه سمع عيّاض بن عبدالله بن سعد يقول: إنّ أبا سعيد الخدري قال: كنّا نخرج في زمان النبي ﷺ صاعاً من طعام أو صاعاً من زبيب أو صاعاً من أقط أو صاعاً من تمر أو صاعاً من شعير، فلم نزل نخرجه كذلك حتّى قدم معاوية حاجّاً أو معتمراً فخطب الناس فكان فيما كلّم الناس به أن قال: إنّي أرى مدّين من سمراء الشام تعدل صاعاً من تمر فأخذ الناس بذلك[٢].

وفي ابن ماجة: إذا كان فينا رسول الله بدل قوله في زمن رسول الله. وفيه قول أبي سعيد: لا أزال أخرجه كما كنت أخرجه على عهد رسول ا ﷺ أبداً ما عشت[٣].

وأخرج النسائي عن ابن عمر قال: فرض رسول الله ﷺ صدقة الفطر على الذكر والأُنثى والحر والمملوك صاعاً من تمر أو صاعاً من شعير. قال: فعدل الناس إلى نصف صاع من بر[٤].

وركّز السندي في حاشيته على النسائي على قوله: فعدل. وصب اعتذاره عن معاوية بهذا القالب العلمي فقال: أي قاسوه به وظاهر الحديث أنّهم إنّما قاسوه لعدم النص منه ﷺ في البر بصاع أو نصفه وإلاّ فلو كان عندهم حديث بالصاع لما خالفوه أو بنصفه لما احتاجوا إلى القياس بل حكموا بذلك[٥]. ويريد إمام السند أن يبعد الإبتداع عن إمامه ابن هند، وبذلك يسلم أتباعه من الضلال.

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووي، ج٧ ص٦٠.

(٢) مسند الإمام الشافعي المطبوع بهامش «الأم»، ص١٢٥، ط الدار المصريّة للتأليف والترجمة مصوّرة عن بولاق ١٣٢١.

(٣) سنن ابن ماجة، ج١ كتاب الزكاة، ص٥٨٥.

(٤) سنن النسائي، ج٥ ص٤٧.

(٥) حاشية السندي على النسائي، ج٥ ص٤٧.

ويرده رواية الشافعي وفيها: كنّا نخرج صاعاً من طعام، والطعام عند أهل الحجاز اسم للحنطة خاصة، ويرده قول النووي أيضاً: وليس للقائلين بنصف صاع حجة إلاّ حديث معاوية[1].

وقول معاوية على المنبر: إنّي أرى أنّ مدّين من سمراء الشام يعدل صاعاً من تمر فأخذ الناس بذلك، وهذا تصريح من معاوية بأنّه رأي رآه في مقابل سنّة المصطفى فاتّبعه الدهماء، وتركوا السنّة وممّن اتّبعه أبو حنيفة وأحمد بن حنبل، ومن بقي من العامة لم يأخذ بذلك فلأنّه اعتبره قول صحابي وقد خالفه أبو سعيد وغيره ممّن هو أطول صحبة وأعلم بأحوال النبي صلى الله عليه وآله وسلم وإذا اختلفت الصحابة لم يكن قول بعضهم أولى من بعض.

أقول: وهذا القول يحاولون به الإعتذار عن معاوية، وإلاّ فليس في المسئلة قولان لصحابيين أو أقوال لأكثر من ذلك، وإنّما هي سنّة المصطفى وبدعة معاوية، والقوم اتّبعوا البدعة وخلّفوا السنّة ورائهم، وليس ما ذهب إليه أبو سعيد رأي رآه أو قول ذهب إليه، بل هو الثبات على السنّة، ولذا قال كأنّه يتحدّاهم بذلك: لا زال أخرجه كما كنت أخرجه على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أبداً ما عشت.

وسنّة المصطفى هي القول والفعل والتقرير وهذه منه والقوم جرياً على سالف عاداتهم صوّروا المسئلة وكأنّها خلاف بين الأصحاب وليست كذلك وبعد الذي مرّ عليك وسقناه لك على سبيل المثال لا الحصر هل بقي في النفس شكّ على أنّ القوم أُمّة معاوية وليسوا لمحمّد صلى الله عليه وآله وسلم بأُمّة؟ بخاصّة إذا عرفنا أنّه الواضع لإسمهم أهل السنّة والجماعة، والسنّة هي لعن أميرالمؤمنين والجماعة هي اجتماع الناس عليه كما يزعم بعد صلح الإمام الحسن عليه السلام وقد مرّ ذلك في ما تقدّم من الكتاب.

وإذا ثبت كونهم أُمّة معاوية، فلا غرابة فيما جنوه على أهل البيت من فجايع وفضايع ولا يستغرب حينئذ قول يزيد بعد مجيء السبايا ومعهنّ الرؤوس إليه وقوله مستشهداً بشعر ابن الزبعري:

ليت أشياخي ببدر شهدوا ... جزع الخزرج من وقع الأسل

لأهلّوا واستهلّوا فرحاً ... ثمّ قالوا يا يزيد لا تشل

---

(١) النووي، على مسلم، ج٧ ص٦٠.

صفات ابن هند الممدوحة وحقيقتها

بقي علينا بعد البحث في سمات حكم معاوية أن نلم بحقيقة أُخرى طالما أثارها الرواة والمؤرخون على سبيل التمدّح بابن هند معاوية وهي صفات ممدوحة رواها الرواة له، ومنها الحلم الذي طالما تغنّى به شيعته وذكروه بكثير من الزهو والخيلاء وذكروا له نبوءات نسبت إلى أُمّه وإلى غيرها بأنّه سيسود العالم من قبيل ما روى الذهبي عن أبان بن أبي عثمان قال: كان معاوية وهو غلام يمشي مع أُمّه فعثر فقالت: قم لا رفعك الله، وأعرابي ينظر فقال: لم تقولين له؟ فوالله إنّي لأظنّه سيسود قومه. قالت: لا رفعه إن لم يسد إلاّ قومه[١].

وبالطبع ليس لهذه الرواية أساس من الصحّة وآثار الصنع بادية عليها، ولو صحّ من هذا شيء لظهر عليه قبل الإسلام أو بعده قبل أن يسلم ولما نجم قرنه في عهد عمر لا غير. والقوم بالغوا في حلم معاوية ولكنّه كما قال الأحنف حين سمع رجلاً يذكره بالحلم فيقول: ما أحلم معاوية! فقال: لو كان حليماً ما سفه الحق، والأحنف يعرف حقيقة الحلم لأنّه حليم ووصفه رجل عند الشعبي بالحلم فقال: ويحك، وهل أغمد سيفه وفي قلبه على أحد شيء[٢]. والشعبي أخذ قوله هذا من ابن عباس، قال ابن حمدون: وكان معاوية مذكوراً بالحلم وأخباره فيه كثيرة وقد دفعه قومه عن ذلك ذكر عند ابن عباس بالحلم فقال: وهل أغمد سيفه وفي قلبه على أحد إحنه[٣].

وقال شريك بن عبدالله: لو كان معاوية حليماً ما سفه الحق ولا قاتل علياً[٤][٥]وقال: لو كان حليماً لما حمل أبناء العبيد على حرمه ولما أنكح إلاّ الأكفاء[٦]. وقال

---

(١) سير أعلام النبلاء، الذهبي، ج٣ ص١٢١.

(٢) أمالي المرتضى، ج١ ص٢٩٨.

(٣) التذكرة الحمدونية، ج٢ ص١٢٦، وراجع نثر الدر عن قول شريك، ج٥ ص١٣٩.

(٤) التذكرة الحمدونية، ج٢ ص١٢٦، وراجع نثر الدر عن قول شريك، ج٥ ص١٣٩.

(٥) البداية والنهاية، ج٨ ص١٣٢، ومختصر تاريخ دمشق، ج٢٥ ص٣٨.

(٦) التذكرة الحمدونية، ج٢ ص١٢٦، وراجع نثر الدر، ج٥ ص١٣٩.

الآخر: كان معاوية يتعرض ويحلم إذا سمع ومن تعرّض للسفيه فهو سفيه[١]. وقال آخر: كان يحب أن يظهر حلمه وقد كان طار اسمه بذلك فأحب أن يزداد فيه[٢].

وشهد أعرابي عند معاوية بشهادة فقال له معاوية: كذبت. فقال: الكاذب والله المتزمّل بثيابك. فقال معاوية: هذا جزاء من عجل[٣].

وهذا مصدق قول من قال: كان معاوية يتعرض الخ. ومعاوية بنفسه نفى عن نفسه الحلم بعد قتل حجر بن عدي. قالت عائشة لمعاوية حين حج ودخل إليها: يا معاوية! قتلت حجراً وأصحابه فأين غرب حلمك عنهم؟ أمّا إنّي سمعت رسول الله يقول: يقتل بمرج عذراء نفر يغضب لهم أهل السماوات. قال: لم يحضرني رجل رشيد يا أُمّ المؤمنين.

وروي أنّ معاوية كان يقول: ما أعدّ نفسي حليماً بعد قتلي حجراً وأصحاب حجر[٤]. وإن اتّصف معاوية بصفة الحلم يوماًما فإنّه حلم عن الأقوياء والرواية التالية توضح لنا ذلك. قال عيسى بن يزيد المدني: قالت فاختة بنت قرظة امرأة معاوية: يا أميرالمؤمنين لم تصانع الناس وترى أنّهم منصفون منك؟! فلو أخذتهم من عل كانوا الأذلّين وكنت لهم قاهراً. فقال: ويحك إنّ في العرب بقيّة بعد، ولولا ذلك لجعلت عاليها سافلها. فقالت: والله ما بقي أحد إلاّ وأنت عليه قادر.

قال: فهل لك في أن أريك بعض ذلك منهم؟ قالت: نعم، فأدخلها بيتاً وأسبل عليها ستره، ثمّ أمر حاجبه أن يدخل عليه رجلاً من أشراف من بالباب، فأدخل عليه رجلاً من قيس يقال له الحارث، فقال له معاوية: يا حويرث، إيه أنت الذي طعنت بالخلافة وتنقّصت أهلها؟ والله لقد هممت أن أجعلك نكالاً. فقال: يا معاوية إنّما دعوتني لهذا؟ والله إنّ ساعدي لشديد، وإنّ رمحي لمديد، وإنّ سيفي لحديد، وإنّ جوابي لعتيد، ولئن لم تأخذ ما أعطيت بشكر لتُنزَعنّ عمّا نكره بصغر. فقال: أخرجوه عنّي فأُخرج. فقالت فاختة: ما أجرأ هذا وأقوى قلبه؟! فقال معاوية:

---

(١) التذكرة الحمدونية، ج٢ ص١٢٦، وراجع نثر الدر، ج٥ ص١٣٩.

(٢) التذكرة الحمدونية، ج٢ ص١٢٦، وراجع نثر الدر، ج٥ ص١٣٩.

(٣) التذكرة الحمدونية، ج٢ ص١٢٦، وراجع نثر الدر، ج٥ ص١٣٩.

(٤) تاريخ اليعقوبي، ج٢ ص٢٣١.

ما ذاك إلاّ لإدلاله بطاعة قومه له.

ثمّ أمر الحاجب فأدخل عليه رجلاً من ربيعة يقال له: جاريه، فقال له معاوية: إيه يا جويرية أنت الذي بلغني عنك تجنيب للجند وقلّة من الشكر؟ فقال: وعلام نشكر؟ ما تعطي إلاّ مداراة ولا تحلم إلاّ مصانعة، فاجهد جهدك، فإنّ ورائي من ربيعة ركناً شديداً لم تصدع أدرعهم مذ جلوها، ولا كلّت سيوفها مذ شحذوها. فقال: أخرجوه.

ثمّ أمر معاوية حاجبه فأدخل إليه رجلاً من أهل اليمن يقال له عبدالله، فقال له: إيه يا عبيد السوء، الحقتك بالأقوام واطلقت لسانك بالكلام، ثمّ يبلغني عنك ما يبلغني من سوء الأرجاف؟! لقد هممت أن أخرجك وأنت عبرة لأهل الشام. فقال: أيا معاوية ألهذا دعوتني ثمّ صغّرت اسمي ولم تنسبني إلى أبي؟ وإنّما سمّيت معاوية باسم كلبه عاوت الكلاب فأربع على ظلعك فذلك خير لك. فقال لحاجبه: أخرجه. فقالت فاختة: صانع الناس بجهدك وسعهم برفقك وحلمك فأخزى الله من لامك ...[1]

وهذا النص جمع حقيقة حلم ابن آكلة الأكباد، إنّه ليس حلماً في طبعه، بل هو تحالم عن أولئك الذين يهابهم ويخاف قبائلهم لأنّها مطيعة لهم تحوطهم بالحماية من كلّ أحد ولو كان في سلطان معاوية، أمّا من كان بمثابة حجر وأصحابه وعمرو بن الحمق وزوجته وإخوانه في الجهاد فلا يسعهم حلم معاوية.

وأمّا ما نسب إليه من العقل فقد أحسن الحسن البصري التعبير عنه، حين سئل عن العاقل فقال: العاقل من اتّقى الله تعالى وتمسّك بطاعته. قال له رجل: فمعاوية؟ قال: تلك الشيطنة، تلك الفرعنة. ثمّ قال: ذلك شبيه بالعقل[2].

ولم يكن قول الحسن البصري في عقل معاوية اكتشافاً جديداً، فقد كشف ذلك قبله إمام المتقين أميرالمؤمنين عليه السلام فكتب إلى زياد بن أبيه: وقد عرفتُ أنّ معاوية كتب إليك يستزلّ لبّك ويستفلّ غربك فأحذره، فإنّما هو الشيطان يأتي

---

(١) البلاذري، أنساب الأشراف، ج٥ ص١١٥.

(٢) التذكرة الحمدونية، ج١ ص٣٦٢.

المؤمن من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله ليقتحم غفلته ويستلب غرّته ...[1]

وأحسن سفيان الثوري أيضاً حين سمع رجلاً في مجلسه يقول: كان معاوية عاقلاً، فقال: العقل لزوم الحق وقول الصدق[2].

وقال الإمام زين العابدين عليه السلام في معاوية كلمة جامعة حين بلغه قول نافع بن جبير في معاوية: كان يسكته الحلم وينطقه العلم فقال: كذب، بل كان يسكته الحصر وينطقه البطر[3].

وأوّل من وصف معاوية بالعقل والحلم عمر بن الخطّاب، فقد ذكر معاوية عنده فقال: دعونا من ذمّ فتى قريش وابن سيّدها، من يضحك في الغضب ولا ينال على الرضا، ومن لا يأخذ ما فوق رأسه إلاّ من تحت قدميه.

وقد مرّ في أثناء الكتاب وهذه الجمل العمرية تعطي معاوية العقل والحلم والصبر والحكمة، وتفرغ عليه هذه الصفات الفضفاضة، ومن عجب أنّ عمر يرمي أميرالمؤمنين بالدعابة وما قصد مدحه! بل قصد القدح بشخصيّته، لأنّه قالها في ظرف تستعدّ الأُمّة فيه لاختيار زعيمها السياسي خلفاً لعمر، فأراد أن يصيب الهدف وهو العزوف عن اختيار الإمام لقصور صفاته الخلقية عن صفات الزعيم الجدير بقيادة الأُمّة بحكم الدعابة التي تثلم شخصيّة البقّال فما بالك بزعيم القوم. يقول هذا عن فتى الإسلام وأخي المصطفى وباب مدينة علم الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، ثمّ هو يفرغ الصفات الطنّانة والنعوت الرنّانة على ابن آكلة الأكباد ويعطي أباه صفات السيادة على قريش بأجمعها لا يستثنى حتّى أُسرة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم.

ولا تعرف هذه السيادة لأبي سفيان إلاّ في خيال عمر بن الخطّاب، بل الواقع يحكي عكس ذلك: كانت بين أبي الأزيهر وبين الوليد بن المغيرة محاكمة في مصاهرة، كانت بين الوليد وبينه، فجاءه هشام وأبو الأزيهر قاعد في مقعد أبي سفيان بذي المجاز فضرب عنقه فلم يدرك به أبو سفيان عقلاً ولا قوداً في بني المغيرة،

---

(١) في ظلال نهج البلاغة، ج٤ ص٨.

(٢) التذكرة الحمدونية، ج١ ص٣٦٢.

(٣) الآبي، نثر الدر، ج١ ص٢٣٩.

وقال حسان بن ثابت يذكر ذلك:

غـدا أهـل حصـني ذي المجـاز بسُـحرة وحـار ابـن حـرب لا يـروح ولا يغـدو

كسـاك هشـام ابـن الوليـد ثيابـه فأبـل وأخلـق مثلهـا جـدداً بعـد[1]

وأبو الأزيهر هذا هو ابن أنيس بن الحبس بن مالك بن سعد بن كعب بن الحارث الأزدي وكان أخواله من دوس فنسب إليهم، وكان حليفاً لأبي سفيان بن حرب، وكان يقعد هو وأبو سفيان في أيّامهما فيصلحان بين من حضر ذلك المكان الذي هما به وكانت ابنته تحت أبي سفيان، ثمّ تزوّج ابنة له أُخرى الوليد بن المغيرة بن عبدالله بن مخزوم وأخذ ابو الأزيهر من الوليد المهر فبلغه بعد أنّه غليظ على النساء فأمسكها ولم يردّ المهر وقال بعض: إنّها أُهديت إليه. فقال الوليد لها ليلة أن دخل عليها: أنا أشرف أم أبوك؟ فقالت له: إنّ أبي سيّد قومه وفي قومك من يساويك ويفوقك. فغضب ولطمها على خدّها فهربت فرجعت إلى أبيها فأمسكها ولم يردّها عليه وكان مقتله لأجل هذا[2]

وقالت صفية بنت عبدالمطّلب تعير أبا سفيان وبني أُميّة بذلك:

ألا أبلـغ بـني عمّـي رسـولاً ففـيم الكيـد فينـا والأمـار

وسـائل في جمـوع بـني علـي إذا كثـر التناشـد والفخـار

بأنّـا لا نقـرّ الضـيم فينـا ونحـن لمـن توسّمنـا نضـار

مـتى نقـرع بمـروتكم نسـؤكم وتظعـن مـن أمـاثلكم ديـار

ويظعـن أهـل مكـة وهـي شـكر هـم الأخيـار إن ذكـر الخيـار

مجازيـل العطـاء إذا وهبنـا وأيسـار إذا جـبّ القتـار

ونحـن الغـافرون إذا قـدرنا وفينـا عنـد غـدوتنا انتصـار

ولم نبـدأ بـذي رحـم عقوقـاً ولم توقـد لنـا بالغـدر نـار

وإنّـا والسـوابح يـوم جمـع بأيـديها وقـد سـطع الغبـار

لنصـطبرن لامـر الله حـتّى يبـيّن ربّنـا أيـن الفـرار

---

(١) شرح ابن أبي الحديد، ج١٥ ص٢٠٨.

(٢) نوادر المخطوطات، أسماء المغتالين، ص١٤٩.

قال المؤلف: وإنّما قالت ذلك في قتل أبي أزيهر تعيّر به أبا سفيان بن حرب[١]. فأين سيادته وما استطاع صون حليفه من سيف ابن المغيرة؟ وهذا الفرزدق يسخر من معاوية نفساً وجدّاً ووالداً بشعره فيقول:

أنا ابن الجبال الشمّ في عدد الحصى ... وعرق الثرى عرقي فمن ذا يحاسبه
أنا ابن الذي أحيا الوئيد وضامن ... على الدهر إذ عزّت لدهر مكاسبه
وكم من أب لي يا معاوي لم يزل ... أغرّ يباري الريح ما أزورّ جانبه
نمتــه فروع المالكين ولم يكن ... أبوك الذي من عبد شمس يقاربه ...[٢]

ويظهر قدر أبي سفيان عند قريش في كلامهم له حين عاد بخفي حنين قبل فتح مكة لم يتمكن من تحديد الحلف أووقف الزحف على مكة فقد قالوا له: تالله ما رأينا أحمق منك ما جئتنا بحرب فنحذر ولا بسلم فنأمن[٣].

ويظهر قدره أيضاً عند هند حين أخذت بشاربه بعد عودته ينذر أهل مكة بأن يضعوا السلاح ويستسلموا[٤]. وقال الواقدي: أخذت برأسه[٥] لئلاّ يهين شارب أبي سفيان، وهند هذه كانت تذكر بمكة بفجور وعهر[٦] فأين السيادة في أبيه أو في أُمّه وكيف صار فتى قريش من أبوه بمكانة أبي سفيان وأُمّه في عهر هند وفجورها؟!

لم يقل عمر ذلك إلاّ لغاية في نفسه، وهي جدّ واضحة لمن تدبّر أو ألقى السمع وهو شهيد، وما كان طموح عمر ومن ورائه قريش بقضها وقضيضها لتحصر في تسنّم غارب الحكم، وإلاّ فقد أوتي سؤله ونال غايته وبلغ مبتغاه، ولكن الهدف الأكبر يومئذ تمثّل في إقصاء علي وبني هاشم عامة عن الخلافة والحكم لئلاّ تجتمع لهم النبوّة والإمامة.

وبحثوا عن شخص يقف في وجه علي وأبنائه، يحشونه بالعداوة عليه، كما

---

(١) مختصر تاريخ دمشق، ج١٧ ص١٧.
(٢) النقائض، ج٢ ص٦٠٩.
(٣) البلاذري، فتوح البلدان، ص٥٠.
(٤) ابن هشام، السيرة النبوية، ج٤ ص٤٧.
(٥) مغازي الواقدي، ج٢ ص٨٢٢.
(٦) شرح ابن أبي الحديد، ج١ ص٣٣٨.

تصنع النحل يعسوبها فوقع اختيارهم على العباس وأبنائه أوّلاً وذلك بمشورة المغيرة بن شعبة، لما يعلمونه من المنافسة الكائنة بين الأعمام، فلم يجدوا عندهم ما ابتغوه من عداوة علي، فحولوا اتّجاههم حينئذ إلى معاوية وهو اختيار ناجع ودواء نافع لما يتبطّنه معاوية من عداوة الإمام لأنّه موتور بأهله الذين قتلهم أميرالمؤمنين عليه السلام في وقعة بدر وبسيفه كان النصر عليهم، ولأنّه من الشجرة الملعونة الذين ينزون على منبر النبي نزو القردة، أي يأتيهم الحكم من بعده، وكان يعلم هذا عمر بن الخطّاب كما يزعمون بأخبار كعب الأحبار له، فقد استشاره عمر فيمن يولّيه إن نزلت به نازلة قائلاً:

إنّي أحببت أن أعهد إلى من يقوم بهذا الأمر وأظنّ وفاتي قد دنت، فما تقول في علي؟ أشر علي في رأيك واذكرني ما تجدونه عندكم فإنّكم تزعمون أنّ أمرنا مسطور في كتبكم. فقال: أمّا من طريق الرأي فإنّه لا يصلح، إنّه رجل متين الدين لا يغضي على عورة ولا يحلم عن زلة ولا يعمل باجتهاد رأيه وليس هذا من سياسة الرعية في شيء، وأمّا ما نجده في كتبنا فنجده لا يلي الأمر ولا ولده وإن وليه كان هرج شديد. قال: وكيف ذاك؟ قال: لأنّه أراق الدماء، فحرمه الله الملك، إنّ داود لما أراد أن يبني حيطان بيت المقدس أوحى الله إليه: إنّك لا تبنيه لأنّك أرقت الدماء، وإنّما يبنيه سليمان.

فقال عمر: أليس بحقّ أراقها؟ قال كعب: وداود بحقّ أراقها يا أميرالمؤمنين. قال: فإلى من يفضي الأمر تجدونه عندكم؟ قال: نجده ينتقل بعد صاحب الشريعة والإثنين من أصحابه إلى اعدائه الذين حاربهم وحاربوه وحاربهم على الدين. فاسترجع عمر مراراً وقال: أتستمع يابن عباس! أما والله لقد سمعت من رسول الله ما يشابه هذا، سمعته يقول: ليصعدنّ بنو أُميّة على منبري ولقد أريتهم في منامي ينزون عليه نزو القردة، وفيهم أنزل: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرّؤْيَا الّتِي أَرَيْنَاكَ إِلاّ فِتْنَةً لّلنّاسِ وَالشّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ﴾[1].

ولسنا بصدد الردّ على هذا الخبيث اليهودي الذي اتّهم أميرالمؤمنين بإراقة

---

(١) شرح ابن أبي الحديد، ج١٢ ص٨١.

الدم ونفى عنه الحلم وفي الأولى يتوجّه الإتّهام إلى ابن عمّه ﷺ قبل توجّهه إليه، لأنّه بأمر الله ومن أجل نصر رسالته سفك الدم، وفي الثانية يكذب هذا اليهودي عفوه عن أهل البصرة بعد يوم الجمل.

والواقع أنّ هذه ليست نبوءة بل هي مؤامرة على إقصاء بني هاشم وإلاّ فما باله لم يشر إلى تملّك بني العباس وقد كان عبدالله حاضراً ولو كانت نبوءةً أو علماً من الكتب التي سبقت القرآن لما أغفل ذلك، ولكنّه يشير على عمر باستعمال أعداء بني هاشم القدامي ليصير الأمر إليهم ويقع بأيديهم، وبهذا يظهر جليّاً أنّ عمر ما أقدم على مجهول حين استخلف عثمان واستعمل معاوية على الشام، وقد ذكر حمد الله مستوفي في كتابه (تاريخ گزيده): أنّ عمر أدنى أبا سفيان إليه وقرّبه منه ورفع مجلسه وسمّاه سيّد قريش ولما أبى البيعة لهم رشوه رشوة عظيمة ما كان يتوقّعها الرجل أبداً، وتلك هي حباء معاوية بجزء عزير رخي من أجزاء البلاد الإسلامية ألا وهو الشام[1]. وعند ذلك خمدت شرته ولانت شكيمته وراح يتملّقهم بعد أن كان يسخر منهم ويراهم أضعف بيت في قريش وأذلّه[2].

ولم ينظر هذا المؤرخ إلى المسألة بعمق، فما كان تأمير يزيد على الشام أوّلاً ثمّ معاوية من بعده لمجرّد كبح جماح أبي سفيان أو دفع شرّه وكفّ عاديته ولكن الهدف الأكبر من ذلك إعداد العدوّ الموكل إليه، الوقوف في وجه علي والهاشميين، ولم يكن أجدر بمعاوية من هذه المأثمة ولا أولى منه بهذا الشقاء واللعنة الأبديّة، بخاصة وقد رجّح كعب الأحبار اختيارهم هذا بما أشار من أهليّة معاوية لعداوته لهم، ومن نفرة قريش من علي لأنّه أراق الدم وليس الدفع عن الحكم والخلافة، إرادة من الله بل هي إرادة قريش لأنّها الناقمة الوحيدة على إراقة دمائها، وأمّا الله سبحانه فهو الآذن بإراقتها وما كان الله سبحانه ليأذن بذلك ثمّ يعاقب عليه بوجه من وجوه العقاب اباً كان.

وأعجب من كلّ هذا عمر بن الخطّاب الذي أعرض عن استشارة المهاجرين

---

(١) حمدالله مستوفي، تاريخ گزيده، ص١٦٨.

(٢) حمدالله مستوفي، تاريخ گزيده، ص١٦٨.

والأنصار وفيهم بنو هاشم، ثمّ راح يستشير كعب الأحبار وقد حشى هذا الأخير رأس عمر بالأساطير وملأه بالإسرائيليات فكان الأحرى بهذا أن يسمّى ابن سبأ لا ذاك الموهوم الذي لم يخلق بعد. والواقع أنّ كعب الأحبار هو ابن سبأ حقّاً وصدقاً لا من اختلقته مخيلة سيف بن عمر والوضّاعين من الرواة، ولقيت كلمة كعب ابن سبأ الأحبار عن الإمام أميرالمؤمنين وعدم استتباب الأمر له في خلافته واتساقه مع بني أُميّة أذاناً صاغية تلقفتها وآمنت بها، فهذا الدكتور حسين مؤنس المثقف العصري يقول في حاشيته على جرجي زيدان تاريخ التمدن الإسلامي:

وتزعم ذلك النفر - أي الثائرون على عثمان - علي بن أبي طالب وضاق الخناق على عثمان واشتدّ النقد عليه وثقلت عليه وطأة علي ومن معه واحتاج لمن ينصره فتصدّى لذلك أهله بنو أُميّة، وأصبح النزاع شيئاً فشيئاً بين بني هاشم من ناحية وبني أُميّة في ناحية أُخرى. بنو هاشم ينادون بالسيرة الأُولى وبنو أُميّة يجارون التيار العام ويتألفون الناس بالجري وراء نزعاتهم ومطامعهم فكثر جمعهم وضعفت جبهة علي ومن معه لا عن قلّة إيمان به، بل لأنّه كان ينادي بشيء شديد على الطبيعة البشريّة ويريد أن يوقف السير الطبيعي للعمران، فأخذوا يتقاعسون عن نصرته وينفضون عنه وانتهى الأمر بانتصار معاوية لا بالمال وحده بل لأنّه كان يمثّل الإتّجاه الأسهل الأكثر اتّفاقاً مع الطبيعة البشرية[1].

وهذا القول وإن كان من دكتور عصري، ما هو إلاّ ترديد وشرح لما قاله كعب الأحبار لعمر عن أميرالمؤمنين عليه السلام. ولو أنّي ذهبت ألتمس الوجوه لكلّ ما قاله كعب وشارحه فلا أجد وجهاً صحيحاً للمقارنة بين علي ومعاوية، وإنّ الأوّل أخفقت سياسته لأنّه يريد أن يوقف السير الطبيعي للعمران ونجح الثاني لأنّه اتّفق مع الطبيعة البشرية.

وباليقين أقطع أنّ مؤنساً الشارح هذا لا يخلوا من إحدى حالين: الأُولى أنّه يناصب عليّاً العداء كفاروقه وصنيعته، وفي هذه الحال لا كلام لنا معه فيما وصف به الإمام ولو زاد على افترائه هذا أضعافاً، والثانية: أنّه لم يقرء التاريخ ولا ألم بجنايات

---

(١) جرجي زيدان، تاريخ التمدن الإسلامي، ج ٢ ص٢١ الهامش.

معاوية وعمّاله وولاة أقاليمه ليعرف كم كان هؤلاء على طرف النقيض من الطبيعة البشرية بالقتل والنهب والعسف والظلم والتجبّر والتكبّر، وإنّ هؤلاء عمّالاً وولاة وأُمراء بمن فيهم ولي أمرهم معاوية لم يؤثر عنهم عمران في أرض ولا في سماء في سهل ولا في جبل، في زراعة ولا في صناعة حتّى انقرضوا.

وله إن كان على قيد الحياة وإلاّ فلإخوانه تلاميذ كعب الأحبار أن يرجعوا إلى نهج البلاغة ويقيِّموا نظريات العمران العجيبة السابقة لأوانها التي أودعها سيّد المسلمين وإمام المتّقين أميرالمؤمنين عليه السلام في عهده لمالك الأشتر حين ولاّه على مصر بلد الدكتور مؤنس، ثمّ لينظروا أين يكون العمران وأين يحلّ الخراب.

وبعد هذا كلّه نرجع عودنا على بدءنا إلى الصلة الجامعة بين عمر ابن الخطّاب وبين معاوية فسنراها كامنة في اجتماع قلبيهما على بغض وعداء علي وأهل بيته، وكان عمر أبعد غوراً من معاوية ولذلك لم يترك دليلاً على هذه البغضاء إلاّ إشارات وعبارات تغني الحصيف اللبيب وتعين الباحث الأديب وتكفي للحكم عليه ...

ولا تخلو المسئلة من أيد غير مسئولة لعبت في التاريخ، فحذفت منه ما شائت وأضافت إليه لأنّ التاريخ عند هؤلاء مقاطعة ورثها الأخلاف من الأسلاف، لا أنّه أمانة قوميّة هي في الواقع بمنزلة الوطن وفي قداسته. وإنّ أي مساس به يؤدّي إلى تغييره أو تشويهه يعتبر خيانة عظمى عند الأُمّة، وعلى كلّ حال فإنّ بغض عمر لعلي لا يكاد يجهل كما لا يكاد يخفى بغض معاوية له.

فمن دلائل بغضه له أنّه كان يتّهمه بالرياء في عبادته. روي عن ابن عباس قال: دخلت على عمر بن الخطّاب يوماً فقال: يابن عباس لقد أجهد هذا الرجل نفسه في العبادة حتّى نحلته رياءاً. قلت: من هو؟ فقال: هذا ابن عمّك - يعني عليّاً -. قلت: وما يقصد بالرياء يا أميرالمؤمنين؟ قال: يرشّح نفسه بين الناس للخلافة. قلت: وما يصنع بالترشيح! وقد رشّحه لها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فصرفت عنه. قال: إنّه كان شابّاً حدثاً فاستصغرت العرب سنّه وقد كمل الآن، ألم تعلم أنّ الله تعالى لم يبعث نبيّاً إلاّ بعد الأربعين! قلت: يا أميرالمؤمنين، أمّا أهل الحجى والنهى فإنّهم ما زالوا يعدّونه كاملاً منذو رفع الله منار الإسلام، ولكنّهم يعدّونه محروماً مجدوداً. فقال: أمّا إنّه

سيليها بعد هياط ومياط، ثمّ تزلّ فيها قدمه ولا يقضي منها إربه..[1]

أقول: إنّ تعاليم ابن اليهودية أو ابن سبأ أو كعب الأحبار وإيحاءاته تكاملت في أبي حفص بقوله: لم يبعث نبيّاً إلاّ في الأربعين، وهذا الذي قاله عمر، اعتقاد يهودي محض، فإنّهم اعتبروا النبي لا يكون نبيّاً إلاّ إذا بلغ الأربعين، ولذا صبّ الصليبيّون والمستشرقون أقصى جهودهم للتشكيك في ولادة النبي عام الفيل، ومنهم المستشرق الخبيث لامنس مؤلف كتاب (خلافة يزيد الأول) وهو من خمسمائة صفحة يقول بروكلمان في كتابه تاريخ الشعوب الإسلامية قال: لسنا نعلم علم اليقين السنة التي ولد فيه النبي صلى الله عليه وآله وسلم والمشهور أنّ ولادته كانت حوالي سنة ٥٧٠، ولكن الذي لا شكّ فيه أنّها متأخرة بعض الشيء.

أُنظر لامنس وهذا الأخير قد حاول أن يؤخر ذلك عشر سنوات حتّى ينقض القول الشرعي الذي يقول: إنّ النبي بعث على رأس الأربعين من عمره ويخرج إلى القول: إنّه مادام الأنبياء يبعثون على رأس الأربعين ومحمّد صلى الله عليه وآله وسلم قد صدع بالدعوة على رأس الثلاثين، فمحمّد ليس نبياً[2].

ولامنس هذا انطلق من منظور يهودي فحاول تطبيق الإسرائيلية التي لا تبيح للأحبار المجتهدين الجلوس للتفسير والإفتاء في مسائل الفقه الكبرى حتّى يبلغوا الخمسين من العمر. وعمر ابن الخطّاب تلقى قوله هذا من مستشاره الحبر اليهودي كعب الأحبار، وكأنّه لم يسمع قوله تعالى عن المسيح ابن مريم وعن يحيى بن زكريا: (وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا)، فهل هي غفلة من الرجل أو تقديم لقول الأستاذ على قول الله؟!!

ومن دلائل بغضه الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام ما كان يقوله لابن عباس عنه عليه السلام: إنّ صاحبكم إن ولي هذا الأمر أخشى عجبه بنفسه أن يذهب به فليتني أراكم بعدي! قال ابن عباس: قلت: إنّ صاحبنا ما قد علمت، إنّه ما غيّر ولا بدّل ولا أسخط رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أيّام صحبته له. قال: فقطع عليّ الكلام فقال: ولا في ابنة أبي جهل،

---

(١) شرح ابن أبي الحديد، ج١٢ ص٨٠.

(٢) بروكلمان، تاريخ الشعوب الإسلامية، ص٣١ إلى آخره.

لما أراد أن يخطبها على فاطمة! قلت: قال الله تعالى: (وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا) وصاحبنا لم يعزم على سخط رسول الله ﷺ ولكن الخواطر التي لا يقدر أحد على دفعها عن نفسه وربّما كان من الفقيه في دين الله العالم العامل بأمر الله ...[1]

فأنت ترى أنّ عمر مدفوعاً بلا عج داخلي ومرارة نفسية يلتمس لعلي عليه السلام العثرات ويرميه بالفواغر، أمّا رميه بالعجب وهي صفة مذمومة شرعاً وخلقاً، فإنّ واقع الإمام عليه السلام بعد نيل الخلافة يكذبه، ولو كان ما زعمه عمر حاصلاً في الإمام لكان ظهور ذلك منه وهو خليفة الناس وقائدهم وإمامهم أولى وأجلى ... وهذا صاحب الإمام ضرار بن ضمرة يصفه فيقول: كان فينا كأحدنا، يجيبنا إذا دعوناه ويعطينا إذا سألناه ونحن لا نكلّمه لهيبته ولا نرفع أعيننا لعظمته.

وأمّا خطبة ابنة أبي جهل فهي فرية ظالمة أراد القوم بها تخفيف الوزر عنهم ودفع الأمر عن كواهلهم فيما جنوا بحقّ الصدّيقة الطاهرة التي قال النبي ﷺ فيها: من آذاها فقد آذاني، وهم آذوها حتّى ماتت غاضبة عليهم ودفنت سرّاً عنهم ولم تأذن لهم بحضور جنازتها، فأرادوا صرف ذلك إلى علي عليه السلام تخفيفاً من ثقل الذنب الذي أوقر ظهورهم بالحمل الثقيل ولو كان شيء ممّا ادّعاه عمر فلم يكن له ذلك الصدى القوي، وها هو الإمام يمتثل أمر النبي ويعرض عن ابنة عدوّ الله، ولو أنّه تزوّجها لما كان فاعلاً حراماً بل ولا مرتكباً مكروهاً ...

وحاشاه أن يسيء إلى سيّدة نساء العالمين وحاشا النبي أن يغضب من إجراء حكم الله في الزواج من النساء مثنى وثلاث ورباع. وحكاية الجارية التي أخذها الإمام من الخمس توضح لنا أنّ النبي ما كان ليغضب من فعل عمل أباحه الله سبحانه. عن بريدة بن الخصيب قال: أبغضت عليّاً بغضاً لم أبغضه أحداً قط. قال: وأحببت رجلاً من قريش لم أحبّه إلاّ على بغضه عليّاً رضي الله عنه - الرجل هو خالد بن الوليد - قال: فبعث ذلك الرجل على جيش فصحبته ما صحبته إلاّ ببغضه عليّاً رضي الله عنه. قال: فأصبنا سبايا فكتب إلى رسول الله ﷺ ابعث إلينا من يخمسه. قال: فبعث عليّاً رضي الله عنه وفي السبي وصيفة هي أفضل السبي. قال: فخمس وقسم فخرج ورأسه

---

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، ج١٢ ص٥٠.

يقطر، فقلنا: يا أباالحسن ما هذا؟! قال: ألم تروا إلى الوصيفة في الخمس ثمّ صارت في أهل بيت النبي ﷺ ثمّ صارت في آل علي فوقعت بها. قال: فكتب الرجل إلى نبي الله ﷺ فقلت: ابعثني مصدقاً، فجئت أقرء الكتاب واقول: صدق، قال: فأمسك يدي والكتاب وقال: أتبغض علياً؟ قال: قلت: نعم. قال: فلا تبغضه وإن كنت تحبّه فازدد له حبّاً فوالذي نفس محمّد ﷺ بيده لنصيب آل علي في الخمس أفضل من وصيفة. قال: فما كان أحد من الناس بعد قول رسول الله ﷺ أحبّ إليّ من علي. قال عبدالله يعني ابن بريدة: فوالذي لا إله غيره ما بيني وبين النبي ﷺ في هذا الحديث إلاّ أبو بريدة.

قلت: القول للهيثمي في الصحيح بعضه رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح غير عبدالجليل بن عطية وهو ثقة وقد صرّح بالسماع وفيه لين[1].

وفي طريق آخر يقول بريدة: فجئت لأخبر النبي ﷺ فقالوا: فأخبر النبي ﷺ فإنّه يسقط من عين النبي ﷺ ورسول الله ﷺ يسمع الكلام فخرج مغضباً فقال: ما بال أقوام ينتقصون عليّاً، من تنقّص عليّاً فقد تنقّصني ومن فارق عليّاً فقد فارقني، إنّ عليّاً منّي وأنا منه، خلق من طينتي وخلقت من طينة إبراهيم وأنا أفضل من إبراهيم ذريّة بعضها من بعض والله سميع عليم. يا بريدة أما علمت أنّ لعلي أكثر من الجارية التي أُخذت وإنّه وليّكم بعدي. فقلت: يا رسول الله بالصحبة ألا بسطت يدك فبايعتني على الإسلام جديدا؟ قال: فما فارقته حتّى بايعته على الإسلام[2].

وللحديث طرق أُخرى وفيها إضافات مفيدة أخرجها الهيثمي في مجمع الزوائد. فماذا يقول عمر وقد تنقّص الإمام بالرياء والعجب وأمثالهما، وأخيراً نقول لمبغض علي عليه السلام: قال رسول الله ﷺ لعلي عليه السلام: من أحبّه فقد أحبّني ومن أحبّني فقد أحبّه الله، ومن أبغضه فقد أبغضني ومن أبغضني فقد أبغضه الله عزّوجلّ[3] والحمد لله ربّ العالمين، وما أكثر الأحاديث الصحاح والحسان حول هذا المعنى.

---

(١) الهيثمي، مجمع الزوائد، ج٩ ص١٢٧.

(٢) مجمع الزوائد، ج٩ ص١٢٨.

(٣) مجمع الزوائد، ج٩ ص١٣١.

وأمّا معاوية فلا اعتقد في العقلاء من يشكّ ببغضه أميرالمؤمنين عليه السلام، وقد حاول شيعته وأوليائه دفع ذلك عنه برواية أحاديث موضوعة تنافي الضرورات التاريخية من قبيل ما رواه ابن كثير عن مغيرة قال: لما جاء خبر قتل علي إلى معاوية جعل يبكي فقالت له امرأته: أتبكيه وقد قاتلته؟! فقال: ويحك إنّك لا تدرين ما فقد الناس من الفضل والفقه والعلم ...[1]

وواقع معاوية وما جناه بحقّ الإمام واتّخاذ لعنه شعاراً لدولته، وسمه الإمام الحسن وعدائه الصريح لأهل البيت ينافي هذا الإدّعاء المردود. يقول ابن أبي الحديد: كان معاوية على أسّ الدهر مبغضاً لعلي عليه السلام شديد الإنحراف عنه، وكيف لا يبغضه وقد قتل أخاه حنظلة يوم بدر، وخاله الوليد بن عتبة، وشرك عمّه في حدّه وهو عتبة أو في عمّه وهو شيبة على اختلاف الرواية، وقتل من بني عبد شمس نفراً كثيراً من أعيانهم وأماثلهم، ثمّ جائت الطامّة الكبرى واقعة عثمان فنسبها كلّها إليه بشبهة إمساكه عنه وانضواء كثير من قتلته إليه عليه السلام، فتأكّدت البغضة وثارت الأحقاد، وتذكّرت تلك الترات الأُولى حتّى أفضى الأمر إلى ما أفضى إليه[2].

أجل، من أجل هذا اختاره عمر ليقف في وجهه ويحول بينه وبين الخلافة بحكم على أهل الإسلام أربعة عقود من الزمن قضاها أميراً على الشام وخليفة على الإسلام عمل فيهم ما اقتضته طبائعه الجافية وتنشأته الجاهلية، وعلى يديه توقّفت نهضة الأُمّه المتفاعلة مع حركتها الثورية، وكادت تخمد فيها الجذوة المقدسة التي اقتبستها من آخر الرسالات وختام النبوات، واشتغلت الأُمّة بمئاسيها عمّا أعدّت له من إصلاح الدنيا وأهلها، وكان حكمه المفروض على الأُمّة بسماته التي قدّمناها يتضمّن سياسته تجاه الرعيّة، وهي التجويع والترويع والتحقير والتكفير.

انحاز إليه جملة من شذّاذ الآفاق أمثال كعب الأحبار وأبي مسلم الخولاني وعبيد الدنيا أمثال أبي هريرة وسمرة بن جندب والنعمان بن بشير الأنصاري ومعاوية بن خديج وأعداء الإسلام القدامى من أُمويين وجاهلين، فأغدق عليهم

---

(١) ابن كثير، البداية والنهاية، ج٨ ص١٣٣.

(٢) شرح ابن أبي الحديد، ج١ ص٣٣٨.

هباته وعطاياه فأعزّهم واعتزّ بهم ومن اعتزّ بغير الله ذلّ، وترك الأُمّة بجميع فئاتها تعوم في البؤس والحرمان، فمن لم يرجه وأمن جانبه منهم تركه للتجويع والترويع وأعني به الإرهاب والخوف. ومن خافه فقد سلّط عليه سيفين قاطعين يقيمانه له وهما التحقير والتكفير.

فطالما أفتى مفتوه بإباحة دم وحرمة دم آخر وعلى أساس من هذا حارب أميرالمؤمنين عليه السلام حربه الضروس المعروفة بصفين، وعلى أساس من هذا المنطلق الخبيث راح وزمرته يلعنون الإمام وأهل بيته وأصحابه لعنهم الله، ولم يكد يشعر بدنوّ أجله وقرب الحمام منه حتّى وصل الشرّ بالشر والضلال بمثله، فعقدها لابنه يزيد في ظروف اصطنع أجوائها هو وأعوانه وأنفق في هذا السبيل خزانة دولته وأوقف له عرضه، فكان يهب المال لعشاقه ويلوّح بواحدة من بناته أو قريباته للفجّار.

ومن عرف منه عدم الطاعة فقد سارع إلى اغتياله، وهكذا دواليك حتّى أطاعه القاصي والداني وتمّت البيعة المشئومة لابنه يزيد، فمن هو يزيد هذا؟؟!

يزيد بن معاوية حقيقته وحكمه

ما استطاعت قصور الشام وقلاعها أن تخفي يزيد بن معاوية عن عيون الأُمّة، وما حال بعد المسافة بين الشام وبين حواضر الإسلام عن أن تمثّل حقيقة يزيد اللاهيّة اللاعبة العابثة الداعرة لأعين الأُمّة المتطلّعة إلى خلف معاوية وإلى إمامها الجديد الذي تسند إليه إمامة الأُمّة ويقوم بأدوار من تقدّمه من الخلفاء الماضين ...

وكان يزيد قبل ولاية العهد وبعدها معروفاً طبعه مشهورة جبلته وضاحة سريرته معلومة سيرته، ومن العجيب أن يشتهر يزيد بالشرّ والفساد مع أنّ أباه أراد إخفاء حقيقته على الناس بالدعاوة المضللة وإقامة الحواجز بينه وبين السواد الأعظم ظنّاً منه أنّ ذلك يبعده ولو إلى حين عن موارد التهم وأجواء الفساد، ولكن سيرته تعدّت الحدّ حتّى لا يكاد يمكن سترها.

وهنا ينبغي أن نشكر الله على أن تكون شهادة الحسين عليه السلام على يد مثله، ولو كان يزيد لعنه الله على شيء من الأدب أو التظاهر بالدين لرأيت رأي شيعته في

الإمام الحسين وشهادته اليوم على خلاف ما هو عليه، ولله في خلقه شئون، فهلمّ معي نتعرّف على هذه الصيغة الخبيثة التي تنكر لها كلّ مسلم، حتّى أبوه نفسه ولنبدأ بكتابه إليه. يقول القلقشندي: ومن ذلك ما كتب به معاوية بن أبي سفيان في خلافته إلى ابنه يزيد وقد بلغه مقارفته اللذات وانهماكه على الشهوات وهو:

من معاوية بن أبي سفيان أميرالمؤمنين إلى يزيد بن معاوية: أمّا بعد، فقد أدّت ألسِنةُ التصريح إلى إذن العناية بك، ما فجع الأمل فيك وباعد الرجاء منك إذ مَلأت العيون بهجةً، والقلوب هيبة، وترامت إليك آمال الراغبين، وهمم المتنافسين، وشحّت بك فتيان قريش، وكهول أهلك فما يسوغ لهم ذكرك إلاّ على الجرّة المهوّعة والكظة الجشئة، اقتحمت البوائق، وأنقدت للمعاير، واعتضتها من سموّ الفضل ورفيع القدر، فليتك يزيد إذ كنت لم تكن، سررت يافعاً ناشئاً وأثكلت كهلاً ضالعاً، فواحزناه عليك يا يزيد ويا حرّ صدر المثكل بك، ما أشمت فتيان بني هاشم! وأذلّ فتيان بنى عبد شمس عند تفاوض المفاخر ودراسة المناقب، فمن لصلاح ما أفسدت ورتق ما فتقت؟

هيهات خمشت الدربة وجه التصبّر بك، وأبت الجناية إلاّ تحدّراً على الألسن وحلاوة على المناطق! ما أربح فائدة نالوها وفرصةً انتهزوها، انتبه يزيد للفظه، وشاور الفكرة ولا تكن إلى سمعك أسرع من معناها إلى عقلك، واعلم أنّ الذي وطأك وسوسة الشيطان وزخرفة السلطان ممّا حسّن عندك قبحه واحلولى عندك مرُّه أمر شركه فيك السواد ونافسكه الأعبد لا لأثرة تدّعيها أو جبتها لك الأمرة وأضعت بها قدرك فأمكنت بها من نفسك فكأنّك شانىء نفسك فمن لهذا كلّه؟ اعلم يا يزيد أنّك طريد الموت وأسير الحياة، بلغني أنّك اتّخذت المصانع والمجالس للملاهي والمزامير كما قال تعالى: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ * وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾[1]،وأجهرت الفاحشة حتى اتّخذت سريرتها عندك جهراً.

اعلم يا يزيد أنّ أوّل ما سلبكه السكر معرفة مواطن الشكر لله على نعمه المتظاهرة وآلائه المتواترة وهي الجرحة العظمى والفجعة الكبرى ترك الصلوات

---

(١) سورة الشعراء الآيات ١٢٨ - ١٢٩.

المفروضات في أوقاتها وهنّ من أعظم ما يحدث من آفاتها، ثمّ استحسان العيوب وركوب الذنوب وإظهار العورة وإباحة السرّ، فلا تأمن نفسك على سرّك ولا تعقد على فعلك، فما خير لذّة تعقب الندم وتعفي الكرم! وقد توقف أميرالمؤمنين بين شطرين من أمرك لما يتوقعه من غلبة الآفة واستهلاك الشهوة، فكن الحاكم على نفسك واجعل المحكوم عليه ذهنك ترشد إن شاء الله تعالى، وليبلغ أميرالمؤمنين ما يردُّ شارداً من نومه فقد أصبح نصب الإعتزال من كلّ مؤانس ودرأة الألسن الشامتة، وفّقك الله فأحسن[1].

وقد استجاب الله دعاءه فيه فوفقه في أول سنة من حكمه لقتل أهل البيت عليهم السلام، وفي السنة الثانية لوقعة الحرة، وفي الثالثة لهدم الكعبة، فما ترك الكتاب شيئاً من حقيقة يزيد وهو شاهد عيان فقد وقف على أفعاله بنفسه ورآها عن كثب والذي يؤخذ عليه إنّ ما قاله هو بطريق النصح ولا علاج لمثل هذه الحالات إلاّ بالثورة التي تهدم جهازه وتعفي عليه. ولقد صدق الأحنف بن قيس بما أجاب به معاوية وذلك لما أجمع على البيعة ليزيد جمع الخطباء فتكلّموا والأحنف ساكت فقال: يا أبا بحر ما منعك من الكلام؟ فقال:

أنت أعلمنا بليله ونهاره وسرّه وعلانيته فإن كنت تعلم أنّها شرّ له فلا تولّه الدنيا وأنت تذهب إلى الآخرة، فإنّما لك ما طاب وعلينا أن نقول سمعنا وأطعنا ...[2]

وذكر ابن قتيبة ذلك بتفصيل أدق، قال: ثمّ قام الأحنف بن قيس فقال: يا أميرالمؤمنين أنت أعلمنا بليله ونهاره وسرّه وعلانيته، فإن كنت تعلم أنّه خير لك فولّه واستخلفه وإن كنت تعلم أنّه شرّ لك فلا تزوده الدنيا وأنت صائر إلى الآخرة، فإنّه ليس لك من الآخرة إلاّ ما طاب، واعلم أنّه لا حجّة لك عند الله إن قدمت يزيد على الحسن والحسين وأنت تعلم من هما وإلى ما هما وإنّما علينا أن نقول: سمعنا وأطعنا غفرانك ربّنا وإليك المصير[3].

---

(١) صبح الأعشى، ج٦ ص٣٧٣.

(٢) التذكرة الحمدونية، ج٣ ص١٩٠.

(٣) ابن قتيبة، الإمامة والسياسة، ج١ ص١٤٨، أمالي المرتضى ج ص٢٧٥.

وقول الأحنف يلزم معاوية الحجة حيث أنّه يعرف من هو يزيد، ثمّ يرمي به الأُمّه ويحمله عليها، ولقد قال معاوية فيه قولة أُخرى كشف به عن ذاته أكثر وأكثر فقد قال له ذات يوم عندما علم عتبه عليه فقال معاوية: يا يزيد ما الذي أضعنا من أمرك وتركنا من الحيطة عليك وحسن النظر لك حيث قلت ما قلت!؟ وقد تعرف رحمتي بك ونظري في الأشياء التي تصلحك قبل أن تخطر على وهمك فكنت أظنّك على تلك النعماء شاكراً، فأصبحت بها كافراً، إذ فرط من قولك ما ألزمتني فيه إضاعتي إيّاك وأوجبت عليّ منه التقصير لم يزجرك عن ذلك تخوّف سخطي ولم يحجزك دون ذكره سالف نعمتي ولم يردعك عنه حقّ أبوّتي، أيّ ولد أعقّ منك وأكيد وقد علمت أنّي تخطّأت الناس كلّهم في تقديمك ونزلتهم لتوليتي إيّاك ونصبتك إماماًعلى أصحاب رسول الله وفيهم من عرفت وحاولت منهم ما علمت!! ...[1]

وفي هذه الكلمات المعبّرة دلالة على ما يتصف به يزيد من مستوىً أخلاقي هابط ... لا يرعى حرمةً حتّى لولي نعمته ومن أغضب الله من أجله وباع دينه لدنياه، وهذا ما توسمته فيه زوجة أبيه فاختة لما تعرفه من أخلاق يزيد، وقد كان بلغها ما قال المغيرة وما أشار به عليه من البيعة ليزيد، فقالت فاختة: ما أشار به عليك المغيرة؟ أراد أن يجعل لك عدوّاً من نفسك يتمنّى هلاكك كلّ يوم، فشقّ ذلك على معاوية ثمّ بدا له أن يأخذ بما أشار عليه المغيرة بن شعبة[2].

حتّى يزيد نفسه كان يعرف من نفسه الفساد والأخلاق الساقطة، فقد كان يعجب من الذين يقرظونه فما يدري من المخدوع منهما المادح أم الممدوح؟ ولما أمضى معاوية بيعة يزيد جعل الناس يقرظونه فقال يزيد لأبيه: ما ندري أنخدع الناس أم يخدعوننا؟ فقال معاوية: يا بني من خدعته فتخادع لك فقد خدعته[3].

ورواية الآبي كالتالي: يروى أنّ يزيد بن معاوية قال لمعاوية في اليوم الذي بويع له بالعهد فجلس الناس يمدحونه ويقرظونه: يا أميرالمؤمنين والله ما ندري

---

(١) الإمامة والسياسة، ج١ ص١٦٧.

(٢) الإمامة والسياسة، ج١ ص١٤٢.

(٣) أمالي المرتضى، ج١ ص٢٨٦.

أتخدع الناس أم يخدعوننا؟! فقال له معاوية: كلّ من أردت خديعته فتخادع لكحتّى تبلغ حاجتك فقد خدعته[١].

وما كان معاوية يجهل حقيقة يزيد وهو يراه عاكفاً على الشهوات بعيداً عن هموم الدولة وقيادة الأُمّة، ولا يتجاوز بجحمه ما وصفه به الإمام عليه السلام من كونه صبياً يشرب الشراب ويلعب بالكلاب[٢] وإن كان في سنّ الكهولة كما قال عنه أبوه في كتابه إليه: سررت يافعاً ناشئاً وأثكلت كهلاً ضايعاً، إلاّ أنّ معاوية يصفه أحياناً بأضداد أخلاقه نفاقاً ومكابرة، من ذلك ما روي أنّ سعيد بن عثمان دخل على معاوية وابنه يزيد إلى جانبه فقال له: إأتمنك أبي واصطنعك حتّى بلغت باصطناعه إيّاك المدى الذي لا يجارى والغاية التي لا تسامى فما جازيت أبي بآلائه حتّى قدّمت هذا عليّ وجعلت له الأمر دوني، وأومأ إلى يزيد، والله لأبي خير من أبيه وأُمّي خير من أُمّه ولأنا خير منه!

فقال له معاوية: أمّا ما ذكرت يابن أخي من تواتر آلائكم علي وتظاهر نعمائكم لدي فقد كان ذلك ووجب عليّ المكافأة والمجازاة وكان من شكري إيّاه أن طلبت بدمه حتّى كابدت أهوال البلاء وغشيت عساكر المنايا إلى أن شفيت حزازات الصدور وتجلّت تلك الأمور ولست لنفسي باللائم في التشمير ولا الزاري عليها في التقصير، وذكرت أنّ أباك خير من أب هذا، وأشار بيده إلى يزيد، فصدقت لعمر الله لعثمان خير من معاوية أكرم كريماً وأفضل قديماً وأقرب إلى محمّد رحماً، وذكرت أنّ أُمّك خير من أُمّه، فلعمري إنّ امرأة من قريش خير من امرأة من بني كلب، وذكرت أنّك خير من يزيد، فوالله يابن أخي ما يسرّني أنّ الغوطة عليها رجال مثل يزيد ...[٣]

وفي الكامل: وأمّا فضلك عليه فوالله ما أحبّ أنّ الغوطة ملئت رجالاً مثلك[٤]. وقال في الهامش على الكامل[٥]: وفي الطبري: ما أحبّ أنّ الغوطة

---

(١) نثر الدر، ج٣ ص٢٧.

(٢) الإمامة والسياسة، ج١ ص١٥٧.

(٣) صبح الأعشى، ج١ ص٣٠٣.

(٤) الكامل في التاريخ، ج٣ ص٢٥٣.

(٥) الكامل في التاريخ، ج٣ ص٢٥٣.

دحست ليزيد رجالاً مثلك ... ودحست ملئت يعني أنّ الفوطة لو ملئت رجالاً مثل سعيد بن عثمان كان يزيد خيراً وأحب إليّ منهم. وفي بداية ابن كثير نحو من ذلك[١].

وكأن معاوية نسي ما قال عن يزيد وما كتبه إليه، أو أنّه عمل بالمثل القائل: القرد في عين أُمّه غزال، من هنا لم ير لغير يزيد أهلية لقيادة الأُمّة. يقول ذكوان مولى عائشة: لما أجمع أن يبايع لابنه يزيد حج فقدم مكة في نحو من ألف رجل، فلمّا دنى من المدينة صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثمّ ذكر ابنه يزيد فقال: من أحقّ بهذا الأمر منه ... ثمّ ارتحل فقدم مكة ...[٢] يقول هذا عن يزيد مع وجود الإمامين الحسنين عليهما السلام في المسلمين.

ولا يزال الباحث وهو يجوس خلال هذه النفوس الغريبة يقع على مواقف وأقوال منهم تدينهم وتكون حجة عليهم، فهذا معاوية يعلن عن مبدا لنا أن نسمّيه (حقّ الإستخلاف) فيزعم أنّه لبني عبد مناف. قال: وإنّما كان هذا الأمر لبني عبد مناف، لأنّهم أهل رسول الله ...[٣]

انظر التعليل جيّداً، وهذا عين ما ذهبت إليه قريش لما بايعوا الأوّل وهو مبدأ عمري، كان عمر يقول: من ينازعنا سلطان محمّد ونحن أهله وعشيرته، ونصّ عبارته في ابن أبي الحديد هكذا: من ذا يخاصمنا في سلطان محمّد وميراثه ونحن أوليائه وعشيرته، إلا مُدل بباطل أو متجانف لإثم[٤].

وهذه حجة لهم على الأنصار ومن عداهم وهي عليهم أيضاً، وذلك أنّ استحقاق الخلافة إذا كان بقرب النسب من النبي صلى الله عليه وآله وسلم فمن يا ترى أدنى نسباً منه: أهله أم عشيرته؟؟! وعلى هذا الأساس احتج عليهم أميرالمؤمنين عليه السلام فقال: فماذا قالت قريش؟ قالوا: احتجت بأنّها شجرة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم. فقال عليه السلام: احتجوا بالشجرة

---

(١) البداية والنهاية، ج٨ ص٨٢.

(٢) تاريخ خليفة ابن خياط، ج١ ص١٩٩.

(٣) الإمامة والسياسة، ج١ ص١٥٠.

(٤) شرح ابن أبي الحديد، ج٦ ص٩.

وأضاعوا الثمرة[١].

وهي حجة ملزمة لقريش بما ألزموا به غيرهم وقال لهم أميرالمؤمنين لما اعتقلوه إلى المسجد: يا معشر المهاجرين الله الله لا تخرجوا سلطان محمّد عن داره وبيته إلى بيوتكم ودوركم ولا تدفعوا أهله عن مقامه في الناس وحقّه، فوالله يا معشر المهاجرين لنحن - أهل البيت - أحقّ بهذا الأمر منكم، ما كان منّا القارىء لكتاب الله الفقيه في دين الله العالم بالسنّة المضطلع بأمر الرعية! والله إنّه لفينا فلا تتّبعوا الهوى فتزدادوا من الحقّ بعداً ...[٢]

ولا تعرف كلمة أكثر دلالة على النص من قوله عليه السلام: إنّه لفينا حيث أكّده بأنّ واللام والجملة الإسميّة، ولكن الشارح ينكر ذلك. ويقول سلام الله عليه واصفاً معاوية ومن تقدّمه: زرعوا الفجور وسقوه الغرور وحصدوا الثبور، لا يقاس بآل محمّد صلى الله عليه وآله وسلم من هذه الأُمّة أحد، ولا يسوّى بهم من جرت نعمتهم عليه أبداً، هم أساس الدين وعماد اليقين، إليهم يفيء الغالي وبهم يلحق التالي ولهم خصائص حقّ الولاية وفيهم الوصيّة والوراثة، الآن إذ رجع الحقّ إلى أهله ونقل إلى منتقله ...[٣]

أقول: ما الذي حال بين ابن أبي الحديد وبين الرجوع إلى هذا الكلام ليعلم أنّه صريح في النص وما معنى الوصية إن لم تكن هي النص؟ فكيف يقول قبل هذا الكلام: قلت: هذا الحديث يدلّ على بطلان ما يدّعى من النص على أميرالمؤمنين وغيره لأنّه لو كان هناك نصّ صريح لاحتجّ به ولم يجر للنص ذكر[٤].

ولو ألقى ابن أبي الحديد على هذه الفقرة من كلام الإمام عليه السلام نظرةً لرآها تنطق بالنص بصورة جليّة، ولكنّه انساق وراء المذهب ولذلك قال بعد تمام الكلام: وهذا هو نص مذهب المعتزلة. وعلى كلّ حال، فإنّ قول معاوية: إنّما كان هذا الأمر لبني عبد مناف لأنّهم أهل رسول الله سند إدانة لهم وحجة عليهم، ولو كان معاوية يجنح مع الدليل في كلّ ما يأخذ ويدع لعرف أنّ الحسنين عليهما السلام أحقّ من كلّ أحد بالإمامة،

---

(١) شرح ابن أبي الحديد، ج٦ ص٣.
(٢) شرح ابن أبي الحديد، ج٦ ص١٢.
(٣) شرح ابن أبي الحديد، ج٦ ص١٣٨.
(٤) شرح ابن أبي الحديد، ج٦ ص١٢.

أمّا على مذهب الشيعة فبيّن، وأمّا على مذهب قريش فبما ألزمت به غيرها من القرب النسبي به ﷺ، إلاّ أنّ معاوية يخادع الأُمّة بأمثال هذا الكلام ممّا لا يقرّه ولا يعترف به.

أضف إلى ذلك أنّ ادّعائه هذا يبطل إمامة صاحبيه لأنّهما ليسا من بني عبد مناف، والواقع أنّ معاوية اتّبع هواه وانقاد له وجانب البصيرة، وتخلّى عن الحكمة وقد عرف المأزق الذي وقع فيه من اختياره يزيد لولاية العهد مع وجود الحسين عليه السلام. عن الشعبي قال: لما أصاب معاوية اللقوة بكى، فقال له مروان: ما يبكيك؟ قال: راجعت ما كنت عنه عزوفاً، كبرت سنّي ورقّ عظمي وكثر دمعي ورميت في أحسني وما يبدو منّي ولولا هواي في يزيد لأبصرت قصدي[1].

وروى ذلك بن كثير بوجه آخر قال: وقد أصابته لوقة (كذا) في آخر عمره فكان يستر وجهه ويقول: رحم الله عبداً دعا لي بالعافية فقد رميت في أحسني وما يبدو منّي، ولولا هواي في يزيد لأبصرت رشدي[2].

وحتّى الذين بايعوا يزيد ورضوا به وانقادوا لمعاوية ما كانوا ليعتقدون فيهما عقيدة صالحة وإنّما انقادوا بالرُشى أو بالطمع المرتقب ... يذكر لنا التاريخ هذه الحقيقة الناصعة حول ذلك. لما نصب معاوية ابنه يزيد لولاية العهد، أقعده في قبّة حمراء وجعل الناس يسلّمون على معاوية ثمّ يميلون إلى يزيد، حتّى جاء رجل ففعل ذلك ثمّ رجع إلى معاوية فقال: يا أميرالمؤمنين، اعلم أنّك لو لم تولِّ هذا أمور المسلمين لأضعتها، والأحنف جالس، فقال معاوية: ما بالك لا تقول يا أبا بحر؟! فقال: أخاف الله إن كذبت وأخافكم إن صدقت. فقال: جزاك الله عن الطاعة خيراً، وأمر له بألوف، فلمّا خرج الأحنف لقيه الرجل بالباب فقال: يا أبا بحر، إنّي لأعلم أنّ شرّ ما خلق الله تعالى هذا وابنه ولكنّهم قد استوثقوا من هذه الأموال بالأبواب والأقفال، فلسنا نطمع في استخراجها إلاّ بما سمعت. قال له الأحنف: يا هذا أمسك

---

(١) سير أعلام النبلاء، ج٣ ص١٥٥، والبداية والنهاية، ج٨ ص١٢١، وأنساب الأسراف، ج٤ ص٢٨، وعيون الأخبار، ج٣ ص٤٦، وابن عساكر، ج١٦ ص٣٥٧.

(٢) نفسه، ج٨ ص١٢١.

فإنّ ذا الوجهين لا يكون عند الله وجيهاً[1].

ومشى على هذا غيره ممّن تملّقوا معاوية بالخطب الرنانة وهم يضمرون تكذيب أنفسهم شأن المنافق الطامع. عن العتبي قال: أقام معاوية - رحمه الله -!!!! الخطباء لبيعة يزيد، فقامت المعدّيّة فشقّقوا الكلام ثمّ قام رجل من حمير فقال: لسنا إلى رعاء هذه الجمال، عليهم تشقيق المقال وعلينا صدق الصيال، أما والله إنّا لصبر تحت البوارق مرافيل في ظل الخوانق لا نسأم الضراس ولا نشمئز من المراس، وإنّ واحدنا لألف، وألفنا كهف، فمن أبدى لنا صفحته حططنا عداوته ثمّ قام رجل من ذي الكلاع فأشار إلى معاوية فقال:

هذا أميرالمؤمنين فإن مات فهذا وأشار إلى يزيد، فمن أبى فهذا وأشار إلى السيف[2]، وهناك إشارة رابعة أغفلها هذا الخبيث وهي التي أنطقته أعني الأكياس والأطواق والألوف المؤلفة، ثمّ قال:

معاويـــــة الخليفـــــة لا تمـــــارى فـــإن تهلـــك فسائســـنا يزيـــد

فمـــن غلـــب الشـــقاء عليـــه جهـــلاً يحكّـــــم في مفارقـــــه الحديـــــد[3]

رأي زياد فيه

لما قوى عزم معاوية على البيعة ليزيد فأرسل إلى زياد يستشيره فأحضر زياد عبيد بن كعب النميري وقال له: إنّ لكلّ مستشير ثقة ولكلّ سرّ مستودع، وإنّ الناس قد أبدع بهم خصلتان: إذاعة السرّ وإخراج النصيحة إلى غير أهلها، وليس موضوع السرّ إلاّ أحد رجلين: رجل آخرة يرجو ثوابها، ورجل دنيا له شرف في نفسه وعقل يصون حسبه قد خبرتهما منك وقد دعوتك لأمر اتهمت عليه بطون الصحف، إنّ أميرالمؤمنين كتب يستشيرني في كذا وكذا، وإنّه يتخوّف نفرة الناس ويرجو طاعتهم وعلاقة امر الإسلام وضمانه عظيم، ويزيد صاحب رسلة وتهاون مع ما قد أولع به من الصيد، فألق أميرالمؤمنين وأدّ إليه فعلات يزيد وقل له: رويدك بالأمر فأحرى

---

(١) التذكرة الحمدونية، ج٣ ص٥٠، ونثر الدر، ج٥ ص٦٠.

(٢) أمالي القالي، ج١ ص٢٠٠، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط ١٩٧٥.

(٣) أمالي القالي، ج١ ص٢٠٠، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط ١٩٧٥.

لك أن يتمّ لك لا تعجل فإن دركاً في تأخير خير من فوت في عجلة.

فقال له عبيد: أفلا غير هذا؟ قال: وما هو؟ قال: لا تفسد على معاوية رأيه، ولا تبغض إليه إبنه، وألقى أنا يزيد فأخبره أنّ أميرالمؤمنين كتب إليك يستشيرك في البيعة له وإنّك تتخوّف خلاف الناس عليه لهنات ينقمونها عليه وإنّك ترى له ترك ما ينقم عليه لتستحكم له الحجة على الناس ويتم ما تريد فتكون قد نصحت أميرالمؤمنين وسلمت ممّا تخاف من أمر الأُمّة.

فقال زياد: لقد رميت الأمر بحجره أشخص على بركة الله فإن أصبت فما لا ينكر وإن يكن خطأ فغير مستغش وتقول بما ترى ويقضى الله بغيب ما يعلم، فقدم على يزيد فذكر له ذلك فكفّ عن كثير ممّا كان يصنع، وكتب زياد معه إلى معاوية يشير بالتؤده وأن لا يعجل فقبل منه[1].

واليعقوبي ذكر الرواية وفيها أنّ زياداً قال لصاحبه عبيد: إنّي أُريد أن أئتمنك على ما لم أئتمن عليه بطون الصحائف، إيت معاوية فقل له: يا أميرالمؤمنين إنّ كتابك ورد عليّ بكذا فما يقول الناس إذا دعوناهم إلى بيعة يزيد وهو يلعب بالكلاب والقرود ويلبس المصبغ ويدمن الشراب ويمشي على الدفوف وبحضرتهم الحسين بن علي وعبدالله بن عباس وعبدالله بن الزبير وعبدالله بن عمر، ولكن تأمره ويتخلق بأخلاق هؤلاء حولاً أو حولين، فعسينا أن نموّه على الناس.

فلمّا صار الرسول إلى معاوية وأدّى إليه الرسالة قال: ويلي على ابن عبيد! لقد بلغني أنّ الحادي حدا له أنّ الأمير بعدي زياد والله لأردَّنه إلى أُمّه سميّة وإلى أبيه عبيد[2].

رأي مروان فيه

لما بايع معاوية ليزيد في الشام وكتب بيعته إلى الآفاق، وكان عامله على المدينة مروان بن الحكم فكتب إليه يذكر الذي قضى الله له على لسانه من بيعة يزيد

---

(١) الكامل، ج٣ ص٢٥٠.

(٢) تاريخ اليعقوبي، ج٢ ص٢٢٠.

ويأمره أن يجمع من قبله من قريش وغيرهم من أهل المدينة ثمّ يبايعوا ليزيد. قال: فلمّا قرأ مروان كتاب معاوية أبى من ذلك وأبته قريش فكتب لمعاوية: إنّ قومك قد أبوا إجابتك إلى بيعتك ابنك فأرأ رأيك. فلمّا بلغ معاوية كتاب مروان عرف أنّ ذلك من قبله فكتب إيه يأمره أن يعتزل عمله ويخبره أنّه ولّى المدينة سعيد بن العاص[1].

وقد ذكرنا أثناء البحث ما كان من قدومه على أخواله بني كنانة وخروجه بهم إلى معاوية، فلمّا دخل عليه قال بعد التسليم عليه بالخلافة: إنّ الله عظيم خطره لا يقدر قادر قدره خلق من خلقه عباداً جعلهم لدعائم دينه أوتاداً هم رقبائه على البلاد، وخلفائه على العباد، أسفر بهم الظلم وألف بهم الدين وشدّد بهم اليقين ومنح بهم الظفر ووضع بهم من استكبر، فكان من قبلك من خلفائنا يعرفون ذلك في سالف زماننا وكنّا نكون لهم على الطاعة إخواناً وعلى من خالف عنها أعواناً يشدّ بنا العضد ويقام بنا الأود ونستشار في القضية ونستأمر في أمر الرعية، وقد أصبحنا اليوم في أمور مستحيرة ذات وجوه مستديرة تفتح بأزمّة الضلال وتجلس بأهواء الرجال، يؤكل جزورها وتمق أحلابها، فما لنا لا نستأمر في رضاعها ونحن فطامها وأولات فطامها، وأيم الله لولا عهود مؤكدة ومواثيق معقدة لأقمت أمد وليها فأقم الأمر يابن أبي سفيان وأهدى من تأمير الصبيان واعلم أنّ لك في قومك نظراً وإنّ لهم على مناوأتك وزرا، فغضب معاوية من كلامه غضباً شديداً ثمّ كظم غيظه بحلمه[2]!!!

وهنا يبدو مروان ناقماً بل قائماً ضدّ ابن هند بأخواله ومواليه وأهل بيته، لأنّه لا يرى يزيد أهلاً لهذا المنصب الصعب، فهو صبي، وقوله هذا طرف من قول الإمام الحسين عليه السلام عنه: صبي يلعب بالكلاب. ولم تستمرّ هذه النقمة طويلاً بل ما أسرع ما انفجرت هذه الفقاعة، وصار مروان ركناً من أركان البيعة ليزيد، وذلك بما أعطاه معاوية من العطاء وما قضى له من حاجات أساسيّه، وهل حاجته إلاّ المال والمال وحده، لذا نراه يدعو قريشاً إلى البيعة ويجادلهم حول ذلك.

كتب معاوية إلى مروان بن الحكم: إنّي قد كبرت سنّي ودقّ عظمي وخشيت

---

(١) الإمامة والسياسة، ج١ ص١٥١.

(٢) الإمامة والسياسة، ج١ ص١٥٢.

الإختلاف على الأُمّة بعدي وقد رأيت أن أتخيّر لهم من يقوم بعدي وكرهت أن أقطع أمراً دون مشورة من عندك، فأعرض ذلك عليهم واعلمني بالذي يردّون عليك. فقام مروان في الناس فأخبرهم به فقال الناس: أصاب ووفق وقد أحببنا أن يتخيّر لنا فلا يألو. فكتب مروان إلى معاوية بذلك فأعاد إليه الجواب يذكر يزيد. فقام مروان فيهم وقال: إنّ أميرالمؤمنين قد اختار لكم فلم يألو وقد استخلف ابنه يزيد بعده.

فقام عبدالرحمن بن أبي بكر فقال: كذبت والله يا مروان وكذب معاوية، ما الخيار أردتم لأُمّة محمّد ولكنّكم تريدون أن تجعلوها هرقليّة، كلّما مات هرقل قام هرقل. فقال مروان: هذا الذي أنزل الله فيه: ﴿وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَكُمَا﴾ الآية فسمعت عائشة مقالته فقامت من وراء الحجاب وقالت: يا مروان يا مروان فأنصت الناس وأقبل مروان بوجهه فقالت: أنت القائل لعبدالرحمن أنّه نزل فيه القرآن؟ كذبت والله ما هو به ولكنّه فلان بن فلان، ولكنّك أنت فضض من لعنة الله[1].

ولم يهج عائشة من هذه الأحداث الجسام إلاّ تأويل الآية في أخيها، ولذلك ثارت على مروان وتأوّلت الآية في آخر، أبهم الرواة إسمه، وكأنّ هذه الأحداث المروعة التي توشك أن تحلّ بالأُمّة لا تعنيها في كثير أو قليل، وكيف تعنيها؟! وهي من الراضين بولاية يزيد، لعلمها أنّها إذا تجاوزت يزيد فهي صائرة إلى الحسين حتماً، وفي هذه الطامة الكبرى التي تحلّ في عالم أُمّ المؤمنين.

وأمّا عن تأويل الآية في أخيها فقد قال ابن عباس والسدي وأبو العالية ومجاهد: نزلت في عبدالله ابن أبي بكر وكان يدعوه أبواه إلى الإسلام فيجيبهما بما أخبر الله عزّوجلّ. وقال قتادة والسدى أيضاً: هو عبدالرحمن بن أبي بكر قبل إسلامه وكان أبوه وأُمّه أُم رومان يدعوانه إلى الإسلام ويعدانه بالبعث فيرد عليهما بما حكاه الله عزّوجلّ، وكان هذا منه قبل إسلامه. وروي أنّ عائشة أنكرت أن تكون نزلت في عبدالرحمن. قال القرطبي: قلت: وقد مضى من خبر عبدالرحمن في سورة (الإنعام) عند قوله: ﴿لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى﴾ ما يدلّ على نزول الآية فيه[2]...

---

(١) الكامل في التاريخ، ج٣ ص٢٥٠.

(٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج١٦ ص١٩٧.

والذي يدعو إلى التسائل حقّاً هو الإنقلاب الذي حدث في نفس مروان فتحوّل من النقيض إلى النقيض وصار موالياً يقوم بأعباء البيعة ليزيد بعد أن كان ساخطاً على معاوية تأميره الصبيان وفعل أكثر من هذا فقد كان يغري ابن عثمان بالوثبة على معاوية ولو بقي مروان على سخطه ونقمته لأوشك أن يحلّ شرخ عظيم في صفوف بني اميّة يؤدّي إلى ضعفهم بل انهيارهم، فترتاح الأُمّة من إمرتهم الملعونة ولكن تدارك معاوية ذلك كلّه بالذهب:

روى المصعب الزبيري في كتابه (أنساب قريش) قال: اشتكى عمرو بن عثمان فكان العواد يدخلون عليه فيخرجون ويتخلف عنده مروان فيطيل فأنكرت ذلك رملة بنت معاوية فخرقت كوّة فاستمعت إلى مروان فإذا هو يقول لعمرو: ما أخذ هؤلاء (يعني بني حرب بن أُميّة) الخلافة إلاّ باسم أبيك، فما يمنعك أن تنهض بحقّك فلنحن أكثر منهم رجالاً، منّا فلان ومنهم فلان ومنّا فلان ومنهم فلان حتّى عدد رجالاً، ثمّ قال: ومنّا فلان وهو فضل وفلان فضل، فعدد فضول رجال أبي العاص على رجال بني حرب.

فلمّا برأ عمرو تجهّز للحج وتهجّزت رملة في جهازه، فلمّا خرج عمرو إلى الحج خرجت رملة إلى أبيها فقدمت عليه الشام فأخبرته وقالت: ما زال يعد فضل رجال أبي العاص على بني حرب حتّى عدّ ابنيّ عثمان وخالداً ابني عمرو، فتمنّيت أنّهما ماتا! قال أبو عبدالله: فكتب معاوية إلى مروان:

أواضعُ رجل فوق أُخرى يعدّنا ... عديد الحصى ما إن تزال تكاثر

وأُمّكم تزجي تُواماً لبعلها ... وأُمّ أخيكم نزرة الولد عاقر

إشهد يا مروان، أنّي سمعت رسول الله يقول: إذا بلغ ولد الحكم ثلاثين رجلاً اتّخذوا مال الله دولاً ودين الله دخلاً وعباد الله خولاً والسلام.

فكتب إليه مروان: أمّا بعد، يا معاوية فإنّي أبو عشرة وأخو عشرة وعمّ عشرة والسلام[1].

بغاث الطير أكثرها فراخاً ... وأُمّ الصقر مقلاة نزور

(١) الزبيري، نسب قريش، ص١٠٩، ط دارالمعارف، مصر، نشر إ ليفى بروفيسال، ط ثالثة.

بعد هذه العربدة التي علقت في رأس مروان انقلب إلى صفّ معاوية وصار من أنصار البيعة إلى يزيد بفعل الذهب الذي أغدقه عليه معاوية: أعظمنا في الخراج سهمك وأنا مجيز وفدك ومحسنٌ رفدك وعلى أميرالمؤمنين غناك والنزول عند رضاك فكان أوّل ما رزق ألف دينار في كلّ هلال وفرض له في أهل بيته مئة مئة[١].

رأي ابن عمر في يزيد

وقال عبدالله بن عمر: نبايع من يلعب بالقرود والكلاب ويشرب الخمر ويظهر الفسوق! ما حجّتنا عند الله تعالى[٢].

وقال ابن الكلبي: كان يقال ليزيد بن معاوية أبوالقرود، وذلك أنّه كان معجباً بها، وأدّب قرداً واستعمله على خمسمائة رجل من أهل الشام وكان يكنّى أبا قيس، فصاد مرّة حمار وحش فحمل أبا قيس عليه وخلّى عنه فطار به وخرج من مسكنه ولزمه القرد، فجعل يزيد يصيح به: تمسّك.

تمسّـــك أبـــا قـــيس بفضـــل زمامهـــا فلـيس عليهـا إن هلكـت ضـمان ...[٣]

فما الذي غيّر ابن عمر بعد أن سمّاه أبا القرود وعدّ بيعته إثماً كبيراً لا جواب عليه عند الله؟ ما الذي غيّره فبايع؟! يقول ابن الأثير: فلمّا مات زياد عزم معاوية على البيعة لابنه يزيد، فأرسل إلى عبدالله بن عمر مائة ألف درهم فقبلها، فلمّا ذكر البيعة ليزيد قال ابن عمر: هذا أراد، إنّ ديني عندي إذن لرخيص وامتنع[٤]، ولسنا على علم من امتناعه عن البيعة أم عن الكيس، فالمعروف أنّ صلاة معاوية المالية لم تنقطع بابن عمر. قال نافع: كان أبن عمر تأتيه الجوائز في كلّ عام من معاوية وابن عامر وأرزاق مابين سبعة وسبعين ألفاً وثلاثة وثمانين ألفاً[٥]، والراجح أنّه بايع

---

(١) الإمامة والسياسة، ج١ ص١٥٢.
(٢) اليعقوبي، ج٢ ص٢٢٨.
(٣) الآبي، نثر الدر، ج٣ ص٣٣.
(٤) ابن الأثير، الكامل، ج٣ ص٢٥٠.
(٥) البصائر والذخائر، ج٦ ص٢٤٥.

والشاهد على ذلك أنّه اعترف بالبيعة يوم الحرّة، وهدّد أهله بالصيلم إن نكثوا البيعة، سبحان من يغيّر ولا يتغيّر.

رأي أهل الشام في يزيد

لما عاد يزيد إلى دمشق بعد موت معاوية وكان غائباً عنها في مرضه، خرج الناس لتلقيه، قال سعيد بن حريث: فلمّا صعدنا ثنية العقاب إذا بأثقال يزيد قد تحدّرت في الثنية ثمّ سرنا غير كثير فإذا يزيد في ركب من أخواله من كلب وهو على بختي له رحل ورائطة مثنية في عنقه ليس عليه سيف ولا عمامة، وكان رجلاً كثير اللحم عظيم الجسم كثير الشحم كثير الشعر، وقد أجفل شعره وشعث، فسلّم الناس عليه وعزّوه ودنا منه الضحاك بن قيس بين أيديهم، فليس منّا أحد يتبيّن كلامه إلاّ أنّا نرى فيه الكآبة والحزن وخفض الصوت والناس يعيبون منه ذلك ويقولون: هذا الأعرابي الذي ولاّه أمر الناس والله سائله عنه ...[1]

والذي أعتقده أنّهم يشيرون بأعرابيته إلى جفاء أخلاقه وعنجهيّته، فقد كان فظّاً غليظ القلب، ولم تكن أخلاقه جديدة على أهل الشام وهو الذي ولد فيهم وعاش بين ظهرانيهم، ولكنّهم أيسوا من خيره حين شاهدوا طلعته وأدركهم ما يدرك القانط بعد أن تخفق أمانيه وتتلاشى آماله.

معارضة ابن الزبير تروضها الفلوس

كتب ابن الزبير إلى معاوية: قد علمت أنّي صاحب الدار وأنّي الخليفة بعد عثمان ولأفعلنّ ولأفعلنّ. فقال معاوية ليزيد: ما ترى؟ قال: أرى والله أن لو كنت أنت وابن الزبير على سواء ما كان ينبغي أن ترضى بهذا. قال: فما ترى؟ قال: أرى أن توجّه إليه جيشاً. قال: إنّ أهل الحجاز لا يسلمونه فكم ترى أن أوجّه إليه؟ قال: أربعين ألفاً؟ قال: لهؤلاء دوابّ وكلّ دابّة تحتاج إلى مخلاة، فكم ثمن المخلاة؟ قال: درهم. فقال: هذه أربعون الف درهم، ثمّ قال: يا غلام اكتب لابن الزبير: قد

---

(١) مختصر تاريخ دمشق، ج٢٥ ص٩٠.

وجّه إليك أميرالمؤمنين ثلاثين ألفاً فاستمتع بها إلى أن يأتيك رأيه، فكتب إليه ابن الزبير: قد وصل إلينا المال، فوصل أميرالمؤمنين رحماً. فقال معاوية ليزيد: قد ربحنا على ابن الزبير في المخالي عشرة آلاف ...[1]

والحق إنّي أشكّ في هذه الرواية ولكنّي لا أُنزّه ابن الزبير، لأنّه معروف بحبّ المال والحرص عليه وادّخاره، وما يحملني على الشكّ فيها أنّ ابن الزبير لم يهادن معاوية بعد بيعة يزيد، ظلّ معارضاً لها حتّى هلاك معاوية. صحيح أنّها ليست لله سبحانه ولكن الصحيح أيضاً أنّها كانت قويّة مرهوبة من قبل معاوية من ثمّ كان يوصي يزيد بتقطيعه إرباً إربا. اللهمّ إلاّ أن يقال أنّ المال الذي دفعه معاوية إلى ابن الزبير، كان بعد مكيدة مكة وحينئذ يكون معاوية قد امتصّ معارضة ابن الزبير وهو على قيد الحياة لئلاّ يحدث فتنة في زمنه ووقع الكيس ذوالثلاثين ألفاً موقعاً ناجعاً من نفس ابن الزبير، وهذا وجه أجد نفسي تطمئنّ إليه.

رأي المغيرة في يزيد

أراد معاوية أن يعزل عن الكوفة المغيرة بن شعبة ويستعمل عوضه سعيد بن العاص، فبلغه ذلك فقال: الرأي أن أشخص إلى معاوية فأستعفيه ليظهر للناس كراهتي للولاية، فسار إلى معاوية وقال لأصحابه حين وصل إليه: إن لم أكسبكم الآن ولاية وإمارة لا أفعل ذلك أبداً، ومضى حتّى دخل على يزيد وقال له: إنّه قد ذهب أعيان أصحاب النبي وكبراء قريش وذووا سنانهم، وإنّما بقي أبناءهم وأنت من أفضلهم وأحسنهم رأياً وأعلمهم بالسنّة والسياسة ولا أدري ما يمنع أميرالمؤمنين أن يعقد لك البيعة؟

قال: أو ترى ذلك يتمّ؟ قال: نعم، فدخل يزيد على أبيه وأخبره بما قاله المغيرة. فأحضر المغيرة وقال له: ما يقول يزيد؟ فقال: يا أميرالمؤمين قد رايت ما كان من سفك الدماء والإختلاف بعد عثمان وفي يزيد منك خلف فاعقد له، فإن حدث بك حادث كان كهفاً للناس وخلفاً منك ولا تسفك دماء ولا تكون فتنة. قال:

---

(١) نثر الدر، ج٤ ص١٤٦.

ومن لي بهذا؟ قال: أكفيك أهل الكوفة، ويكفيك زياد أهل البصرة، وليس بعد هذين المصرين أحد يخالفك.

قال: فارجع إلى عملك وتحدث مع من تثق به إليه في ذلك فودّعه ورجع إلى أصحابه فقالوا: مه؟ قال: لقد وضعت رجل معاوية في غرز بعيد الغاية على أُمّة محمّد وفتقت عليهم فتقاً لا يرتق أبداً وتمثّل:

بمثلـــي شـــاهدي النجـــوى وغـــالي بي الأعـــداء والخصـــم الغضـــابا ...[1]

وفي رواية اليعقوبي: فوالله لقد وضعت رجل معاوية في غرز لا يخرجها منه إلاّ سفك الدماء[2].

وفي رواية الآبي: يا ربيع وضعت والله رجله في ركاب طويل الغي على أُمّة محمّد.

ولقد عبّر عن رأيه في يزيد بهذه الكلمات ذوات الدلالة الصريحة أنّ يزيد فتنة تدوم وبليّة لا تنقطع وإنّه ركاب من جلد غرز فيها معاوية رجله فهي ما فنئت معلقة فيه حتّى يلقى الله تعالى وينال عقابه بما جنى على الأُمّة. والمغيرة شريكه في هذا الغرز، وإن حسب نفسه بمبعدة عنه وبمنجاة منه، ولكن الدالّ على الشرّ والدالّ على الخير كفاعله، والمغيرة دلّ على الشرّ وشارك في فعله، فعليه إثمان والله حسيبه.

رأي عتبة بن مسعود في يزيد

ذكروا أنّ عتبة بن مسعود قال: مرّ بنا نعي معاوية ابن أبي سفيان ونحن بالمسجد الحرام. قال: فقمنا فأتينا ابن عباس، فوجدناه جالساً قد وضع له الخوان وعنده نفر، فقلنا: أما علمت بهذا الخبر يابن عباس؟ قال: وما هو؟ قلنا: هلك معاوية. فقال: ارفع الخوان يا غلام وسكت ساعة ثمّ قال: جيل تزعزع ثمّ مال بكلكله، أما والله ما كان كمن كان قبله ولما يكن بعده مثله، اللهمّ أنت أوسع لمعاوية فينا وفي بني عمّنا هؤلاء لذي لبّ معتبر اشتجرنا بيننا فقتل صاحبهم غيرنا وقتل

---

(١) ابن الأثير، الكامل، ج٣ ص٢٤٩، نثر الدر، ج٤ ص١٢٥.

(٢) تاريخ اليعقوبي، ج٢ ص٢٢٠.

صاحبنا غيرهم وما أغراهم بنا إلاّ أنّهم لا يجدون مثلنا وما أغرانا بهم إلاّ أنّا لا نجد مثلهم كما قال القائل: ما لك تظلمني؟ قال: لا أجد من أظلم غيرك، ووالله إنّ ابنه لخير أهله أعد طعامك يا غلام.

قال: فما رفع الخوان حتّى جاء رسول خالد بن الحكم إلى ابن عباس أن انطلق فبايع، فقال للرسول: اقرىء الأمير السلام وقل له: والله ما بقي فيّ ما تخافون، فاقض من أمرك ما أنت قاض، فإذا سهل الممشى وذهبت حطمة الناس جئتك ففعلت ما أحببت. قال: ثمّ أقبل علينا فقال: مهلاً معاشر قريش أن تقولوا عند موت معاوية ذهب جدّ بني معاويةوانقطع ملكهم، ذهب لعمر الله جدّهم وبقي ملكهم وشرّها بقيّة هي أطول ممّا مضى، ألزموا مجالسكم واعطوا بيعتكم. قال: فما برحنا حتّى جاء رسول خالد فقال: يقول لك الأمير لابدّ لك أن تأتينا. قال: فإن كان لابدّ فلابدّ ممّا لابدّ منه، يا نوار هلمّي ثيابي، ثمّ قال: وما ينفعكم إتيان رجل إن جلس لم يضرّكم؟

قال: فقلت له: أتبايع ليزيد وهو يشرب الخمر ويلهو بالقيان ويستهتر بالفواحش؟ قال: مه فأين ما قلت لكم: وكم بعده من آت ممّن يشرب الخمرأ وهو شرّ من شاربها، أنتم إلى بيعته سراع ...[1] وابن عباس أخفى من نفسه حقيقتها فقد كان باستطاعته أن يلهب الدنيا على معاويه ويثير نقمة الناس عليه ولكنّه كان يتكتم بقوله: إن جلس لم يضرّكم ... لما ارتحل معاوية راجعاً إلى مكة ولم يخرج لبني هاشم عطاءاً ولا جائزة فخرج ابن عباس في أثره حتّى لحقه بالروحاء فجلس ببابه فجعل معاوية يقول: من بالباب؟ فيقال: عبدالله بن عباس، فلم يأذن لأحد، فلمّا استيقظ قال: من بالباب؟ فقيل: عبدالله بن عباس، فدعا بدابته فأدخلت إليه ثمّ خرج راكباً فوثب إليه عبدالله بن عباس فأخذ بلجام البغلة ثمّ قال: أين تذهب؟ قال: إلى مكة، قال: فأين جوائزنا؟ كما أجزت غيرنا فأومأ إليه معاوية فقال: والله ما لكم عندي جائزة ولا عطاء حتّى يبايع صاحبكم. قال ابن عباس: فقد أبى ابن الزبير فأخرجت جائزة بني أسد وأبى عبدالله بن عمر فأخرجت جائزة بني عدي، فما لنا

---

(١) الإمامة والسياسة، ج٢ ص١٧٤.

إن أبى صاحبنا وقد أبى صاحب غيرنا؟ فقال معاوية: لستم كغيركم، لا والله لا أعطيكم درهماً حتّى يبايع صاحبكم. فقال ابن عباس: أما والله لئن لم تفعل لألحقنّ بساحل من سواحل الشام ثمّ لأقولنّ ما تعلم والله لا تركنهم عليك خوارج. فقال معاوية: لا بل أعطيكم جوائزكم فبعث بها من الروحاء ومضى عائداً إلى الشام[1].

وما كان معاوية لينثنى لو لم يعلم صدقه ولعلّه تظاهر بالعجز لما أضرّ فقد كان يومئذ مصاباً ببصره رضوان الله عليه.

قول عبدالله بن جعفر في يزيد وأبيه

كتب معاوية إلى عبدالله بن جعفر يجبره على البيعة ليزيد: أمّا بعد، فقد عرفت أثرتي إيّاك على من سواك وحسن رأيي فيك وفي أهل بيتك وقد أتاني عنك ما أكره، فإن بايعت تشكر وإن تأب تجبر، والسلام.

فأجابه ابن جعفر: أمّا بعد، فقد جائني كتابك وفهمت ما ذكرت فيه من أثرتك إيّاي على من سواي، فإن تفعل فبحظك أصبت وإن تأب فبنفسك قصّرت وأمّا ما قصّرت من جبرك إيّاي على البيعة ليزيد فلعمري لئن أجبرتني عليها لقد أجبرناك وأباك على الإسلام، حتّى أدخلناكما كارهين غير طائعين والسلام.

رأي عبدالملك في يزيد

خطب مرّة فقال: إنّي والله ما أنا بالخليفة المستضعف - يعني عثمان - ولا بالخليفة المداهن - يعني: معاوية - ولا بالخليفة المأبون - يعني: يزيد -. وهذه الكلمة إن أطلقت فهي للشرّ خاصة ومنه أخذ المأبون الذي تفعل به الفاحشة وهي الابنة، ذكر ذلك صاحب تاج العروس. وإنّما ذكرنا ذلك مع وضوحه فلأنّ بعض الناس حاول تبديل معنى اللفظ ليدلّ على خلاف حقيقة يزيد فقد ذكر الآبي أنّ أبا حمزة الشاري دخل مكة فصعد منبرها وخطب خطبة ذكر فيها الخلفاء إلى أن وصل إلى معاوية وابنه يزيد فقال:

---

(١) الإمامة والسياسة، ج١ ص١٦٤.

وولي معاوية ابن أبي سفيان لعين رسول الله وابن لعينه فاتّخذ عباد الله خولاً ومال الله دولاً ودينه دغلاً فالعنوه لعنه الله. ثمّ ولي يزيد بن معاوية، يزيد الخمور ويزيد القرود ويزيد الفهود الفاسق في بطنه، المأبون في فرجه[1].

والكلمة الأخيرة واضحة الدلالة في المعنى القبيح، ولكن المحقق أعرض عن معناها الحقيقي وراح يضرب في تيه يزيد، فقال: يريد أنّه كان لاهياً لا يصلح للخلافة، لأنّه يشرب الخمر ويلهو بالقرود والفهود ويأكل الحرام ولا يعفّ عن الفاحشة[2].

أجل، ما قاله محقق الكتاب ثابت، ومثله الطعن في إجّانته، والحمد لله الذي جعل عدوّ أهل البيت أخسّ أنواع الإنسان. لقد أجمعت كلمة الأُمّة على أنّ يزيد مجموعة من المثالب، وكتلة من القبائح، ولكن ابن كثير يقول عنه: تزوّج معاوية أُمّ يزيد فولدت له يزيد ابن معاوية فجاء نجيباً ذكيّاً حاذقاً[3].

وربّما تكون الابنة عند ابن كثير فرع من فروع النجابة ولا غرو فمن كان خليفته وإمامه يزيد كانت نجابته من جنسه. وحمل ابن كثير عشقه معاوية ووريثَه المأبون على أن يلقي تبعات أعمال يزيد المنكرة في عنق أبي أيوب الأنصاري فقد قال: إنّ يزيد بن معاوية كان أميراً على الجيش الذي غزا فيه أبو أيّوب فدخل عليه عند الموت فقال له: إذا أنا متّ فاقرؤوا على الناس منّي السلام وأخبروهم أنّي سمعت رسول الله ﷺ يقول: من مات لا يشرك بالله شيئاً جعله الله في الجنّة ... وقال: سأحدثكم حديثاً سمعته من رسول الله لولا حالي هذه ما حدثتكموه، سمعت رسول الله ﷺ يقول: من مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنّة، وعن أبي صرمة عن أبي أيوب الأنصاري: أنّه قال حين حضرته الوفاة: قد كنت كتمت عنكم شيئاً سمعته من رسول الله ﷺ يقول: لولا أنّكم تذنبون لخلق الله قوماً يذنبون فيغفر لهم ... يقول ابن كثير بعد سرده الأحاديث أعلاه: وعندي أنّ هذا الحديث والذي قبله هو الذي

---

(١) الآبي، نثر الدر، ج٥ ص٢١٤، وانظر الحاشية.

(٢) الآبي، نثر الدر، ج٥ ص٢١٤، وانظر الحاشية.

(٣) البداية والنهاية، ج٨ ص٨٤.

حمل يزيد بن معاوية على الإرجاء وركب بسببه أفعالاً كثيرة أنكرت عليه ...[1]

ونقول لهذا المسكين المتدلّه بحب يزيد ولابدّ أنّه التقى به عند الله الآن، أما سمع القرآن كتاب الله وما فيه من الأوامر والنواهي والزواجر والمواعظ، فهلاّ حملته الآيات على ترك ما ركب ولا اعتقد أنّ حجّة ابن كثير تقنع أكثر الناس حمقاً وبلهاً ولكنّه الحبّ يعمي ويصمّ ولا غرابة فقد قال الشاعر: حسن في كل عين من تودّ، وحبّ يزيد وأبيه كالخمرة أول ما تذهب من الإنسان عقله، فلا يبصر مواضع الحقّ ومواطن الهدى، وقد عبد الهنود البقر والجرذان وأخلصوا لهما وعبادة يزيد وأبيه ليست أعجب من ذلك.

ولا تزال تقف على رأي أو قول لهؤلاء يدمي القلب ويؤذي الخاطر ويثير الإشمئزاز بالنفس. يقول ابن حزم: خروم الإسلام أربعة: قتل عثمان وقتل الحسين ويوم الحرّة وقتل ابن الزبير. ويقول العماد الحنبلي: ولعلماء السلف في يزيد وقتله الحسين عليه السلام خلاف في اللعن والتوقف، قال ابن الصلاح: والناس في يزيد ثلاث فرق: فرق تحبّه وتتولاّه، وفرقة تسبّه وتلعنه، وفرقة في ذلك لا تتولاّه ولا تلعنه، قال: وهذه الفرقة هي المصيبة ومذهبها هو اللائق لمن يعرف سير الماضين ويعلم قواعد الشريعة الطاهرة، انتهى كلامه، ولا أظنّ الفرقة الأُولى توجد اليوم وعلى الجملة فما نقل عن قتلة الحسين والمتحاملين عليه يدلّ على الزندقة وانحلال الإيمان من قلوبهم وتهاونهم بمنصب النبوّة وما أعظم ذلك ...[2]

وقول ابن العماد بنفي الفرقة الأُولى قول من لا يعلم، فقد كان من قبله يثبت العدالة والعلم ليزيد ويصحح إمامته ويتولاّه، يقول ابن العربي: فقد عهد إلى يزيد وليس بأهل إلى أن قال مثبتاً ليزيد الأهليّة: فإن قيل لمن فيه شروط الإمامة قلنا: ليس السنّ من شروطها ولم يثبت إنّه يقصر يزيد عنها. فإن قيل: كان منها العدالة والعلم ولم يكن يزيد عدلاً ولا عالماً، قلنا: وأيّ شيء نعلم عدم علمه أو عدم عدالته، ولو كان مسلوبهما لذكر ذلك الثلاثة الفضلاء الذين أشاروا عليه بأن لا يفعل وإنّما رموا

---

(١) البداية والنهاية، ج٨ ص٦١.

(٢) العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ج١ ص٦٨، بيروت، المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع.

إلى الأمر بعيب التحكم وأرادوا أن تكون شورى[1].

ونقول لهذا المتيم المتبول: إن كان يصح الشك في جنايات يزيد وجرائمه فليصح في أصل وجوده ووجود أبيه أيضاً، لأنّها ثبتت بالطرق التي ثبت بها وجودٌ اسمه يزيد وآخر اسمه معاوية أي بالتواتر المفيد للعلم، الذي لا يتطرق إليها الشك وإلاّ كان العلم مهزلة، لا يجدي نفعاً وليت شعري من الذي يشك في وقعة الحرّة وما جرى فيها من المصائب والنوائب على أهل الإسلام منه، وأمّا إثبات العلم والعدالة ليزيد بزعم أنّ الثلاثة الفضلاء ولم يسمّهم المؤلّف لم يسلبوهما عنه فقد مرّ عليك إجماع الأُمّة على لعن يزيد وتفسيقه بمن في ذلك ابوه وقومه ... والمؤلف يجادل في الحقّ بلا علم ولا هدىً ولا كتاب مبين، وكتابه العواصم من القواصم جلّه إن لم نقل كلّه من هذا القبيل.

وجاء مسكين آخر معاصر فأثبت ليزيد الأهليّة بقوله: إن كان مقياس الأهليّة لذلك أن يبلغ مبلغ أبي بكر وعمر في مجموع سجاياهما فهذا ما لم يبلغه خليفة في تاريخ الإسلام ولا عمر بن عبدالعزيز، وإن طمعنا بالمستحيل وقدّرنا إمكان ظهور أبي بكر آخر وعمر آخر فلن تتاح له بيئة كالبيئة التي أتاحها الله لأبي بكر وعمر. وإن كان مقياس الأهليّة الإستقامة في السيرة والقيام بحرمة الشريعة والعمل بأحكامها والعدل في الناس والنظر في مصالحهم والجهاد في عدوّهم وتوسيع الآفاق لدعوتهم والرفق بأفرادهم وجماعاتهم فإنّ يزيد يوم تمحّص أخباره ويقف الناس على حقيقة حاله كما كان في حياته يتبيّن من ذلك أنّه لم يكن دون كثيرين ممّن تغني التاريخ بمحامدهم وأجزل الثناء عليهم[2].

وأكاد أجزم أنّ العبارة الأخيرة يعني بها هذا الحمار، أميرالمؤمنين عليه السلام ولكنّه لا يجرأ على التصريح بها لأنّ يزيد عندهم أفضل من الإمام ولا ألومهم على ذلك، لأنّهم منافقون لا مسلمون وثبت بالطرق الصحيحة قول النبي للإمام عليه السلام: لا يحبّك منافق ولا يبغضك مؤمن.

---

(١) العواصم من القواصم، ص٢١٤ و٢٢٣.

(٢) العواصم من القواصم، ص٢١٤، الهامش (٢).

ثمّ راح محقّق كتاب (العواصم من القواصم) يبذل الجهد الجهيد ليثبت العدالة لإمامه يزيد فقال: أمّا عن العدالة فقد شهد له محمّد بن علي بن أبي طالب في مناقشته لابن مطيع عند قيام الثورة على يزيد في المدينة فقال عن يزيد: ما رأيت منه ما تذكرون وقد حضرته وأقمت عنده فرأيته مواظباً على الصلاة متحرّياً للخير يسأل عن الفقه ملازماً للسنّة ...[1]

ولإثبات علمه قال: وأمّا عن العلم فالذي يلزم منه لمثله في مثل مركزه كان فيه موضع الرضا وفوق الرضا. روى المدائني أنّ ابن عباس وفد إلى معاوية بعد وفاة الحسن بن علي فدخل يزيد على ابن عباس وجلس منه مجلس المعزّي، فلمّا نهض يزيد من عنده قال ابن عباس: إذا ذهب بنو حرب ذهب علماء الناس[2].

وهذه الأقوال التافهة لا تحتاج إلى رد لأنّ المقصود بها ليس الدفاع عن يزيد بل إبراز العداوة لأهل البيت عليهم السلام لأنّ هذا وأباه من ألدّ أعدائهم فلم يجرئوا على التصريح ببغض أهل البيت وإنّما عبّروا عن ذلك بمدح أعدائهم والدفاع عنهم، والواقع أنّ القوم لم يقنعوا مسلماً واحداً على سبيل المثال بدفاعهم هذا بقدر ما أساؤوا إلى أيمّتهم السابقين لأنّ دفاعهم عن اولئك بمنزلة دفاعهم عن هؤلاء عناد ومكابرة. وإليك مهزلة أُخرى من مهازل الدفاع عن يزيد على لسان أبي بكر بن العربي:

فإن قيل: كان يزيد خمّاراً، قلنا: لا يحلّ إلاّ بشاهدين، فمن شهد بذلك عليه، بل شهد العدل بعدالته فروى يحيى بن بكير عن الليث بن سعد قال الليث: توفي أميرالمؤمنين يزيد في تاريخ كذا فسمّاه الليث أميرالمؤمنين بعد ذهاب ملكهم وانقراض دولتهم ولولا كونه عنده كذلك ما قال إلاّ توفّي يزيد[3].

ومن يكون الليث هذا؟ وهل هو إلاّ راوية أخبار أعوان الظالمين على ظلمهم فنفقت سلعته عندهم وهذا عمر بن عبدالعزيز الذي اعتبروه خامس الراشدين، قال

---

(١) العواصم في القواصم، ص٢٢٣، هامش رقم (١).

(٢) العواصم من القواصم، ص٢٢٣، هامش رقم (١).

(٣) العواصم من القواصم، ص٢٢٨.

رجل عنده: أميرالمؤمنين يزيد، فأمر به فضرب عشرين سوطاً[1].

ولا أعجب ممّن يدّعي العلم في إنكاره المسلّمات ودفاعه عن المنكرات ويزيد ما استطاع أوليائه أن يثبتوا له حسنة واحدة، اللهمّ إلاّ حسنة واحدة وهمية دفعه إليها أبوه دفعاً وحمله عليها حملاً ليقطع قالة أسوء عليه عملاً برأي زياد حتّى قال الذهبي وهو المعروف في ولائه لهم: له على هناته حسنة وهي غزو القسطنطنيّة وكان أمير ذلك الجيش مثل أبي أيّوب الأنصاري.

وأمّا شربه للخمر فلا يكاد ينكر وشهد شاهد من أهلها يقول الذهبي: كان ناصبياً فظّاً غليظاً جلفاً يتناول المسكر ويفعل المنكر افتتح دولته بمقتل الحسين وأختتمها بواقعة الحرّة فمقته الناس ولم يبارك في عمره، وخرج عليه غير واحد بعد الحسين كأهل المدينة قاموا لله ...[2]

وعن زياد الحارثي قال: سقاني يزيد شراباً ما ذقت مثله، فقلت: يا أميرالمؤمنين لم أسلسل مثل هذا، قال: هذا رمان حلوان بعسل اصبهان بسكر الأهواز بزبيب الطائف بماء بردى[3]. ولشهرة ذلك فقد حمله القاصي والداني وشرق وغرب في البلاد لما أبى معاوية من عزل ابن أُخته أُمّ الحكم عن الكوفة دخل قوم من أهل الكوفة على يزيد فقال أحدهم: ما ننقم على عبدالرحمن أن لا نكون أحظى أهل المصر عنده ولكنّا غضبنا لك وذلك أنّه أُتي بجام من مها - أي بلور - فقال: ارفعوها حتّى نهديها إلى يزيد يشرب فيها الخمر بماء بردى ...[4]

وكان هلاكه بالخمرة التي والاها وأخلص لها. عن محمّد بن أبي مسمع قال: سكر يزيد، فقام يرقص، فسقط على رأسه فانشقّ وبدا دماغه[5]. وهذه اهون موتة يموتها أهون موجود على الله سبحانه. قال محمّد بن عبدالملك الزيات لبعض أصحابه: ما أخّرك عنّا؟ قال: موت أخي. قال: بأيّ علّة؟ قال: عضّت اصبعه فأرة

---

(١) سير أعلام النبلاء، ج٤ ص٤٠.

(٢) سير أعلام النبلاء، ج٤ ص٣٧.

(٣) نفسه، ج٤ ص٣٧.

(٤) البلاذري، أنساب الأشراف، ج٥ ص١٤٩.

(٥) سير أعلام النبلاء، ج٤ ص٣٧.

فضربته الحمرة. فقال محمّد: ما يردد القيامة شهيد أحسّ سبباً ولا أنذل قاتلاً ولا أضيع ميتة ولا أظرف قتلة من أخيك ...[1]

وأنا أقول: ما يرد القيامة ميّت أحسّ موتاً ولا أخبث نفساً ولا أذلّ ميتة من يزيد بن معاوية، أمير مؤمني الليث بن سعد وأبي بكر العربي وناصبي زماننا محبّ الدين الخطيب، وأختم هذه الجملة من الحديث بما قاله ابن العربي أخيراً وأسمّيه قولاً تأدّباً مع القارىء وهو إلى الهراء أقرب، قال:

فإن قيل ولو لم يكن ليزيد إلاّ قتله للحسين بن علي، قلنا: يا أسفاً على المصائب مرّة ويا أسفاً على مصيبة الحسين ألف مرّة، وإنّ بوله يجري على صدر النبي، ودمه يراق على البوغاء ولا يحقن ويا لله ويا للمسلمين، ثمّ أجمل مصيبة كربلاء وسمّى الأخبار التي ساقها أمثل ما روي إلى أن قال:

وأسلمه من كان استدعاه ويكفيك بهذا عظة لمن اتّعظ فتمادى واستمرّ غضباً للدين وقياماً بالحقّ ولكنّه رضي الله عنه لم يقبل نصيحة أهمّ أهل زمانه ابن عباس وعدل عن رأي شيخ الصحابة بن عمر وطلب الإبتداء في الإنتهاء والإستقامة في الإعوجاج ونضارة الشبيبة في هشيم المشيخة ليس حوله مثله ولا له من الأنصار من يرعى حقّه ولا من يبذل نفسه دونه فأردنا أن نطهّر الأرض من خمر يزيد فأرقنا دم الحسين فجائتنا مصيبة لا يجبرها سرور الدهر، وما خرج إليه أحد إلاّ بتأويل ولا قاتلوه إلاّ بما سمعوا من جدّه المهيمن على الرسل المخبر بفساد الحال المحذّر من الدخول في الفتن وأقواله في ذلك كثيرة منها قوله صلى الله عليه وآله وسلم: إنّه ستكون هنات وهنات، فمن أراد أن يفرق أمر هذه الأمّه وهي جميع فاضربوه بالسيف كائناً من كان، فما خرج الناس إلاّ بهذا وأمثاله[2].

لقد أضلّ الله ابن العربي على علم وبهذا وأمثاله صرّح عن نفاقه وتحامله على سيّد شباب أهل الجنّة وقد صدق العماد الحنبلي بقوله: ما نقل عن قتلة الحسين والمتحاملين عليه يدلّ على الزندقة وانحلال الإيمان من قلوبهم وتهاونهم بمنصب

---

(١) الأغاني، ج٢٣ ص٥٢.

(٢) العواصم من القواصم، ص٢٣١ و٢٣٢ و٢٢٨.

النبوّة، وما أعظم ذلك[1].

ولست أدري ما الذي صيّر عائشة صديقة وقد فرقت أمر هذه الأُمّة إلى اليوم، وصيّر طلحة فيّاضاً ومبشّراً بالجنّة وصيّر الزبير حواريّاً وعبدالله ابنه كيت وكيت وهم الذين فرّقوا أمر الأُمّه وهي جميع حقّاً وصدقاً لم يخرجوا لإنكار منكر ولا لإصلاح فساد ولا لطلب معروف، وإنّما نفسوا على أميرالمؤمنين عليه السلام أن ينال حقّه وتأتيه الخلافة بالإختيار والشورى بعد النصّ والوصيّة، فلا تدلّ مواقفهم المفرقة على جواز ضربهم، ثمّ يأتي صنيعة أُميّة الأندلس ابن العربي فيهذي بأقوال لم يوافقه عليها أحد حتّى أشدّ الناس عداء لأهل البيت ابن تيميّة عن الحسين عليه السلام وتابعه على قوله في الإمام الحسين عليه السلام جماعة منهم ابن خلدون.

وكان الحافظ أبوالحسن الهيثمي يبالغ في الغضّ منه. قال الحافظ ابن حجر: فلمّا سألته عن سبب ذلك ذكر لي أنّه بلغه أنّه قال في الحسين السبط رضي الله عنه أنّه قتل بسيف جدّه ثمّ أردف ذلك بلعن ابن خلدون وسبّه وهو يبكي. قال ابن حجر: لم توجد هذه الكلمة في التاريخ الموجود الآن وكأنّه كان ذكرها في النسخة التي رجع عنها.

قال الشوكاني: وإذا صحّ صدور تلك الكلمة عن صاحب الترجمة فهو ممّن أضلّه الله على علم[2].

وابن العربي صاحب القول الأوّل شريكه في اللعنة وجاء من بعد ابن خلدون قوم ضلّوا بضلاله ونائوا بأقواله، وحقّت عليهم لعنة الله من قبيل المستشرق الصليبي لامنس الذي كتب في يزيد معاوية كتاباً سمّاه يزيد الأوّل من خمسمائة صفحة وكان معجباً به. ولا غرو فإنّ يزيد أثلج قلب لامنس بما جنى على أهل البيت عليهم السلام كما أثلج قلب من كان قبله ومن جاء بعده من إخوانه الوهابيّة الذين ترسّموا خطاه فكتبوا في يزيد كتاباً سمّوه «حقائق عن أميرالمؤمنين يزيد بن معاوية». وهذا الكتاب تطبعه المملكة العربية السعوديّه وزارة المعارف بالذات، ذكر ذلك العلامة العسكري في

---

(١) شذرات الذهب، ج١ ص٦٨.

(٢) الشوكاني، البدر الطالع، ج١ ص٣٣٨ و٣٣٩، ط بيروت، دار المعرفة، على الطبعة الأُولى المطبوعة، سنة ١٣٤٨ هجري.

كتابه القيم (معالم المدرستين) الجزء الأوّل وحينئذ فلا يصحّ قول ابن العماد: أمّا الفرقة الأُولى وهي التي تتولاّه فلا أظنّها توجد اليوم، بل هي موجودة اليوم كما كانت موجودة قبله وستبقى موجودة بعده ما بقي الشرّ وبقي الشرّير.

وفي ختام دفاع ابن العربي عن يزيد استدلّ على تعديله بشهادة أحمد بن حنبل في حقّه فقال: ... وهذا أحمد بن حنبل على تقشّفه وعظيم منزلته في الدين وورعه قد أدخل عن يزيد بن معاوية (كذا) في (كتاب الزهد) أنّه كان يقول في خطبته: (... إذا مرض أحدكم مرضاً فأشفى ثمّ تماثل، فلينظر إلى أفضل عمل عنده فليلزمه ولينظر إلى أسوأ عمل عنده فليدعه ...) وهذا يدلّ على عظيم منزلته عنده حتّى يدخله في جملة الزهّاد، من الصحابة والتابعين الذين يقتدى بقولهم ويُرعوى من وعظهم، ونعم وما أدخله إلاّ في جملة الصحابة قبل أن يخرج إلى ذكر التابعين فأين هذا من ذكر المؤرخين له في الخمر وأنواع الفجور ألا يستحيون؟! وإذا سلبهم الله المروئة والحياء ألا ترعوون أنتم وتزدجرون؟؟! وتقتدون بالأحبار والرهبان من فضلاء الأُمّة وترفضون الملحدة والمجان من المنتمين إلى الملّة (هذَا بَيَانٌ لِلنّاسِ وَهُدىً وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتّقِينَ) والحمد لله ربّ العالمين[1].

نقلنا الكلام بطوله لتقف على حقيقة هذا المجادل بالباطل الذي يطالب بالحياء والمروئة، وهو فاقدهما، و(إذا لم تستح فاصنع ما شئت) وقل ما شئت كذلك. والذي يحزّ في النفس ليس الدفاع عن يزيد ففي البشريّة من دافع عن إبليس وعبده أيضاً ومن الطريف حقّاً أن تقترن عبادة الشيطان بتعديل يزيد بن معاوية والدفاع عنه في اليزيدية. أجل يحزّ في النفس ويؤذي المروءآت أن ينبري المدافعون لإنكار منكرات يزيد وإثبات الفضائل له، فلم يكتفوا بالأُولى حتّى أثبتوا له الثانية وهذا حاك عن ضحالة دينهم وذهاب يقينهم والحقّ يقال إنّ الدفاع عن يزيد يجرّ إلى جرح الذين تقدّموه. وذلك أنّ ما قالوه عن فلان وفلان لا يعدو أن يكون نظيراً لما قالوه عن يزيد في ردّ منكراته وإثبات حسنات له، لاتحاد السبب وثبوت الداعي، لأنّ الذي حملهم على تعديل يزيد هو الخشية على سريان الجرح إلى

---

(١) العواصم من القواصم، ص٢٣٣.

معاوية ومن معاوية إلى عمر وهكذا يتداعى الجهاز بناءاً وقواعدَ، وإلاّ فلا يضمّ الوجود أمس واليوم من يجهل حقيقة يزيد وأبيه، إلاّ من أضلّه الله، من منافق مستتر بالإسلام حاقد على أهل البيت أو صليبي ناقم على الإسلام والحمد لله أن تتوحّد العلقة في هؤلاء وهؤلاء.

ثمّ هلمّ إلى هذا المتحمس المنافح المكافح عن يزيد القرود وكيف يستشهد على تعديله بابن حنبل واستمع إلى ابن حنبل كيف يجيب ولده: روى ابن الجوزي عن القاضي أبي يعلى الفرا: أنّه روى في كتابه (المعتمد في الأُصول) بإسناده إلى صالح بن أحمد بن حنبل قال: قلت لأبي: إنّ قوماً ينسبونا إلى تولّي يزيد، قال: يا بني وهل يتولّى يزيد أحد يؤمن بالله؟ فقلت: ولم لا تلعنه؟ فقال: ومتى رأيتني لعنت شيئاً؟ يا بني ولم لا نلعن من لعنه الله في كتابه؟ فقلت: وأين لعن الله يزيد في كتابه؟ فقال: (فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ * أُو لَـئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ)[1] فهل يكون فساد أعظم من القتل، وفي رواية: فقال: يا بني ما أقول في رجل لعنه الله في كتابه فذكره؟[2]

قال ابن الجوزي: وصنّف القاضي أبو يعلى كتاباً ذكر فيه بيان من يستحقّ اللعن وذكر منهم يزيد ثمّ أورد حديث: من أخاف أهل المدينة ظلماً أخافه ألله وعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ...[3] ولا خلاف أن يزيد غزا المدينة

---

(١) سورة محمّد صلى الله عليه وآله وسلم الآية ٢٢.

(٢) جواهر العقدين في فضل الشرفين، تأليف السمهودي وهو كتاب نفيس حقاً، ص٤٢٥.

(٣) للحديث سياقات كثيرة وإليك الكتب التي أخرجته بسياقات مختلفة: ١ - مسند أحمد بن حنبل، ج٤ ص٥٦ وتمام الحديث عنده: لا يقبل الله منه صرفاً ولا عدلاً، ورواه بسياقين آخرين في ج٣ ص٣٩٣ وج٤ ص٥٥. ٢ - الطبراني، ج٧ ص١٦٩ و١٧١. ٣ - موارد الظمئان للهيثمي، رقم ١٠٣٩ قال عنه: «حسن» واقتصر على أخافه الله. ٤ - مجمع الزوائد، ج٣ ص٣٠٦ رواه بسياقات عدّة، منها عن جابر بن عبدالله أنّ أميراً من أُمراء الفتنة قدم المدينة وكان قد ذهب بصر جابر فقيل لجابر: لو تنحّيت عنه فخرج يمشي بين ابنيه فنكب فقال: تعس من أخاف رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. فقال ابناه أو أحدهما: يا ابت وكيف أخاف رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وقد مات؟ قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: من أخاف أهل المدينة فقد أخاف مابين جنبيّ، رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح، ومنها عن عبادة بن الصامت عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنّه قال: اللهمّ من ظلم أهل المدينة أو أخافهم فأخفه وعليه لعنة الله والملائكة والناس =

بجيش مسرف بن عقبة وأخاف أهلها[1].

وقال السمهودي أيضاً: قلت: بل وقع من ذلك الجيش من القتل والفساد والسبي وإباحة المدينة ما هو مشهور ولم يرض مسرف إلاّ بأن يبايعوه ليزيد على أنّهم خول له إن شاء باع وإن شاء عتق فذكر له بعضهم البيعة على كتاب الله وسنّة رسوله فضرب عنقه وقتل بقايا الصحابة وأبناءهم وذلك في وقعة الحرّة إلى أن يقول: ثمّ انصرف جيشه هذا إلى مكة لقتال ابن الزبير فوقع منهم رمي الكعبة بالمنجنيق واحتراقها بالنار فأيّ شيء أعظم من هذه العظائم في زمنه وهي مصداق ما رواه أبو يعلى من حديث أبي عبيدة ﷺ رفعه: لا يزال أمر أُمّتي بالقسط حتّى يتسلّمه رجل من بني أُميّة يقال له يزيد، ورواه غير أبي يعلى بدون تسميته: لأنّهم كانوا يخافون من تسميته[2]، وهذا ما حمل الأباضية على تأويل الحديث في عثمان ورواه في جامع الشمل بالصيغة التالية: أوّل من يبدّل سنّتي رجل من بني أُمية. قال: رواه أبو يعلى عن أبي ذر. فقلنا نحن الأباضية: هو عثمان وقال غيرنا: إنّه يزيد بن معاوية لعنه الله، والله أعلم[3].

هؤلاء جميعاً عند ابن العربي لا حياء لهم ولا مروءة لأنّهم جرحوا إمامه يزيد وذكروا ما كان يرتكب من المنكرات ويجترح من السيّئات ويركب من المحظورات، وبقي الحياء له ولإمامه.

من أين تخجل أوجه أُمويّة ... سكبت بلذّات الفجور حياءها

وعندنا شقي آخر تنكر للحق وردّ أقوال العلماء وأنكر الثابت المتواتر من فعل يزيد فتولاّه ومنع من لعنه واعتبر الترحّم عليه من المستحبّات. قال ابن خلّكان: وقد أفتى الإمام أبو حامد الغزالي رحمه الله تعالى في مثل هذه المسئلة بخلاف ذلك،

= أجمعين، لا يقبل منه صرف ولا عدل، رواه الطبراني في الأوسط ورجاله رجال الصحيح. ٥ - كنز العمال، رقم ٣٤٨٣٨. ٦ - التاريخ الكبير للبخاري، ج١ ص١١٧ وج٣ ص١٨٦. ٧ - حلية الأولياء، ج١ ص٣٧٢. ٨ - مصنف ابن أبي شيبة، ج١٢ ص١٨١. ٩ - الكامل في الضعفاء لابن عدي، ج٥ ص١٩٦٩.

(١) السمهودي، جواهر العقدين، ص٤٢٥.

(٢) جواهر العقدين، ص٤٢٥، ط بيروت دارالكتب العلمية، ط اولى، ١٤١٥ هجرية.

(٣) اطفيش المغربي، جامع الشمل، ج١ ص٥٣٦.

فإنّه سئل عمّن صرّح بلعن يزيد هل يحكم بفسقه أم هل يكون ذلك مرخصاً فيه؟ وهل كان يزيد قتل الحسين عليه السلام (رضي الله عنه) أم كان قصده الدفع؟ وهل يسوغ الترحّم عليه أم السكوت أفضل؟ أنعم بإزالة الإشتباه مثاباً؟! فأجاب:

لا يجوز لعن مسلم أصلاً، ومن لعن مسلماً فهو الملعون وقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: المسلم ليس بلعّان وكيف يجوز لعن مسلم ولا يجوز لعن البهائم؟ وقد ورد النهي عن ذلك وحرمة المسلم أعظم من حرمة الكعبة بنصّ النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم ويزيد صحّ إسلامه، وما صحّ قتله للحسين ولا أمره به وما لم يصحّ منه ذلك لا يجوز أن يظنّ ذلك به، فإنّ إسائة الظنّ بالمسلم حرام، وقد قال الله تعالى: (اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِنَ الظّنّ إِنّ بَعْضَ الظّنّ إِثْمٌ)[1] وقد قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: إنّ الله حرّم من المسلم دمه وماله وعرضه وأن يظنّ به ظنّ، ومن زعم أنّ يزيد أمر بقتل الحسين رضي الله تعالى عنه ورضي به فينبغي أن يعلم به غاية حماقه فإنّ من قتل من الأكابر والوزراء والسلاطين في عصره لو أراد أن يعلم حقيقته من الذي أمر بقتله ومن الذي رضي به ومن الذي - وإن كرهه لم يقدر على ذلك كان قد قتل بجواره وزمانه وهو يشاهده فكيف يعلم ذلك فيما انقضى عليه قريب من أربعمائة سنة في مكان بعيد؟ فهذا لا يعرف حقيقته أصلاً وإذا لم تعرف وجب إحسان الظنّ بكلّ مسلم يمكن إحسان الظنّ به، ومع هذا فالقتل ليس بكفر، بل هو معصية وربّما مات القاتل بعد التوبة ولو جاز لعن أحد فسكت عن ذلك، لم يكن الساكت عاصياً، بل لو لم يلعن إبليس طول عمره لا يقال له في القيامة لم لم تلعن إبليس؟ وأمّا الترحّم عليه فإنّه جائز بل مستحبّ إذ هو داخل في قوله: اللهمّ اغفر للمؤمنين والمؤمنات والله أعلم، كتبه الغزالي[2].

وهذه الفتوى تدلّ على أحد أمرين: إمّا جهل الرجل بحقائق التاريخ وهذا بعيد عن عالم مثله، أو نصبه الشديد لأهل البيت النبوي ويظهر ذلك في تعديله لألدّ أعدائهم بل أعداء البشريّة قاطبة وثنائه عليهم، وهذا أدنى إلى المتعقل، لأنّه حاول محاولة مضحكة في فتوى هو ليس من أهلها، إنّما شأنه الشطحات وحديثه الترّهات

---

(١) سورة الحجرات الآية ١٢.

(٢) اليافعي، مرآة الجنان، ج٣ ص١٣٤، ط دارالكتب العلمية، بيروت، ١٤١٧.

أن ينكر ضرورة تاريخية لا سبيل إلى انكارها إلاّ لمن أُصيب ببصيرته، كمن أُصيب ببصره فلا يرى الشمس الطالعة.

إنّ قتل يزيد الحسين ليس معناه حضوره في كربلاء مع ابن سعد، فذلك ما لا يقوله ذو مسكة ولا يتبناه رشيد، بل معناه صدور أمره بذلك إلى عمّاله ورضاه عنهم وتشجعيه لهم وإثابته لهم على جرائمهم منقطعة النظير. ولا تكون جرائم ولاة الأُمور إلاّ على هذا النمط وبهذا الشكل لأنّهم يؤاخذون بما يفعله ولاة أقاليمهم وعمّال بلادهم، إذا أمروهم بذلك وأثابوهم عليه، لا على الممارسة، ولو جاز إعفاء يزيد على ما ارتكبه من جرائم لعدم ممارسته لها وعصبنا الذنب في رؤوس الولاة، لما كان في الحكام مجرم ولا جان، ولم يؤاخذ أحدٌ بفعل منهم بدءاً بفرعون ومروراً بفلان وختاماً بيزيد.

بل حتّى ابن زياد نفسه ليس عليه مؤاخذة لأنّه لم يحضر كربلاء ولا باشر القتال بنفسه، إنّما فعل ذلك ابن سعد وجنوده عن أمره، فهو مؤاخذ بما أصدر من أمر وما أعدّ من خطط، وهكذا الحال بالنسبة لإمام الغزالي الصوفي يزيد بن معاوية فإنّه مؤاخذ بأمره ورضاه وتشجيعه وحمله ابن زياد وأهل الكوفة على ذلك لا على حضوره ومباشرته القتال بنفسه في كربلاء والغزالي يعلم هذا جيّداً ولكنّه يلبسه على نفسه ليجعل الشبهات عاذراً له.

أضف ألى ذلك أنّنا لو ذهبنا مذهبه وبرأنا يزيد من دم الحسين بفعل التنائي الزماني والمكاني بيننا وبينه وكان منطقنا الوحيد في المسئلة هو عسر تمييز القاتل والفاعل بعد تراكم الزمن هذه المدّة الطويلة، لأُصيب تاريخنا من بدأه إلى منتهاه بعاصفة هو جاء تذريه في العدم كما تذري الريح الهشيم لأنّ المسئلة لا تقتصر على واقعة كربلاء بل يصاب التاريخ كلّه بزلزال الشك والتخرص إذ ليس واقعة من الوقايع التاريخيه بما فيها معارك الإسلام من بدر وأُحد وحنين وخيبر وفتح مكّة وقعت بمسمع ومشهد منّا بل فصل بيننا آحاد وأحقاب طويلة وحينئذ لا تبقى قيمة لتاريخنا نفعل ذلك به لنكسب البرائة لأخبث مجرم في تاريخ الأجرام أمير مؤمني الغزالي وابن العربي وابن كثير والذهبي وابن تيميّة ومحبّ الدين الخطيب وهيان بن بيان.

هذا من جهة، ومن جهة أُخرى فإنّ عادة ولاة الأُمور جرت منذ وقديم الزمان

على محاسبة العامل ومؤاخذته بما يفعل، فيثاب إن أحسن ويعاقب على الإسائة، ويتعرّض للعزل وهو أقلّها والسجن بل القتل أيضاً، فهل فعل يزيد بابن زياد شيئاً من هذا لو لم يكن راض بفعله شاكراً له حسن صنيعه بعدوّه مشجّعاً إيّاه وكان يكتب إليه: أنت أحد أعضاء ابن عمّك فاحرص أن تكون كلّها[1] على التمادي بغيّه، وهذا هو المراد بقول من قال: إنّ يزيد قاتل الحسين عليه السلام.

ولقد بعث ابن زياد لعنه الله إلى يزيد لعنه الله رسلاً ومعهم رؤوس الشهداء، وأوّل رأس حمل إليه رأس شهيد كوفان مسلم بن عقيل عليه السلام، فما كان موقف يزيد منهم إنّه استقبلهم على أحسن حال وأثابهم وردّهم إلى ابن زياد محملين بالمكافئات والجوائز السنيّة، وكتب إلى ابن زياد جواباً مع حامل رأس مسلم عليه السلام إليه:

أمّا بعد، فإنّك لم تعدُ أن كنت كما أحبّ عملت عمل الحازم وصلت صولة الشجاع الرابط الجأش فقد أغنيت وكفيت وصدّقت ظنّي بك ورأيي فيك وقد دعوت رسوليك فسألتهما وناجيتهما فوجدتهما في رأيهما وفضلهما كما ذكرت فاستوص بهما خيراً، وإنّه بلغني أنّ الحسين بن علي قد توجّه نحو العراق فضع المناظر والمسالح واحترس على الظنّ وخذ على التهمة غير أنّ لا تقتل إلاّ من قاتلك واكتب إليّ في كلّ ما يحدث من الخبر والسلام عليك ورحمة الله وبركاته.

وكان ابن زياد قد كتب إليه بعد شهادة مسلم وهانىء عليهما السلام :

أمّا بعد، فالحمد لله الذي أخذ لأميرالمؤمنين بحقّه وكفاه مؤنة عدوّه، أخبر أميرالمؤمنين - أكرمه الله - أنّ مسلم بن عقيل لجأ إلى دار هانىء بن عروة المرادي وإنّي جعلت عليهما العيون ودسست إليهما الرجال وكدتهما حتّى استخرجتهما وأمكن الله منهما فقدّمتهما فضربت أعناقهما، وقد بعثت إليك برؤوسهما مع هانىء بن أبي حيّة الهمداني والزبير بن الأروح التميمي وهما من أهل السمع والطاعة والنصيحة فليسألهما أميرالمؤمنين عمّا أحبّ من أمر، فإنّ عندهما علماً وصدقاً

---

(١) العقد الفريد، ج٤ ص٢٠٧.

وفهماً وورعاً والسلام[1].

فهل هذا قول البريء وفعله، والواقع أنّ ثلاثة أرباع تبعة قتل أهل البيت عليهم السلام على يزيد لعنه الله لأنّه بأمره قتلوهم ولولا إرادته قتلهم لما جرء أحد من أهل الكوفة على ذلك، وما اكتفى يزيد بالأمر وحده بل ضمّ إليه تهديد من لم يقاتلهم بقتله، وبهذا جاءت شهادة ابن زياد لعنه الله على يزيد فلقد قال ابن زياد معتذراً عن قتله الحسين عليه السلام: أمّا قتلي الحسين، فإنّه أشار عليّ يزيد بقتله أو قتلي فاخترت قتله ... وقال المعلّق على الكتاب: في الطبري: فإنّه سار إلي يريد قتلي فاخترت قتله على أن يقتلني، وهي محرّفة وما هاهنا هو الصحيح ...[2]

وحين نسبر التاريخ فعل من يريد الظفر بالحقيقة، نعثر على كتب يزيد التي تحثّ عمّاله على قتل الحسين وأوّل عامل وقع اختيار يزيد عليه ليقتل الحسين هو ابن عمّه الوليد فقد كتب إليه بعد كتاب الوليد يأمره بقتل الحسين:

من يزيد أميرالمؤمنين إلى الوليد بن عتبة، أمّا بعد، فإذا ورد عليك كتابي هذا فخذ البيعة ثانية على أهل المدينة توكيداً منك عليهم وذر عبدالله ابن الزبير فإنّه لن يفوتنا ولن ينجو منّا أبداً ما دمنا أحياء، وليكن مع جواب كتابي هذا رأس الحسين، فإن فعلت ذلك جعلت لك أعنّه الخيل ولك عندي الجائزة العظمى والحظّ الأوفر والسلام[3].

فلمّا ورد الكتاب على الوليد أعظم ذلك وقال: والله لا يراني الله وأنا قاتل الحسين بن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ولو جعل لي يزيد الدنيا وما فيها ...[4] وسلم الوليد من هذا العار وعلق بابن العار الدعيّ بن الدعيّ عبيدالله بن زياد لعنه الله وكان كتاب يزيد إليه يهدّده بردّه إلى الرقّ كما كان قبلاً أبوه إن لم يقتله وكتب إليه:

---

(١) جمهرة رسائل العرب، ج٢ ص٨٣ و٨٤ نقلاً عن تاريخ الطبري، ج٦ ص٢١٣ و٢١٤، الفتوح، ج٥ ص٧٠.

(٢) الكامل في التاريخ، ج٣ ص٣٢٤، وانظر الهامش رقم (١).

(٣) مقتل الخوارزمي، ج١ ص١٨٦، وابن الأعثم، الفتوح، ج٥ ص١٩، ط دار الكتب العلمية، ١٤٠٦ هجرية.

(٤) مقتل الخوارزمي، ج١ ص١٨٦.

من عبدالله يزيد بن معاوية أميرالمؤمنين إلى عبيدالله بن زياد، سلام عليك، أمّا بعد، فإنّ الممدوح مسبوب يوماً وإنّ المسبوب ممدوح يوماً، ولك ما لك وعليك ما عليك، وقد انتميت ونميت إلى كلّ منصب كما قال الأوّل:

رفعت فما زلت السحاب تفوقه فمالك إلاّ مقعد الشمس مقعد

وقد ابتلي بالحسين زمانك من بين الأزمان، وابتلي به بلدك من بين البلدان، وابتليت به من بين العمّال، وفي هذه تعتق أو تكون عبداً كما تعبّد العبيد ...[1]

هذا كلّه صدر من يزيد فهل باستطاعة أوليائه وشيعته أن يرشدونا إلى كلمة واحدة منه تدلّ على استنكاره قتل الحسين أو لومه لقاتله أو حتّى معاتبته على ذلك.. أتحداهم بإصرار أن يجدوا شيئاً من هذا ولو في مصدر من مصادرهم الرخيصة، وهذا الغزالي يبرء يزيد من دم الحسين وابن العربي يزعم أنّ يزيد وباقي القتلة إنّما قتلوه بتأويل، فهو يعترف بفعلهم ولكن يعتبرهم فقهاء مجتهدين متأوّلين، إنّ يزيد وابن زياد وعمر بن سعد وشمر بن ذي الجوشن وسنان بن أنس وغيرهم من الأوباش هؤلاء جميعاً فقهاء قتلوا الحسين بتأويل يقول هذا الخبيث الناصبي ليشارك الطغاة والقساة والهمج الرعاع بسفك الدم الزكي: وما خرج إليه أحد إلاّ بتأويل ولا قاتلوه إلاّ بما سمعوا من جدّه المهيمن على الرسل المخبر بفساد الحال المحذّر من الدخول في الفتن ...[2]

ونحن لا نملك إماما هذه البلايا إلاّ أن نتبرّء من القادة والأتباع ونتقرّب إلى الله بلعنهم. قال بعضهم: ما قطعني إلاّ غلام قال لي: ما تقول في معاوية؟ قلت: إنّي أقف فيه. قال: فما تقول في يزيد؟ قلت: ألعنه لعنه الله. قال: فما تقول فيمن يحبّه؟ قلت: ألعنه. قال: أفترى معاوية لا يحبّ يزيد ابنه[3].

ونختم هذا الفصل ببيان شاف مفصح عن مادّة يزيد مبيّن لشخصه كلّم به سيّد

---

(١) نفسه، ج١ ص١٩٨، مصعب الزبيري، نسب قريش، ص١٢٧ و١٢٨، وأضاف الزبيري أنّ ابن زياد بعث بالرأس إلى يزيد فوضعه بين يديه وتمثّل:

نفلّق هاماً من رجال أعزّة علينا وهم كانوا أعقّ وأظلما

(٢) العواصم من القواصم، ص٢٣٢.

(٣) نثر الدر، ج٢ ص١٨٣.

الشهداء أبو عبدالله أباه، فحمد الله وصلّى على الرسول ثمّ قال: أمّا بعد، يا معاوية فلن يؤدّي القائل وإن أطنب في صفة الرسول ﷺ من جميع جزءاً وقد فهمت ما لبست به الخلف بعد رسول الله من ايحاز الصفة والتنكّب عن استبلاغ النعت وهيهات هيهات يا معاوية فضح الصبح فحمة الدجى وبهرت الشمس أنوار السرج ولقد فضّلت حتّى أفرطت واستأثرت حتّى أجحفت ومنعت حتّى محلت وجزت حتّى جاوزت، ما بذلت لذي حقّ من اسم حقّه بنصيب، حتّى أخذ الشيطان حظّه الأوفر ونصيبه الأكمل، وفهمت ما ذكرته عن يزيد من اكتماله وسياسته لأُمّة محمّد تريد أن توهم الناس في يزيد، كأنّك تصف محجوباً أو تنعت غائباً أو تخبر عمّا كان احتويته بعلم خاص وقد دلّ يزيد من نفسه على موقع رايه فخذ ليزيد فيما أخذ فيه من استقرائه الكلاب المهارشة عند التهارش، والحمام السبق لأترابهنّ، والقيان ذوات المعازف وضرب الملاهي تجده باصراً ودع عنك ما تحاول فيما أغناك أن تلقى الله من وزر هذا الخلق بأكثر ممّا أنت لاقيه. فوالله ما برحت تقدح باطلاً في جور وحنقاً في ظلم حتّى ملأت الأسقية، وما بينك وبين الموت إلاغمضة فتُقدم على عمل محفوظ في يوم مشهود ولات حين مناص، ورأيتك عرّضت بنا بعد هذا الأمر ومنعتنا عن آبائنا تراثاً، ولقد لعمري أورثنا الرسول عليه الصلاة والسلام ولادة وجبت لنا بها، أما حججتم به القائم عند موت الرسول فأذعن للحجّة بذلك وردّه الأيمان إلى النصف فركبتم الأعاليل وفعلتم الأفاعيل، وقلتم كان ويكون حتّى أتاك الأمر يا معاوية من طريق كان قصدها لغيرك، فهناك فاعتبروا يا أولي الأبصار، وذكرت قيادة الرجل القوم بعهد رسول الله ﷺ وتأميره له وقد كان ذلك ولعمرو بن العاص يومئذ فضيلة بصحبة الرسول وبيعته له وما صار - لعمر الله - يومئذ مبعثهم حتّى أنف القوم إمرته وكرهوا تقديمه وعدوا عليه أفعاله فقال ﷺ: لا جرم معشر المهاجرين لا يعمل عليكم بعد اليوم غيري فكيف تحتج بالمنسوخ من فعل الرسول في أوكد الأحكام وأولاها بالمجمع عليه من الصواب؟ أم كيف صاحب (كذا) بصاحب تابعاً وحولك من لا يؤمن في صحبته ولا يعتمد في دينه وقرابته وتتخطاهم إلى مسرف مفتون تريد أن تلبس شبهة يسعد بها الباقي في دنياه وتشقى بها في

آخرتك، إنّ هذا لهو الخسران المبين، واستغفر الله لي ولكم[1].

وبهذا الشمم العظيم والإباء للبيعة الخاسرة أعلن الإمام ثورته ونشر دعوته ورفع منار الجهاد وصاح صيحته المشهورة: لا أعطيكم بيدي إعطاء الذليل ... وقد تماوجت هذه الصيحة وامتزجت بهتاف المجاهدين في جنبات الطف وسماء كربلاء يوم العاشر، وملأت جوانب العالم المعمور بالدوي الصاعق، وأصبحت سيفاً بيد كلّ مجاهد يشهر في وجه الطغيان ويثور على الرقّ والعبوديّة، ويهزم به جيوش الظلاّم ويهدم بمعاول الحقّ أوكار الباطل.

كريم أبى شمّ الدنيّة أنفه ... فأشممه شوك الوشيج المسدد

لم أدر أين رجال المسلمين مضوا ... وكيف صار يزيد بينهم ملكا
العاصر الخمر من لؤم بعنصره ... ومن خساسة طبع يعصر الودكا
قد أصبح الدين منه يشتكي سقما ... وما إلى أحد غير الحسين شكا
وما رأى السبط للدين الحنيف شفاً ... إلاّ إذا دمه في كربلا سفكا
وما سمعنا عليلاً لا علاج له ... إلاّ بنفس مداوية إذا هلكا

يزيد الحكم والأثر

إنّ فقه الأحداث التي مرّت ومنطق الوقائع التي أدّت إلى حكم معاوية وسلالته الخبيثة لا يمكن أن يكون إلاّ حكماً تعسفيّاً ثقيل الوطأة على الناس مذلاً لهم وقد صرّح معاوية بهدفه من افتعال الأحداث بخاصّة المعارك التي مهّد إليها حتّى استعر أوارها وشبّت نارها وأتت على الأخضر واليابس، إنّما فعل ذلك ليتأمّر على الناس وقد أعطاه الله ذلك، ثمّ اندفع بكلّ ما في نفسه من صغار جاهلي، وعقد بيئيه وببيته وذاتيه ليصب على الأُمّة نقمته ومعه حفنة من شرار الناس يعينونه على ظلمه بما طبعوا عليه من ذوات جبارّة كان الظلم والطغيان من بعض شيمها.

وساس معاوية وهو فاتحة العهد الخبيث الناس سياسة تعسفيّه قلّ نظيرها،

---

(١) الإمامة والسياسة، ص١٦٠ و١٦١.

وأوّل من تحمّل ظلمه وناء به الضعفاء ومنهم الموالي فهذا أبو حرّة شاعرهم يخاطب بني أُميّة فيقول:

أبلغ أُميّة عنّي إن عرضت لها ... وابن الزبير وأبلغ ذلك العربا

إنّ الموالي أضحت وهي عاتبة ... على الخليفة تشكو الجوع والحربا ...[1]

ولم يكن العرب بأسعد حظّاً من الموالي في حكم معاوية وابنه يزيد، وإنّما تمكّنت بعض القائل القويّة من حماية نفسها باتّحادها وبمحالفاتها ولولا ذلك لكانت سواء مع غيرها تحت ظلم معاوية ويزيد ابنه. وانحدر الظلم والتعدي إلى الأسافل وهم الضعفاء فنهب الولاة البلاد وأخربوها وأمتهنوا العباد وأذلّوهم حتّى قال ابن الزبير - بفتح الزاي وكسر الباء بعدها ياء شاعر في عصر معاوية -:

ألا أبلغ معاوية بن حرب ... لقد خرب السواد فلا سوادا

وإنّ جبالنا خربت وبادت ... فقد تركت لحالبها حمادا

فهل لك أن تدارك ما لدينا ... وترفع عن رعيّتك الفسادا

فإنّ أميكم لا الله يخشى ... ولا ينوي لأُمّتكم سدادا

إذا ما قلت أقصر عن هواه ... تمادى في ضلالته وزادا ...[2]

وما كان معاوية ليصغى إلى صوت متظلّم، أو نداء بائس مقهور، فقد ولّى على الكوفة عبدالرحمن ابن أُخته أُم الحكم فجار وتعسّف وبالغ في بناء السجون وأحكمها إحكام القبور وزجّ بها كلّ محروب يجأر بالشكوى من ظلمه، وقد زجّ ابن الزبير الشاعر في أحد هذه السجون فقال:

ألا إنّ ذلاً أن أُقيم ببلدة ... مؤمّرةُ فيها على ثقيف

فابلغ بني دودان أنّ أخاهم ... رهين بأرطال الحديد رسوف

يرد عليه الهم باب مضبب ... وذو طنف دون السماء منيف

وذو بردة له عجرفيه ... عنيف وبواب السجون عنيف

وقد وفد أهل الكوفة على معاوية يشكون ابن أُم الحكم إليه وزعيمهم هانىء

---

(١) الدكتور مصطفى هداره، اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري، ص٢٦.

(٢) أنساب الأشراف، ج٥ ص١٤٩.

بن عروة فقال: عليكم لعنة الله من أهل بلد لا ترضون عن أمير ...[١]

فكان الإجراء الذي اتخذه معاوية لإنقاذهم من براثن ابن أُم الحكم أن لعنهم واتّهمهم بمضائقة الأُمراء وعدم الرضا عنهم، وامتلأت صدور الناس بالبغض لبني أُميّة وتمنّوا ساعة الخلاص منهم، فقال عبدالرحمن بن همام السلولي:

فإن تأتوا برملة أو بهند ... نبايعها أميرة مؤمنينا

إذا مات كسرى قام كسرى[٢] ... نعد ثلاثة متنا سقينا

فيا لهفا لو أنّ لنا أُنوفاً ... ولكن لا نعود كما عنينا

إذاً لضربتم حتّى تعودوا ... بمكة تلعقون بها السخينا

حشينا الغيظ حتّى لو شربنا ... دماء بني أُميّة ما روينا

لقد ضاعت رعيّتكم وأنتم ... تصيدون الأرانب غافلينا ...[٣]

واتّصل حكم معاوية الأسن بمثله وما زاد عليه يزيد لقصر المدّة أوّلاً ولانصرافه إلى اللهو والمجون فقد وصفه معاصروه بقولهم: رجل ليس له دين، يشرب الخمر، ويعزف بالطنابير، ويضرب عنده القيان، ويلعب بالكلاب، ويسامر الخراب والمجان ... وقد هجا الشاعر ابن عرّادة يزيد بن معاوية بمثل هذا حين قال:

أبني أُميّة إنّ آخر ملككم ... جسد بحوّارين ثمّ مقيم

طرقت منبّتة وعند وساده ... كوب وزق راعف مرثوم

ومرنة تبكي على نشوانه ... بالصيح تقعد تارة وتقوم ...[٤]

وكان الظلم في زمانه هو ظلم أبيه وطغيانه امتدّ حتّى عبر حدود دولة معاوية إلى دولة يزيد، ونجد خير ما يمثّل تلك الفترة قول هانىء بن قبيصة، فقد وفد هانىء بن قبيصة على يزيد بن معاوية، فاحتجب عنه أيّاماً ثمّ إنّ يزيد ركب يوماً يتصيّد فتلقّاه هانىء فقال: إنّ الخليفة ليس بالمحتجب المتخلّي ولا بالمتطرّف المتنحّي،

---

(١) أنساب الأشراف، ج٥ ص١٤٨ و١٤٩.

(٢) وهذا الذي أراده عمر بن الخطاب أن يكون معاويه كسرى العرب.

(٣) مروج الذهب، ج٣ ص٢٨.

(٤) الدكتور هدّاره، اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري، ص٣٢، ط دارالعلوم العربية، ط اولى، ١٤٠٨.

ولا الذي ينزل على العدوات والفلوات ويخلو باللذات والشهوات وقد ولّيت أمرنا قأقم بين أظهرنا وسهّل إذننا واعمل بكتاب الله فينا، فإن كنت عجزت عمّا هاهنا واخترت عليه غيره فاردد علينا بيعتنا نبايع من يعمل بذلك فينا ونقمه ثمّ عليك بخلواتك وصيدك وكلابك.

قال: فغضب يزيد وقال: والله لولا أنّ أسنّ بالشام سنّة العراق لأقمت أودك، ثمّ انصرف ...[1]

وإن تسأل عن سنّة العراق التي نفاها عن الشام يزيد فهي العسف والظلم والقتل والنهب وحرب الأموال وقتل النفوس على الظنّة والتهمة وأخذ الشاهد بالغائب والبريء بالمذنب وهلمّ جرّاً...

وبلغ الناس من ظلم يزيد حدّ النزع، وما من وسيلة ناجعة تحميهم منه أو تعينهم على الخلاص، إلاّ الشكوى من مظلوم بائس إلى آخر مثله، حتّى شكوا إلى قبر معاوية فقد وقف رجل عليه فقال: يا أبا عبدالرحمن لو لفظتك الأرض إلينا لرأيت ما يصنع بنا يزيد ورأينا ما صنع الله بك[2].

أجل، عامل الله معاوية بما يستحق على ما ارتكب بحقّ الأُمّة حيث سلّط عليهم صبياً داعراً فملأ دنياهم فساداً وظلماً، يقول المسعودي: ولما شمل الناس جور يزيد وعمّاله وعمّهم ظلمه وما ظهر من فسقه من قتله ابن بنت رسول الله ﷺ وأنصاره وأظهر من شرب الخمور وسيره سيرة فرعون بل كان فرعون أعدل منه في رعيّته وأنصف منه لخاصّته وعامّته، أخرج أهل المدينة عامله عليهم وهو عثمان بن محمّد بن أبي سفيان ومروان بن الحكم وسائر بني أُميّة...[3]

ولا أدلّ على عظيم ظلم يزيد من قول المسعودي: بل كان فرعون أعدل منه في رعيّته. ومن الرعيّة من استمرأ الذلّ وكان بمنزلة الميّت فاقد الحس، يقول المتنبّي:

من يهن يسهل الهوان عليه ... ما لجرح لميت إيلام

قيل لأبي خرابه: لو أتيت يزيد بن معاوية لفرض لك وشرّفك وألحقك بعلية أصحابه

---

(١) الآبي، نثر الدر، ج٦ ص٣١.

(٢) أبو حيان التوحيدي، البصائر والذخائر، ج٥ ص١٨٩.

(٣) مروج الذهب، ج٣ ص٦٨.

فلست دونهم وكان أبو خرابة يومئذ غلاماً حدثاً وكان معاوية حياً ويزيد أميراً، فلمّا أكثر قومه عليه في ذلك وفي قولهم إنّك ستشرف بمصيرك إليه قال:

يشـــرّفني ســـيفي وقلـــب مجانـــب لكـــلّ لئـــيم باخـــل ومعلهـــج
وكـــرى علـــى الأبطـــال طرفـــاً كأنّـــه ظلـــيم وضـــربي فـــوق رأس المـــدجج
وقـولي إذا مـا الـنفس جاشـت وأجهشـت مخافـــة يـــوم شـــرّه متـــأجّج
عليـك غمـار المـوت يـا نفـس إنّـني جـريء علـى درء الشـجاع المهجهـج

فلمّا كثر عليه قومه وعنفوه في تأخّره أتى يزيد بن معاوية فأقام ببابه شهراً لا يصل إليه، فرجع وقال: والله لا يراني ما حملت عيناي الماء إلاّ أسيراً أو قتيلاً وأنشأ:

فـــوالله لا آتي يزيـــد وإن حـــوت أناملـــه مـــابين شـــرق إلى غـــرب
لأنّ يزيـــد غـــيّر الله مـــا بـــه جنـوح إلى السـوى مصـر علـى الـذنب
فقـــل لبـــني حـــرب تقـــوا الله وحـــده ولا تســـعدوه في البطالـــة واللعـــب
ولا تـــأمنوا التغيـــير إن دام فعلـــه ولم ينهـــه عـــن ذاك شـــيخ بـــني حـــرب
أيشـــربها صـــرفاً إذا الليـــل جنّـــه معتقـــة كالمســـك تختـــال في العلـــب
ويلحـــى عليهـــا شـــاربيها وقلبـــه يهيم بها إن غاب يوماً عن الشرب ...[1]

لشدّما اختلف الشاعر مع قومه إنّهم يريدونه على الذلّ ويأبى إلاّ العزّ والشمم وإن حوى يزيد الدنيا بين أنامله. واولئك بمنزلة المستنقع الموبوء الذي يستشري به وباء الحكام الخبثاء. ولقد جمعت خطبة أبي حمزة المختار بن عوف الأزدي شيئاً من ذات ابن هند وابن ميسون وهي الخطبة التي خطبها في المدينة حين بلغه أنّ أهل المدينة يعيبون أصحابه لحداثة أسنانهم وخفة أحلامهم فصعد المنبر وذكر الخلافة حتّى إذا بلغ معاوية قال:

ثمّ ولّى معاوية بن أبي سفيان لعين رسول الله ﷺ وابن لعينه وجلف من الأعراب وبقيّة الأحزاب، مؤلف طليق فسفك الدم الحرام واتّخذ عباد الله خولاً ومال الله دولاً وبغى دينه عوجاً ودغلا وأحلّ الفرج الحرام وعمل بما ينهيه حتّى مضى لسبيله فعل الله به وفعل ثمّ ولي بعده ابنه يزيد: يزيد الخمور ويزيد الصقور

---

(١) أبوالفرج الاصفهاني، الأغاني، ج٢٢ ص٢٦٤.

ويزيد الفهود ويزيد الصيود ويزيد القرود، فخالف القرآن واتّبع الكهان، ونادم القرد، وعمل بما يشتهيه حتّى مضى على ذلك لعنه الله وفعل به وفعل[1].

وربّ ملك شغله القصف عن الظلم إلاّ يزيد فإنّ لهوه وقصفه يزيده سُعاراً ويزيد جمره اشتعالاً وكان إذا غضب حمل ذنب المذنب على البريء فعمل في الناس بما يترفّع عن مثله أقسى الفراعنة وأعتاهم. لما قدم عمرو بن سعيد والياً ليزيد بن معاوية على المدينة، فولّى مصعباً بن عبدالرحمن بن عوف الشرط ثمّ أمره بهدم دور بني هاشم ومن كان في حيّزهم والشدّة عليهم وبهدم دور بني أسد بن عبد العزّى والشدّة عليهم، حين خرج الحسين بن علي وعبدالله بن الزبير وأبيا بيعة يزيد ...[2]

ومن صفات يزيد الدنائة والحقد الأسود، فلم تغيّر خلافته ومنصبه الجديد من حكمه شيئاً، كان معاوية خطب إلى إسحاق بن طلحة أُخته على ابنه يزيد، فقال له إسحاق: أقدم المدينة ويأتيني رسولك وأُزوّجه، فلمّا شخص من عند معاوية قدم على معاوية عيسى بن طلحة فذكر له معاوية ما قال لإسحاق، فقال له عيسى: أنا أُزوّجه فزوّج عيسى يزيد بن معاوية أُم إسحاق بنت طلحة عند معاوية، وزوّجها إسحاق بالمدينة حين قدم الحسن بن علي بن أبي طالب، فلم يدر أيّهما قبل، فقال معاوية ليزيد: اعرض عن هذا، فتركها يزيد ودخل بها الحسن فولدت له طلحة ومات لا عقب له، فكانت في نفس يزيد على إسحاق، فلمّا ولي وجهز مسلم ابن عقبة المري إلى أهل المدينة، أمره إن ظفر بإسحاق أن يقتله فلم يظفر به وهدم داره[3]. فصاحب هذه النفس لابدّ وأن يغرق الأُمّة بالدم والقتل والدمار.

والواقع أنّ هلاك الأُمّة تمّ على يد معاوية وابنه قدم عقيبه الأسدي على معاوية ورفع إليه رقعة فيها هذه الأبيات:

معـــاوي إنّنـــا بشـــر فأســـجح ... فلســـنا بالجبـــال ولا الحديـــد

أكلـــتم أرضـــنا فجردتموهـــا ... فهـــل مـــن قـــائم أو مـــن حصـــيد

---

(١) الأغاني، ج٢٣ ص٢٤١.

(٢) الزبيري، نسب قريش، ص٢٦٨.

(٣) الزبيري، نسب قريش، ص٢٨٢.

أتطمـــــع بـــــالخلود إذا هلكنـــــا ولـــيس لنـــا ولا لـــك مـــن خلـــود

فهبنـــا أُمّـــة هلكـــت ضـــياعاً يزيـــد أميرهـــا وأبـــو يزيـــد ...[1]

ولم يسلم من شر يزيد أحد فمن لم يقتله جلده. كان المسور بن مخرمة جليلاً نبيلاً وكان يقول في يزيد بن معاوية: إنّه يشرب الخمر، فبلغه ذلك فكتب إلى عامله بالمدينة أن يجلده الحد، ففعل، فقال المسور في ذلك:

أيشـــربها صـــرفاً يفـــض ختامهـــا أبـــو خالـــد ويجلـــد الحـــدّ مســـور ...[2]

وراح يتفجر حقداً على الناس ويرى ما هو فيه من الفسق والفجور عين الصلاح وإنّ غيره الفاسق، فقد كتب إليه مسلم ابن عقبة المرّي بالذي صنع أهل الحرّة فوقع في أسفل كتابه: فلا تأس على القوم الفاسقين[3].

هذا بعض ما عثرنا عليه وآثرنا كتابته من خامة يزيد بن معاوية وهي خامة خبيثة ملوثة أدال الله منها فذاب كما يذوب الرصاص وذهب إلى ما أعدّ الله له مع إخوانه الطغاة المردة من فراعنة وجبابرة ونماردة. وبليتنا نحن المسلمين ليس في طغاة تاريخنا، فما من أُمّة إلاّ وفي تاريخها صفحة سوداء وأُخرى حمراء صُبغت بأيدي بعض المنتمين إليها ... ولكنّها لا تجد في حاضرها وماضيها من يعدّل مجرميها بالدفاع عنهم وإسباغ الصفات الحسنة عليهم وجعل ذلك من جوهر الدين يقاس عليه الإيمانوالكفر،وباعتباره أو ردّه يكون الدخول في الدين أو الخروج منه.

أمّا نحن فقد بلينا بجبابرة زخر تاريخنا من جرائمهم بكلّ فاغرة عظمى وطامّة كبرى، وصارت قرائته لأجيالنا أو تصفّحه تبعث على الأسى والعار، وبلينا أيضاً بأعوانهم أمس الذين كانوا لهم أظافر القط وأنيابه، فأكلوا لحم الأُمّة وأوكلوه وشربوا دمها وأشربوه، حتّى إذا انقرضوا نبتت في ساحة جرائمهم السوداء نابتة هي أعظم جرماً منهم وأشدّ فتكاً بالأُمّة من أسيافهم وأكثر خطراً وأبعد أثراً، وهم شيعتهم والمدافعون عنهم، فقد سخروا بعقليات الأُمّة بقلبهم السيّئة حسنة والجريمة مكرمة والعار فضائل والشنار مكارم، وشرع محمّد ودينه مسخر لهم، وأبنائه وأهل بيته

---

(١) ابن عبد ربه، العقد الفريد، ج١ ص٥٢.

(٢) ابن عبد ربه، العقد الفريد، ج٤ ص٣٥.

(٣) نفسه، ج٤ ص٢٠٧.

فداء لهم، وشيعتهم وأنصارهم منكروا الظلم والتعدّي هم المعتدون الجبابرة المحاسبون على الحسرة والدمعة التي جرت من مئاسيهم حزناً على أهل البيت ...

واولئك المجرمون الوالغون في الدماء الزكية هم الأطهار الأخيار الأبرار الذين يعاقب الله على بغضهم ولعنهم ويثيب على حبّهم والترحّم عليهم فتعساً لهذه الموازين التي ما حصلنا منها إلاّ على الشرّ والإفتراق والإنقسام.

الأثر الذي تركه حكم معاوية ويزيد على الأُمّة

ما من ريب في أنّ السلوك العام للحكام ينعكس على أخلاق رعاياهم ومعيشتهم في دنياهم ولذا قيل الرعية على دين ملوكها، وممّا يؤثر عن الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام قوله: الناس بملوكهم أشبه منهم بآبائهم. وكانت الفترة الزمنية التي حكم فيها الأمويون معاوية وابنه يزيد من أشدّ الفترات على الأُمّة ومن أصعب الأزمات عليها، فقد تركت آثاراً مطبوعة على الأدب العام والسلوك الكلّي لها، وتأثّرت أوّل ما تأثّرت بأخلاقها، فشاعت في الناس الرذائل الخلقيّة وتنكر الأُمّة لفضائل الأخلاق، وصارت تنظر إليها نظرها إلى الأجنبي الغريب، بدت بواكير هذا المنحى في آخر خلافة عمر، فكانت بمنزلة النطفة التي تخلقت لها مضغة واستوت جنيناً سويّاً في عهد عثمان، وتمّت ولادة هذا الجنين المشئوم في عهد معاوية واكتمل نموّه على يد يزيد القرود والخمور، كما كان ينعته أهل المدينة.

والواقع إنّ السياسات السابقة على عصر هذين الملكين باستثناء الفترة التي عاش فيها أميرالمؤمنين عليه السلام خليفة، بمنزلة مجاري السيل التي لا تزال تصب في مستنقع معاوية، ومن هذا المستنقع تدفّقت إلى واد كثير الآفات والحيّاة وهو الوادي اليزيدي أو خلافة يزيد بن معاوية، وبدت الأُمّة في هذا العهد غريبة عن تلك التي بناها سيّد البشر على مقتضي الدين والشريعة الإسلاميّة، وانتقلت في عهد يزيد من النقيض إلى النقيض، ولم يكن يزيد وحده هو العلّة الفاعلة في هذا التغيير، وإنّما للعلّة أجزاء أُخرى هي السياسات المتقدمة ويزيد واحد من هذه الأجزاء.

وأوّل ما يطالعك من المؤثرات في سلوكيات الأُمّة وأخلاقها هو الظلم الفاحش الذي شمل كلّ مرافق الحياة، فلم تسلم الدماء ولا الأعراض، وأمّا الأموال

والأراضي والأملاك فقد كانت في صدر القائمة من قاموس الظلم هذا. لقد كان معاوية يستصفي الأموال لنفسه ويكدسها في خزائن دمشق له ولخاصته، حتّى تقنطرت القناطير فيها من الذهب والفضة، وراح يغدق منها ما شاء على من شاء، وترك السواد الأعظم من الناس للجوع والحرمان، وافتقر الناس إلى ما في يديه، وعلموا أنّهم لا يصيبون منها شيئاً إلاّ إذا كذبوا عليه ونافقوه واحتالوا بأنواع الحيل، وإذا انقلبت أخلاق الأُمّة إلى هذا المستوى كانت في الدرك الأسفل من الضعة والإنحطاط، وعليك أن تستحضر الآن قول ذلك المتزلف للأحنف وقد مرّ طيّ هذا الكتاب: يا أبا بحر، إنّي لأعلم أنّ شرّ ما خلق الله هذا وابنه ولكنّهم قد استوثقوا من هذه الأموال بالأبواب والأقفال، فلسنا نطمع في استخدامها إلاّ بما سمعت ...[1]

وفعل مثله ذلك الإنتهازي يزيد بن شجرة الرهاوي فقد وفد على معاوية وبينما هو مقبل على سماع حديثه إذ أصابه حجر عاثر فأدماه، فأظهر تصنّعاً عدم الإعتناء به، فقال له معاوية: لله أنت ما نزل بك!!؟ ما ذاك يا أميرالمؤمنين؟ فقال معاوية: هذا دم وجهك يسيل. فقال ابن شجرة: إنّ حديث أميرالمؤمنين ألهاني حتّى غمر فكري فما شعرت بشيء حتّى نبّهني أميرالمؤمنين. فبهر معاوية وراح يقول: لقد ظلمك من جعلك في ألف من العطاء وأخرجك من عطاء أبناء المهاجرين وكماة أهل صفّين وأمر له بخمسمائة ألف درهم، وزاد في عطائه ألف درهم[2]، وشاعت في الأُمّة أخلاق الإنتهازيّة والتزلّف وأكثر ما تجد ذلك عند الشعراء لأنّهم في انتجاع دائم لعطاء هذا وذاك.

لما عاد يزيد إلى دمشق بعد هلاك معاوية واجتمع له أهل الشام جعل يقول لهم: نحن أهل الحق وأنصار الدين، وابشروا يا أهل الشام فإنّ الخير لم يزل فيكم وسيكون بيني وبين أهل العراق حرب شديد، وقد رأيت في منامي كأنّ نهراً يجري بيني وبينهم دماً عبيطاً، وجعلت أجهد في منامي أن أجوز ذلك النهر فلم أقدر على ذلك حتّى جاءني عبيدالله بن زياد فجازه بين يدي وأنا أنظر إليه.

---

(١) نثر الدر، ج٥ ص٦٠.

(٢) باقر شريف القرشي، حياة الإمام الحسين، ج٢ ص١٤٣، نقلاً عن التاج في أخلاق الملوك، ص٥٥.

قال: فأجابه أهل الشام وقالوا: يا أميرالمؤمنين! امض بنا حيث شئت وأقدم بنا على من أحببت، فنحن بين يديك وسيوفنا تعرفها أهل العراق في يوم صفّين. فقال لهم يزيد: أنتم لعمري كذلك، وقد كان أميرالمؤمنين معاوية لكم كالأب البارّ بالولد، وكان من العرب أمجدها وأحمدها وأهمدها وأعظمها خطراً وأرفعها ذكراً وأنداها أنامل وأوسعها فواضل وأسماها إلى الفرع الباسق لا يعتريه الفهاهة في بلاغته ولا تدخله اللكنة في منطقه حتّى إذا انقطع من الدنيا أمره وصار إلى رحمة الله تعالى ورضوانه.

قال: فصاح به صائح من أقاصي الناس وقال: كذبت يا عدوّ الله! ما كان معاوية والله بهذه الصفة وإنّما كانت هذه صفة رسول الله وهذه أخلاقه وأخلاق أهل بيته لا معاوية ولا أنت. قال: فاضطرب الناس وطلب الرجل فلم يقدر عليه، وسكت الناس، وقام إلى يزيد رجل من شيعته يقال له عطاء بن صيفي فقال: يا أميرالمؤمنين! لا تلتفت إلى مقالة الأعداء، وقد أعطيت خلافة الله من بعد أبيك، فأنت خليفتنا وابنك معاوية ولي العهد بعدك لا نريد به بدلاً ولا نبغي به حولاً والسلام. قال: ثمّ أنشأ يقول:

يزيد يابن أبي سفيان هل لكم ... إلى ثناء وودّ غير منصرم
إنّا نقول ويقضى الله مقتدراً ... وما يشا ربّنا من صالح بدم
فاقتد بقائلكم خذ يا يزيد وقل ... خذها معاوي غير العاجز البرم
ولا تحط بها في غير داركم ... إنّي أخاف عليكم حيرة الندم
إنّ الخلافة إن تعرف لثالثكم ... تثبت معادنها فيكم ولا ترم
ولا تزال وفود في دياركم ... في ظلّ أبلج سبّاق إلى الكرم

قال: فأمر له يزيد بجائزة حسناء[1].

وأظهر من يمثّل الإنتهازيّة في تلك الفترة هم الشعراء، استمع إلى حارثة بن بدر الفدائي يمدح زياداً ويصفه بالعدل والإنصاف، وقد مرّ بك ما قاله الفرزدق عن زياد والذئب:

---

(١) ابن الأعثم، الفتوح، ج٥ ص٦، ط دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١٤٠٦ هجرية.

ألا مـــن مبلـــغ عـــنّي زيـــاداً فـــنعم أخـــو الخليفـــة والأمـــير
وأنـــت إمـــام معدلـــه وقصـــد وحـــزم حـــين تحضـــرك الأُمـــور
أخـــوك خليفـــة الله بـــن حـــرب وأنـــت وزيـــره نعـــم الـــوزير
بـــإذن الله منصـــور معـــان إذا جـــار الرعيّـــة لا تجـــور
يـــدرّ علـــى يـــديك لمـــا أرادوا مـــن الـــدنيا لهـــم حلـــب غزيـــر
وتقســـم بالســـواء فـــلا غـــني بظلـــم يشـــتكيك ولا فقـــير
ولمـــا قـــام ســـيف الله فينـــا زيـــاد قـــام أبلـــج مســـتنير
قـــوي لا مـــن الأحـــداث غـــر ولا ضـــرع ولا فـــان كبـــير ...[1]

ولو ذهبنا نلتمس الشواهد من الشعر والنثر لملأنا بطون صحائف كثيرة، ولكن نكتفي بهذا القدر ونحيل القارىء إلى كتب التاريخ والأدب ففيها الكثير الكثير من هذا، وليس من المعقول أن تمرّ الأحداث الدامية التي سبقت حكم معاوية أو صحبته وكذلك الظلم الفاحش الذي اعتمده هو وسلفه وخلفه كسياسة ثابتة يسوس بها الناس دون أن تترك آثاراً واضحة على أخلاق الناس، إنّ تصوّر ذلك بعيد عن الصواب بخاصة وإنّ طبيعة الظلم المعاوي واليزيدي أدّى إلى إفقار الناس وتجريدهم حتّى من القوت. يقول ابن خلدون:

اعلم إنّ العدوان على الناس في أموالهم ذاهب بآمالهم في تحصيلها واكتسابها لما يرونه حينئذ من أنّ غايتها ومصيرها انتهابها من أيديهم وإذا ذهبت آمالهم في اكتسابها وتحصيلها انقبضت أيديهم عن السعي في ذلك وعلى قدر الإعتداء ونسبته يكون انقباض الرعايا عن الإكتساب، فإذا كان الإعتداء كثيراً عامّاً في جميع أبواب المعاش كان القعود عن الكسب كذلك لذهابه بالآمال جملة بدخوله من جميع أبوابها، وإن كان الإعتداء يسيراً كان الإنقباض عن الكسب على نسبته والعمران ووفوره ونفاق أسواقه إنّما هو بالأعمال وسعي الناس في المصالح والمكاسب ذاهبين وجائين فإذا قعد الناس عن المعاش وانقبضت أيديهم عن المكاسب كسدت أسواق العمران وانتقضت الأحوال واندعر الناس في الآفاق من

(١) أنساب الأشراف، ج٥ ص٢٢٥.

غير تلك الأياله في طلب الرزق[1].

وبالطبع تنشأ عن هذه الحالة من الخراب وترك الناس للسعي وقعودهم عن طلب الرزق وفشو البطالة والفقر فيهم أخلاق خاصة أدناها على أقلّ تقدير هو شيوع الفاحشة وبيع العرض والإنتهازية والنفاق والرياء والتزلف والحقد والحسد والبغضاء، واللصوصيّة والقتل وما إلى ذلك وقد جرى هذا كلّه في فترة حكم معاوية ويزيد. وسبق ابن خلدون أميرالمؤمنين عليه السلام حين أجمل فكرة ابن خلدون في إحدى فقرات عهده إلى مالك الأشتر حين ولاّه على مصر فقال:

وليكن نظرك في عمارة الأرض أبلغ من نظرك في استجلاب الخراج، لأنّ ذلك لا يدرك إلاّ بالعمارة، ومن طلب الخراج بغير عمارة أخرب البلاد وأهلك العباد ولم يستقم أمره إلاّ قليلاً، فإن شكوا ثقلاً أو علّة أو انقطاع شرب أو بالة أو إحالة أرض اغتمرها غرق أو أجحف بها عطش خففت عنهم بما ترجو أن يصلح به أمرهم، ولا يثقلنّ عليك شيء خففت به المؤونة عنهم فإنّه ذخر يعودون به عليك في عمارة بلادك وتزيين ولايتك ...[2]

يظهر من هذا النص القيّم أنّ اهتمام الإمام كان أوّلاً وبالذات بسياسة الإنتاج وتوفير الثروة، ثمّ يأتي بعد ذلك سياسة الحصول على ميزانيّة الدولة، حيث أنّ السياسة الأُولى إذا تمّت على خير وجه وسارت الأُمور سيراً حسناً وحصل كلّ فرد من الرعيّة على الدخل الكافي كان الحصول على الضرائب التي تتألف منها الميزانية أمراً ميسوراً، أمّا إذا انعكس الأمر وصار همّ الدولة الأوّل إثراء خزائنها من أيّ وجه كان كما فعل معاوية وخلفه فإنّ الخراب يعمّ البلاد والهلاك يلازم العباد، مضافاً إلى ما تقدّم، فقد اعتمد معاوية سياسة خبيثة وهي التصدّي لأموال الناس من أراضي زراعيّة أو دور أو عقارات وشرائها بأبخس الأثمان الأمر الذي زاد في الطنبور نغمة ووصل السكّين عظم الأُمّة.

هذا إذا لم يستطع سلبهما منهم مجاناً، ويتمّ ذلك في أغلب الأحيان، فلا

---

(١) ابن خلدون، المقدمة، ص٢٨٦.

(٢) في ظلال نهج البلاغة، ج٤ ص٨٤.

تجد الرعية مناصاً من تركها لها والضياع في أودية الفقر والمسكنة. يقول ابن خلدون: وأعظم من ذلك في الظلم وإفساد العمران والدولة التسلّط على أموال الناس بشراء ما بين أيديهم بأبخس الأثمان ثمّ فرض البضائع عليهم بأرفع الأثمان على وجه الغصب والإكراه في الشراء والبيع.

وهذه إن حقّقت شعبة من سياسة معاوية في سلب الأراضي، تعرّض لأرض كان يملكها شعبة بن غريض، فأراد شرائها منه، قال له معاوية: بكم؟ قال: بستّين ألف دينار، قال: لقد أغليت. قال: أمّا لو كانت لبعض أصحابك لأخذتها بستّمائة الف دينار ... وهذا عين ما قاله ابن خلدون، ثمّ قال: وربّما تفرض عليهم تلك الأثمان على النواحي والتعجيل فيتعللون في تلك الخسارة التي تلحقهم بما تحدثهم المطامع من جبر ذلك بحوالة الأسواق في تلك البضائع التي فرضت عليهم بالغلاء إلى بيعها بأبخس الأثمان، وتعود خسارة مابين الصفقتين على رؤوس أموالهم وقد يعمّ ذلك أصناف التجّار المقيمين بالمدينة والواردين من الآفاق في البضائع وسائر السوقة وأهل الدكاكين في المأكل والفواكه وأهل الصنايع فيما يتّخذ من الآلات والمواعين فتشمل الخسارة سائر الاصناف والطبقات ...

وقال أيضاً: وأمّا أخذها مجّاناً والعدوان على الناس في أموالهم وحريهم ودمائهم وأسرارهم وأعراضهم فهو يفضي إلى الخلل والفساد دفعة وتنقض الدولة سريعاً بما ينشأ عنه من الهرج المفضي إلى الإنتقاض ...[1]

لذلك لم نجد دولة آل أبي سفيان دامت طويلاً فلم تتمّ النصف من العقد الثالث من عمرها حتّى اضمحلّت وأعقبتها شقيقتها الدولة المروانيّة ولم تكن بأحسن حالاً منها، لهذا تبعتها في الزوال والحمد لله ربّ العالمين.

سياسة الفساد واللهو والمجون

كان سعيد بن المسيّب يسمّي سنيّ يزيد بن معاوية بالشؤم في السنة الأُولى قتل الحسين بن علي وأهل بيت رسول الله، والثانية استبيح حرم رسول الله وانتهكت

---

(١) ابن خلدون، المقدمة، ص٢٩١.

حرمة المدينة، والثالثة سفكت الدماء في حرم الله وحرقت الكعبة[١]. ويمكن تميّز وجه حكمه من خلال الشعر الذي قاله أو قيل فيه، فقد قال فيه رجل من تنوخ:

يزيد صديق القرد ملّ جوارنا فحنّ إلى أرض القرود يزيد

فتبّاً لمن أمسى علينا خليفة صحابته الأدنون منه قرود[٢]

وبهؤلاء الصحابة الأدنين أقبل على القصف واللهو غير عابىء بالملك والدولة. قال لقيط بن نصر المحاربي: كان يزيد بن معاوية أوّل من سنّ الملاهي في الإسلام من الخلفاء، وآوى المغنين وأظهر الفتك وشرب الخمر، وكان ينادم عليها سرجون النصراني مولاه والأخطل، وكان يأتيه من المغنين سائب خاسر فيقيم عنده فيخلع عليه ويصله فغنّاه يوماً:

يا للرجال لمظلوم بضاعته ببطن مكة نائي الأهل والنفر

فاهتزّته أريحيته فرفّص حتّى سقط ثمّ قال: اخلعوا عليه خلعاً يغيب فيها حتّى لا يرى منه شيء فطرحت عليه الثياب والجباب والمعازف والخز حتى غاب فيها[٣]. وكان أبوه عونه على ذلك: استمع على يزيد ذات ليلة فسمع عنده غناءاً أعجبه، فلمّا أصبح قال له: من كان ملهيك البارحة؟ قال: سائب خاسر. قال: فأكثر له العطاء[٤].

قال المسعودي: وليزيد وغيره أخبار عجيبة ومثالب كثيرة من شرب الخمر وقتل ابن بنت الرسول ولعن الوصي وهدم البيت وإحراقه وسفك الدماء والفسق والفجور وغير ذلك ممّا ورد فيه الوعيد بالناس من غفرانه كوروده فيمن جحد توحيده وخالف رسله ...[٥]

وعثرت على إضافة أُخرى في مجون يزيد لعنه الله على لسان معقل بن سنان الذي قتله مسرف بن عقبة لعنه الله، وهي أنّه قال: رجل يشرب الخمر وينكح

---

(١) تاريخ اليعقوبي، ج٢ ص٢٥٣.

(٢) أنساب الأشراف، ج٥ ص٣٠٠.

(٣) ابوالفرج الاصفهاني، الأغاني، ج١٧ ص٣٠٠.

(٤) العقد الفريد، ج٦ ص٤٩.

(٥) مروج الذهب، ج٣ ص٧٢.

الحرم[1] أي يأتي المحارم، ولا أستبعد إنّهنّ جواري أبيه وقد شجّعه أبوه في حياته على ذلك حين دعاه إلى جاريته بعد أن جرّدها ونظر إليها عارية، وليس من البعيد أن تكون هذه الحرم أدنى من الجواري نسباً إليه.

فما كان يزيد يبالي بحرام فعله ولو كان نكاح أُخت أو عمّة ورجل كهذا كيف يلي أمر أُمّة محمّد ﷺ، إنّه لا يصلح أن يكون أميراً على الدجاج فما بالك بالمؤمنين، ولذلك ضرب عمر بن عبدالعزيز الحد من سمّاه بأميرالمؤمنين. يقول عبدالرحمن بن الحكم ينفي عنه صلاحيّة الحكم بشعره:

ثكلتك أُمّك من إمام جماعة ... أيضل رأيك في الأُمور ويعزب

متوسّد إذ فالذته جيأل ... هلباء أو ضبعات سوء أهلب

ألهاك برقعة الضباع عن العمى ... حتّى أتاك وأنت لاه تلعب ...[2]

وقد مرّ فصل من مجون يزيد مطول، لذلك اقتصرنا في هذا القصل على هذا ومن أراد المزيد فإنّ الكتب التاريخية طافحة به، وأوّل ما يطالعك من تغيّر أخلاق الناس هو نزوعهم بصورة جماعية إلى حياة اللهو والمجون والطرب والغناء والتخنّث، وقد عزي أكثر ذلك إلى تعمّد إشاعته، فقد قال القرشي: وعمد معاوية إلى إشاعة الدعارة والمجون في الحرمين للقضاء على قدسيّتهما وإسقاط مكانتهما الإجتماعيّة في نفوس المسلمين، ونسب إلى العلائلي قوله:

وشجع الأمويون حياة المجون في مكة والمدنيّة إلى حدّ الإباحة فقد استأجر طوائف من الشعراء والمخنّثين من بينهم عمر بن أبي ربيعة لأجل أن يمسحوا عاصمتي مكة والمدينة بمسحة لا تليق ولا تجعلهما صالحتين للزعامة الدينية وقد قال الأصمعي: دخلت المدينة فما وجدت إلاّ المخنّثين ورجلاً بضع الأخبار والطرف، وقد شاعت في يثرب مجالس الغناء وكان الوالي يحضرها ويشارك فيها وانحسرت بذلك روح الأخلاق وانصرف الناس عن المثل العليا التي جاء بها الإسلام[3].

---

(١) طبقات ابن سعد، ج٤ ص٢٨٢.

(٢) أنساب الأشراف، ج٥ ص٣١٠.

(٣) القرشي، حياة الإمام الحسين، ج٢ ص١٤٧.

إن كان القصد من إشاعة هذه الروح أنّ معاوية وأنصاره خطّطوا لها ورصدوا لها الجوائز والمكافئات واستوردوا المغنين والمخنّثين إلى المدينتين، فلست أرى ذلك مشجّعاً الناس على حياة المجون والخلاعة ما لم يكن إقبال منهم أنفسهم عليها وإذا حدث ذلك، فإنّ الناس من طبيعتهم تقليد الحاكم وحينئذ يتمّ اندفاع العامة بل والخاصة أيضاً إلى هذه الحياة وإن لم يكن تشجيع منهم بالقول أو العمل، بل تكفي الممارسة بصورة علنيّة مصحوبة بالأغضاء عمّا يجري من مجالس اللهو والخلاعة، وهذا وحده من أشدّ أنواع التشجيع أثراً في الناس. وكان غاية معاوية من ذلك هو ردّ الأوضاع بعد الإسلام إلى ما كانت عليه في الزمن الجاهلي.. وفعلاً حصل له ذلك وارتبطت صورة الأمس بصورة اليوم، وسار الأخلاف على خطى الأسلاف. قال المدائني:

كان عفان بن أبي العاص مؤنثاً يلعب بالدف ومثله الحكم بن أبي العاص، وكان شيبة بن ربيعة حلقياً وكان يأتيه منية بن الحجاج بن سعد بن سهم وكذلك أبو جهل بن هشام، وكان النضر بن الحارث بن علقمة حلقياً ويأتيه صفوان بن أُميّة بن خلف، وكان خالد بن خويلد بن حزام مؤنثاً ويأتيه ربيعة بن الحارث بن عبدالمطّلب، وكان عنبسة بن أبي أجنحة وسعيد بن العاص حلقياً وكان مصعب بن الزبير مؤنثاً وكان عبدالعزيز بن مروان حلقياً محدوداً في الخمر وكان يزيد بن عبدالملك وهو ابن عاتكة بنت يزيد بن معاوية حلقياً وكان الوليد بن يزيد بن عبدالملك حلقياً مؤنثاً وكان الأحوص بن محمّد مستوهاً ويزيد بن المهلّب وقبيصة بن المهلّب حلقيان وكان يزيد بن حاتم مخنّثاً حلقيّاً وجميل بن محفوظ الأزدي مستوهاً وكان خالد بن عبدالله القسري حلقياً مستوهاً وكان سفيان بن معاوية بن يزيد بن المهلّب حلقيّاً مشهوراً بذلك وكان محمّد بن القاسم بن محمّد بن الحكم بن أبي عقيل مسعود بن عامر بن معتّب صاحب السند مستوهاً وكان أبان بن الحجاج بن يوسف مأبوناً وكان مالك بن المنذر بن الجارود مستوهاً. قال الفرزدق:

لكلّ أُناس مسجد يعمرونه ومسجد عبدالقيس فقحة مالك

وكان كردم السدوسي حلقياً والمقداد بن مجزأة بن ثور حلقياً وكان مصقلة ابن

رقبة العيرمي مستوهاً ...[1]

أقول: هؤلاء وجوه المجتمع البارزة من أمير إلى خليفة إلى قائد وهكذا وقد مرّ عليك وصف عبدالملك يزيد بالمأبون وقول أبي حمزة عنه: المأبون في فرجه، وعلى هؤلاء قس بقيّة الأُمّة والسواد الأعظم منها تعرف الفرق بين الأُمّة التي حاربت الشرك وأهله مع النبي وحاربت في صفّين أبناء الشرك مع وصيّه أميرالمؤمنين، والأُمّة التي قادتها وزعامئها مابين قرّاد وحلقي ومخنّث ومؤنّث وهكذا وليست حياة المجون مقصورة على المكتين بل شملت بلاد الإسلام كلّها، حتّى ظهر العجز على الولاة في إصلاح ذلك ودفعه. شكى ابن عامر إلى زياد فساد الناس وظهور الخبث فقال: جرّد فيهم السيف. فقال: إنّي أكره أن أصلحهم بفساد نفسي ...[2]

وكانت البصرة تربة خصبة لظهور الفساد فيها، لأنّها ثغر مطل على بحر الهند وميناءها يستقبل في كلّ يوم عدداً من المهاجرين ومع كلّ مهاجر إليها خلق جديد يحلّ فيها، وليسار أهلها، فقد كان أهلها على شيء من الثروة، من هنا كانت موئلاً للفساد وبؤرة للمجون والفاحشة. لما أمر معاوية زياداً بالمصير إلى البصرة سنة خمس وأربعين، جاءها والفسق في البصرة ظاهر فاش، فخطبهم خطبته البتراء[3].

ويقول ابن الجوزي في سبب عزل ابن عامر عن البصرة: وكان سبب عزله أنّ ابن عامر كان ليّناً لا يأخذ على أيدي السفهاء ولا يعاقب ففسدت البصرة بذلك. وقدم ابن الكوّاء واسمه عبدالله بن أبي أوفى على معاوية فسأله عن الناس فقال: أمّا البصرة فقد غلب عليها سفهاءها وعاملها ضعيف، فعزله معاوية وبعث الحارث بن عبدالله الأزدي[4].

وكان الفساد من القوّة والإنتشار بحيث أوصله البلاذري إلى سبعمائة ماخور. قال: وكان بالبصرة حين قدمها زياد سبعمائة ماخور فهدمها وركب إلى ماخور كان في

---

(١) نور القبس المختصر من المقتبس، تأليف محمّد بن عمران المرزباني، اختصار يوسف اليغموري، تحقيق رودلف زلهايم، ط فرانتس شتايز، بتيسبادن، ص١٨٣.

(٢) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج٥ ص٢١٢.

(٣) الكامل في التاريخ، ج٣ ص٢٢٢.

(٤) المنتظم، ج٥ ص٢٠٩ و٢١٢، تاريخ ابن خلدون، ج٣ ص٧.

بني قيس بن ثعلبة فتولّى هدمه ...[1]

واستطاع معاوية بعد أن وطأ لسياسته بهذه المقدمات من إفساد الأُمّة وتذليلها وتبديل بناء أخلاقها ومسخ شخصيتها الإسلاميّة أن يضرب شرع محمّد ضربةً غيّرت أهمّ معالمه الأساسيّة حتّى بدى وكأنّه دين آخر غير الإسلام. يقول الكميت الأسدي:

وعطّلت الأحكام حتّى كأنّنا ... على ملّة غير الّتي نتنحّل

أأهل كتاب نحن فيه وأنتم ... على الحقّ نقضي بالكتاب ونعدل

كأنّ كتاب الله يعني بأمره ... وبالنهي فيه الكودني المركل

فتلك ملوك السوء قد طال ملكهم ... فحتام حتام العناء المطول

وما ضرب الأمثال في الجور قبلنا ... لأجور من حكامنا المتمثل[2]

ولما استخف بالأُمّة معاوية وهانت عليها قيمها وتنكّرت لمثلها العليا، وعاشت تحت ظلّ الإسلام الأموي وعزّ علينا أن ننعت ديننا الكريم بمثل هذا النعت المستهجن.

أقول: تمكّن بعد ذلك عامل من عمّال معاوية وهو المغيرة بن شعبة أن يغيّر أصلاً من أصول العبادة في الإسلام وهو الحجّ فيعرف يوم التروية وينحر يوم عرفة. قال الطبري: وحجّ في هذه السنة المغيرة بن شعبة، لما حضر الموسم - يعني في العام الذي قتل فيه علي عليه السلام - كتب المغيرة بن شعبة كتاباً افتعله على لسان معاوية فأقام للناس الحج سنة أربعين ويقال: إنّه عرف يوم التروية ونحر يوم عرفة خوفاً أن يفطن بمكانه وقد قيل إنّه إنّما فعل ذلك المغيرة لأنّه بلغه أنّ عتبة بن أبي سفيان مصبّحه والياً على الموسم فعجّل الحجّ من أجل ذلك[3].

وإنّما فعل ذلك اقتداءاً بوالي الأمر معاوية الذي صلّى بهم عند مسيرهم إلى صفّين الجمعة في يوم الأربعاء ...[4] والمغيرة وإن كان معتزلاً الحرب إلاّ أنّه يرصد

---

(١) البلاذري، أنساب الأشراف، ج٥ ص٢١١.

(٢) حياة الإمام الحسين للقرشي، ص١٤٨، نقلاً عن الهاشميّات، ص١١١.

(٣) تاريخ الطبري، ج٥ ص١٦٠.

(٤) المسعودي، مروج الذهب، ج٣ ص٣٢.

أحداثها ما في ذلك ريب. ولا جرم فإنّ أهل الشام قوم يروج فيهم ذلك.

وســـــكنت جلـــــق واقتـــــديت بهـــــم وإن كـــــانوا بقـــــر

بقـــــر يُـــــرى بـــــأميرهم طـــــيش الظلـــــــــــيم إذا تفـــــــــــر

روى المسعودي: إنّ رجلاً من أهل الكوفة دخل على بعير له إلى دمشق في حال منصرفهم عن صفّين، فتعلّق به رجل من دمشق فقال: هذه ناقتي أخذت منّي بصفّين، فارتفع أمرهما إلى معاوية، وأقام الدمشقي خمسين رجلاً بيّنة يشهدون أنّها ناقته، فقضى معاوية على الكوفي وأمره بتسليم البعير إليه. فقال الكوفي: أصلحك الله إنّه جمل وليس بناقة. فقال معاوية: هذا حكم قد مضى ودسّ إلى الكوفي بعد تفرّقهم فأحضره وسأله عن ثمن بعيره فدفع إليه ضعفه وبرّه وأحسن إليه وقال له: أبلغ عليّاً أنّي أُقاتله بمائة ألف ما فيهم من يفرق بين الناقة والجمل[1]. وحين تصل الرعية إلى حدالبله يفعل الراعي ما يشاء فيها وفي مثلها وأخلاقها.

عزل الكوفة

وكان من حسن حظ الكوفة أن بقيت بمعزل عن نهج معاوية وحزبه، لذلك سلمت لها أخلاقها وإن فرض عليها نهج أُموي من نوع آخر، وهو الإرهاب والجوع، إلاّ أنّ ذلك لم يفض بها إلى التميّع والتخنّث، فكانت ما تزال تحتفظ بروح الثورة جياشة فيها، كما احتفظت بعزيمة الجهاد وجلد المجاهدين، ولأجل هذه القوى المتدفقة في حياتها الثورية ميّزها الأمويون عن سائر البلاد بوضع خاص، فأرسلوا إليها عمّالاً أشدّاء، وفرضوا عليها أتاوة من نوع خاص، وهي ردع الحركات الثورية وصدّها، أو الحرمان من أبسط الحقوق، وقطع العطاء عنهم، ولم تستطع شدّة الولاة عليهم وعسف الحكام لهم أن تقف في وجه السيل المتدفق من القوى الثوريّة والعناصر المضادة للحكم.

يرجع فضل ذلك إلى الجذوة الملتهبة من روح النضال والعزم التي فجّرها فيهم أميرالمؤمنين، وكانت السبب الأكبر في حمايتهم من هيمنة أخلاق ولاة الأمور

---

(١) مروج الذهب، ج٣ ص٣١.

عليهم، فحافظوا على تماسك أخلاقهم بعد ما هبت رياح السياسات الهوجاء بأخلاق الأُمّة قاطبة كما مرّ سلفاً. لما جمعت العراق لزياد بعد موت المغيرة، فأتى الكوفة فصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثمّ قال:

إنّ هذا الأمر أتاني وأنا بالبصرة، فأردت أن أشخص إليكم في ألفين من شرطة البصرة ثمّ ذكرت أنّكم أهل حقّ وإنّ حقّكم طالما دفع الباطل، فأتيتكم في أهل بيتي، فالحمد لله الذي رفع منّي ما وضع الناس، وحفظ منّي ما ضيّعوا حتّى فرغ من الخطبة فحصب على المنبر فجلس حتّى أمسكوا، ثمّ دعا قوماً من خاصّته وأمرهم فأخذوا أبواب المسجد ثمّ قال: ليأخذ كلّ رجل منكم جليسه ولا يقولنّ لا أدري من جليسي؟ ثمّ أمر بكرسي فوضع له على باب المسجد فدعاهم أربعة أربعة يحلفون بالله ما منّا من حصبك، فمن حلف خلاّه ومن لم يحلف حبسه وعزله، حتّى صار إلى ثلاثين ويقال: بل كانوا ثمانين فقطّع أيديهم ...[1]

ودلالة هذه المواقف على تماسك الأخلاق لا تكاد تخفى، فإنّ الكوفي آثر قطع اليد على أن يحلف بالله كاذباً وهذه ظاهرة فريدة في نوعها لم نعثر عليها إلاّ في الكوفة بلد الثورة والثائرين، من هنا نجد الكوفة من دون سائر البلاد احتضنت زعماء الثورة بدءاً بأميرالمؤمنين وتسلسلت مع أولاده الطاهرين، وضحّت في سبيل ذلك بأفلاذ أكبادها وما كان يقوم مع الثائرين من أهل البيت غير الكوفة. ويعود سبب الإخفاق في ثوارتهم لا إلى الكوفة وحدها، ولكن السبب الأكبر أنّها تكون دائماً ثورة على دولة متحدة الأجزاء متناسقة الأقاليم قائمة على أحسن حال، لها جيش ضارب وعسكر مجر، وقوّة تفوق طاقة الثوار أضعافاً مضاعفة من هنا تطفو الثورة بعض حين في هذا البحر الخضم، ثمّ تغوص في أعماقه لتعود من جديد منقضة على الدولة حتّى تمكّنت في الآونة الأخيرة أن تعصف بالدولة على يد الثوّار من توّابين وطالبين بثأر الحسين بزعامة المختار، ورمت بالدولة السفيانيّة بعيداً عن أرض العار وأراحت الأُمّة من ويلاتها.

وحيث أنّ التجاوب معدوم بين أجزاء الدولة الإسلاميّة لما عليه وضع

---

(١) الطبري، ج٥ ص٢٣٥.

الخلافة من قبل، فقد كان موزعاً بين أهل الإختيار وأهل النص واولئك الأكثرية الغالبة واولاء هم الأقلية المغلوبة، من ثمّ استطاعت جهة أُخرى نظير الجهة المطوح بها أن تستولي على الحكم وتأخذ بأزمّته وتمسك بيد من حدّ يد مقاليده، وتعود الأمور في الحكم سيرتها الأُولى وتدور في حلقة مفرغة، وتبقى العناصر الثورية في الكوفة حيث هي تبشر بفجر جديد وتنتظر اليوم الموعود.

كلّ هذا والأسباب ليست منحصرة في غدر الكوفة أو عدم وفائها كما زعموا وقال مثلهم: الكوفي لا يوفي، فالكوفة إن حقّقت هي البلد الثوري الوحيد في البلدان الإسلاميّة الذي ما فتىء بعصف بين الفينة والفينة على شكل ثورة عارمة بالظلم والظالمين، والكوفة هو البلد الوحيد الذي نجى من الوباء الأخلاقي الذي هبّ على البلاد الإسلاميّة بفعل سياسة الحاكم المفرضة، وسلم من الموجة الخبيثة التي غمرت بلاد المسلمين كلّها، من ثمّ نجده دون غيره يعمد إلى احتضان الثورة الحسينيّة التي عرفها من قبل حينما كان الحسين عليه السلام حالاً بين ظهراني أهله، وابتدأ يعمل على استقدام الحسين لتسليم مقاليد الثورة إليه، ولعلّ غرض بعض العناصر الثائرة كان هو التغيير في السياسة والحكم فحسب لعدم اطّلاعه على جوهر الحركة الحسينيّة، فما كلّ ثائر معه ألم بهدفه أو عرف السبب الذي أخرجه من المدينة إلى مكة ومنها إلى العراق.

وبقي هدف الحسين الأكبر مقصوراً على ثلة من علماء الثورة وخاصّتها الذين انتجبهم الله بها كما ينتجب لرسالاته خيرة خلقه وهم خيرة الخلق عليهم السلام الذين رابطوا مع الحسين وحبسوا أنفسهم معه حتّى فازوا فوزاً تمنّى الإمام المعصوم وهو الصادق عليه السلام أن يكون معهم فيفوز بفوزهم، وفدى لهم أباه الباقر وأُمّه: بأبي أنتم وأُمّي طبتم وطابت الأرض التي فيها دفنتم وفزتم والله فوزاً عظيماً فياليتني كنت معكم فأفوز معكم.

وصار طلب الفوز معه وتمنّيه شعاراً لشيعة أهل البيت كما تطلب الجنّة وتشتهى.

الحسين عليه السلام وثورة التغيير: الحكم أو الخلق؟

قلنا في مطلع حديثنا أنّ النظرة السطحيّة لأحداث الثورة الحسينيّة أدّت إلى مقولة خاطئة درج عليها الناس واعتبروها صحيحة جوهريّة وهي أنّ ثورة الحسين عليه السلام كانت من أجل تغيير نظام الحكم واستبدال الحكم العلوي بالحكم الأموي، وكان من حقّه أن يفعل ذلك لأنّ مطالبة ذي الحقّ بحقّه امرٌ ثغرة شرايع السماء وقوانين الأرض وأحكام العقل ... ناهيك بشريعة الإسلام، ولكن نواجه من خلال هذا التفسير بإشكال قوي لا يمكن دفعه ولو أنفقنا الكلام كلّه وصببنا الحجّة بقوالب مختلفة، وذلك الأشكال هو: خبرونا عن هذا الهدف هل تحقق للحسين أو لمن بعده؟! وإذا لم يكن قد تحقق فهل تعتبر ثورة الحسين ناجحة؟!

من الطبيعي أنّ من ينهض لغاية ما وينشد هدفاً من الأهداف لابدّ وأن يضع نصب عينيه ولادة هذا الهدف في عرصة الوجود أمّا في زمانه كما حدث لأبي مسلم الخراساني وللعباسية أو بعد زمنه بمدة قليلة كما حدث للبويهيين وغيرهم، فهل تحقق شيء من هذا للإمام الحسين عليه السلام؟ يأتينا الجواب: إنّ الإمام استشهد وما زال النظام قائماً على أشدّه وجائت بعده أنظمة إن لم تزد عليه فهي غير قاصرة عنه سوءاً وفساداً وظلماً فأين النجاح في هذا، ليت شعري؟!

فماذا يقول أنصار هذا الرأي؟! سوف يجيبونك بأنّ الحسين عليه السلام لم يقتصر الهدف من ثورته على تغيير النظام الأموي بل ضمّ إلى هذا الهدف أهدافاً أخرى من إيقاظ الأُمّة وحملها على الثورة وأمرها بالمعروف ونهيها عن منكرها ومنكر الحكام ... وهكذا ونقول لهم: أجل، اتفقنا، اعزلوا البند الأوّل من هذا القول وهو نظام الحكم، فيتّحد قولانا، فما قلتموه ما عدا البند الأوّل هو تغيير نظام الأخلاق نفسه الذي آمنّا به وذهبنا إليه.

بدء الحسين عليه السلام نهضته المباركة وسط حشد من المعارضين، وكلّ من لاقاه عبّر له عمّا ينتظره من مصير محتوم، لأنّه ثائر على دولة فتية قويّة، توجّه جيوشها الفاتحة في طول الأرض وعرضها، فتفتح لها الأمصار وتقضي على الملوك وتأتيها بالغنائم، فماذا يصنع بلد واحد موزّع الآراء مقسم الأعضاء، ذاق الأمرين من الحرب

الضروس وعاناها سنين حتّى ملّ من معاناتها، وما زال يقاسي شظف العيش، وعسف الحاكم، فأنّى يقوم بلد مثل هذا بوجه دولة فاتحة قويّة، إنّ مصير من يستعين ببلد مثل هذا هو القتل لا ريب في ذلك، وكان الإمام الحسين عليه السلام يعلم هذا، ويدرك ماذا ينتظره في مستقبل أيّامه ولكنّه واصل السير النضالي ولم يجد مشجعاً واحداً لا من أهل بيته ولا من غيرهم، إنّ هذا الإصرار يدلّنا على أنّ الحسين عازم على الموت وقادم على الشهادة ولكن لماذا؟!

يقول له حبر الأُمّة وابن عمّه عبدالله بن عباس: جعلت فداك، إنّه قد شاع الخبر في الناس وأُرجفوا بأنّك سائر إلى العراق فبيّن لي ما أنت عليه؟ فقال: نعم قد عزمت على ذلك في أيّامي هذه إن شاء الله ولا حول ولا قوّة إلاّ بالله العليّ العظيم. فقال ابن عباس: أُعيذك بالله من ذلك فإنّك إن سرت إلى قوم قتلوا أميرهم وضبطوا بلادهم واتّقوا عدوهم ففي سيرك لعمري الرشاد والسداد وإن سرت إلى قوم دعوك إليهم وأميرهم قاهر لهم وعمّالهم يجبون بلادهم فإنّما دعوك إلى الحرب والقتال وأنت تعلم أنّه بلد قد قتل فيه أبوك واغتيل فيه أخوك وقتل فيه ابن عمّك وقد بايعه أهله وعبيدالله في البلد يفرض ويعطي والناس اليوم عبيد الدينار والدرهم فلا آمن عليك أن تقتل فاتق الله والزم هذا الحرم فإن كنت على حال لابدّ أن تشخص فصر إلى اليمن فإنّ بها حصوناً لك وشيعة لأبيك فتكون منقطعاً عن الناس.

فقال الحسين عليه السلام: لابدّ من العراق. قال: فإن عصيتني فلا تخرج أهلك ونساءك فيقال: إنّ دم عثمان عندك وعند أبيك، فوالله ما آمن أن تقتل ونساءك ينظرن كما قتل عثمان. فقال الحسين عليه السلام: والله يابن عمّ لئن أُقتل بالعراق أحبّ إليّ من أن أُقتل بمكة، وما قضى الله فهو كائن ومع ذلك استخير الله وأنظر ما يكون[1].

ما ترك ابن عباس شيئاً لم يقله، وكان عالماً بأنّ الحسين في خروجه على الكيفيّة المعلومة مشرف على القتل، ولكن الذي خفي على ابن عباس هو علم الحسين عليه السلام بذلك، فلم يزوده جديداً من العلم ولا كشف له عن شيء محجوب عليه، وأخيراً لم يدرك الغاية من نهضته أو أدركها على خلاف حقيقتها حيث تصوّره

---

(١) مقتل الخوارزمي، ج١ ص٢١٦.

قائماً لتغيير الحكومة وتبديلها من أمويّة إلى علويّة، وهذا هو الخطأ الذي وقع فيه جلّ من عارض الإمام عليه السلام وهؤلاء أصحاب الأمير، لما خرج اعترضوه فجالدهم بالسياط ولم يزد على ذلك فتركوه وصاحوا على أثره: ألا تتّقي الله تعالى تخرج من الجماعة وتفرّق بين هذه الأُمّة؟ فقال الحسين عليه السلام: لي عملي ولكم عملكم ...[1]

وهذه الجملة الحسينيّة توضح أنّ الحسين يعلم أين يضع قدمه، فما هو قادم على مجهول. ولما صار بذات عرق لقيه رجل من بني أسد يقال له بشر بن غالب فقال له الحسين عليه السلام: ممّن الرجل؟ قال: من بني أسد. قال: فمن أين أقبلت؟ قال: من العراق. قال: فكيف خلّفت أهل العراق؟ فقال: يابن رسول الله، خلّفت القلوب معك والسيوف مع بني أُميّة. فقال له الحسين: صدقت يا أخا بني أسد، إنّ الله تبارك وتعالى يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد. فقال له الأسدي: يابن رسول الله، أخبرني عن قول الله تعالى: ﴿يوم ندعو كلّ أُناس بإمامهم﴾؟ فقال له الحسين عليه السلام: نعم يا أخا بني أسد، هما إمامان إمام هدى دعا إلى هدى وإمام ضلالة دعا إلى ضلالة، فهذا ومن أجابه إلى الهدى في الجنّة، وهذا ومن أجابه إلى الضلالة في النار[2].

وهنا ندرك قطعاً أنّ الإمام الحسين عليه السلام لم تخف عليه حقيقة الحال، ولذلك صدّقه لعلمه مسبقاً بما يقتضيه موقف كلّ من الداعي والمدعو ومرّة أُخرى يلقى الفرزدق فيجيبه بما أجابه به الأسدي. قال الفرزدق بن غالب: خرجنا حجاجاً فلمّا كنّا بالصفاح إذا نحن بركب عليه اليلامق ومعهم الدرق، فلمّا دنوت منهم إذا أنا بالحسين بن علي عليه السلام. فقلت: أبو عبدالله وسلّمت عليه، فقال: ويحك يا فرزدق ما وراءك؟ فقلت: خير، أنت أحبّ الناس إلى الناس والقضاء في السماء والسيوف مع بني أُميّة ...[3]

ولم يظهر من الإمام عليه السلام إلاّ الإصرار على التقدم شطر العراق ممّا يدلّ على أنّ الهدف في الموت نفسه في حركة الجهاد التي سوف يقيمها على مساحة من الأرض جدّ قليلة في صحراء نائية عن العمران بعيدة عن حركة الناس، هي صحراء كربلاء

---

(١) الخوارزمي، مقتل الحسين عليه السلام، ج١ ص٢٢٠.

(٢) مقتل الخوارزمي، ج١ ص٢٢١.

(٣) مقتل الخوارزمي، ج١ ص٢٢٢.

ستكون بمنزلة الكتاب الذي يقلِب حياة الأُمم من حالة إلى حالة. وكتب الإمام الحسين عليه السلام كتاب الجهاد والشهادة على أرض كربلاء واحتوى على فصول وأبواب، كلّ فصل منه وكلّ باب كذلك عالم مضيءٌ من الأخلاق وقيم الشهادة النبيلة ... وتدفّقت معاني هذا الكتاب خطباً على ألسن الخطباء وأدباً على ألسن الشعراء ودمعاً من عيون أهل الولاء وفي كلّ موجة من هذا العالم الزاخر بالمعاني حركة دفع للأُمّة نحو الأفضل.

علم الإمام بشهادته

لعلّ من البداهة بمكان أن يكون القائم لتغيير نظام الحكم على علم بسلامته من الأحداث المستجدّة ليتسنى له القيام بأعباء الحكم الجديد، أو على جهل بموته قبل قيام الحكم على أقلّ تقدير، أمّا إذا كان عالماً بما يجري عليه مقدماً ملماً بالنتيجة بادىء ذي بدء قبل أن تقع، موقناً من قتله قبل قيام دولته، فهنا لابدّ من أن يكون يخفي حقيقة أُخرى من جهاده غير حقيقة الحكم، أو يكون له هدف آخر من هذه النهضة.

والإمام الحسين عليه السلام على علم أكيد بشهادته قبل أن يخلق الله يزيد بن معاوية، بما أخبره به جدّه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن الله. عن عبدالله بن وهب بن زمعة قال: أخبرتني أُمّ سلمة أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم اضطجع ذات يوم للنوم فاستيقظ وهو حائر ثمّ اضطجع فرقد ثمّ استيقظ وهو حائر دون ما رأيت منه في المرّة الأُولى ثمّ اضطجع واستيقظ وفي يده تربة حمراء يقبّلها فقلت: ما هذه التربة يا رسول الله؟ قال: أخبرني جبرئيل عليه السلام: إنّ هذا يقتل بأرض العراق للحسين. فقلت: يا جبرئيل أرني تربة الأرض التي يقتل بها فهذه تربتها[1].

وعن عروة بن الزبير عن عائشة قالت: دخل الحسين بن علي رضي الله عنه على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهو يوحى إليه، فنزى على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهو منكب ولعب على ظهره، فقال جبرئيل لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: أتحبّه يا محمّد؟ قال: يا جبرئيل ومالي لا

---

(١) البيهقي، دلائل النبوة، ج٦ ص٤٦٨، ونقله ابن كثير في البداية، ج٦ ص٢٣٠.

أحبّ ابني؟ قال: فإنّ أُمّتك ستقتله من بعدك فمدّ جبرئيل عليه السلام يده فأتاه بتربة بيضاء فقال: في هذه يقتل ابنك هذا يا محمّد واسمها الطف، فلمّا ذهب جبرئيل عليه السلام من عند رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وخرج رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والتربة في يده يبكي فقال: يا عائشة: إنّ جبرئيل عليه السلام أخبرني أنّ الحسين ابني مقتول في أرض الطف، وإنّ امّتي ستفتن بعدي، ثمّ خرج إلى أصحابه فيهم أبوبكر وعمر وحذيفة وعمّار وأبوذر رضي الله عنهم وهو يبكي، فقالوا: ما يبكيك يا رسول الله؟ فقال: أخبرني جبرئيل أنّ ابني الحسين يقتل بعدي بأرض الطف، وجاءني بهذه التربة وأخبرني أنّ فيها مضجعه[1].

عن أُمّ سلمة قالت: كان الحسن والحسين رضي الله عنهما يلعبان بين يدي النبي صلى الله عليه وآله وسلم وفي بيتي، فنزل جبرئيل عليه السلام فقال: يا محمّد إنّ أُمّتك تقتل ابنك هذا من بعدك فأومأ بيده إلى الحسين، فبكى رسول الله وضمّه إلى صدره ثمّ قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: وديعة عندك هذه التربة فشمّها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وقال: ويح كرب وبلاء. قالت: وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: يا أُمّ سلمة إذا تحوّلت هذه التربة دماً فاعلمي أنّ ابني قد قتل. قال: فجعلتها أُمّ سلمة في قارورة ثمّ جعلت تنظر إليها كلّ يوم وتقول: إنّ يوماً تحولين دماً ليوم عظيم[2].

فهذه الروايات وعشرات مثلها تدلّ على أنّ الهدف من ثورة الحسين هي شهادته بالكيفيّة التي استشهد عليها، كما أنّ كلّ مفردة من وقايع كربلاء مطلوبة لدين الله وضرورة من ضرورات وجوده في مستقبل الزمان، أضف إلى ذلك لو كان قتال الحسين عليه السلام في كربلاء على خلاف الدين وفي غير نهجه لسارع جبرئيل إلى إخبار النبي بذلك ولو فعل لنقل.

وكان الحسين عليه السلام يعلم ذلك كلّه استمع إليه وهو يخاطب الناس قبل خروجه من مكة: الحمد لله وما شاء الله ولا حول ولا قوّة إلاّ بالله وصلّى الله على رسوله، خطّ الموت على ولد آدم مخطّ القلادة على جيد الفتاة، وما أولهني إلى أسلافي اشتياق يعقوب إلى يوسف، وخيّر لي مصرع أنا لاقيه، كأنّي بأوصالي تقطّعلها عسلان

---

(١) الطبراني، المعجم الكبير، ج٣ ص١٠٧.

(٢) الطبراني، المعجم الكبير، ج٣ ص١٠٨.

الفلوات بين النواويس وكربلا، فيملأن منّي أكراشاً جوفا وأجربة سغبا لا محيص عن يوم خطّ بالقلم، رضا الله رضانا أهل البيت، نصبر على بلائه ويوفّينا أجور الصابرين، لن تشذّ عن رسول الله لحمته بل هي مجموعة له في حضيرة القدس، تقرّ بهم عينه وينجز بهم وعده، ألا ومن كان فينا باذلاً مهجته موطناً على لقاء الله نفسه فليرحل معنا فإنّي راحل مصبحاً إن شاء الله[1].

فهل نجد في منطق سيدالشهداء عليه السلام هنا حديثاً عن تغيير النظام أو تبديل الدولة، أو تجد حديثاً عن الشهادة والموت وتقطيع الأوصال واستضافة الوحوش بها بين النواويس وكربلاء وهذا منطق من يريد إقامة دولة الخلق لا دولة الحكم، فما الفرق بينهما؟

الخاتمة: نظام الأخلاق والحكم في منطق الثورة

لنفترض جدلاً أنّ الحسين عليه السلام تمكّن من إقامة دولته التي ثار من أجلها كما زعم الزاعمون، فإنّها حينئذ لا تكون أسعد حظّاً من دولة أبيه فسوف يكثر المعارضون من إشاعته وزبابره وطلائح وعوائش، وسوف يخرج عليه الخوارج أيضاً ويضطرّ حينئذ أن يخوض غمار حروب كثيرة حتّى تستقيم قناة الأُمّة أو لا تستقيم أصلاً وما هي إلاّ أيّام قلائل حتّى يلاقي مصير أبيه شهادة في محراب أو موتاً على الفراش ويتسلّمها خلفه وتدور معه في حلقة مفرغة من الحروب والجدال والجلاد وهكذا دواليك. لهذا كان هدف إقامة دولة ليس منظوراً لثورته وهو بالنسبة إليها هامش ثانوي.

والهدف الحقيقي لثورة الحسين عليه السلام هو إقامة دولة الأخلاق في الجماعات الإسلاميّة، الأخلاق التي كانت قبل الإسلام بين الإفراط والتفريط فأقام لها النبي الصيغة الصحيحة وجعلها وسطاً كما هي حال الفضائل في عرف الفلاسفة، وبني الأُمّة الإسلاميّة على أساسها ورفع ضراح حضارتها انطلاقاً من هذه القواعد الأخلاقيّة ولكنّ الأُمّة جهلت هذا كلّه، حين آثرت جماعة منها الذين لم ينق الإسلام

---

(١) عبدالرزاق المقرم، مقتل الحسين، ص١٩٣ نقلاً عن اللهوف ص٣٣، وابن نما، ص٢٠.

ذواتهم من جاهليّاتهم القديمة، فقدّمتهم على القادة الحقيقيين فأساءوا السيرة وخالفوا الشرع وتنكروا للمثل وردّوا الكثير من قيم الأدب الإسلامي واتّبعتهم الأُمّة اتّباع الفصيل إثر أُمّه تقليداً للحاكم واقتفاء لأثره، وحينئذ استحالت الشخصية الإسلاميّة إلى كائن غريب وحشي على الإسلام هو أدنى إلى البهائم الراتعة منه إلى الإنسان السوي.

فقد أرادو الإسلام أن يسموا بهذا الكائن إلى مصاف الملائكة فصيرته سياسة حكامه إلى حضيض البهائم والعجماوات. وجاء الحسين بثورته الخالدة فاستردّ الخلق المصادر وليس الأرض، وأنقذ الأدب وليس الحكم، وانتشل من مستنقع السياسات الضالّه شخصيّة المسلم ووضعه على الجادة الوسطى وشحنه بالفضائل الجهادية فطارت به قواه وحلقت به ملكاته الفاضلة إلى مصاف الملائكة ثانية، وذلك بأخلاقيات ثورته وتضحية أنصاره وجهاد أعوانه وصارت كربلاء ثورةً هي في الحقيقة قانون جهادي أخلاقي يستطيع من يحسن استعماله أن يغيّر به نظام العالم ويحرّر به أمماً وينقذ شعوباً.

والفرق بين نظام الدولة ونظام الأخلاق أنّ الأُولى تفضي إلى تجميد قانون الجهاد بما يحيط بها من مشاكلها والثانية تبقي هذا القانون حيوياً فاعلاً في الأُمّة متحرّكاً في ضميرها يهتزّ بالحياة والنشاط كلّما واتته ظروف الثورة على الواقع المرهق، فهل حصل المرجو من ثورة الحسين عليه السلام وهل نالت الأُمّة، هذا الدفق المتفجّر في ذاتها من قانون الجهاد الحسيني؟

أجل، لقد وعت الأُمّة ذاتها بعد ثورة الحسين وميّزت بين عدوّها وصديقها وثارت على واقعها المفتعل بأيدي حكّامها وسياسيها عدّة ثورات، ولا زال قانون الجهاد الحسيني يشدّها إلى الثورات وسيبقى كذلك إلى أن تطهر الأرض من رجس العدى.

لا تطهر الأرض من رجس العدى أبداً ... ما لم يسل فوقها سيل الدم العرم
رأى الدين مغموز القناة حطيمها ... وراحته شلّى ومقلته عميا
وما من دواء منجع غير نفسه ... فجاد بها برّاً وضحّى بها هديا

والحمد لله ربّ العالمين.

مسك الختام

يسعدنا أن نختم كتابنا برائعة العالم الخطيب والفاضل الأديب حجة الإسلام الشيخ حسين الطرفي فقد تفضّل علينا بعد الإطلاع على بعض فصول الكتاب بهذه الرائعة نثبتها له شاكرين ليكون (خِتَامُهُ مِسْكٌ وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ).

لله درّك باحثـــــــاً ومحققـــــــا ... سـبق الـذي قـد ظـن أن لـن يسـبقا
مـا فـات معـنىً حـام فكـرك حولـه ... إن غـــاص بُغيـــة نيلـــه أو حلقـــا
بوركـت مـن مسـتجمع للفضـل مـا ... فخـــرت بـــه أربابـــه متفرقـــا
فالشـــعر أنـــت عميـــده وعمـــاده ... زينـــت عاطلـــه فعـــاد مطوقـــا
والنثـــر آثـــر لا يفـــارق خدنـــه ... إن يلقـــه ولقـــد رأى بـــك ملتقـــى
فبلغـــت في هـــذا وذاك ذرى العلـــى ... ولـديك أمسـى الصـعب سـهل المرتقـى
أوتيـــت ذهنـــاً ثاقبـــاً وقريحـــة ... وقـــادة وحبـــاك ربـــك منطقـــا
فـــبرزت ذا أدب رفيـــع تنتقـــي ... المعـــنى فتفهمـــه بلفـــظ منتقـــى
فـإذا احتججـت ظهـرت أبلـغ حجـة ... ممّـــن يبـــالغ في الخصـــام وأحـــذقا
كـــم مـــن عليـــل في الأدلـــة سمتـــه ... حججـاً شـفته بمـا يجـل عـن الرقـى
صـــور مـــن التـــاريخ ربـــدٌ لا تُـــري ... وجـــه الحقيقـــة للســـعادة للشـــقا
فـــترى ابـــن هنـــد مؤمنـــاً متنســـكاً ... والـــذنب عنـــد يزيـــد ممّـــا يتقـــى
ويـــرى عبيـــدالله عبـــداً طائعـــاً ... لا فاســـقاً يـــدعى ولا متزنـــدقا
ويُـــرى الحســـين عليـــه صـــلّى ربّنـــا ... شـــقّ العصـــى في المســـلمين وفرّقـــا
وبسـيف جـدّ السـبط قتـل السـبط ... مـــا مـــنهم أســـاء وأوبقـــا
ويلـــي علـــى التـــاريخ لُبِّـــد جَـــوّهُ ... فتنـــاً فـــأعتم أمـــره واســـتفلقا
حـــتى إذا مـــدّت إليـــه يـــدُ القضـــا ... بـــالنور شـــعّ بهـــا الشـــعاع وأشـــرقا
فبـــدا بهـــا وجـــه الحقيقـــة ســـاطعاً ... وجلتـــه ريشـــة عـــيلم فتألقـــا
وبـــدى الحســـين مؤيّـــداً مـــن ربّـــه ... ومظفّـــراً فيمـــا أتـــاه موفقـــا
هبّـــت بـــه للـــدين غـــيرة ثـــائر ... قـد كـان أجـدر مـن يغـار وأخلقـا

وتمخّضـــت مأســـاته عـــن أنّـــه لمـــا أراد المـــوت حـــقّ لـــه البقـــا

وضـــمان هـــذا الأمـــر في ذا الســـفر ينفـــي الشـــك أن يتطرقـــا

حسين الطرفي

ولا أملك إزاء هذا الشعور الفياض إلاّ أن أكبر صاحبه وأجله وأبتهل إلى الله أن يمد في عمره ويبقيه ذخراً للعلم وأهله.

ولقد وقع في بيتين من القصيدة إختلاف في الوزن وهما البيت الخامس عشر والأخير إذ عسر عليّ إقامة وزنهما لوجود كلمتين مطموستين فيهما، وكان شيخنا الجليل قد سافر على جناح الطائر الميمون إلى الكويت ردّه الله سالماً إلى الأهل والوطن، ولم يكن الإتصال به سهلاً، فأرجو أن يكون ذلك في علم القارىء الكريم.

الفهرس

المقدمة ٣

الامام الحسين عليه السلام وقلب نظام الأخلاق ١٠

الحقيقة ورأي الناس ١٢

كتاب يزيد إلى ابن عباس..... ١٣

جواب بن عباس له ١٣

قلب نظام الحكم ٢٢

قلب نظام الأخلاق..... ٢٣

نظرة على الوضع الخلقي العام..... ٢٤

النموذج الأول: ٢٥

النموذج الثاني: ٢٥

صعصعة بن ناجية ٢٦

قيس بن عاصم..... ٢٨

الاسلام وخطّته في تهذيب الأخلاق..... ٣٥

الفضائل ٤٤

الرذائل..... ٥٢

الانقلاب على الأعقاب ٥٨

رزية يوم الخميس!!..... ٥٩

الاعتذار عن عمر..... ٦٣

اعتذار الخطابي ٦٨

وقفة قصيرة مع الحافظ بن حجر!!..... ٧٢

ماذا أراد النبي أن يكتب! ٧٦

خاتمة المطاف..... ٧٨

الحكم الأموي ٨١

الحكم الاموي معاوية ويزيد وتدهور الأخلاق على أيديهما ٨٣

عمر ومعاوية ٨٩
طعام عمر ١٠٢
شرب معاوية الخمر في عهد عمر ١٠٥
طعام معاوية ١٠٨
دعاء النبي ﷺ عليه ١٠٩
اكل الكافر ١١٣
صفة طعامه ١١٤
جيش معاوية ١١٩
تهديد الناس بمعاوية وجيشه ١٢٠
لماذا اختار عمر معاوية؟! ١٢٢
الشجرة الملعونة ١٢٦
الرؤيا والشجرة الملعونة عند الشيعة ١٢٦
الرأي الآخر ١٢٩
معاوية وعدوانه على منبر رسول الله ١٣٦
ولاية معاوية على الشام ١٣٨
عمير بن سعد ١٤٠
عمر والعمال ..!! ١٤٤
كتبه .. إلى معاوية ١٥١
محاسبة العمال ١٥٣
معاوية في الحكم.. ..... ١٦١
سماة حكم معاوية العامة ١٦٤
١ - المكايده ١٦٤
مكايدة ابن عمر ١٦٥
مكايدة ابن عباس ١٦٦
مكايدة ابن العاص ١٦٧
مكايدته مروان بن الحكم.. ..... ١٦٩

مكايدة الزبير ١٧١
مكايدة أهل الشام ١٧١
مكايدة شرجيل بن السمط الكندي ١٧٢
مكايدة قتل عمار ١٧٢
مكايدة عبيدالله بن عمر قاتل الهرمزان ١٧٤
مكايدة الجوهره ١٧٦
مكايدة رفع المصاحف ١٧٦
مكايدة أهل مكة في بيعة يزيد..... ١٧٧
وكاد ربه في يزيد أيضاً ١٨٠
السمة الثانية الغدر ١٨٠
غدره بمروان ١٨٣
غدره بعاشق ١٨٤
السمة الثالثة اغتيال الأشراف ومن يخشاهم على ملكه من الناس!!..... ١٨٦
إغتيال الأشتر رضي الله عنه بالسم..... ١٨٨
خبر شهادته رحمه الله..... ١٨٩
اغتيال عبدالرحمن بن خالد بن الوليد ١٩٠
اغتيال معاوية ١٩٢
اغتيال سعد بن ابي وقّاص ١٩٣
السمة الرابعة لعن الأبرار والبرائة منهم وحمل الناس بالقهر على ذلك: ١٩٤
بمن اقتدى معاوية.. ..... ١٩٩
السمة الخامسة حمل الناس على الكذب وبذل المال على ذلك..... ٢٠٣
حديث سدّ الأبواب..... ٢٠٥
اثبات ابن حجر للحديث ٢٠٧
مناقشة لابد منها ولا محيص عنها..... ٢٠٩
السمة السادسة تخويف الناس وتطميعهم ٢١٥

السمة السابعة: اختيار الجناة والقساة والطغاة والفسّاق لتوليتهم على الأُمّة. ٢١٨
فخوّضوا في الدماء وأظهروا فيها الفساد..... ٢١٨
بسر بن أرطاة لعنه الله..... ٢٢٦
السمة الثامنة: المتاجرة بعرضه ٢٢٨
السمة التاسعة: أفقار الناس بنهب أموالهم وحيازة أراضيهم واستصفاء الذهب ٢٣٩
مصادرة الأرض والاستيلاء عليها وشراء الدور بالثمن البخس من أهلها ونهب الثروات
..... ٢٤٨
خراج الأرض يصب في خزائن بن هند ٢٤٩
سلب الأرض من أهلها بالمصادرة والإحتيال ٢٥٣
السمة العاشرة: إذلال الناس والإستهانة بهم..... ٢٦٦
السمة الحادية عشرة: تأصيل العقد بين الناس ٢٧٢
السمة الثانية عشرة: التأثير على العامة وأوشاب الناس ٢٨١
للعاهر الحجر..... ٢٨٥
صفات ابن هند الممدوحة وحقيقتها..... ٢٩٤
يزيد بن معاوية حقيقته وحكمه..... ٣٠٨
رأي زياد فيه..... ٣١٦
رأي مروان فيه ٣١٧
رأي ابن عمر في يزيد..... ٣٢١
رأي أهل الشام في يزيد..... ٣٢٢
معارضة ابن الزبير تروضها الفلوس ٣٢٢
رأي المغيرة في يزيد ٣٢٣
رأي عتبة بن مسعود في يزيد ٣٢٤
قول عبدالله بن جعفر في يزيد وأبيه ٣٢٦
رأي عبدالملك في يزيد ٣٢٦
يزيد الحكم والأثر..... ٣٤٣
الأثر الذي تركه حكم معاوية ويزيد على الأُمّة..... ٣٥٠

سياسة الفساد واللهو والمجون ٣٥٥
عزل الكوفة ٣٦١
الحسين عليه السلام وثورة التغيير: الحكم أو الخلق؟..... ٣٦٤
علم الإمام بشهادته..... ٣٦٧
الخاتمة: نظام الأخلاق والحكم في منطق الثورة ٣٦٩
مسك الختام..... ٣٧١